موسوعة
روائع الكتب الإسلامية
الجزء الثالث

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية

عمارة، محمد
موسوعة روائع الكتب الإسلامية
روابط للنشر وتقنية المعلومات
17 × 24 سم
تدمك: 9789776543782
رقم الإيداع: 21016/2018
1 ـ الكتب ـ موسوعات
أ ـ العنوان

دار النشـــر: روابط للنشر وتقنية المعلومات
عنوان الكتاب: موسوعة روائع الكتب الإسلامية
الـكـاتـب: محمد عمارة
رقم الطبعة: الأولى
تاريخ الطبع: 2019

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

ويحذر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

روابط للنشر وتقنية المعلومات
19 **حسن أفلاطون ـ بجوار مستشفى عبد القادر فهمى**
أرض الجولف ـ مصر الجديدة
تليفون: 20224178673
info@rawabtonline.com
www.rawabtonline.com

موسوعة
روائع الكتب الإسلامية

دكتور
محمد عمارة

الجزء الثالث

روابط rawabt
للنشر وتقنية المعلومات
For Publishing & Information Technology

المحتويات

شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠٤١

أئمة الصحوة المعاصِرة وابن تيمية ١٠٥١

ابن تيمية إمام دعوات الاستنارة فى عصرنا الحديث ١٠٥٧

السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ١٠٦١

الحسبة ومسئولية الأمة والدولة فى الإسلام ١٠٧٥

رفع الملام عن الأئمة الأعلام لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٠٩١

أربع شهادات.. فى رَدّ الافتراءات ١٠٩٩

الدكتور صوفى أبو طالب ١١٠٣

بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى ١١٠٥

تقنين الشريعة الإسلامية بمجلس الشعب ١١٢٣

الشيخ عبد المتعال الصعيدى ١١٣١

لماذا أنا مسلم؟ ١١٣٥

الشيخ محمد متولى الشعراوى ١١٤٧

الإيمان بوجود الله ضرورة لغوية وعقلية ١١٥٥

ردًّا على الملاحدة والعلمانيين لإمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى ١١٦٥

حوار الإيمان والإلحاد ١١٩١

الدكتور مصطفى محمود بطاقة حياة ـ دكتور مصطفى محمود ١٢١١

حوار مع صديقى الملحد للدكتور مصطفى محمود ١٢٢١
فى الرد على الماديين للعلامة محمد فريد وجدى ١٢٣١
وهْم الإلحاد ١٢٤١
أ. أورخان محمد على ١٢٥٣
مناقضة علم الفيزياء لفرضية التطور لأورخان محمد على ١٢٥٧
الدكتور عبد الرحمن بدوى بطاقة حياة الدكتور عبد الرحمن بدوى ١٢٧١
دفاع عن القرآن ضد منتقديه للدكتور عبد الرحمن بدوى ١٢٩٣
دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره للدكتور عبد الرحمن بدوى ١٣٠٣
الدكتور طه حسين بطاقة حياة الدكتور طه حسين ١٣٣١
مرآة الإسلام للدكتور طه حسين ١٣٤١
الأدلة المادية على وجود الله ١٣٥٣
السنة والشيعة الانقسام الأكبر فى تاريخ الإسلام ١٣٦٥
قضايا الخلاف ١٣٩١
منهاج النظر فى الخلافات ١٣٩٧
الإمامة عند أهل السنة ١٣٩٩
الإمامة عند الشيعة الإمامية ١٤٠٥
ظاهرة الغلو الحديثة ١٤٢٥
الموقف الشيعى من صحابة رسول الله ﷺ ١٤٣٣
ملاحظات شيخ الإسلام موسى جار الله ١٤٥٥
الوشيعة فى نقض عقائد الشيعة ١٤٦٧

الوشيعة فى نقض عقائد الشيعة ١٤٦٧
الشيخ محب الدين الخطيب ١٤٧١
الخطوط العريضة لدين الشيعة ١٤٧٥
الشيخ أبو الحسن الندوى ١٤٨٣
صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية ١٤٨٧
الأزهر والشيعة ١٤٩٣
نقد الفكر الدينى لآية الله مرتضى مطهرى ١٥٠١
القــرآن يتحــدى ١٥١٩

شيخ الإسلام ابن تيمية

[٦٦١ـ٧٢٨هـ ـ ١٢٦٣ـ١٣٢٨م]

طرف من حياته

هو: أبو العباس، تقى الدين أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله ابن أبى القاسم الخضر، النميرى الحرانى [٦٦١ـ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ـ١٣٢٨م].

فيلسوف السلفية وحكيمها، الذى انتقل بها من مرحلة الوقوف عند النص وحده ـ وأحيانًا ظاهر النص ـ إلى مرحلة فلسفة النص وعَقْلنتهِ.

وهو واحد من أبرز المجددين فى عصره؛ إذ جمع إلى الاجتهاد.. والجهاد ضد الغزاة ـ بالفكر والسَّيف ـ تقديم «مشروع فكرى» لتجديد الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية.

ولو أن المشروع التجديدى لابن تيمية قد وجد «الدولة والسياسة» التى تنهض به لتغَّير وجه العالم الإسلامى ووجهته، ولاختصرت الأمة من عصور التراجع الحضارى عدة قرون!

ولقد ظلت لابن تيمية هذه المكانة المتميزة والمرموقة فى حركة الإصلاح الإسلامى، منذ عصره، وحتى هذه اللحظات.

لقد كان ابن تيمية إمام الناقدين والنَّاقضين للفكر اليونانى منطقًا وفلسفة ـ ومن أبرز الذين اجتهدوا لإبداع البديل الإسلامى لفكر اليونان ـ الذى تسرب إلى كثير من مناحى الفكر الإسلامى كما كان من أبرز الناقدين للفكر الباطنى الغنوصى، الذى مثل ـ مع الفكر اليونانى جناحى التهديد لتميُّز الوسطية الإسلامية الجامعة والمتوازنة..

* * *

ولد ابن تيمية بحران.. ونبغ واشتهر بدمشق.. وتجلَّت آيات نبوغه ـ فى المناظرة

والاستدلال والتفسير والإفتاء والتدريس ـ وهو دون العشرين من عمره.. ولقد كان قلمه ولسانه فرسى رهان فى التعبير عن إبداعات عقله الكبير.

وكانت فتاواه ـ التى خالف فى بعضها عددًا من علماء عصره من أسباب محنته وميادين جهاده.

فسُجن بمصر ـ بالقاهرة والإسكندرية ـ فلما أُطلق سراحه رحل إلى دمشق [سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م].. ثم أُعيد اعتقاله بها [سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م].. ثم أُطلق سراحه مرة أخرى.. ثم أُعيد اعتقاله إلى أن مات معتقلًا بقلعة دمشق [٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م].

ولقد حوّل ابن تيمية سجنه من محنة لحريته الشخصية إلى نعمة لسياحاته الفكرية وإبداعاته فى علوم الإسلام.

وعندما مات، خرجت دمشق عن بَكرة أبيها فى جنازته، تعبيرًا عن مكانته المتميزة والممتازة بين العلماء المجاهدين.

ولقد خلّف ابن تيمية من الآثار الفكرية ما يزيد على أربعة آلاف كراسة، غطت مختلف ميادين العلوم ـ من الأصول.. إلى الفقه.. إلى التفسير.. إلى الحديث.. إلى السياسة الشرعية.. إلى الفلسفة والمنطق.. إلى الفتاوى التى عكست إمامته لعصره.. وفقهه للواقع الذى عاش فيه.. واستشرافه لمستقبل أُمته.. ووعيه بالمخاطر المُحدِقة بدار الإسلام ـ وذلك غير الرُّدود الكثيرة التى كتبها على المخالفين.. مسلمين غير مسلمين.

ومن هذه الآثار الفكرية ـ غير الفَتَاوى ـ:

١ ـ الإيمان.

٢ ـ منهاج السُّنة النبوية.

٣ ـ درء تعارض صريح المعقول مع صحيح المنقول.

٤ ـ الرد على المنطقيين.

٥ ـ نقض المنطق.

٦ ـ الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان.

٧ ـ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم.

٨ ـ الصارم المسلول على شاتم الرسول.

٩ ـ رفع الملام عن الأئمة الأعلام.

١٠ ـ السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية.

١١ ـ نظرية العقد.

١٢ ـ التوسل والوسيلة

وعشرات الرسائل التى ردَّ فيها على المخالفين.

جهاده للصّليبية والباطنيّة

وكما جَاهَد ابن تيمية بالسَّيف ضد الاختراق «الصَّليبى التَّترى» لديار الإسلام، كذلك كان جهاده ـ بالقلم واللسان ـ لتحصين العقل المسلم ضد الاختراق الفكرى الذى تمثل فى الباطنية الغنوصية وفى العقلانية اليونانية اللادينية.. وأيضًا ضد الجمود والتقليد.. والبدع والخرافات.

وعلى امتداد التاريخ ـ منذ عصره وحتى الآن ـ كان ولا يزال واحدًا من أبرز الملهمين لدعوات الإصلاح والتجديد على امتداد عالم الإسلام.

النظرات الجزئية والمميزة لمشروع ابن تيمية التجديدي

ولقد كانت النَّظرات الجزئية والمجتزئة لهذا المشروع التجديدى المتكامل الذى أبدعه شيخ الإسلام ابن تيمية، والتى غفل أصحابها عن رؤية المعالم المتكاملة لهذا المشروع.. كانت وراء سوء الفهم وسوء الظن الذى وُوجِه به هذا الإمام العظيم.. سواء من بعض معاصرية.. أو حتى فى العصر الذى نعيش نحن فيه!..

نعم.. لقد كان ابن تيمية ومشروعه الفكرى التجديدى ولا يزال فى حاجة ماسة إلى «العين اللامة» التى تحيط بمعالمه الكاملة، والتى تفقهه فى ضوء العصر الذى اكتمل فيه، والتى تميز فيه بين «المنهج» وبين «التطبيقات»، وبين «الأصول..

الثوابت» وبين «الفروع.. المتغيرة».. وذلك إنصافًا لهذا الإمام العظيم من المُتعصبين له والمُتعصبين ضده جميعًا!..

وحتى تنقشع السُّحب عن عبقريته الإسلامية فيعود إلى موقعه المناسب من إمامة الصحوة الإسلامية المعاصرة، مع غيره من أقرانه ومن تلاميذه الأئمة الأعلام..

لقد ارتفعت الكثير من «سحب الأوهام» حول فكر ابن تيمية، فحَجَبت ـ أو كادت ـ حقائق فِكر هذا الإمام العظيم.. حتى ظنه البعض:

ـ عدوًا للعقل.. وكارثة على العقلانية!..

ـ وضيِّق الصَّدر بالخلاف.. يُكفر المخالفين!..

ـ حتى رأينا ـ فى واقعنا الراهن ـ من يسمى نفسه «فيلسوف العلمانية» ينعت شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه إمام الرجعية.. وزعيم الإرهابيين!..

نعم.. حَدَث كل هذا الخلط وسُوء الفهم ـ مع افتراض حُسن النية ـ من غيبة الرؤية المتكاملة لفكر ابن تيمية ومشروعه التجديدى، وفقهه فى ضوء العصر الذى عاش فيه.. والتحديات التى واجهت العقل المسلم فى ذلك التاريخ..

ابن تيمية والعقلانية المؤمنة

إن خصوم ابن تيمية لم يفقهوا ما أبدعه فى العقلانية الإسلامية المتميزة.. وما قدَّمه من «نظرية» متكاملة فى علاقة التكامل بين المعقول والمنقول.. ذلك الإبداع الذى مَثَّل «ديوانًا فى العقلانية المؤمنة»..والذى نشير إلى عنوانه فى هذه السطور، التى يقول فيها:

«إنَّ ما عُرف بصريح العقل لا يُتَصور أن يُعارضه منقولٌ صحيح قط.. وقد تأملت ذلك فى عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة شبهات فاسده يُعلم بالعقل بطلانها، بل يُعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع. وهذا تأملته فى مسائل الأصول الكبار، كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك.

ووجدت ما يُعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذى يُقال إنه

يخالفه إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلًا لو تجردّ عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟

ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول، بل يخبرون بمجازات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته[1].

والقول كلما كان أفسد فى الشرع كان أفسد فى العقل، فالحق لا يتناقض، والرسل إنما أخبرت بحق، والله فطر عباده على معرفة الحق، والرسل بعثت بتكميل الفطرة لا بتغيير الفطرة.

قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. فأخبر أنه سيريهم الآيات الأفقية والنفسية المبينة لأن القرآن الذى أخبر به عباده حق، فتتطابق الدلالة البرهانية القرآنية والبرهانية العيانية، ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول..»[2].

ابن تيمية ومسألة التحسين والتقبيح

وكثيرون ـ من خصوم ابن تيمية ومن أنصاره ـ يظنون أن الرَّجل لم يكن من القائلين بالتحسين والتقبيح العقليين، بحسبان أن ذلك هو قول المعتزلة، الذين وقف ابن تيمية من بعض آرائهم موقف الناقد. ولو قرأ هؤلاء وهؤلاء ما كتبها بن تيمية فى التحسين والتقبيح بالعقل لانقشعت عنهم هذه الظنون والأوهام.. فلقد كان يرى أن هذا القول هو قول جمهور أهل السُّنة والجماعة.. وفى ذلك قال:

«وأكثر الطوائف على إثبات الحُسن والقُبح العقليين.. وهذا قول الحنفية، ونقلوه أيضًا عن أبى حنيفة [٨٠ ـ ١٥٠هـ/ ٦٩٩ ـ ٧٦٧م] نفسه، وهو قول كثير من المالكية، والشافعية، والحنبلية، كأبى الحسن التميمى [٣٧١هـ]، وأبى الخطاب، وغيرهما من أئمة أصحاب أحمد [١٦٤ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م]، وكأبى على بن هريرة [٣٤٥هـ]، وأبى بكر القفال الشاشى [٣٦٥هـ]، وغيرهما من الشافعية. كذلك من

(١) ابن تيمية: [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول]، ج١، ص ٨٣، طبعة القاهرة، سنة ١٣٢١هـ.
(٢) ابن تيمية: [منهاج السنة النبوية]، ج١، ص ٨٢، طبعة القاهرة، سنة ١٣٢١هـ.

أصحاب مالك [٩٣ ـ ١٧٩هـ/ ٧١٢ ـ ٧٩٥م]، وكذلك أهل الحديث كأبى نصر السجزى [٤٤٤هـ]، وأبى القاسم سعد ابن على الزَّنجانى [٤٧١هـ] وغيرهما.

بل هؤلاء ذكروا أن نفى ذلك هو من البدع التى حدثت فى الإسلام فى زمن أبى الحسن الأشعرى [٢٦٠ـ ٣٢٤هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٣٦م] لما ناظر المعتزلة فى القدر بطريق الجهم بن صفوان [١٢٨هـ/ ٧٤٥م] ونحوه من أئمة الجبر، فاحتاج إلى هذا النفى.

قالوا: وإلا فنفى الحُسن والقُبح العقليين مُطلقًا لم يَقُله أحدٌ من سلف الأمة ولا أئمتها، بل ما يؤخذ من كلام الأئمة والسلف فى تعليل الأحكام وبيان حكمة الله فى خلقه وأمره، وبيان ما فيما أمر الله به من الحُسن الذى يُعلم بالعقل وما فى مناهيه من القُبح المعلوم بالعقل، يُنافى قول النفاة.

والحُسن والقُبح من أفعال العباد يرجع إلى كون الأفعال نافعة لهم وضارة لهم، وهذا مما لا ريب فيه أنه يُعرف بالعقل، ولهذا اختار الرازى [٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ/ ١١٥٠ ـ ١٢١٠م] فى آخر أمره أن الحُسن والقُبح العقليين ثابتان فى أفعال العباد. وأما إثبات ذلك فى حق الله تعالى فهو مبنى على معنى محبة الله ورضاه، وغضبه وسخطه، وفرحه بتوبة التائب.. ونحو ذلك.

وأما العقل، فأخص صفات العقل عند الإنسان أن يعلم الإنسان ما ينفعه ويفعله، ويعلم ما يضره ويتركه. والمراد بالحسن هو النافع، والمراد بالقبيح هو الضار. فكيف يقال: إن عقل الإنسان لا يميز بين الحسن والقبيح؟ وهل أعظم تفاضل العقلاء إلا بمعرفة هذا من هذا؟ بل وجنس الناس يميل إلى من يتصف بالصفات الجميلة، وينفر عمن يتصف بالقبائح، فذاك يميل جنس الإنسان إلى سمع كلامه ورؤيته، وهذا ينفر عن رؤيته وسمع كلامه.

إنَّ العقل يحب الحق ويلتذُّ به، ويحب الجميل ويلتذُّ به، وإنَّ محبة الحمد والشكر والكرم هى من العقليات.. وإنَّ للإنسان قوتين: قوة علمية فهى تحب الحق، وقوة عملية فهى تحب الجميل، والجميل هو الحَسَن، والقبيح ضده..»[1].

(١) ابن تيمية: [كتاب الرد على المنطقيين]، ص ٤٢٠ ـ ٤٢٢، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٣، طبعة دار المعرفة، بيروت.

نعم.. هكذا تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن قدرة العقل على التحسين والتقبيح.. فأزال أوهامًا متراكمة فى «عقول» خصومه وأنصاره أجمعين!.. فهلا أعادوا قراءته؟! وهلا فقهوا عباراته الجميلة والعميقة التى يقول فيها:

«إن جنس الناس يميل إلى من يتصف بالصفات الجميلة، وينفر عمن يتصف بالقبائح.. وإن العقل يحب الحق ويلتذ به، ويحب الجميل ويلتذ به.. وإن للإنسان قوتين: قوة علمية فهى تحب الحق، وقوة عملية فهى تحب الجميل، والجميل هو الحَسَن، والقبيح ضده.. وهل أعظم تفاضل العقلاء إلا بمعرفة هذا من هذا؟.. فكيف يقال: إن عقل الإنسان لا يميز بين الحسن والقبيح؟!

ابن تيمية ومسائل التأويل

وكثيرون ـ من خصوم ابن تيمية.. ومن أنصاره ـ هم الذين توهموا رفضه للتأويل، بتعميم وإطلاق.. ولو أنهم فقهوا موقف الرجل لعلموا موقفه من هذه القضية الشائكة.. وهو موقف متوازن وموضوعى.. يقول فيه:

«والتأويل المقبول ما دل على مراد المتكلم .. فالمتأوِّل إذا لم يكن مقصوده معرفة مراد المتكلم كان تأويله للفظ بما يحتمله من حيث الجملة فى كلام من تكلم بمثله من العرب هو من باب التحريف والإلحاد، لا من باب التفسير وبيان المراد.

وأما تأويل ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر فهو نفس الحقيقة التى أخبر عنها، وذلك فى حق الله هو كنه ذاته وصفاته التى لا يعلمها غيره.. ولهذا قال السلف: إنا لا نعلم كيفية ما أخبر الله به عن نفسه، وإن علمنا تفسيره ومعناه.

كذلك الصحابة والتابعون، فسروا جميع القرآن، وكانوا يقولوا: إن العلماء يعلمون تفسيره وما أريد به، وإن لم يعلموا كيفية ما أخبر به الله عن نفسه، وكذلك لا يعلمون كيفيات الغيب، فإن ما أعده الله لأوليائه من النعيم لا عين رأته ولا أذن سمعته ولا خطر على قلب بشر.

وأما من قال: إن التأويل الذى هو تفسيره وبيان المراد به لا يعلمه إلا الله، فهذا ينازعه فيه عامة الصحابة والتابعين الذين فسروا القرآن كله، وقالوا إنهم يعلمون معناه.

والآيات التى ذكر الله فيها أنها متشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله، إنما نفى عن غيره عِلمَ تأويلها لا عِلمَ تفسيرها ومعناها»[1].

ابن تيمية ومسألة التكفير

وفى قضية التكفير لمن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ـ كان ابن تيمية ـ ككل أئمة أهل السُّنة والجماعة ـ شديد الحذر والتحذير من التكفير ـ على خلاف ما يتوهم الذين لم يفقهوا حقيقة موقف الإسلام من هذه القضية.. التى يتحدث عنها ابن تيمية فى حسم ووضوح فيقول:

والذى نختاره ألا نُكفر أحدًا من أهل القبلة، والدليل عليه أن نقول: المسائل التى اختلف أهل القبلة فيها مثل: أن الله تعالى هل هو عالم بالعلم أو بالذات؟ وأنه تعالى هل هو موجد لأفعال العباد أم لا؟ وأنه هو متحيز؟ وهل هو فى مكان وجهة؟ وهل هو مرئى أم لا؟ لا تخلو إما أن تتوقف صحة الدين على معرفة الحق فيها أو لا تتوقف. والأول باطل. إذ لو كانت معرفة هذه الأصول من الدين لكان الواجب على النبى ﷺ أن يطالبهم بهذه المسائل، ويبحث عن كيفية اعتقادهم فيها، فلما لم يطالبهم بهذه المسائل، بل ما جرى حديث من هذه المسائل فى زمانه عليه السلام ولا فى زمان الصحابة والتابعين رضى الله عنهم، علمنا أنه لا يتوقف صحة الإسلام على معرفة هذه الأصول، وإذا كان كذلك لم يكن الخطأ فى هذه المسائل قادحًا فى حقيقة الإسلام، وذلك يقتضى الامتناع عن تكفير أهل القبلة.

إن الكفر حكم شرعى، متلَقًّى عن صاحب الشريعة، والعقل قد يُعلم به صواب القول وخطؤه، وليس كل ما كان خطأ فى العقل يكون كفرًا فى الشرع، كما أنه ليس كل ما كان صوابًا فى العقل تجب فى الشرع معرفته.. وإنما الكفر يكون بتكذيب الرسول فيما أخبر به أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه.. وقد نقل عن الشافعى [١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ/ ٧٦٧ ـ ٨٢٠م] رضى الله تعالى عنه أنه قال: لا أرد شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية[2]، فإنهم يعتقدون حلّ الكذب.

---

(١) ابن تيمية: [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول]، ج١، ص ١١٥ ـ ١٢٠.

(٢) الخطابية: من غلاة الشيعة، أتباع أبى الخطاب محمد بن أبى زينب ـ مولى بنى أسد ـ وهم مشبهة، ادعوا نبوة الأئمة، وأنه لابد من رسول صامت مع الرسول الناطق، وأن محمدًا ﷺ هو الناطق، وعليّ هو

أما أبو حنيفة رضى الله عنه فقد حكى الحاكم [٣٣٤هـ/ ٩٤٥م] صاحب [المختصر] فى كتاب [المنتقى] عن أبى حنيفة أنه لم يكفر أحدًا من أهل القبلة.

وحكى أبو بكر الرازى عن الكرخى [٢٦٠ ـ ٣٤٠هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٥٢م] وغيره مثل ذلك..»[1].

هكذا أعلن ابن تيمية رفضه تكفير أحد من أهل القبلة، الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، لأن مسائل الخلاف التى اختلف فيها المسلمون لا يتوقف عليها الإيمان بأصول الدين، وأركان الإسلام، التى جاءت بها النصوص قطعية الدلالة والثبوت.

وأعلن أن هذا الموقف هو موقف أئمة المذاهب المعتبرة فى فكر الإسلام.

وبعد هذه الإشارات إلى مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية، وخياراته الفكرية والفقهية، ندرك الحاجة الماسة إلى إعادة قراءة تراثه قراءة واعية ومتكاملة، لا لإنصافه فقط ـ وتلك فريضة فكرية ـ وإنما لإعادة مشروعه التجديدى كى يفعل فِعلَه المناسب فى يقظة الأمة الإسلامية من جديد.

* * *

الصامت، ولقد ثاروا بالكوفة إبان الدولة العباسية، وقمعت ثورتهم سنة ١٤٣هـ.

(١) ابن تيمية: [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول]، ج١، ص ٥٠، ١٤٤، ١٤٥.

أئمة الصحوة المعاصِرة وابن تيمية

ويزيد من أهمية هذه القضية.. إنصاف الرجل.. والدعوة إلى الاستفادة من تراثه الفكرى أن أئمة الصحوة الإسلامية وأعلام الإحياء الإسلامى الحديث قد وقفوا هذا الموقف من تراث شيخ الإسلام.

الأمر الذى يدل على أن تراثه الغنى قد كان حاضرًا وفاعلًا فى فكر هؤلاء الأئمة الأعلام.

١ ـ الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله

فالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] قد دعا إلى إنصاف ابن تيمية من افتراءات خصومه.

ووصفه بأنه «أعلم الناس بالسُّنة وأشدهم غيره على الدين». وذلك عندما تحدث عن الظلم الذى لحق عددًا من أئمة الإسلام وعلمائه.. من مثل حجة الإسلام الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١١١م] الذى أُحرقت كتبه فى «غرناطة» فى عصر المرابطين [٤٨٣ ـ ٥٤١هـ/ ١٠٩٠ ـ ١١٤٧م].

وشيخ الإسلام ابن تيمية الذى قال عنه الأستاذ الإمام: «لقد قال قوم يعدّون أنفسهم مسلمين فى ابن تيمية ـ وهو أعلم الناس بالسُّنة وأشدهم غيرة على الدين ـ إنه ضال مضل.. وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملئون أفواههم بهذه الشتائم، وعليهم إثمها وإثم من يقفوهم بها إلى يوم القيامة»[1]..

(١) ا [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده]، ج ٣، ص ٣٥٩، دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة، طبعة دار الشروق، ١٩٩٣م.

٢ـ الشيخ محمد البشير الإبراهيمى رحمه الله

أما عن تأثير ابن تيمية فى حركة الإصلاح الإسلامى بالمغرب العربى.. فإن الشيخ محمد البشير الإبراهيمى [١٣٠٦ ـ ١٣٨٥هـ/ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م] يشير إليه، فى مواطن عديدة من آثاره الفكرية.

فيقول عن الأئمة الأعلام الذين ألهموا رواد هذا الإصلاح الإسلامى الحديث، والذين أناروا الطريق، فى مواجهة الفكر الخرافى المتحالف مع الاستعمار والسحق الحضارى:

«وما زلنا نلمح وراء كل داجية فى تاريخ الإسلام نجمًا يشرق، ونسمع بعد كل خفتة فيه صوتًا يخرق، من عَالمٍ يعيش شاهدًا، ويموت شهيدًا، ويترك بعده ما تتركه الشمس من شفق يهدى السارينَ المدلجين إلى حين.

وما علمنا فيمن قرأنا أخبارهم، وتقفينا آثارهم من علماء الإسلام مثلًا شرودًا فى شجاعة النزال بعد الحافظ الربيع ابن سالم، عالم الأندلس.. ولا علمنا فيهم مثالًا فى شجاعة الرأى العام أكمل من الإمام أحمد بن تيمية.. فقد شنَّها حربًا شعواء على البدع والضلالات أقوى ما كانت رسوخًا وشموخًا، وأكثر اتباعًا وشيوخًا يظاهرها الولاة القاسطون، ويؤازرها العلماء المتساهلون والمتأولون. وقد ادخر الله لهذا العصر الذى تأذَّن فجر الإسلام فيه بالانبلاج، الواحد الذى بذَّ الجميع فى شجاعة الرأى والفكر وقوة العلم والعقل، وجرأة اللسان والقلب، وهو محمد عبده فهزَّ النفوس الجامدة، وحرك العقول الراكدة، وترك دويًّا ملأ سمع الزمان وسيكون له شأن[1].

ثم يُنبه الشيخ البشير الإبراهيمى من موقع الرجل الثانى فى حركة الإصلاح الإسلامى بالجزائر ـ إلى دور فكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ مع فكر الشيخ محمد عبده ـ فى تبلور بواكير هذا الإصلاح الدينى الذى واجهت به جمعية العلماء المسلمين بالجزائر ـ تحالف «الطرقية والاستعمار الفرنسى»، فيقول:

«إنهم: قبل أن يظهر الإصلاح بهذا الوطن، وتلهج الألسنة باسمه، كانوا يلعنون

(١) [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي]، ج ٤، ص ١١٣، جمعها وقدم لها دكتور أحمد طالب الإبراهيمى، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٧م.

ابن تيمية [٦٦١ ـ ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م]، وابن حزم [٣٨٤ ـ ٤٥٦هـ/ ٩٩٤ ـ ١٠٦٤م]، ومحمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] وغيرهم من أئمة الإسلام الذين جهروا بإنكار البدع، فلما ظهر الإصلاح بالمظهر الفردى كان أمضى سلاح يقاومونه به قولهم: «تيمى، عبداوى»! نسبة إلى ابن تيمية ومحمد عبده!..»[١].

ثم يتحدث عن دور مجلة [المنار] للشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م]، وكتب ابن تيمية وابن القيم [٦٩١ ـ ٧٥١هـ/ ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠م]، والشوكانى [١١٧٣ ـ ١٢٥٠هـ/ ١٧٦٠ ـ ١٨٣٤م] فى هذا الإصلاح الدينى فيقول:

«ويضاف إلى هذا قراءة [المنار].. واطلاع بعض الناس على كتب المصلحين القيمة، كتب ابن تيمية وابن القيم والشوكانى.. فهذا عامل له أثره فى التمهيد للدعوة الإصلاحية»[٢]..

٣ـ الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله

أما رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر الإمام عبد الحميد باديس [١٣٠٨ ـ ١٣٥٩هـ/ ١٨٨٩ ـ ١٩٤٠م] فإنه يعيد نشر محاضرة الأستاذ محمد كرد على [١٢٩٢ ـ ١٣٧٢هـ/ ١٨٧٦ ـ ١٩٥٣م] عن الشيخ طاهر الجزائرى [١٢٦٨ ـ ١٣٣٨هـ/ ١٨٥٢ ـ ١٩٢٠م].

«والذى ولع فى صباه بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وكانت جمهرة الفقهاء فى عصره تكفر ابن تيمية تعصبًا وتقليدًا لمشايخهم، فلم ير الشيخ طاهر الجزائرى لتحبيبهم بابن تيمية إلا نشر كتبه بينهم من حيث لا يدرون! فكان يستنسخ رسائله وكتبه ويرسلها مع من يبيعها فى سوق الوراقين بأثمان معتدلة، لتسقط فى أيدى بعضهم فيطالعونها، وبذلك وصل إلى غرضه من نشر آراء شيخ الإسلام التى هى لباب الشريعة»[٣].

(١) ا [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي]، ج ١، ص ١٢٧.
(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ١٨١.
(٣) ا [ابن باديس: حياته وآثاره]، ج ٤، ص ١٥٦، ١٥٧. جمعها وقدم لها: دكتور عمار الطالبى، طبعة الجزائر، سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٤ـ العلامة أبو الأعلى المودُودى رحمه الله

وكما رأت الدعوة الإصلاحية ـ ببلاد المغرب الإسلامى فى فكر شيخ الإسلام ابن تيمية «لباب الشريعة الإسلامية».. كذلك رأت فيه حركة الصحوة الإسلامية ببلاد المشرق الإسلامى فى القارة الهندية ـ أبرز المجددين فى التاريخ الوسيط لأمة الإسلام.

ففى دراسة العلامة أبى الأعلى المودودى [١٣٢١ ـ ١٣٩٩هـ/ ١٩٠٣ ـ ١٩٧٩م] لتاريخ تجديد الدين الإسلامى وإحيائه.. عرض لمشاريع التجديد وإنجازات المجددين.. وأجرى دراسة نقدية ـ ومقارنة ـ بين هؤلاء المجددين.. وفى دراسته المقارنة بين حجة الإسلام أبى حامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١١١م] وبين شيخ الإسلام ابن تيمية، رجحَّ المودودى كفة شيخ الإسلام على كفة حجة الإسلام.. وكتب يقول:

«لقد تخللت عمل الغزالى التجديدى مع عظمته التى أكسبته صفة «حجة الإسلام» ـ نقائص من الجهة العلمية والفكرية، تقسم على ثلاثة أنواع:

ـ نوع منها كان مأتاه ضعف الإمام فى علم الحديث.

ـ والنوع الثانى: كان منشؤه استيلاء العلوم العقلية على ذهنه.

ـ والنوع الثالث: وقع فى أعماله لميلانه المتطرف إلى التصوف.

وبعد هذا النقد لمشروع الغزالى التجديدى، تحدث المودودى عن مشروع ابن تيمية لتجديد الدين وإحيائه، فرآه «قد وفق فى توسيع دائرة العمل الذى تركه الإمام الغزالى إلى وجه أحسن وأتم.. فهو:

أولا: انتقد المنطق والفلسفة اليونانية انتقادًا أشد وأدق مما فعله الإمام الغزالى.

ثانيًا: أقام من الأدلة والبراهين على استقامة عقائد الإسلام وأحكامه وقوانينه ما كان يفوق أدلة الإمام الغزالى سَوغانًا فى العقل وأحوى منها لروح الإسلام.

ثالثًا: لم يجتزئ برفع النكير على التقليد الجامد فحسب، بل ضرب المثل بمزاولة الاجتهاد على طريقة المجتهدين من القرون الأولى.

رابعًا: جاهد البدع وتقاليد الشرك وضلال العقائد والأخلاق جهادًا قويًّا عنيفًا، ولاقى فى سبيل ذلك أعظم المصائب. ومضافًا إلى هذا العمل التجديدى، جاهد بالسيف همجية التتار و وحشيتهم..».

ولا ينسى المودودى مع هذا الإعجاب بشيخ الإسلام ابن تيمية ـ أن ينبه على الثغرة التى أضعفت مشروعه التجديدى، وهى «افتقاره إلى السلطة السياسية»، التى تضعه فى الممارسة والتطبيق.. فابن تيمية ـ برأى المودودى «لم يوفق لبعث حركة سياسية فى المسلمين، يُحدث بها الانقلاب فى نظام الحكم، وتنتقل مقاليد الحكم والسلطة من أيدى الجاهلية إلى أيدى الإسلام[1].

(١) أبو الأعلى المودودى [موجز تاريخ إحياء الدين وتجديده]، ج ١، ص ٧٣، ٧٦ ـ ٧٩.. ترجمة محمد كاظم سباق، طبعة بيروت، سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

ابن تيمية إمام دعوات الاستنارة فى عصرنا الحديث

هكذا، غدا المشروع التجديدى لشيخ الإسلام ابن تيمية عاملًا فاعلًا فى حركة الإحياء والإصلاح والتجديد الإسلامى فى عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر.. سواء منها «الإصلاح الفكرى» أو «الإصلاح الحركى».. ولقد استوت فى ذلك سائر بلاد الإسلام.. من محمد عبده، مهندس المشروع الإحيائى لليقظة الإسلامية الحديثة، إلى رشيد رضا، الذى حمّل [المنار] فكر هذه اليقظة إلى مختلف بقاع العالم الإسلامى على امتداد نحو أربعين عامًا.

إلى أئمة الإصلاح الإسلامى ببلاد المغرب الإسلامى: الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ محمد البشير الإبراهيمى.

إلى شبه القارة الهندية ـ بمشرق العالم الإسلامى عند العلامة المودودى، ومن قبله ولى الله الدهلوى [١١١٠ ـ ١١٧٦هـ/ ١٦٩٩ ـ ١٧٦٢م].

هكذا رأينا الرجل الذى مات مظلومًا مسجونًا قد غرس فى ساحة العقل الإسلامى بذور الكلمات «الواعية ـ الطيبة» التى بارك الله فيها، فغدت المظلة التى يستظل بها زعماء الإصلاح الدينى على امتداد عالم الإسلام ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

لقد مثَّل ابن تيمية هذا الصرح الخالد فى تاريخ الفكر الإسلامى.. وجسَّد هذا العطاء المتجدد فى مناهج الإحياء والتجديد لفكر هذه الأمة لأسباب كثيرة.. منها:

١ ـ إخلاصه للإسلام وأمته وحضارته وديارة.. وتكريس كل حياته وجميع طاقاته لهذه الرسالة العظمى.. حتى لقد غدا ـ فى هذا الميدان ـ عَلمًا من أعلام

العلماء الذين هم ورثة الأنبياء.. العلماء العدول، الذين ينفون ـ بالوسطية الإسلامية الجامعة ـ عن هذا الدين «تحريف الضالين وانتحال المبطلين»..

٢ ـ واحتضانه لتراث الإسلام، على اختلاف مذاهب أئمة الإسلام.. دونما تعصب لمذهب دون الآخر، أو تخندق فى فرقة دون سواها.. فلقد كان مدافعًا عن الحق ـ كما أراه ذلك اجتهاده ـ وناقدًا للخطأ ـ كما أراه ذلك اجتهاده.. مع الدعوة إلى(رفع الملام عن الأئمة الأعلام) الذين خالف اجتهاده اجتهاداتهم.. فكان هذا العنوان الذى اتخذه لأحد كتبه منهاجًا فى تعامله مع الأئمة الذين تركوا بصماتهم على الفكر الإسلامى، على امتداد تاريخ الإسلام، وتنوع المذاهب التى ذهب إليها هؤلاء الأئمة الأعلام.

٣ ـ وبلوغه ـ على درب الإخلاص لمشروعه التجديدى إلى درجة «الجهاد» لتحقيق «الاجتهاد»!.. فلم يكن ابن تيمية مجرد فقيه وفيلسوف.. وإنما كان «مُجددًا» لفكر الأمة وحياتها وواقعها الذى تعيش فيه.. وفى هذا الميدان قدَّم حياته وحريته قربانًا فى هذا «الجهاد».

٤ ـ كذلك، كان شيخ الإسلام ابن تيمية مرابطًا على ثغور الإسلام.. لا يكتفى بالجهاد الداخلى فى عقل الأمة وواقعها ـ وإنما كان شديد البصر والبصيرة بالمخاطر الخارجية التى تحدق بحضارة الإسلام وديار الإسلام.. وفى هذا الميدان كان شديد الوعى «بفقه الأولويات»، حتى لقد حمل السلاح وحارب الصليبيين والتتار تحت قيادة النظم السياسية التى مات فى سجونها!.. فضرب لنا مثلًا فى الوعى الحضارى بفقه الأولويات ما زلنا فى حاجة إلى فقهه حتى هذه اللحظات.

وإذا كانت الدراسات التى كتبت عن ابن تيمية ـ فضلًا عن تراثه الفكرى إنما تكون مكتبة غنية متكاملة فى فكرنا الإسلامى.. فإن ما أشارت إليه هذه الصفحات من مواقفه ـ التى غفل عن حقيقتها الكثيرون من خصومه ومن أنصاره ـ وخاصة موقفه من العقل وعلاقته بالوحى والشرع والنقل.. وموقفه من التأويل.. ورفضه القاطع لتكفير من يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله.. وكذلك حضوره فى دعوات الإحياء الإسلامى الحديثة، وعند حركات هذا الإحياء.. إنما تمثل نماذج لميادين تحتاج إلى دراسات وفقه ووعى بما قدم ابن تيمية فى هذه الميادين.

إن هذا الإمام العظيم، الذى مَثَّلت سلفيتُه أصالة الفكر الإسلامى، هو ذاته الذى غدا إمامًا لدعوات العقلانية والاستنارة فى عصرنا الحديث.. ولذلك، كان حرامًا ـ وإجرامًا ـ أن يقول عنه ذلك الذى يسمى نفسه «فيلسوف العلمانية»: «إنه مصدر الرجعية وزعيم الإرهـاب!».. وأن تقول عنه طريقة صوفية تملأ بطونها بِسُحتِ الدنانير النفطية: «إنه الخبيث المكابر ناقص العقل.. الذى فى قلبه مرض.. المكذب لرب العالمين.. الخارج من الدين، الذى استبدل عقيدة التثليث بعقيدة التوحيد!»..

حرام أن يقال هذا الفحش على هذا الشيخ من شيوخ الإسلام!!

تلك صفحات أردنا بها رفع الملام عن شيخ الإسلام ابن تيمية.. والدعوة إلى فقه جديد لتراث هذا الإمام العظيم.. ليعود هذا التراث إلى الفعل والتأثير فى حياتنا الفكرية المعاصرة.. كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء.. كما أردنا بها التقديم لنصوصه فى مقام العقل بالإسلام.

والله نسأل أن ينفع بهذه الدراسة.. إنه سبحانه ـ خير مسئول وأكرم مجيب..

السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

[٦٦١ ـ ٧٢٨هـ ـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م]

السياسة فى تعريفها العام: «هى فن ممارسة القيادة والحكم، وعلم السلطة أو الدولة، وأوجه العلاقة بين الحاكم والمحكوم».

لكن هذه السياسة وهذه التدابير تختلف باختلاف الحضارات وتنوع الأنساق الفكرية ومنظومات القيم والأخلاق الحاكمة لهذه الممارسات والتدابير.. ولذلك تعددت وتنوعت التعريفات الدقيقة للسياسة تبعًا لتنوع المعايير والقيم الحاكمة للسياسة عبر الحضارات وعبر التاريخ ـ وعلى سبيل المثال:

ـ فالسياسة عند أشهر فلاسفتها الغربيين «ميكافيللى» [١٤٦٩ ـ ١٥٢٧م] هى التدابير التى تحقق فلسفة القوة للدولة والسلطة بعيدًا عن القيم الدينية والأخلاقية، إذ الغاية تبرر الوسيلة، حتى لو كانت هذه الوسيلة هى المكر والخداع.

ـ والسياسة عند نابليون بونابرت [١٧٦٦ ـ ١٨٢١م] هى «فن تنظيم الجماهير المستعدة للتضحية فى سبيل المثل، بصرف النظر عن طبيعة هذه المثل. والسياسة عند السياسى البريطانى اليهودى «ديزرائيلى» (١٨٠٤ ـ ١٨٨١) هى فن حكم البشر عن طريق خداعهم!»[١].

ـ أما فى الإسلام فإن السياسة هى «السياسة الشرعية» التى تعقد القران بين فقه الواقع الذى يسعى لتحقيق المصالح المتغيرة والمتطورة للعباد فى دار المعاش، وبين فقه الأحكام الذى يمثل الشريعة الإلهية ومنظومة القيم والأخلاق التى تجعل

(١) [موسوعة السياسة]، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، طبعة بيروت ١٩٨٣م.

سعادة المعاش سبيلًا لسعادة المعاد.. ولذلك تعددت، فى النسق الفكرى الإسلامى، تعريفات السياسة، مع الحفاظ على منظومة القيم والأخلاق الإسلامية روحًا سارية فى كل هذه التعريفات:

ـ فهى حينًا ـ ما كان من الأعمال؛ بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد.

ـ وفى تعريف ثان هى: استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجى فى العاجل والأجل.

ثم هى تتنوع آفاقها تبعًا لاختلاف ميادينها ولتنوع السائسين بها وفيها:

ـ فالسياسة من الأنبياء على الخاصة والعامة، فى ظاهرهم وباطنهم.

ـ والسياسة من السلاطين والملوك على العامة والخاصة فى ظاهرهم دون باطنهم وتسمى سياسة مدنية.

ـ والسياسة من العلماء ـ الذين هم ورثة الأنبياء ـ على العامة والخاصة، فى باطنهم لا غير ـ وتسمى سياسة نفسية.

ـ ومن السياسة سياسة بدنية، هى تدبير المعاش، بإصلاح جماعة مخصوصة على سنن العدل والاستقامة.. وهى نوعان: عادلة، تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهى من الشريعة، وسياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها[1].

ولقد أدرك ابن خلدون [٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ/ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م] التنوع والاختلاف فى السياسات تبعًا للتنوع والاختلاف فى المرجعية الحاكمة لهذه السياسات.. فميز بين «سياسة الملك الطبيعى، التى تحمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة».. وبين «سياسة الملك السياسى، التى تحمل الكافة على مقتضى النظر العقلى [المجرد عن الشرع] ـ فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار».. وبين «السياسة الشرعية ـ سياسة الخلافة ـ التى تحمل الجميع على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم

(١) انظر فى ذلك: د. محمد عمارة [قاموس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية]، طبعة دار السلام، القاهرة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.. وكذلك [الإسلام والسياسة.. الرد على شبهات العلمانيين]، طبعة دار السلام ـ القاهرة، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به..»[1].

وفى هذا الكتاب [السياسة الشرعية] الذى هو أحد الإبداعات المميزة لشيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ ـ ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م] يبدو الرجل ـ الذى مارس السياسة وكتب عنها، والذى جاهد فى ميادينها بالقلم واللسان والسنان ـ يبدو على النحو الذى وصفه به الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] عندما قال عنه: «إنه أعلم الناس بالسنة، وأشدهم غيرة على الدين»[2].

ففى هذا الكتاب ـ الذى يزامل كتابه عن [الحسبة] ـ نجد الرجل سباحًا ماهرًا وغواصًا متمرسًا فى بحار السنة النبوية الشريفة، التى تمثل التطبيقات الأولى للسياسة الشرعية فى الحضارة الإسلامية.. كما نجد عباراته التى تقطر إخلاصًا لله ولأمة الإسلام ولقيم الأمانة والعدل ين الناس.. كما نجد صفحات من الفقه السياسى الجدير بالدرس والتعميم بين الناس.. كما نجد العالم الموسوعى الذى أحاط بمذاهب الفقهاء، والذى لم يقف عند مذهب واحد من مذاهب هؤلاء الفقهاء، مع المقارنة والترجيح والاجتهاد فى الاختيار.

وإذا نحن شئنا ـ فى هذه الدراسة ـ أن نلقى بعض الأضواء الكاشفة عما لدينا فى هذا الكتاب من «معالم السياسة الشرعية» كما قدمها ابن تيمية، فإن لدينا العديد من الوقفات:

ـ فابن تيمية يقرر الحقيقة الاجتماعية التى تقول إن الإنسان مدنى بطبعه، لا يستطيع العيش وأداء رسالة العمران إلا فى جماعة ومجتمع واجتماع.. ولذلك كانت الدولة والسلطة والولاية ضرورة من ضرورات إقامة الدين والدنيا، وصلاح المعاش والمعاد.

وبما أن فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ فى الإسلام ـ هى الفريضة

(١) ابن خلدون [المقدمة]، ص ١٥٠، ١٥١، طبعة القاهرة، ١٣٢٢هـ.

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده]، ج ٣، ص ٣٥٩، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، طبعة دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣م.

الأم، الجامعة، لكل فرائض العمل العام، ولكل شُعب الإيمان، فإن الولاية والسلطة والدولة هى السبيل لإقامة هذه الفريضة الجامعة فى الاجتماع الإسلامى.. لذلك «يجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بنى آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبى ﷺ: «إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم» ـ رواه أبو داود ـ وقال: «لا يحل لثلاثة أن يكونوا بفلاة من الأرض إلا أمروا عيهم أحدهم» ـ رواه الإمام أحمد ـ فأوجب تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر، تنبيهًا بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة. وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجُمع والأعياد ونصرة المظلوم، وإقامة الحدود، لا يتم إلا بالقوة والإمارة. ولهذا روى: «أن السلطان ظل الله فى الأرض»، ويقال: «ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان».. والتجربة تبين ذلك».

ـ كذلك ينحاز ابن تيمية ـ فى هذا الكتاب ـ إلى قيمة الشورى ومبدئها ـ التى تعنى استخراج الرأى من الناس، والمشاركة فى صنع القرار، وإلى إلزام هذه الشورى ووجوبها.. كما يتحدث عن أهل هذه الشورى فيقول:

«إنه لا غنى لولى عن المشاورة، فإن الله تعالى أمر بها نبيه ﷺ.. فقال تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).. وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «لم يكن أحد أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ ـ رواه الترمذى.. وقد قيل إن الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه، وليقتدى به من بعده، وليستخرج بها منهم الرأى فيما لم ينزل به وحى من أمر الحروب والأمور الجزئية، وغير ذلك، فغيره ﷺ أولى بالمشورة.

وقد أثنى الله على المؤمنين بذلك فى قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[الشورى: ٣٦ ـ ٣٨].

وإذا استشارهم فإن بين له بعضهم ما يجب أتباعه من كتاب الله أو سنة رسوله أو إجماع المسلمين، فعليه اتباع ذلك، ولا طاعة لأحد فى خلاف ذلك، وإن كان عظيمًا فى الدين والدنيا.. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].. وإن كان أمرًا قد تنازع فيه المسلمون، فينبغى أن يستخرج من كل منهم رأيه ووجهة رأيه، فأى الآراء كان أشبه بكتاب الله وسنة رسوله عمل به، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِى شَىۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وأولو الأمر صنفان: الأمراء والعلماء، وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس، فعلى كل منهما أن يتحرى بما يقوله ويفعله طاعة لله ورسوله، واتباع كتاب الله، ومتى أمكن فى الحوادث المشكلة معرفة ما دل عليه الكتاب والسنة كان هو الواجب، وإن لم يمكن ذلك لضيق الوقت أو عجز الطالب، أو تكافؤ الأدلة عنده أو غير ذلك، فله أن يقلد من يرتضى عمله ودينه.. هذا أقوى الأقوال.

ـ بل ونلمح فى عبارة ابن تيمية أن العلماء ـ الذين هم من أركان الشورى ـ ليسوا فقط علماء الدين.. بل إن معهم ومنهم أهل الخبرة.. نلمح ذلك فى استخدامه عبارة: «مشاورة أهل العلم والدين».. أى الذين لهم خبرة بفقه الواقع وفقه الأحكام.

ـ وفى المعايير الحاكمة للسياسة الشرعية، والتى تجعلها شرعية، يحدد ابن تيمية أن جماع السياسة الشرعية إنما يقوم على أداء الأمانات وعلى العدل بين الناس.. وهو ينطلق فى هذا من محكم القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِى شَىۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٨، ٥٩].

ثم يعقب فيقول: «وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل، فهذا جماع السياسة العادلة، والولاية الصالحة.. فيجب على ولى الأمر أن يولى على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل، قال النبى ﷺ: «من ولى من أمر المسلمين شيئًا فولى رجلًا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله وخان المؤمنين.. رواه الحاكم فى المسند.. وقال عمر بن

الخطاب ـ رضى الله عنه ـ «من ولى من أمر المسلمين شيئًا فولى رجلًا لمودة أو قرابة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمسلمين».. وهذا واجب عليه.

ـ وإذا كان الولاة فى الدولة «الثيوقراطية» التى عرفتها كهانة الكنيسة الغربية.. ونظرية الإمامة الشيعية هم ـ بزعمهم ـ نواب الله، المتحررون من سلطة الأمة.. وإذا كان الولاة فى الدولة العلمانية هم وكلاء العباد، المتحررون من حاكمية الشريعة الإلهية، فإن الولاة فى الدولة الإسلامية الشرعية هم نواب عن الله ووكلاء عن العباد معًا.. نواب عن الله بمعنى أنهم مستخلفون فى أداء الأمانات إلى أهلها، وفى العدل بين الناس والحكم بما قضى الله.. ووكلاء عن العباد، بمعنى أن سلطانهم مستمد من تفويض الأمة التى هى مصدر السلطة والسلطات.. وفى ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الخلق عباد الله، والولاة نواب الله على عباده، وهم وكلاء العباد على نفوسهم، بمنزلة أحد الشريكين مع الآخر، ففيهم معنى الولاية والوكالة».

كما يرفض ابن تيمية فصل الدين عن الدولة، وعزل الشريعة عن السلطة، فيقول: «فإن انفرد السلطان عن الدين، أو الدين عن السلطان فسدت أحوال الناس، لأن قوام الدين بالكتاب الهادى والحديد الناصر، كما ذكر الله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، فمن عدل عن الكتاب قُوم بالحديد، ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف.

ويركز ابن تيمية الحديث على واجبات الولاة تجاه الرعية: حمايتهم من الظلم، وتحقيق مصالحهم، وقضاء حوائجهم «وقالوا يجب ـ على الولاة ـ كف الظلم عن الرعية بحسب القدرة، وقضاء حوائجهم التى لا تتم مصلحة الناس إلا بها».

ويسوق من السياسة الشرعية فى صدر الإسلام المواقف والمأثورات التى تدعم ذلك من مثل قول الراشد الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ «ألا إنى والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم، فمن فُعل به سوى ذلك فليرفعه إليّ، فو الذى نفسى بيده إذا لأقصنه منه.. ولقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه.. ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم».

ـ كذلك ينبه ابن تيمية على خطر التفريط فى سياسة الأمة على النحو الذى يجعل الناس تبعًا لما يشتهون، وعازفين عما يكرهون، فالحزم فى السياسة مطلوب، لكن مع الرفق لتقويم المحكومين على النهج الوسط والصراط المستقيم.. وفى ذلك يقول: «فليس من حسن النية بالرعية والإحسان إليهم أن يفعل الوالى ما يهوونه، ويترك ما يكرهونه، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقال تعالى للصحابة: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧].. وإنما الإحسان إليهم فعل ما ينفعهم فى الدين والدنيا، ولو كرهه من كرهه، لكن ينبغى له أن يرفق بهم فيما يكرهونه. ففى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «ما كان الرفق فى شىء إلا زانه، ولا كان العنف فى شىء إلا شانه»، وقال ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف».. رواه الإمام أحمد.

وكان عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ يقول: «والله إنى لأريد أن أخرج لهم المُرَّة من الحق، فأخاف أن ينفروا عنها، فأصبر حتى تجيء الحلوة من الدنيا، فأخرجها معها، فإذا نفروا لهذه، سكنوا لهذه».

ـ كما طرق ابن تيمية باب ما يمكن أن نسميه فقه الموازنات بين المصالح والمفاسد وترتيب الأولويات.. ذلك أن «مدار الشريعة على قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، المفسر لقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وعلى قول النبى ﷺ «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» ـ رواه البخارى ومسلم ـ وعلى أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تعارضت، كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناهما هو المشروع».

ويدخل فى هذه الموازنات الجمع ـ فى السياسة ـ بين «القوة» وبين «الورع»، وذلك حتى لا نقع فيما بين الجبن والفشل وبين الورع من اشتباه!.. «فما أكثر ما يُشَبَّه الجبن والفشل بالورع، إذ كل منهما كف وإمساك»!.

وفى باب الموازنات ـ والوسطية الجامعة ـ يقدم ابن تيمية لمحات عبقرية للسياسة الراشدة التى جمعت بين لين أبى بكر الصديق وشدة خالد بن الوليد.. والتى جمعت

بين شدة عمر بن الخطاب ولين أبى عبيدة بن الجراح.. وبهذا قدم ابن تيمية تفسيرًا ـ لعله غير مسبوق ـ لسر توليه أبى بكر لخالد.. ولسر عزل عمر له، واختيار أبى عبيدة بدلًا منه.. وفى ذلك قال ابن تيمية:

«إن المتولى الكبير إذا كان خُلقه يميل إلى الشدة، فينبغى أن يكون خُلق نائبه يميل إلى اللين، ليعتدل الأمر. ولهذا كان أبو بكر الصديق يؤثر استنابة خالد، وكان عمر بن الخطاب يؤثر استنابة أبى عبيدة بن الجراح، لأن خالدًا كان شديدًا، كعمر، وأبا عبيدة كان لينًا كأبى بكر، وكان الأصلح لكل منهما أن يولى من ولاه، ليكون الأمر معتدلاً»

ولأن الموقف الشرعى من الثروات والأموال جامع بين أداء الأمانات إلى أهلها وبين العدل بين الناس ـ وهما جماع السياسة الشرعية ـ فلقد أولى ابن تيمية هذا الباب كثيرًا من الاهتمام.. فالمال مال الله.. والناس مستخلَفون فى هذا المال.. والولاة أمناء ونواب ووكلاء، وليسوا ملاكًا لهذا المال.. وبعبارة ابن تيمية: «فليس لولاة الأمور أن يقسموها بحسب أهوائهم، كما يقسم المالك ملكه، فإنما هم أمناء ونواب ووكلاء، ليسوا ملاكًا، كما قال رسول الله: «إنى، والله، لا أعطى أحدًا، ولا أمنع أحدًا، وإنما أنا قاسم أضع حيث أُمرت» ـ رواه البخارى..

وقال رجل لعمر: يا أمير المؤمنين، لو وسَّعت على نفسك فى النفقة من مال الله تعالى؟ فقال له عمر: أتدرى ما مثلى ومثل هؤلاء؟ كمثل قوم كانوا فى سفر، فجمعوا منهم مالاً، وسلموه إلى واحد ينفقه عليهم، فهل يحل لذلك الرجل أن يستأثر عنهم من أموالهم؟»؟!.

ـ وإذا كانت الأثرة مذمومة.. فإن ابن تيمية يشبهها ـ عند ولاة الأمر ـ بالسرقة واللصوصية.. ويدعو إلى عصيان أهلها، فيقول: «فإذا كان ولى الأمر يستخرج من العمال ما يريد أن يختص به هو وذووه، فلا ينبغى إعانة واحد منهما، إذ كل منهما ظالم، كلص سرق من لص!».

ـ وإذا كانت الأثرة فى الأموال لصوصية وسرقة، فإن شهوة الاستئثار بالسلطة هى المدخل للاستبدال السياسى، الذى هو قرين الاستبداد المالى، وهما ـ واقعيًا وتاريخيًا ـ السبب فى انهيار النظم والحضارات.. إنهما الفرعونية والقارونية التى سلط القصص القرآنى عليهما الأضواء للتحذير منهما ومن عواقبهما.. وفى الموقف منهما يقول شيخ الإسلام: «وقد روى كعب بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال: «ما ذئبان

جائعان أرسلا فى زريبة غنم بأفسد من حرص المرء على المال والشرف لدينه» ـ رواه الترمذى..

وقد أخبر الله تعالى ـ عن الذى يؤتَى كتابه بشماله أنه يقول: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩] وغاية مريد الرياسة أن يكون كفرعون، وجامع المال أن يكون كقارون، وقد بين الله تعالى فى كتابه حال فرعون وقارون، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ [غافر: ٢١].. وقال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] لأن إرادة العلو على الخلق ظلم، لأن الناس من جنس واحد، فإرادة الإنسان أن يكون هو الأعلى ونظيره تحت ظلم. أما إن كان المقصود بالسلطان والمال هو التقرب إلى الله وإنفاق المال فى سبيله، كان ذلك صلاح الدين والدنيا».

ـ وفى المطلوب إنفاقه من الأموال، ينحاز ابن تيمية إلى المذهب القائل إن الواجب هو إنفاق الفضول والزيادات عن كفاية الحائز لهذه الأموال، «ففى صحيح مسلم: «يا بن آدم، إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تُلام على الكفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى»، وهذا تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] أى الفضل».

ـ كما حرص ابن تيمية على أن يحذر من آفة الرشوة، فقال: «لقد جاء فى الأثر: «إذا دخلت الرشوة من الباب خرجت الأمانة من الكوة»! وبذلك ينهار عمود من أعمدة السياسة الشرعية كما حددها الإسلام..

ـ وفى الموقف الشرعى من «المعاملات» و«العبادات»، يميز ابن تيمية بينهما ـ تبعًا للموقف الإسلامى المجمع عليه ـ فينبه على أن الأصل فى المعاملات الإباحة، فهى متطورة متغيرة تبعًا لتغير المصالح المشروعة ـ بشرط العدل الذى هو قوام السياسة الشرعية ـ بينما الأصل فى العبادات أنها توقيفية، نقف فيها عند ما ورد فى شرع الله.. وفى ذلك يقول: «إن العدل فى المعاملات هو قوام العالمين، لا تصلح الدنيا والآخرة إلا به.. وإن عامة ما نهى عنه الكتاب والسنة من المعاملات يعود إلى تحقيق

العدل، والنهى عن الظلم.. والأصل فى هذا أنه لا يحرم على الناس من المعاملات التى يحتاجون إليها إلا ما دل الكتاب والسنة على تحريمه، كما لا يشرع لهم من العبادات التى يتقربون بها إلى الله إلا ما دل الكتاب والسنة على شرعه، إذ الدين ما شرعه الله، والحرام ما حرمه الله، بخلاف الذين ذمهم الله، حيث حرموا من دين الله ما لم يحرمه الله، وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله»

ـ وينبه ابن تيمية على أن الإسلام قد أحل «جامعة الأمة» محل العصبيات الجاهلية، وأقام قطيعة مع هذه العصبيات.. فيقول: «فكل ما خرج عن دعوة الإسلام والقرآن، من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة، فهو من عزاء الجاهلية، بل لما اختصم رجلان من المهاجرين والأنصار فقال المهاجرى: يا للمهاجرين، وقال الأنصارى: يا للأنصار، قال النبى ﷺ «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟» ـ الدر المنثور ٢/ ٢٥٧ ـ وغضب لذلك غضبًا شديدًا».

ـ ورغم أن ابن تيمية قد عاش فى عصر تحالفت فيه الصليبية مع الوثنية التترية لتدمير الحضارة الإسلامية ـ وطى صفحة الإسلام من الوجود..فلقد التزم ـ شيخ الإسلام ـ منهاج الإسلام الذى ينهى عن قتال الذين لا يقاتلوننا.. كما نبه على قيم الإسلام فى الفروسية عند قتال الأعداء.. فقال: «إن القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].. وفى السنن عنه ﷺ أنه مر على امرأة مقتولة فى بعض مغازيه، فقال: «ما كانت هذه لتقاتل»، وقال لأحدهم: «إلحق خالدًا فقل له: لا تقتلوا ذرية ولا عسيفًا»[1].

وفيها أيضًا ـ عنه ـ ﷺ أنه كان يقول: «لا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلاً صغيرًا، ولا امرأة».. فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفرة إلا على نفسه».

ـ كما نبه على وجوب جهاد كل من وقف حائلاً دون نشر دعوة الإسلام وإقامة شريعته، فقال: «.. فكل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة، يجب جهادها، حتى يكون الدين كله لله، باتفاق العلماء».

(١) العسيف: الأجير.

ـ كذلك نبه شيخ الإسلام ابن تيمية على أن الإخلاص فى الأعمال، والتوكل على الله فى السعى لتحقيق هذه الاعمال هو كلمة السر ومفتاح النجاح فى تحقيق المقاصد المبتغاة.. «فالإخلاص والتوكل هما جماع صلاح الخاصة والعامة.. ولذلك أمرنا أن نقول فى صلواتنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ـ فإن هاتين الكلمتين قد قيل: إنهما يجمعان معانى الكتب المنزلة من السماء» ولهذا كانت العبرة بالنوايا والمقاصد، وليس بالصور والأشكال «ولقد قال النبى ﷺ «إنما الأعمال بالنيات» ـ البخارى ومسلم.. وهى كلمة جامعة كاملة، فإن النية للعمل كالروح للجسد، وإلا فكل واحد من الساجد لله، والساجد للشمس والقمر، قد وضع جبهته على الأرض، فصورتهما واحدة، ثم هذا أقرب الخلق إلى الله تعالى وهذا أبعد الخلق عن الله».

ـ وكعالم من علماء النفس وخبير من خبراء الاجتماع، تحدث ابن تيمية عن أنواع الناس فقال: «إن الناس ثلاثة أقسام: قسم يغضبون لنفوسهم ولربهم، وقسم لا يغضبون لنفوسهم ولا لربهم. والثالث ـ وهو الوسط ـ الذى يغضب لربه لا لنفسه، كما فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها ـ قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له، ولا امرأ، ولا دابة، ولا شيئًا قط، إلا أن يجاهد فى سبيل الله، ولا نيل منه شىء فانتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله، فإن انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شىء حتى ينتقم لله».

فأما من يغضب لنفسه لا لربه، أو يأخذ لنفسه ولا يعطى غيره، فهذا القسم الرابع، شر الخلق، لا يصلح به دين ولا دنيا».

ـ وفى سياسة الأسرة ـ وهى اللبنة الأولى للأمة ـ انتصر ابن تيمية للعدل بين الزوجين، ولإنصاف الناس.. فنبه على «أن الواجب هو الحكم بين الزوجين بما أمر الله تعالى به، من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، فيجب على كل من الزوجين أن يؤدى إلى الآخر حقوقه بطيب نفس وانشراح صدر، فإن للمرأة على الرجل حقًا فى ماله، وهو الصداق والنفقة بالمعروف، وحقًا فى بدنه، وهو العشرة والمتعة، بحيث لو آلى منها[1] استحقت الفرقة بإجماع المسلمين، وكذلك لو كان مجبوبًا أو عنينًا لا يمكنه جماعها فلها الفرقة، ووطؤها واجب عليه عند أكثر العلماء.

(١) الإيلاء: هو الحلف على ترك جماع الزوجة مدة من الزمن. وفى القرآن الكريم: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦].

وقد قيل: إنه لا يجب ـ (أى الوطء) ـ اكتفاء بالباعث الطبيعى، والصواب أنه واجب، كما دل عليه الكتاب والسنة والأصول، وقد قال النبى ﷺ لعبد الله بن عمر ـ رضى الله عنه ـ لما رآه يكثر الصوم والصلاة: «إن لزوجك عليك حقًا» ـ رواه البخارى ومسلم.

وللرجل على زوجه أن يستمتع منها متى شاء، ما لم يضرها، أو يشغلها عن واجب، فيجب عليها أن تمكنه كذلك. ولا تخرج من منزله إلا بإذنه أو بإذن الشارع، واختلف الفقهاء: هل عليها خدمة المنزل؟ فقيل: يجب، وقيل: لا يجب، وقيل: يجب الخفيف منه».

ـ وبالرغم من قسوة الصراع الذى ساد عصر ابن تيمية بين المسلمين وبين أعدائهم من الصليبيين والتتار ـ ومعهم الشيعة والباطنية ـ وهو الصراع الذى شارك فيه شيخ الإسلام بالقلم واللسان والسنان ـ إلا أن الرجل ـ على عكس ما يظن خصومه ـ كان داعية للبشاشة، وترك التهجم فى العلاقات بين الناس.. فالبشاشة، والكلمة الطيبة من الإحسان» ولقد جاء فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «كل معروف صدقة».. فيدخل فيه كل إحسان، ولو ببسط الوجه، والكلمة الطيبة.. ومن استطاع منكم أن يتقى النار ولو بشق تمرة فليفعل، فإن لم يجد فبكلمة طيبة».. وفى السنن، عن النبى ﷺ قال: «لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط، ولو أن تفرغ دلوك فى إناء المستقى» ـ رواه مسلم.. وفى السنن ـ عن النبى ﷺ أيضًا: «إن أثقل ما يوضع فى الميزان الخُلُق الحسن».. ولقد قال لأم سلمة: «يا أم سلمة، ذهب حسن الخُلُق بخير الدنيا والآخرة».

ـ كما كان الرجل حكيمًا فى التعامل مع النفس الإنسانية عندما دعا إلى تجديد ملكاتها وطاقاتها بالترويح عنها كى لا تكل فيصيبها الفتور.. وقدم لهذا المنهاج الإسلامى التأصيل النبوى والمأثورات.. «فلقد روى أبو حاتم البستى فى صحيحه حديث أبى زر ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ الذى فيه من أنواع العلم والحكمة ـ وفيه أنه كان فى حكمة آل داود عليه السلام: «حق على العاقل أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بأصحابه الذين يخبرونه بعيوبه ويحدثونه عن ذات نفسه، وساعة يخلو فيها بلذته فيما يحل ويجمل، فإن فى هذه الساعة عونًا له على تلك الساعات».. فبين أنه لابد من اللذات المباحة

الجميلة، فإنها تعين على تلك الأمور.. وكان أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ يقول: «إنى لأستجم نفسى بالشيء من الباطل لأستعين به على الحق. والله ـ سبحانه ـ إنما خلق اللذات والشهوات فى الأصل لتمام مصلحة الخلق، فإنهم بذلك يجتلبون ما ينفعهم، كما خلق الغضب ليدفعوا به ما يضرهم، وحرم من الشهوات ما يضر تناوله، وذم من اقتصر عليها، فأما من استعان بالمباح الجميل على الحق، فهذا من الأعمال الصالحة».

* * *

هكذا تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن معالم السياسة الشرعية ـ العلم الذى يضمن صلاح الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان ـ لأنه العلم الذى يحقق أداء الأمانات إلى أهلها وإقامة العدل بين الناس..والذى يطور فى الآليات والتطبيقات تبعًا لتغير المصالح المتجددة أبدًا عبر الزمان والمكان.. كما ضرب الأمثال على تطبيقات هذه السياسة الشرعية فى «الدولة» و«الأمة» و«الأسرة» والعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين..

رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية.. المجدد المجاهد.. الذى كان ـ كما وصفه الإمام محمد عبده: «أعلم الناس بالسنة، وأشدهم غيره على الدين».. والذى خلَّف لنا صرحًا فكريًا نهض ـ ولا يزال ينهض ـ بدور مؤثر فى يقظتنا الإسلامية الحديثة والمعاصرة.. والله نسأل أن ينفع بكتابه هذا.. إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خير مسئول وأكرم مجيب[1].

١٨ صفر ١٤٣٥هـ/ ٢١ ديسمبر ٢٠١٣م

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب فى (روائع ابن تيمية)، طبعة نيوبوك ـ للنشر والتوزيع ـ القاهرة سنة ٢٠١٦م.

الحسبة ومسئولية الأمة والدولة فى الإسلام

لشيخ الإسلام ابن تيمية

[٦٦١ـ٧٢٨هـ ـ ١٢٦٣ـ١٣٢٨م]

(١)

الإيمان الإسلامى منهاج شامل للحياة، كل ميادين الحياة، وليس مجرد علاقة خاصة بين المؤمن وبين الله.. إنه «بضع وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله ـ [التوحيد] ـ وأدناها إماطة الأذى ـ [أى أذى] ـ عن الطريق [كل طريق]..».

وكل ميادين الحياة طرق وسبل ومسالك إلى يوم الدين.

ومن شعب هذا الإيمان وفرائضه وتكاليفه ما يتوجه فيه الخطاب إلى الأمة، لأن الإسلام دين الجماعة، تحول فيه وبه الفرد إلى لبنة فى بناء الأمة، وتحولت فيه وبه الأمة إلى لبنة فى بناء الإنسانية جمعاء.. وهذا اللون من الفرائض ـ الكفائية ـ والاجتماعية ـ أشد توكيدًا من فروض الأعيان ـ الفردية ـ بدليل أن التخلف عن أداء فرض العين يقع إثمه على الفرد وحده، أما التخلف عن الفرض الاجتماعى الكفائى فإن إثمه على الأمة جمعاء.

وفى الشريعة الإسلامية اندرجت كل الفرائض الكفائية والاجتماعية تحت فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. ذلك «أن جماع الدين وجماع الولايات ـ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ـ ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ـ ١٣٢٨م] ـ هو أمر ونهى، فالأمر الذى بعث الله به رسوله ﷺ هو الأمر بالمعروف، والنهى الذى بعثه به هو النهى عن المنكر، وهذا نعت النبى والمؤمنين ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]. وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض على الكفاية. ويصير فرض عين على القادر إذا لم يقم به غيره.

والقدرة هى السلطان والولاية، فذوو السلطان أقدر من غيرهم، وعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم، فإن مناط الوجوب هو القدرة، فيجب على كل إنسان بحسب قدرته. قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وجميع الولايات الإسلامية إنما مقصودها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر».

ـ ولقد جعل الإسلام العصمة للأمة، وجعل إجماعها حجة معصومة، لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر «فكان إجماع هذه الأمة حجة، لأن الله تعالى أخبر أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ـ بل إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو عنوان الإيجابية، الشاهدة على حياة الأمة ـ بينما العكس هو دليل موتها ومواتها.

«ولقد قيل لابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: من ميت الأحياء؟ فقال: الذى لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا».

ـ ولخطر هذه الفريضة، وشمولها، وضعت الشريعة لها شروطًا وضوابط. منها «العلم، والرفق، والصبر. العلم قبل الأمر والنهى، والرفق معه، والصبر بعده».

ـ وإذا كان القيام بهذه الفريضة الجامعة هو سبيل السعادة فى الدنيا والآخرة، فإن غيابها والتفريط فيها هو باب الكفر والعصيان والشرور والعدوان، والفتن المدمرة للمجتمعات.. «فإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشرور والعدوان، فقد يذنب الرجل أو الطائفة ويسكت آخرون عن الأمر والنهى، فيكون ذلك من ذنوبهم، فيحصل التفرق والاختلاف والشر، وهذا من أعظم الفتن والشرور قديمًا وحديثًا.. ومن تدبر الفتن الواقعة رأى فيها ذلك، ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها ومن دخل فى ذلك من ملوكها ومشايخها، ومن تبعهم من العامة من الفتن هذا أصلها».

ـ وإذا كانت فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر موجهة إلى الكافة ـ الأفراد والجماعات والأمة ـ فإنها تعظم بعظم القدرة والقوة التى تمكن من إقامتها..

وخاصة قوة السلطة والدولة ـ التى تسن القوانين التى تجازى على التفريط فيها، ذلك «أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يتم إلا بالعقوبات الشرعية، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

(٢)

وإذا كان الإسلام دين الجماعة ـ دين الأمة ـ الشاملة للأفراد والطبقات ـ فإن هذه الحقيقة الإسلامية قد تأسست على «مدنية الإنسان واجتماعيته» التى هى من الصفات اللصيقة بهذا الإنسان.. ولقد استلزمت مدنية الإنسان واجتماعيته ـ مع ضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ استلزمت ضرورة «السلطة والدولة» كواجب مدنى، يتوقف على إقامته إقامة الكثير من الفرائض الدينية ـ وما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب.. ذلك «أن كل بنى آدم لا تتم مصلحتهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر، فالتعاون والتناصر على جلب منافعهم، والتناصر لدفع مضارهم، ولهذا يقال: الإنسان مدنى بالطبع. فإذا اجتمعوا فلابد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد، والناهى عن تلك المفاسد، فجميع بنى آدم لابد لهم من طاعة آمر وناه.

فمن لم يكن من أهل الكتب الإلهية ولا من أهل دين، فإنهم يطيعون ملوكهم فيما يرون أنه يعود بمصالح دنياهم، مصيبين تارة ومخطئين تارة أخرى.. ولهذا أمر النبى ﷺ أمته بتولية ولاة أمور عليهم، وأمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأمرهم بطاعة ولاة الأمور فى طاعة الله تعالى ـ قال ﷺ «إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم» ـ رواه أبو داود ـ. وقال: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمّروا أحدهم ـ رواه الإمام أحمد..

فإذا كان قد أوجب فى أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات أن يولّى أحدهم، كان هذا تنبيهًا على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك، ولهذا كانت الولاية ـ لمن يتخذها دينًا يتقرب به إلى الله ويفعل فيها الواجب بحسب الإمكان ـ من أفضل الأعمال الصالحة. قال ﷺ: «إن أحب الخلق إلى الله إمام عادل، وأبغض الخلق إلى الله إمام جائر» ـ رواه الإمام أحمد..

وكل بشر على وجه الأرض فلا بد له من أمر ونهى، ولا بد من أن يأمر وينهى، حتى لو أنه وحده، لكان يأمر نفسه وينهاها إما بمعروف وإما بمنكر.. فإن الإنسان حى يتحرك بإرادته. وبنوا آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعدًا فلأبد أن يكون بينهما ائتمار بأمر وتناه عن أمر».

(٣)

وإذا كانت طاعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فريضة واجبة، شكرًا له على خلقه وعلى نعمه وعلى ألطاف هداياته.. فإن هذه الطاعة واجبة ـ كذلك ـ لرسله الذين بلغوا هداياته ورسالاته.. وهى واجبة ـ أيضًا ـ لأولى الأمر الذين يمثلون السلطة التى لابد منها لقيام الاجتماع المنظم لمدنية الإنسان.. ولذلك «أمر الله فى كتابه بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وطاعة أولى الأمر من المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

«وأولوا الأمر: هم أصحاب الأمر وذووه، وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشترط فيه، أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام، فلهذا كان أولو الأمر صنفين: العلماء والأمراء، فإذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس، كما قال أبو بكر الصديق للأحمسية لما سألته: ما بقاؤنا على هذا الأمر؟ قال: ما استقامت لكم أئمتكم.

ويدخل فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان، وكل من كان متبوعًا فإنه من أولى الأمر. وعلى كل واحد من هؤلاء أن يأمر بما أمر الله به، وينهى عما نهى الله عنه، وعلى كل واحد ممن عليه طاعته أن يطيعه فى طاعة الله، ولا يطيعه فى معصية الله، كما قال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ حين تولى أمر المسلمين وخطبهم، فقال فى خطبته: أيها الناس، القوى فيكم الضعيف عندى حتى آخذ منه الحق، والضعيف فيكم القوى عندى حتى آخذ له الحق، أطيعونى ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم».

(٤)

وإذا كان صلاح الاجتماع الإنسانى مرهونًا بإقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، التى تستلزم إقامة الدولة والسلطة المنظمة لهذا الاجتماع.. فإن صلاح هذه الدولة والسلطة، الضامن لقيامها بوظيفتها المثلى، مرهون بعدالة هذه الدولة وهذه السلطة.. ذلك أن العدل اسم من أسماء الله الحسنى.. وهو روح الاجتماع الإسلامى، السارية فى الحضارة الإسلامية ـ وذلك على عكس أنساق

فكرية وحضارية أخرى جعلت روحها القوة.. وأنساق فكرية أخرى جعلت روحها المحبة.. ففى العدل تجتمع وتأتلف المحبة والقوة جميعًا.

ولهذا كان العدل الإسلامى هو أساس الملك، وعماد العمران، والسبيل الذى يرقى بالصلاح الفردى إلى الصلاح الاجتماعى.. فالصلاح الفردى ثمراته الكبرى فى الآخرة، بينما الإصلاح الاجتماعى ثمراته فى الدنيا والآخرة معًا.

ولقد وقفت هذه الحقيقة الإسلامية وراء تأكيد شيخ الإسلام ابن تيمية على أن الدول والمجتمعات تقوم وتدوم بالعدل، حتى ولو شابه إثم، بل وكفر، بينما لا تقوم الدول والمجتمعات على الظلم والجور، حتى ولو خالطه صلاح عند الأفراد..

ذلك «أن أمور الناس تستقيم فى الدنيا مع العدل الذى فيه الاشتراك فى أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم فى الحقوق وإن لم تشترك فى الإثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وقد قال النبى ﷺ: «ليس ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرحم» ـ رواه الترمذى.

فالباغى يصرع فى الدنيا وإن كان مغفورًا له مرحومًا فى الآخرة، وذلك أن العدل نظام كل شىء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها من الإيمان ما يجزى به فى الآخرة.

كذلك، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم. ولهذا كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول: «أشكو إليك جَلَد الفاجر وعجز الثقة».

وفى الحديث الشريف: «يحشر الجبارون على صور الذر يطؤهم الناس بأرجلهم» ـ رواه الترمذى والإمام أحمد..

ولقد شهد التاريخ الإسلامى على عهد ابن تيمية وغيره ـ نماذج من السلاطين، كان الواحد منهم ـ كفرد ـ يبكى لسماع مواعظ العلماء.. ومع ذلك، كان ـ كحاكم ـ «ظلومًا غشومًا كثير المصادرات»!.. ومنهم من أقام المساجد الكبرى بالسخرة!.. وأوقف عليها الأراضى والعقارات التى صادرها من الناس!..

وحتى لا يسود ذلك فى الاجتماع الإسلامى، كانت الدولة العادلة، وكان المصلحون ـ وليس فقط الصلحاء ـ شرط قيام الاجتماع الإسلامى ودوام الدولة

الإسلامية.. فلقد يهلك الناس وفيهم الصالحون.. لكنه ـ سبحانه ـ لا يهلكهم وفيهم المصلحون﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

(٥)

ومع إعلاء ابن تيمية لمقام العدل، الذى هو قوام الدول والمجتمعات وشرط دوامها ـ حتى لو صاحبه الكفر والإثم ـ فإننا نراه متحفظًا على موقف الخروج على أئمة الجور وسلطات التغلب التى حكمت لفترات طويلة فى الكثير من بقاع عالم الإسلام.. فلقد كان ابن تيمية إمامًا من أئمة السلفية الحنبلية التى قال إمامها أحمد بن حنبل [١٦٤ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ـ ٨٥٥م]: «ومن غلب بالسيف حتى صار خليفة وسُمى أمير المؤمنين، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ولا يراه إمامًا عليه، برا كان أو فاجرًا، فهو أمير المؤمنين»[1].

وكان الإمام أحمد يرجح طاعة أئمة الجور على الخروج عليهم وقتالهم، لأن ثورات الخوارج قد استنزفت طاقات الأمة والدولة معًا.. ولأن النزعات الشعوبية والدعوات المذهبية قد أسالت الكثير من الدماء دون أن تنجح فى إقامة العدل المنشود.. ولقد جاء عصر ابن تيمية، الذى ظللته مخاطر الغزو الخارجى الصليبى والتترى ومخاطر النزعات الباطنية الشيعية ـ لتجعل الرجل داعية للاصطفاف وراء أمراء المماليك، الذين كانوا القوة الضاربة التى حمت الوجود للإسلام وأمته وحضارته.. لأن مصلحة الاصطفاف وراءهم قد رجحت على مفاسدهم ومظالمهم، التى لم ينج منها شيخ الإسلام نفسه ـ الذى حارب وراءهم.. ثم مات فى سجنهم!

لذلك ومع انتصار ابن تيمية للعدل فى الدولة والسلطة، كان رافضنا للثورة والخروج على أئمة الجور.. لأن الثورة والخروج على الغزاة ـ مع أئمة الجور ـ قد مثلت المصلحة الراجحة فى ظل تلك المعادلات والملابسات.. وفى ذلك قال: «لقد أمر النبى ﷺ بالصبر على جور الأئمة، ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة، وقال: «أدوا إليهم حقوقهم، وسلوا الله فى حقوقكم» ـ رواه الترمذى والإمام أحمد..

(١) أبو يعلى [الأحكام السلطانية] ص ٤. طبعة القاهرة ١٩٣٨م.

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة، وترك القتال فى الفتنة.. وجماع ذلك داخل فى «القاعدة العامة»: فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد، والحسنات والسيئات»، أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها.. واعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقل أن تعوز النصوص من كان خبيرًا بها وبدلالتها على الأحكام».

(٦)

ولم يقف العدل ـ فى فكر ابن تيمية ـ عند العدل السياسى إزاء القانون.. والذى لا يجدى كثيرًا عندما يغيب العدل الاجتماعى والاقتصادى فى العلاقات بين الطبقات.. بل لقد امتد فكره إلى ميدان العدل الاجتماعى والاقتصادى، فنبه على الفرائض التى فرضها الإسلام للفقراء فى أموال الأغنياء، والتى جعلها حقوقًا وواجبات وفرائض وليس مجرد إحسانات..

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو المالك الحقيقى للثروات والأموال.. والناس ـ كل الناس ـ مستخلفون فى هذه الثروات والأموال ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠]، ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

ولهم جميعًا، حقوق تفى بالضرورات والحاجات، من مسكن.. وملبس.. وأدوات إنتاج.. وحقوق للأبدان.. ولقد أفاض شيخ الإسلام ابن تيمية فى الحديث عن هذه الحقوق الاجتماعية والاقتصادية، فقال: «إنه إذا قدر أن قومًا اضطروا إلى سكنى بيت إنسان إذا لم يجدوا مكانًا يأوون إليه إلا ذلك البيت، فعليه أن يسكنهم. وكذلك إذا احتاجوا إلى أن يعيروهم ثيابًا يستدفئون بها من البرد، أو إلى آلات يطبخون بها، أو يبنون أو يسقون: يبذل هذا مجانًا. وإذا احتاجوا إلى أن يعيرهم دلوا يسقون به، أو قدرًا يطبخون فيها، أو فأسًا يحفرون به، فهل عليه بذله بأجرة المثل لا بزيادة؟ فيه قولان للعلماء فى مذهب أحمد وغيره والصحيح بذل ذلك مجانًا إذا كان صاحبها مستغنيًا عن تلك المنفعة وعوضها، كما دل عليه الكتاب والسنة ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٧]. وفى السنن عن ابن مسعود قال: كنا نعد [الماعون] عارية الدلو

والقدر والفأس.. وفى الصحيحين قال ﷺ «لا يمنعن جار جاره أن يغرز خشبة فى جداره» ـ رواه البخارى ومسلم ـ وإيجاب بذل هذه المنفعة مذهب أحمد وغيره.

والمنافع التى يجب بذلها نوعان: منها ما هو حق المال، ومنها ما يجب لحاجة الناس. وأيضًا، فإن بذل منافع البدن يجب عند الحاجة، كما يجب تعليم العلم، وإفتاء الناس، وأداء الشهادة، والحكم بينهم، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد، وغير ذلك من منافع الأبدان ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾.. ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ونظير هؤلاء الذين يتجرون فى الطعام بالطحن والخبز، ونظير هؤلاء صاحب الخان[١] والقيسارية[٢] والحمام إذا احتاج الناس إلى الانتفاع بذلك، وهو إنما ضمنها ليتجر فيها، فلو امتنع من إدخال الناس إلا بما شاء وهم يحتاجون لم يُمكن من ذلك، وألزم بذل ذلك بأجرة المثل، كما يلزم من يشترى الحنطة ويطحنها ليتجر فيها، والذى يشترى الدقيق ويخبزه ليتجر فيه مع حاجة الناس إلى ما عنده، بل إلزامه ببيع ذلك بثمن المثل أولى أو أحرى، بل إذا امتنع من صنعة الخبز والطحن حتى يتضرر الناس بذلك، ألزم بصنعتها..

ولقد أضعف عمر بن الخطاب وغيره الغرم فى ناقة الأعرابى أخذها مماليك جياع، فأضعف الغرم على سيدهم ودرأ عنهم القطع».

ـ كذلك تحدث ابن تيمية عن دور الدولة والسلطة فى إقامة هذا العدل الاجتماعى والاقتصادى، فحبذ تدخل الدولة فى هذا الميدان لتحقيق هذه المصالح العامة ـ وهى فلسفة اجتماعية تناقض فردية الفلسفة الرأسمالية فى الأموال ـ فقال: «ولولى الأمر أن يكره الناس على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس إليه. مثل من عنده طعام لا يحتاج إليه والناس فى مخمصة، فإنه يجبر على بيعه للناس بقيمة المثل»، ولهذا قال الفقهاء: من اضطر إلى طعام الغير، أخذه منه بغير اختياره بقيمة مثله، ولو امتنع من بيعة إلا بأكثر من سعره، لم يستحق إلا سعره.

ومن هنا يتبين أن السعر منه ما هو ظلم لا يجوز، ومنه ما هو عدل جائر.. فإذا

(١) الخان: الحانوت. ومحل نزول المسافرين ـ النزل ـ الفندق.

(٢) القيسارية: سوق التجارة فى المدن.

تضمن ظلم الناس وإكراههم بغير حق على البيع بثمن لا يرضونه، أو منعهم مما أباحه الله لهم، فهو حرام. وإذا تضمن العدل بين الناس، مثل إكراههم على ما يجب عليهم من المعاوضة بثمن المثل، ومنعهم مما يحرم عليهم من أخذ زيادة على عوض المثل، فهو جائز، بل واجب».

«وما احتاج إلى بيعه وشرائه عموم الناس، فإنه يجب ألا يباع إلا بثمن المثل، إذا كانت الحاجة إلى بيعه وشرائه عامة.

ومن ذلك أن يحتاج الناس إلى صناعة ناس، مثل حاجة الناس إلى الفلاحة والنساجة والبناية، وغيرها من الصناعات، وصارت فرضًا على الكفاية إلا فيمن يتعين، مثل طلب كل واحد علم ما أمره الله به وما نهاه عنه، فإن هذا فرض على الأعيان.

فإذا احتاج الناس إلى فلاحة قوم أو نساجتهم أو بنائهم، صار هذا العمل واجبًا يجبرهم ولى الأمر عليه، إذا امتنعوا عنه، بعوض المثل، ولا يمكنهم من مطالبة الناس بزيادة عن عوض المثل، ولا يمكن الناس من ظلمهم بأن يعطوهم دون حقهم، كما إذا احتاج الجند المرصودون للجهاد إلى فلاحة أرضهم، ألزم من صناعته الفلاحة بأن يصنعها لهم، فإن الجند يلزمون بألا يظلموا الفلاح كما أُلزم الفلاح أن يفلح للجند.

وإذا احتاج الناس إلى سلاح للجهاد، فعلى أهل السلاح أن يبيعوه بعوض المثل، ولا يمكنون من أن يحبسوا السلاح حتى يتسلط العدو أو يُبذل لهم من الأموال ما يختارون.

ومن منع التسعير مطلقًا، محتجًا بقول النبى ﷺ: «إن الله هو المسعر القابض الباسط، وإنى لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبنى بمظلمة فى دم ولا مال» ـ رواه أبو داود والترمذى فقد غلط، فإن هذه قضية معينة، ليست لفظًا عامًا، وليس فيها أن أحدًا امتنع من بيع ما يجب عليه، أو عمل يجب عليه، أو طلب فى ذلك أكثر من عوض المثل».

ـ لقد انطلق ابن تيمية فى هذا الموقف المعبر عن فلسفة الإسلام فى الثروات والأموال.. فلسفة ملكية الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهذه الثروات والأموال ـ ملكية الرقبة.. الملكية الحقيقية ـ مع استخلاف الناس ـ كل الناس ـ فى الحيازة، وملكية المنفعة، والاستثمار، والاستمتاع، لتحقيق الكفايات والضرورات والحاجيات

للجميع فى هذه الأموال والثروات.. وهى الفلسفة التى انطلقت منها والتزمت بها كل تيارات الفكر الإسلامى على مر التاريخ..

ـ فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].. والإمام الزمخشرى [٤٦٧ـ ٥٣٨٠هـ/ ١٠٧٥ـ ١١٤٤م] ـ وهو معتزلى يقول فى تفسير هذه الآية: «إن مراد الله من هذه الآية هو أن يقول للناس: إن الأموال التى فى أيديكم إنما هى أموال الله، بخلقه وإنشائه لها، وإنما موّلكم إياها، وخوّلكم الاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها، فليست هى أموالكم فى الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب»(١).

ـ وحجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ـ ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ـ ١١١١م] ـ وهو أشعرى يعبر عن ذات الفلسفة فيقول: «إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا.. فنظام الدين، بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة، والسكن، والأقوات، والأمن.. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية. وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟! فإذن، بان أن نظام الدنيا، أعنى مقادير الحاجة، شرط النظام الدين»(٢).

ـ وهو ذات الموقف الذى التزمه إمام الظاهرية وفيلسوف الإسلام ابن حزم الأندلسى [٣٨٤ـ ٤٥٦هـ/ ٩٩٤ـ ١٠٦٤م] الذى يقول عن حقوق الفقراء فى أموال الأغنياء: «وفرض على الأغنياء، من أهل كل بلد، أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم، ولا فئ أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون الماره، ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير ـ مسلم أو ذمى وهو يجد طعامًا فيه فضل عن صاحبه.. وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قُتل فعلى قاتله القَوَد ـ [الدية] ـ وإن قُتل المانع فإلى لعنة

(١) الزمخشرى: تفسير [الكشاف] جـ٤ ص ٦١. طبعة القاهرة ١٩٦٨م.
(٢) الغزالى: [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٣٥. طبعة صبيح ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

الله، لأنه منع حقًا، وهو طائفة باغية. قال تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

ومانع الحق باغ على أخيه الذى له الحق، وبهذا قاتل أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ مانع الزكاة.. »[١].

ـ وهو نفس الموقف الذى أعلنه إمام المجددين فى العصر الحديث الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ـ ١٣٢٣هـ/ ـ ١٨٤٩ـ ١٩٥م] عندما لمح إضافة القرآن الكريم مصطلح «المال» إلى ضمير «الجمع» فى سبع وأربعين آية، وإضافته إلى ضمير «المفرد» فى سبع آيات، فعلق على ذلك فقال: «إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أراد أن ينبه بذلك على تكافل الأمة فى حقوقها ومصالحها، فكأنه يقول:

«مال كل واحد منكم هو مال أمتكم»[٢].

ـ وقبل كل هؤلاء العلماء الأئمة ـ ذوى المذاهب المتعددة ـ قال الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز [٦١ـ ١٠١هـ/ ٦٨١ـ ٧٢٠م] عن المال فى فلسفة الإسلام الاجتماعية: «إنه نهر أعظم، والناس شربهم ـ [نصيبهم] ـ فيه سواء»[٣].

وقال الراشد الرابع على بن أبى طالب [٢٣ق. هـ ـ ٤٠هـ/ ٦٠٠ـ ٦٦١م]: «إن الله قد فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما متع به غنى، وإن الله سائلهم عن ذلك»[٤].

أما الراشد الثانى عمر بن الخطاب [٤٠ق. هـ ـ ٢٣هـ/ ٥٨٤ـ ٦٤٤م] فهو القائل عن حقوق الأمة ـ كل الأمة ـ فى الثروات والأموال:

«والذى نفسى بيده، ما من أحد إلا له فى هذا المال حق.. وما أحد أحق به من

(١) ابن حزم [كتاب المحلي] جـ٦، ص ١٥٩ ـ طبعة المنيرية ـ القاهرة.

(٢) محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ٥، ص ١٩٤. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق ـ القاهرة ١٩٩٣م.

(٣) الأصفهانى [كتاب الأغاني] جـ٩، ص ٣٣٧٥. طبعة دار الشعب. القاهرة.

(٤) على بن أبى طالب [نهج البلاغة]، ص ٤٠٨. طبعة دار الشعب. القاهرة.

أحد.. وما أنا فيه إلا كأحدهم، فالرجل وبلاؤه، والرجل وقدمه، والرجل وغناؤه، والرجل وحاجته، هو ما لهم يأخذونه.. ليس هو لعمر ولا لآل عمر»[1].

تلك هى فلسفة الإسلام فى الثروات والأموال.. انطلق منها كل أئمة الإسلام.. وعبر عنها شيخ الإسلام ابن تيمية، كفلسفة للأمة والسلطة فى دولة الإسلام.

(٧)

وإذا كان الإسلام دينًا ودولة.. وإذا كانت الدولة فيه فريضة مدنية، تتوقف على إقامتها فرائض دينية كثيرة..

وإذا كانت الدولة الإسلامية ضرورة لإقامة فريضة الفرائض الإسلامية: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. فلقد أولى شيخ الإسلام ابن تيمية دولة النبوة ـ فى المدينة المنورة ـ بالحديث الكاشف عن معالمها.. وعن الولايات الدينية والمدنية فيها، وفى الدولة الإسلامية بوجه عام.. وفى ذلك قال: «إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض على الكفاية، والولايات كلها: الدينية ـ مثل إمرة المؤمنين وما دونها: من ملك، ووزارة، وديوانية، سواء كانت كتابة خطاب، أو كتابة حساب لمستخرج أو مصروف فى أرزاق المقاتلة أو غيرهم، ومثل: إمارة حرب، وقضاء وحسبة، وفروع هذه الولايات، إنما شرعت للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وكان رسول الله ﷺ فى مدينته النبوية يتولى جميع ما يتعلق بولاة الأمور، ويولى الأماكن البعيدة عنه، كما ولى على مكة عتاب بن أسيد، وعلى الطائف عثمان ابن العاص، وعلى قرى عرينة خالد بن سعيد بن العاص، وبعث عليًا ومعاذًا وأبا موسى إلى اليمن، وكذلك كان يؤمر السرايا، ويبعث على الأمور الزكوية السعاة، فيأخذونها ممن هى عليه، ويدفعونها إلى مستحقيها الذين سماهم الله فى القرآن، فيرجع الساعى إلى المدينة، وليس معه إلا السوط، لا يأتى إلى النبى ﷺ بشيء إذا وجد لها موضعًا يضعها فيه.

وكان النبى ﷺ يستوفى الحساب على العمال، يحاسبهم على المستخرج والمصروف.

(١) ابن سعد [كتاب الطبقات] جـ ٣ ق ١، ص ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩. طبعة دار التحرير ـ القاهرة.

وعموم الولايات وخصوصها وما يستفيد المتولى بالولاية يتلقى بالألفاظ والأحوال والعرف، وليس لذلك حد فى الشرع، فقد يدخل فى ولاية القضاة فى بعض الأمكنة والأزمنة ما يدخل فى ولاية الحرب فى مكان وزمان آخر، وبالعكس، وكذلك الحسبة وولاية المال»

فمؤسسات الدولة مدنية، ورسالتها شرعية، هى إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الاجتماع الإسلامى.

(٨)

ولأن دولة الإسلام قد شهدت منذ السنوات الأخيرة لعهد الراشد الثالث عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ ما سمى «بالفتنة الكبرى» ـ وهى الفتنة التى تحرج بعض العلماء ـ وخاصة علماء السلفية ـ من الحديث عنها.. فإن ابن تيمية قد تناول أحداث تلك الفتنة باعتدال بعيدًا عن التهويل.. مشيرًا إلى دور الواقع الذى تغير فى إثارة هذه الفتنة ـ واقع الناس وواقع المجتمع ـ وواقع ولاة الدولة ـ وفى ذلك قال: «إن الناس ثلاثة أقسام»:

ـ قوم لا يقومون إلا فى أهواء أنفسهم، فلا يرضون إلا بما يعطونه، ولا يغضبون إلا لما يحرمونه.

ـ وقوم يقومون ديانة صحيحة، يكونون فى ذلك مخلصين لله، مصلحين فيما عملوه، ويستقيم لهم ذلك حتى يصبروا على ما أوذوا. وهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم من خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ـ وقوم يجتمع فيهم هذا وهذا، وهم غالب المؤمنين، فمن فيه دين وله شهوة تجتمع فى قلوبهم إرادة الطاعة وإرادة المعصية، وربما غلب هذا تارة وهذا تارة.

بهذه القسمة الثلاثية ـ كما قيل ـ الأنفس الثلاثة: أمارة، ومطمئنة، ولوامة.

ولهذا، لما كان الناس فى زمن أبى بكر وعمر، اللذين أُمر المسلمون بالاقتداء بها، كما قال ﷺ «اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر».. رواه الترمذى أقرب عهد بالرسالة، وأعظم إيمانًا وصلاحًا، وأئمتهم أقوم بالواجب، وأثبت فى الطمأنينة، لم تقع فتنة، إذ كانوا فى حكم القسم الوسط.

ولما كان فى آخر خلافة عثمان وخلافة على كثر القسم الثالث، فصار فيهم شهوة وشبهة مع الإيمان والدين، وصار ذلك فى بعض الولاة وبعض الرعايا، ثم كثر ذلك بعد، فنشأت الفتنة بسببها التى سببها ما تقدم من عدم تمحيص التقوى والطاعة فى الطرفين، واختلاطهما بنوع من الهوى والمعصية فى الطرفين، وكل منهما متأول أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأنه مع الحق والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوى، ففيه نوع من الظن وما تهوى الأنفس، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى».

(٩)

وحتى لا تتكرر الفتن التى تعصف بالمجتمعات الإسلامية..نبه شيخ الإسلام ابن تيمية على الشمائل والصفات التى يجب تربية الناس عليها.. فصياغة الإنسان صياغة إسلامية، والاستثمار فى صناعة التربية الإسلامية هو الضمان لصلاح الإنسان وإصلاح المجتمعات.. وفى هذا المقام قال شيخ الإسلام: «ولما كان صلاح بنى آدم لا يتم فى دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة والكرم، بين ـ سبحانه ـ أن من تولى عن الجهاد بنفسه أبدل الله به من يقوم بذلك، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد : ٣٨].

وبالشجاعة والكرم فضل السابقين: فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

وقد ذكر الجهاد بالنفس والمال فى سبيله، ومدحه فى غير آية من كتابه، وذلك هو الشجاعة والسماحة فى طاعته ـ سبحانه ـ فقال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ

فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩].. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

والشجاعة ليست هى قوة البدن، وقد يكون الرجل قوى البدن ضعيف القلب، وإنما هى قوة القلب وثباته. فإن القتال مداره على قوة البدن وصنعته للقتال، على قوة القلب وخبرته به. والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة، دون التهور الذى لا يفكر صاحبه ولا يميز بين المحمود والمذموم، ولهذا كان القوى الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب، حتى يفعل ما يصلح، فأما المغلوب حين غضبه فليس بشجاع ولا شديد..»

* * *

هكذا تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه عن [الحسبة ومسئولية الأمة والدولة فى الإسلام] ـ وهو واحد من روائعه الفكرية.. تحدث:

ـ عن فريضة الفرائض، الجامعة لكل فرائض العمل العام: فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. التى بها حياة الأمة والدولة وإحياؤها.. والتى بدونها تدخل الأمة والدولة فى عداد الأموات.

ـ وعن أن الإنسان مدنى بطبعه، ولذلك كانت السلطة والدولة، التى تنظم التمدن والاجتماع الإنسانى، فريضة دينية ومدنية.. فهى ضرورة مدنية، تتوقف على إقامتها الفرائض الدينية الاجتماعية ـ الكفائية، التى هى أشد توكيدًا وخطرًا من الفرائض الفردية على أعيان الأشخاص.

ـ وعن أولى الأمر، ودورهم فى إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفى قيادة الدولة والسلطة فى المجتمعات.

ـ وعن مكانة العدل، الذى هو قوام الدول والمجتمعات والحضارات.. تصلح به الدنيا وتدوم حتى لو صدر من الكافرين.. بينما المجتمعات والدول تزول بالظلم والجور حتى مع وجود الصالحين.. فالصلاح مع العجز والبلاهة لا يقيم دينًا ولا دنيا.. بينما ينصر الله الدين ويعز الدنيا بأهل العدل، حتى ولو صاحب عدلهم إثم، بل وكفر، فى السلوك الخاص.. لأن مدار الأمر على الأخذ بأسباب الإصلاح، وليس على النوايا

والأمنيات.. ولذلك جاء الإمام العادل ـ رأس الدولة العادلة ـ فى مقدمة الذين يحبهم الله.. وجاء الإمام الجائر ـ رمز الدولة الظالمة ـ فى مقدمة الذين يبغضهم الله.

ـ كما تحدث ابن تيمية عن الموقف السلفى من الخروج على أئمة الجور، وما فى هذا المبحث الشائك من موازنات بين المصالح والمفاسد فى حالات الصبر.. والخروج.

ـ ثم أفاض فى الحديث عن الموقف الإسلامى إزاء العدل الاجتماعى والاقتصادى، وعن واجبات الدولة فى تمكين الناس من الضرورات والحاجيات وكفايات الحياة اللائقة بإنسانية الإنسان.

ـ ولأن الإسلام دين ودولة.. فلقد أشار ابن تيمية إلى معالم دولة النبوة فى المدينة المنورة، وما شهدت من ولايات دينية ومدنية، ساسها الإسلام، وقامت بحراسة الإسلام.

ـ كما تحدث حديث الخبير بالنفوس وتربيتها عن أقسام الناس.. وأنواع الشمائل والصفات التى يتمايز بها الناس.. ودور ذلك البعد التربوى فى صلاح المجتمعات ـ ودور تراجعه فى قيام الفتن التى تصيب هذه المجتمعات.. وطبق ذلك على ما حدث للخلافة الراشدة ـ منذ أواخر عهد عثمان بن عفان ـ وللدول الإسلامية من فتن وابتلاءات.

ـ وفى الحديث عن الصفات والشمائل، ركز ابن تيمية على صفة الشجاعة ـ شجاعة القلب والبدن ـ وعلى صفة السماحة والكرم، الضامنتان للصلاح الاجتماعى، وتحقيق سعادة الناس فى المعاش والمعاد.

إنها إشارات.. وإضاءات، نقدم بها بين يدى هذا الكتاب، الذى هو أحد النفائس الفكرية لفيلسوف السلفية ومجددها، الإمام المجاهد شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله.

سائلين المولى ـ عز وجل ـ أن ينفع به .. إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خير مسئول وأكرم مجيب[1].

٦ ذو القعدة ١٤٣٤هـ/ ١٢ سبتمبر ٢٠١٣م.

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب فى [روائع ابن تيمية] طبعة نيو بوك ـ القاهرة سنة ٢٠١٦م.

رفع الملام عن الأئمة الأعلام

لشيخ الإسلام ابن تيمية

[٦٦١ـ٧٢٨هـ ـ ١٢٦٣ـ١٣٢٨م]

بعض الذين لم يقرأوا ابن تيمية.. أو قرأوا بعض فتاواه معزولة عن ملابساتها.. أو قرأوا عنه دون أن يراجعوا هذا الذى قرأوه فى كتاباته هو.. يظلمون الرجل فيتصورونه ويصورونه متعصبًا لمذهبه الحنبلى، واتجاهه السلفى سلفية أهل الحديث ـ ضيق الصدر بالتعددية الفكرية والمذهبية، غير متسامح مع الآخرين.

والحقيقة التى تشهد عليها وبها المواقف والأعمال الفكرية لهذا الإمام العظيم نقول عكس كل ذلك تمامًا..

فالرجل قد أبدع كثيرًا فى علم الأصول، وكتب عن المسائل التى اختلف فيها علماء الأصول.. كما كتب كثيرًا فى الفقه ـ علم الفروع ـ ولقد قدم فى كتاباته هذه «منهاجًا» يحتضن اجتهادات الأئمة الأعلام فى الأصول والفروع..

ويرفع الملام عن الذين اجتهدوا فاختلفوا، ويتحدث عن أعلام المذاهب الإسلامية المعتبرة بمحبة صادقة واحترام شديد.. بل ويدفع عنهم الشبهات والاتهامات.. وكذلك صنع فيما كتب فى التصوف ـ علم السلوك ـ وعن أعلام المتصوفين..

ـ ولقد رفع ابن تيمية الملام عن الأئمة الأعلام الذين اجتهدوا فاختلفوا فى مسائل الأصول، والتمس الأعذار لأهل الاجتهادات المتعددة فى هذه المسائل، ورفض التكفير لأى من هؤلاء الأئمة، قاطعًا أن كل هذه المسائل التى وقع فيها الاختلاف لا تدخل فى أصول الإيمان بالإسلام.. وفى هذه الحقيقة البالغة الأهمية قال:

«والذى نختاره أن لا نكفر أحدًا من أهل القبلة، والدليل عليه أن نقول: المسائل التى اختلف أهل القبلة فيها مثل: أن الله تعالى هو عالم بالعلم أو بالذات؟ وأنه تعالى

هل هو موجد لأفعال العباد أم لا؟ وأنه هو متحيز؟ وهل هو مكان وجهة؟ وهل هو مرئى أم لا؟. لا تخلو إما أن تتوقف صحة الدين على معرفة الحق فيها أو لا تتوقف.

والأول باطل، وإذا لو كانت معرفة هذه الأصول من الدين لكان الواجب على النبى ﷺ أن يطالبهم بهذه المسائل، ويبحث عن كيفية اعتقادهم فيها. فلما لم يطالبهم بهذه المسائل، بل ما جرى حديث عن هذه المسائل فى زمانه عليه السلام ولا فى زمان الصحابة والتابعين ـ رضى الله عنهم ـ علمنا أنه لا يتوقف صحة الإسلام على معرفة هذه الأصول، وإذا كان كذلك، لم يكن الخطأ فى هذه المسائل قادحًا فى حقيقة الإسلام، وذلك يقتضى الامتناع عن تكفير أهل القبلة»[1].

ـ وفى كتابه [رفع الملام عن الأئمة الأعلام] يلتمس ابن تيمية الأعذار للأئمة الذين اجتهدوا فى الفقه ـ علم الفروع ـ فاختلفوا فى كثير من مسائل هذا العلم وأحكامه.. وفى ذلك يقول الرجل كلامًا نفيسًا، ما أحوجنا إلى تسليط الأضواء عليه، ليبصره ويتبصره الذين يتخندقون فى مذهب واحد لا يتجاوزون أسواره، ويقلدون إمامًا وأحدًا لا يتعرفون على سواه.. لقد قال ابن تيمية فى هذا الكلام النفيس، الذى جعله ـ وهو الحنبلى يحتضن تراث الأمة كله، بمذاهبه المعتبرة، ويلتمس الأعذار لكل من سلك طريق الاجتهاد ـ أصاب أو أخطأ فى هذا الاجتهاد ـ ويرفع الملام عن جمهور علماء الأمة الذين جسدت اجتهاداتهم المختلفة سنة الله فى التعدد والتمايز والاختلاف:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، أى وللاختلاف خلقهم ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ

(١) ابن تيمية [بيان موافقة صرح المعقول لصحيح المنقول] جـ١ ص ٥٠، ١٤٤. طبعة القاهرة ١٣٢١هـ.

﴿وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ الليل: [١ ـ ٤]، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

فى تقعيد هذا المنهاج، الذى يزكى سُنة الاختلاف، ويرفع الملام عن الأئمة المجتهدين، ويبرز الأسباب الطبيعية للاختلاف فى الاجتهادات، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«وليعلم أنه ليس هناك أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولًا عامًا يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ فى شىء من سنته، دقيق ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقًا يقينيًا على وجوب اتباع الرسول، وعلى أن كل واحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ولكن إذا وجد لواحد منهم قول ما جاء حديث صحيح بخلافه، فلا بد له من عذر فى تركه. وجميع الأعذار ثلاثة:

أحدها: عدم اعتقاده أن النبى ﷺ قاله..

والثانى: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.

والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع إلى أسباب متعددة:

السبب الأول: ألا يكون الحديث قد بلغه، ومن لم يبلغه الحديث لم يكلف أن يكون عالمًا بموجبه.. وهذا السبب هو الغالب على أكثر ما يوجد فى أقوال السلف مخالفًا لبعض الأحاديث.

السبب الثانى: أن يكون الحديث قد بلغه لكنه لم يثبت عنده.. وهذا أيضًا كثير جدًّا، وهو فى التابعين وتابعيهم إلى الأئمة المشهورين من بعدهم أكثر من العصر الأول.

السبب الثالث: اعتقاد ضعف الحديث باجتهاد قد خالفه فيه غيره..

السبب الرابع: اشتراطه فى خبر الواحد العدل الحافظ شروطًا يخالفه فيها غيره..

السبب الخامس: أن يكون الحديث قد بلغه وثبت عنده لكنه نسيه..

السبب السادس: عدم معرفته بدلالة الحديث..

السبب السابع: اعتقاده ألا دلالة فى الحديث..

السبب الثامن: اعتقاده أن تلك الدلالة قد عارضها ما دل على أنها ليست مرادة..

السبب التاسع: اعتقاده أن الحديث معارض بما دل على ضعفه، أو نسخه، أو تأويله إن كان قابلًا للتأويل..

السبب العاشر: معارضته بما يدل على ضعفه أو نسخه أو تأويله، مما لا يعتقده غيره..

فهذه الأسباب العشرة ظاهرة ، وفى كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة فى ترك العمل بالحديث لم نطلع نحن عليها، فإن مدارك العلم واسعة، ولم نطلع نحن على جميع ما فى بواطن العلماء، والعالم قد يبدى حجته وقد لا يبديها، وإذا أبداها فقد تبلغنا وقد لا تبلغ، وإذا بلغتنا فقد ندرك موضع احتجاجه وقد لا ندركه..».

ـ وبعد هذا الذى ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية فى أسباب اختلاف الفقهاء، وفى التماس الأعذار فى هذا الاختلاف، ذهب فأكد على ضرورة أن يحتضن العقل المسلم كل ألوان هذا الاختلاف، لأن جميع المجتهدين إنما اجتهدوا فى الالتماس عن رسول الله ﷺ وفى ذلك قال: «.. وأما من ترجح عنده فضل إمام على إمام أو شيخ على شيخ بحسب اجتهاده، كما تنازع المسلمون: أيهما أفضل: الترجيع فى الأذان أو تركه؟

والجهر بالتسمية، أو المخافتة بها، أو ترك قراءتها؟ ونحو ذلك، فهذه مسائل الاجتهاد التى تنازع فيها السلف والأئمة، فكل منهم أقر الآخر على اجتهاده، من كان فيها أصاب الحق فله أجران، ومن كان قد اجتهد فأخطأ فله أجر، وخطؤه مغفور له، فمن ترجح عنده تقليد الشافعى [١٥٠ـ ٢٠٤هـ/ ٧٦٧ـ ٨٢٠م] لم ينكر على من ترجح عنده تقليد مالك [٩٣ـ ١٧٩هـ/ ٧١٢ـ ٧٩٥م] ومن ترجح عنده تقليد أحمد [١٦٤ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ـ ٨٥٥م] لم ينكر على من ترجح عنده تقليد الشافعى، ونحو ذلك. وما من إمام إلا له مسائل يترجح فيها قوله على قول غيره، ولا يعرف هذه التفاصيل إلا من خاض فى تفاصيل العلم»..

ـ هكذا أكد شيخ الإسلام ابن تيمية على أن الاختلاف بين العلماء الأعلام هو الطبيعى.. سواء أكان ذلك فى مسائل الأصول أم فى مسائل الفروع..وعلى ضرورة

احتضان تراث الأمة فى هذه الاجتهادات جميعهًا، مع الاختيار والترجيح فيما بينها، لأنه ـ كما قال ـ: «ما من إمام إلا له مسائل يترجح فيها قوله على غيره».

* * *

وفى غير هذا الكتاب ـ [رفع الملام عن الأئمة الأعلام] ـ تتوالى نصوص ابن تيمية التى تقعد لهذا المنهاج الذى يحتضن تراث الأمة ويستوعب اجتهادات مذاهبها المعتبرة..

ـ فمع أنه من كبار شيوخ الحنابلة، نراه يتحدث عن مذهب الإمام مالك حديثًا يبلغ به القمة، فيقول: «إن مذهب أهل المدينة هو أصح مذاهب أهل المدائن الإسلامية شرقًا وغربًا فى الأصول والفروع، فى الرواية والرأى، وحديثهم أصح الأحاديث.. فإنهم كانوا يتأسون بأثر رسول الله أكثر من سائر الأمصار، وكان غيرهم من أهل الأنصار دونهم فى العلم بالسنة النبوية واتباعها، حتى أنهم لا يفتقرون إلى نوع من سياسة الملوك، وإن افتقار العلماء ومقاصد العباد أكثر من افتقار أهل المدينة، حيث كانوا أغنى من غيرهم عن ذلك كله بما عندهم من الآثار النبوية التى يفتقر إلى العلم بها واتباعها كل أحد.. ولم يكن فيهم من ابتدع بدعة فى أصول الدين.. ولهذا لم يذهب أحد من علماء المسلمين إلى أن إجماع أهل مدينة من المدائن حجة يجب اتباعه غير المدينة»..

ولذلك، فلا ريب عند أحد أن مالكًا ـ رضى الله عنه ـ أقوم الناس بمذهب أهل المدينة، رواية ورأيًا، فإنه لم يكن فى عصره ولا بعده أقوم بذلك منه. كان له من المكانة عند أهل الإسلام ـ الخاص منهم والعام ـ ما لا يخفى على من له بالعلم أدنى إلمام».

ـ ولقد تحدث ابن تيمية عن تأثير مذهب الإمام مالك فى مذهب الإمام أبى حنيفة [٨٠ـ ١٥٠هـ/ ٦٩٩ـ ٧٦٧م] فقال:

«.. وأبو يوسف [١١٣ـ ١٨٣هـ/ ٧٣١ـ ٧٩٨م] ـ رحمه الله ـ وهو أجل أصحاب أبى حنيفة، وأول من لقب قاضى القضاة ـ لما اجتمع بمالك، وسأله عن المسائل، وأجابه مالك بنقل أهل المدينة المتواتر، رجع أبو يوسف إلى قوله، وقال: لو رأى صاحبى.. [أبو حنيفة] ـ ما رأيت لرجع مثل ما رجعت. فقد نقل أبو يوسف أن مثل

هذا النقل حجة عند صاحبه أبى حنيفة كما هو عند غيره. لكن أبو حنيفة لم يبلغه هذا النقل، كما لم يبلغه ولم يبلغ غيره من الأئمة كثير من الحديث، فلا لوم عليهم فى ترك ما لم يبلغهم علمه.. ومن ظن بأبى حنيفة أو غيره من أئمة المسلمين أنهم يتعمدون مخالفة الحديث الصحيح لقياس أو غيره فقد أخطأ عليهم، وتكلم إما بظن أو بهوى..».

ـ ولقد حكى ابن تيمية ـ كذلك ـ تأثر الإمام الشافعى بمذهب الإمام مالك، وأورد قوله: «ما تحت أديم السماء كتاب أكثر صوابًا بعد كتاب الله من موطأ مالك».

وأضاف ابن تيمية إلى شهادة الإمام الشافعى شهادة الإمام أحمد ـ وهو إمام ابن تيمية ـ فى مذهب الإمام مالك فقال: «ومن تدبر أصول الإسلام وقواعد الشريعة، وجد أصول مالك وأهل المدينة أصح الأصول والقواعد. وقد ذكر ذلك الشافعى وأحمد وغيرهما»..

ثم أورد ما دار بين الإمام أحمد وأصحابه، الذين سألوه:

«من أعلم بسنة رسول الله ﷺ مالك أم سفيان بن عيينه [١٠٧ـ ١٩٨هـ/ ٧٢٥ـ ٨١٤م]؟ فقال: بل مالك. فقيل له: أيهما أعلم بآثار أصحاب رسول الله ﷺ مالك أم سفيان؟ فقال: بل مالك. فقيل له: أيما أزهد: مالك أم سفيان؟ فقال: هذه لكم».

ـ كما يذكر ابن تيمية تقدير الإمام أحمد للإمام الشافعى، وثناءه عليه، فيقول:

«.. وكان أحمد معتدلًا، عالمًا بالأمور، يعطى كل ذى حق حقه، ولهذا كان يحب الشافعى، ويثنى عليه ويدعو له ، ويذب عنه عند من يطعن فى الشافعى، أو ينسبه إلى بدعة، ويذكر تعظيمه للسنة واتباعه لها، ومعرفته بأصول الفقه..».

ـ كما يذكر تقدير علماء المذهب المالكى للإمام الشافعى، «وكيف كان الشافعى عند أصحاب مالك واحدًا منهم، ينسب إلى أصحابهم. ولقد اختار ـ [الشافعي] ـ سكنى مصر لأنهم كانوا على مذهب أهل المدينة..»[1].

هكذا تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن الأئمة الأعلام، كمدرسة واحدة، تنوعت

(١) ابن تيمية: [مجموعة الفتاوي] المجلد العاشر ص ١٦٣، ١٧٢، ١٧٤، ١٦٦، ١٧٥، ١٧٦، ١٦٨، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢.
تحقيق: عامر الجزار، وأنور الباز. طبعة دار الوفاء ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

اجتهادات أعلامها فى التماس الحق من خلال سنة رسول الله ﷺ فقدم النموذج الإسلامى فى سعة الأفق الذى يستوعب تراث الأمة ويستلهم كنوز هذا التراث، ويرفع الملام عن أصحاب الاجتهادات المختلفة من الأئمة الأعلام، دونما تعصب أو تخندق أو انغلاق..

لقد كتب أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠ـ ٥٩٥هـ/ ١١٢٦ـ١١٩٨م] كتابه الفذ [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] فى فلسفة اختلاف الفقهاء.. وشاعت فى الآثار الفكرية لابن تيمية نصوصه التى تقعد لأسباب هذه الاختلافات، والتى تحتضن تراث الأئمة الأعلام الذين جمع بينهم السعى لالتماس سنة رسول الله ﷺ ثم اجتهدوا فى فقه هذه السنة، وغدت اجتهاداتهم واختلافاتهم مدرسة متكاملة.. وبعبارة ابن تيمية:

«فإنه ما من إمام إلا له مسائل يترجح فيها قوله على غيره».

ومن حق المسلمين أن يفخروا لشيوع هذا المنهاج فى تراث سلفهم الصالح، عندما كان علماء كل مذهب يطلبون العلم على يدى علماء المذاهب الأخرى.. وعندما كان العالم الواحد ـ مثل ابن دقيق العيد [٦٢٥ـ ٧٠٢هـ/ ١٢٢٨ـ ١٣٠٢م] يقضى بمذهب، ويدرّس بمذهب، ويفتى بمذهب ثالث!..

وعندما كان حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ـ ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ـ ١١١١م] يعتبر الاختلاف جعلًا إلهيًا، فيقول مستنكرًا جمع الناس على رأى واحد: «..وكيف يجتمعون على الإصغاء ـ [لرأى واحد] ـ وقد حكم عليهم فى الأزل بأنهم لا يزالون مختلفين.. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم»[(١)]؟!

وبعد أن أجمعت الأمة على أن «حكم الله» فى حق المجتهد هو ما أداه إليه اجتهاده.. وبعبارة الإمام القرافى.. أحمد بن إدريس ـ [٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م]: فلقد قرر الأصوليون: «أن الأمة مجمعة على أن المجتهد إذا أداه اجتهاده إلى حكم فهو حكم الله فى حقه وحق من قلده إذا قام به سببه»[(٢)].

(١) الغزالى: [القسطاس المستقيم] ص ٦١ـ ضمن مجموعة «القصور العوالى فى رسائل الإمام الغزالى» طبعة مكتبة الجندى القاهرة ـ بدون تاريخ.

(٢) القرافى: [الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضى والإمام] ص ٢١٩.

لقد ميز الإمام الشافعى مساحة الأرض المشتركة التى جمعت الأمة عن المسائل التى وقع فيها الاختلاف، فقال:

«.. ولست أقول ولا أحد من أهل العلم: «هذا مجتمع عليه» إلا لما لا نلقى عالمًا أبدًا إلا قاله لك، وحكاه عمن قبله، كالظهر أربع، وكتحريم الخمر، وما أشبه هذا»[1].

هذا هو تراثنا، الذى يجب أن نحييه، لنقاوم به ضيق الأفـق.. والتعصب.. والانغلاق.. وهذه هى حقيقة مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية من اختلافات واجتهادات الأئمة الأعلام، سقنا طرفًا منها للذين أساءوا فهمه من أنصاره وخصومه على حد سواء!

تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة. طبعة حلب ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

(١) الشافعى: [الرسالة] ص ٥٣٤ ـ تحقيق: أحمد محمد شاكر. طبعة بيروت. المكتبة العلميةـ مصورة عن طبعة القاهرة.

أربع شهادات.. فى رَدّ الافتراءات

فى كتاب صدر سنة ٢٠٠٥م عن إحدى الطرق الصوفية، ذات العلاقات التى جمعت بين دولة ولاية الفقيه الفارسية الشيعية، وبين دولة القذافى [١٩٤٢ـ ٢٠١١م] الذى كان يدعو إلى إحياء الدولة الفاطمية الباطنية الشيعية.. جاء فى وصف شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ـ ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ـ ١٣٢٨م]: «أنه المقتدى بأسلافه كلاب النار الحروريين ـ [الخوارج].. الذين كفّروا كثيرًا من الصحابة.. وذلك عندما حمل الآيات الواردة فى الكفار على المؤمنين..

ـ وبضاعته ـ من السب والقذف والتكفير ـ هى بضاعة سفلة الناس..

ـ وهو جاهل بأصول الدين جهلًا مركبًا.. وقد حكم على نفسه بالشرك وعبادة غير الله وهو لا يشعر، فصدق عليه المثل العربى: (رمتنى بدائها وانسلت).

ـ وهو مكذّب لنصوص كتاب الله تعالى وصريح سنة نبيه ﷺ ومرتكب بذلك جرمًا عظيمًا.. وصاحب حكم فاجر.. وملبس وكذاب وجبان.. وجاهل باللغة العربية وبأصول الدين..

ـ وهو الذى استبدل عقيدة التثليث بعقيدة التوحيد عندما اخترع (توحيد الألوهية) فشاق به رسول الله، واتبع فيه غير سبيل المؤمنين..

ـ ولذلك، استحق أن يوصف بالخبيث.. المكابر..ناقص العقل.. الذى فى قلبه مرض الزيغ المتتبع ما تشابه من الكتاب والسنة ابتغاء الفتنة.. والمكذب لرب العالمين.. والخارج من الدين، والمزدرى بأصفيائه المنتجبين، وخلفائه الراشدين وأتباعهم الموفقين»[1].

(١) انظر كتاب [خطر تقسيم التوحيد على عقائد المسلمين] ص ٥٦، ٦٦، ٦٧، ٧٢، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٩٠، ١٠٠، ١٤٤، ١٤٧. طبعة القاهرة سنة ١٤٢٦هـ سنة ٢٠٠٥م ـ [وهو صادر ضمن سلسلة كتب ضمت العشرات]!!.

هكذا جاء وصف ابن تيمية فى هذا الكتاب.

ـ وفى مواجهة هذا السباب الغريب والعجيب، وحتى لا ندخل فى الجدال العقيم، واللجاج الذى تضيع فيه الحقائق.. فإننا ندعو إلى سماع آراء أئمة اليقظة الإسلامية الحديث فى ابن تيمية ـ فى مكانته بين أئمة الأمة وعلمائها.. وفى دوره فى يقظتها الإسلامية الحديثة ـ التى واجهت ـ ولا تزال ـ تحديات التخلف الموروث، ومخاطر الهيمنة الامبريالية الغربية..

١ـ لقد تحدث الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ـ ١٩٠٥م] ـ وهو إمام مدرسة الإحياء والتجديد على امتداد عالم الإسلام ـ عن شيخ الإسلام ابن تيمية، فوصفه بأنه: «أعلم الناس بالسنة وأشدهم غيرة على الدين»، وذلك ضمن حديثه عن الظلم الذى لحقه من جاهليه والجاهلين عليه، فقال: «لقد قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين فى ابن تيمية ـ وهو أعلم الناس بالسنة، وأشدهم غيرة على الدين: إنه ضال مضل وجاء على إثر هؤلاء مقلدون يملئون أفواههم بهذه الشتائم، وعليهم إثمها وإثم من يقفوهم بها إلى يوم القيامة»[(١)].

ولم يكتف الإمام محمد عبده بالإشادة بمكانة ابن تيمية فى نصرة السنة والغيرة على الدين.. وبإدانة خصومه، واستنكار شتائمهم وسبابهم.. وإنما دعا الأمة إلى إحياء تراث هذا المجتهد المجدد المجاهد.. فطلب طبع كتابيه [منهاج السنة النبوية] و[درء تعارض صحيح المنقول وصريح المعقول] اللذين كانا أول ما عرفت الطباعة من تراث ابن تيمية، واللذين صدرًا فى ذات العام الذى توفى فيه الشيخ محمد عبده.

٢ـ وفى الجناح المغربى لتيار اليقظة الإسلامية الحديثة، وصف الإمام عبد الحميد بن باديس [١٣٠٨ـ ١٣٥٩هـ/ ١٨٨٩ـ ١٩٤٠م] آراء شيخ الإسلام ابن تيمية بأنها: «لباب الشريعة الإسلامية»[(٢)].

٣ـ أما الإمام محمد البشير الإبراهيمى [١٣٠٦ـ ١٣٨٥هـ/ ١٨٨٩ـ ١٩٦٥م] فلقد تحدث عن مكانة شيخ الإسلام ابن تيمية فى تراث الإسلام، وعن أثره فى اليقظة

(١) [الأعمال الكاملة للأمام محمد عبده] جـ٣ ص ٣٥٩. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة ـ دار الشروق سنة ١٩٩٣م.

(٢) [ابن باديس: حياته وآثاره] جـ٤ ص ١٥٧. دراسة وتحقيق: د. عمار طالبى. طبعة الجزائر سنة ١٣٨٨هـ سنة ١٩٦٨م.

الإسلامية الحديثة، التى جاهدت لاستخلاص أقطار المغرب العربى من الفرنسة والتنصير والاستلاب الحضارى، فوصفه بالنجم الذى لمع فى سماء الإسلام ليبدد ظلمات الجمود والجهالات والخرافات.. وقال: «ما زلنا نلمح وراء كل داجية فى تاريخ الإسلام نجمًا يشرق، ونسمع بعد كل خفتة فيه صوتًا يخترق، من عالِم يعيش شاهدًا، ويموت شهيدًا، ويترك بعده ما تترك الشمس من شفق يهدى السارين المدلجين إلى حين..

وما علمنا فيمن قرأنا أخبارهم، وتقفينا آثارهم من علماء الإسلام مثلًا شرودًا فى شجاعة النزال بعد الحافظ الربيع بن سالم، عالم الأندلس.. ولا علمنا فيهم مثالًا فى شجاعة الرأى العام أكمل من الإمام أحمد بن تيمية.. فقد شنها حربًا شعواء على البدع، والضلالات أقوى ما كانت رسوخًا وشموخًا، وأكثر أتباعًا وشيوخًا، يظاهرها الولاة القاسطون، ويؤازرها العلماء المتساهلون والمتأولون..»[1].

فابن تيمية: شاهد.. وشهيد.. ونجم ساطع..وشمس أشرقت فى سماء الإسلام.

٤ـ وفى الجناح الشرقى لليقظة الإسلامية الحديثة، وجدنا العلَّامة أبو الأعلى المودودى [١٣٢١ـ ١٣٩٩هـ/ ١٩٠٣ـ ١٩٧٩م] يضع شيخ الإسلام ابن تيمية فى المكان المتميز بين المجددين الذين جاهدوا لتجديد دين الإسلام.. فهو:

«أـ الذى انتقد المنطق والفلسفة اليونانية..

بـ وأقام الأدلة والبراهين على استقامة عقائد الإسلام وأحكامه وقوانينه..

جـ ولم يجتزئ برفع النكير على التقليد الجامد فحسب، بل ضرب المثل بمزاولة الاجتهاد على طريقة المجتهدين من القرون الأولى.

دـ وجاهد البدع وتقاليد الشرك وضلال العقائد والأخلاق جهادًا قويًا عنيفًا، ولاقى فى سبيل ذلك أعظم المصائب ومضافًا إلى هذا العمل التجديدى، جاهد بالسيف همجية التتار ووحشيتهم»[2].

(١) [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي] جـ٤ ص ١١٣. جمعها وقدم لها: د. أحمد طالب الإبراهيمى. طبعة بيروت سنة ١٩٩٧م.

(٢) المودودى [موجز تاريخ إحياء الدين وتجديده] ص ٧٣، ٧٦، ٧٩. ترجمة: محمد كاظم سباق. طبعة بيروت سنة ١٣٩٥هـ/ سنة ١٩٧٥م .

تلك أربع شهادات لأئمة اليقظة الإسلامية الحديثة، تعلن أن ابن تيمية هو أعلم الناس بالسنة، وأشدهم غيرة على الدين.. وأنه النجم الساطع والشمس المشرقة فى سماء تراث الإسلام.. الذى قدم لباب الشريعة الإسلامية.. والشاهد.. والشهيد الذى ضم إلى جهاد القلم واللسان جهاد السنان، فتميز وامتاز بين المجددين المجاهدين.

بهذه الشهادات الأربع نقدم بين يدى كتاب متميز، يفصّل هذه الشهادات على نحو متميز وممتاز.. سائلين المولى ـ عز وجل ـ أن ينفع به.. إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خير مسئول وأكرم مجيب[1].

(١) من تقديمنا لكتاب [ابن تيمية ظالمًا أم مظلومًا] طبعة نيوبوك ـ القاهرة.

الدكتور صوفى أبو طالب

[١٣٤٣ ـ ١٤٢٩هـ ـ ١٩٢٥ ـ ٢٠٠٨م]

* هو الأستاذ الدكتور صوفى حسن أبو طالب «١٣٤٣ ـ ١٤٢٩هـ ـ ١٩٢٥ ـ ٢٠٠٨م».

* ولد بمحافظة الفيوم فى ٢٧ يناير ١٩٢٥م ـ ٢ رجب ١٣٤٣هـ.

* وحصل على ليسانس الحقوق ـ من كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول ـ «القاهرة» ـ ١٩٤٦م ـ وعلى دبلوم القانون العام ١٩٤٧م.

* ونال شهادة الدكتوراة فى القانون العام، وشهادة الدكتوراة فى القانون من جامعة باريس ١٩٥٢م.

* وعمل بسلك هيئة التدريس بكلية الحقوق ـ جامعة القاهرة ـ مدرسًا ١٩٥٣م ـ ونال درجة الأستاذية وأصبح رئيسًا لقسم فلسفة القانون وتاريخه ١٩٦٤م، وتولى منصب نائب رئيس جامعة القاهرة سنة ١٩٧٣م، ثم أصبح رئيسًا لجامعة القاهرة ١٩٧٥م.

* ولقد انتخب عضوًا بمجلس الشعب المصرى ١٩٧٦م، وتولى رئاسة لجنة التعليم بمجلس الشعب من ١٩٧٨م وحتى ١٩٨٣م.

* وعندما اغتيل الرئيس محمد أنور السادات فى ٦ أكتوبر ١٩٨١م تولى الدكتور صوفى أبو طالب ـ بصفته رئيس مجلس الشعب ـ منصب رئيس الجمهورية ـ مؤقتًا ـ من ٦ أكتوبر ١٩٨١م حتى ١٤ أكتوبر ١٩٨١م.

* وأعيد انتخابه عضوًا بمجلس الشعب ١٩٨٧م، وتولى رئاسة لجنة التعليم به، واستمرت عضويته بمجلس الشعب عدة دورات.

* ونال عضوية المجمع العلمى المصرى، وأكاديمية الشرطة وأكاديمية البحث العلمى، والمجلس الأعلى للفنون والآداب، والمجالس القومية المتخصصة، واللجنة

المركزية للاتحاد الاشتراكى ١٩٧٥م، واللجنة التأسيسية للحزب الوطنى ورئيس لجنة البرامج به عام ١٩٧٨م، ورئيس الهيئة البرلمانية للحزب الوطنى الديمقراطى ما بين ١٩٨٧م و١٩٨٣م ـ وعضو مجلس الأمن القومى وعضو المجموعة السياسية لرئيس الجمهورية، وعضو المجلس الأعلى للتكامل مع السودان، كما رأس وفد مصر فى المؤتمرات الدولية البرلمانية ما بين ١٩٧٨م و١٩٨٣م.

* كما نال عضوية مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.

* وبالإضافة إلى المناصب الأكاديمية والسياسية، خلف الدكتور صوفى أبو طالب أعمالًا فكرية متميزة فى القانون والشريعة الإسلامية منها ـ باللغة العربية ـ : «الوجيز فى القانون الرومانى» ١٩٦٤م، و«تاريخ النظم القانونية والاجتماعية» ١٩٧٢م و«الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى» ١٩٥٦م ـ و«الاشتراكية الديمقراطية» ١٩٧٧م وله ـ باللغة الفرنسية ـ: «حالة المرأة القانونية فى البلاد العربية» ١٩٧٢م.

* هذا إلى عشرات الأبحاث والمقالات والدراسات والمحاضرات فى الشريعة والقانون ـ منها محاضرته عن «المصالح المرسلة فى فقه الشريعة الإسلامية.

* وقد حصل الدكتور صوفى أبو طالب على العديد من الأوسمة والجوائز، منها «وسام جوقة الشرف» من الحكومة الفرنسية، ١٩٧٧م، ووسام جوقة الشرف من هيئة البرلمانيين الناطقين باللغة الفرنسية» ١٩٨٠م و«وسام الجمهورية» من حكومة السودان ١٩٨٢م و«وسام النيل» ١٩٨٣م، و«جائزة الدولة التقديرية» ١٩٩٠م.

* ويعتبر إنجاز تقنين الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها ـ الذى خطط له ونظمه وقاد أعماله الدكتور صوفى أبو طالب ـ من أهم الإنجازات التى قدمها هذا الفقيه العظيم للإسلام وشريعته، ولمصر والشرق الإسلامى.

ولقد صعدت روحه إلى بارئها ـ بمطار كوالالمبور ـ بماليزيا ـ وهو عائد من مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية، بالأزهر الشريف ـ وكان فى طريق عودته إلى مصر ـ عبر جدة لأداء العمرة إلى بيت الله الحرام، عليه رحمة الله[1]:

(١) الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة ج ١، ط الثانية ١٩٩٢م.

بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى

للدكتور صوفى أبو طالب

[١٣٤٣ ـ ١٤٢٩هـ ـ ١٩٢٥ ـ ٢٠٠٨م]

فى العلاقات بين الغرب والشرق كانت ظاهرة الاستشراق واحدة من أبرز الظواهر الفكرية التى عرفتها هذه العلاقات.. ولأن الاستشراق: هو سعى الغرب لدراسة الشرق ـ دياناته ومذاهبه وشعوبه وثقافاته وحضاراته ـ فلقد اختلفت وتمايزت مقاصد المستشرقين من وراء الدراسات التى سعوا إلى إنجازها.. فكان فيهم العلماء الذين سعوا إلى المعرفة، والكشف عن عوالم الشرق، وما شاع حولها من حقائق وأساطير.. وكان منهم من مثلوا الطلائع الفكرية التى مهدت السبل أمام مؤسسات الهيمنة الغربية ـ الدينية ـ والسياسية ـ الطامعة ـ تاريخيًّا ـ فى الاستيلاء على الشرق، لنهب ثرواته، واحتواء ثقافاته، وإلحاقه بالمركزية الحضارية الغربية.. فكان هذا الفريق من المستشرقين بمثابة كتائب الاستكشاف التى تتقدم الجيوش لتمهد أمامها طرق الزحف والقتال.

وإذا نحن شئنا أن نكشف أبرز سلبيات هذا اللون من الاستشراق، الذى عمل رجاله على خدمة مشاريع الهيمنة والاحتواء الغربية للشرق، فإننا نستطيع أن نصنفها تحت هذه العناوين:

١ ـ نقل مشكلات اللاهوت الكنسى الغربى إلى الإسلام، وذلك بالتشكيك فى إلهية الوحى القرآنى، ومصداقية السنة النبوية، وتصوير الإسلام باعتباره «هرطقة» شرقية»، وصورة عربية من اليهودية والمسيحية.. وتصوير الشريعة الإسلامية وكأنها صورة عربية من القانون الرومانى.

٢ ـ نقل الثنائيات المتناقضة التى تميزت بها الحضارة الغربية إلى الفكر الإسلامى.. التناقضات بين الدين والدولة.. بين العلم والدين.. بين الدنيا والآخرة.. بين الذات والموضوع.. بين الفرد والمجموع.. إلخ.

٣ ـ تضخيم حجم الفرق والمذاهب الهامشية والشاذة والمغالية ـ الباطنية والغنوصية ـ التى ظهرت فى الحياة الفكرية الإسلامية، وذلك لإظهار المسلمين وكأنهم أمة من الشراذم والأقليات الشاذة وذلك على حساب الوحدة التى مثلها أهل السنة والجماعة الذين مثلوا أكثر من ٩٠٪ من المسلمين على مر تاريخ الإسلام.

٤ ـ إشاعة العلمانية الغربية فى الأوساط الفكرية والسياسية الإسلامية لنزع القداسة عن المقدسات الإسلامية وإزاحة المرجعية الدينية عن الحياة تمهيدًا لإلحاق الشرق الإسلامى بالغرب العلمانى ثقافيًّا وسياسيًّا بإزالة التميز الدينى والفكرى الذى يعصم الشرق من هذا الإلحاق والذوبان.

٥ ـ تربية أجيال من الحداثيين العرب والمسلمين والشرقيين، الذين يبشرون ـ نيابة عن المستشرقين ـ بالحداثة الغربية، التى تقيم قطيعة معرفية كبرى مع الموروث والموروث الدينى على وجه الخصوص والتى تستبدل «الدين الطبيعى» القائم على العقل والعلم ـ «بالدين الإلهى» وذلك حتى يتماهى الشرق مع الغرب الذى دفعته الحداثة إلى هذا المصير.

٦ ـ الترويج للنزعة «التاريخية ـ أو التاريخانية» التى تنزع عن ثوابت الدين ـ عقائده وقيمه وأحكامه ـ صفة الاستمرار والخلود فتحيله إلى «التقاعد والاستيداع» مع تغير الواقع ومرور التاريخ.

٧ ـ إشاعة المعنى العرقى والعنصرى ـ الإثنى ـ للقومية بين شعوب الشرق، لنقل القوميات الإسلامية من كونها دوائر لغوية وثقافية، تحتضنها الجامعة الإسلامية إلى نزاعات عرقية وعصبيات إثنية، وألغام تفجر الصراعات داخل العالم الإسلامى، حتى يكون بأسه بينه شديدًا، فيصبح «فسيفساء ورقية» يسهل على الغرب الاستعمارى احتواؤه وإلحاقه بالمركزية الحضارية والسياسية الغربية.

٩ ـ العمل على إحلال العاميات واللهجات المحلية محل اللغة العربية الفصحى، وذلك لفصل الواقع اللغوى عن القرآن العربى ولقطع أوصال الوحدة اللغوية التى بناها القرآن الكريم والشريعة الإسلامية، وذلك لفرنسة وجلنزة الألسنة فى بلاد العروبة والإسلام وتحويل الأمة الواحدة إلى أمم شتى.

تلك كانت أبرز السلبيات التى زرعها الفكر الاستشراقى بشكل مباشر أو عن طريق تلامذته ـ فى الحياة الفكرية الإسلامية، خدمة لمؤسسات الهيمنة الغربية ـ الدينية والسياسية ـ التى عمل فى خدمتها هذا اللون من الاستشراق.

* ولأن الجانب العقدى والإيمانى والقيمى من الإسلام هو أدخل فى دائرة الفطرة الإنسانية التى يصعب ـ بل وقد يستحيل ـ التأثير فيها، فإن فكرية الاستشراق والغزو الفكرى والتغريب لم تفلح فى تحقيق أية نجاحات فى هذا الميدان ـ اللهم إلا حالات محدودة من التنصير ـ لكن ظلت الزندقة والإلحاد وتبنى الفلسفة المادية فى تفسير الخلق ورؤية الكون غريبة عن وجدان المسلمين.. حتى أن الأحزاب الماركسية التى تتبنى المادية الجدلية والتفسير المادى لنشأة الكون وسير الاجتماع والتاريخ.. حتى هذه الأحزاب ـ التى ظلت هامشية ـ لم تجرؤ على الدعوة فى أدبياتها ـ إلى الزندقة والإلحاد ـ كما حدث فى الدول الشيوعية وذلك مخافة ردود الأفعال فى المجتمعات المؤمنة التى تعيش فيها والتى تحاول التقرب إلى جماهيرها.

* أما الجانب الذى حقق فيه الاستشراق والتغريب والغزو الفكرى نجاحات كبرى ـ بل وكارثية ـ فكان مجال علمنة القانون وعزل الشريعة الإسلامية عن مؤسسات التشريع والقضاء وإحلال القانون الوضعى قانون نابليون ـ ذى الأصول الرومانية ـ محل شريعة الإسلام وفقه المعاملات الإسلامية.

ولقد سلك الغرب إلى تحقيق علمنة القانون وتغريبه فى بلادنا الإسلامية العديد من الطرق والأساليب:

أ ـ فمرة بإعلانه أن تغريب القانون فى المستعمرات المسلمة هو حق للأسلحة الغازية التى أخضعت هذه البلاد.. وبعبارة أستاذ الحقوق الفرنسى «جورج

سوردون»: «فإن الأسلحة الفرنسية هى التى فتحت البلاد العربية، وهذا يخولنا حق اختيار التشريع الذى يجب تطبيقه فى هذه البلاد»[1]!

ب ـ ومرة بالتسلل الناعم والتدريجى المصاحب لزيادة أعداد الجاليات الأجنبية فى بلادنا ونمو المبادلات التجارية بين الأجانب والمواطنين المسلمين كما حدث فى مصر عندما بدأ تسلل القانون الأجنبى إلى المحاكم التجارية فى الموانئ المصرية فى أبريل ١٨٥٥م على عهد الخديوى سعيد [١٢٣٧ ـ ١٢٧٩هـ ١٨٢٢ ـ ١٨٦٣م].. ثم إلى المحاكم القنصلية.. ثم إلى المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٥م.. حتى إذا ما حدث الاحتلال الإنجليزى لمصر سنة ١٨٨٢م تم تعميم هذا القانون الأجنبى فى القضاء الأهلى المصرى سنة ١٨٨٣م.

جـ ـ ومرة عن طريق تغريب «الواقع» بالتدريج، حتى يصبح تغريب «القانون» مطلبًا يستدعيه هذا الواقع المتغرب.. كما حدث فى شبه القارة الهندية، الذى تحدث عنه العلامة أبو الأعلى المودودى [١٣٢١ ـ ١٣٩٩هـ ١٩٠٣ ـ ١٩٧٩م] فقال: «إن الإنجليز قد صرفوا مدة قرن كامل تقريبًا فى تبديل نظام البلاد القانونى، بدلوا نظام حياتها أولًا شيئًا فشيئًا، وأعدوا رجالًا لا يتفكرون ولا يعملون إلا حسب نظرياتهم وأفكارهم، وعملوا عملًا متواصلًا على تغيير أذهان الناس وأخلاقهم ونظامهم الاقتصادى بنشر الأفكار وبتأثير السلطة والاستيلاء. أى ظلوا يلغون القوانين القديمة وينفذون مكانها قوانينهم الجديدة على قدر ما ظلت تأثيراتهم المختلفة تغير من نظام البلاد الاجتماعي[2].

* ولقد استعان الغرب على تغريب القانون فى بلاد الإسلام ـ إلى جانب قوة الغزو وسلطات الحكم الاستعمارى ـ بترويج الدعاوى الفكرية التى تساعد على تقبل هذا الانقلاب القانونى.. ومن هذه الدعاوى دعوى علمانية الإسلام، وأنه ـ كالنصرانية ـ مجرد عقيدة ومنظومة من الوصايا الأخلاقية ليس فيه شريعة للقانون والمعاملات.. أى

(١) محمد السماك «الأقليات بين العروبة والإسلام» ص ٥٧ طبعة بيروت ١٩٩٠م.

(٢) المودودى «القانون الإسلامى وطرق تنفيذه فى باكستان «ص ١٨٩ ترجمة: محمد عاصم الحداد ـ طبعة بيروت ـ ضمن مجموعة سنة ١٣٨٩هـ ـ سنة ١٩٦٩م.

أنه بدون منظومة قانونية ومن ثم فأبواب مجتمعاته ودوله مفتوحة أمام القانون الأوروبى ذى الأصول الرومانية.. ولقد تم الترويج لهذه الدعوى فى كتاب (الإسلام وأصول الحكم) ـ للشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ ـ ١٣٨٦هـ ـ ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦م] الذى صدر سنة ١٩٢٥م ـ عقب إسقاط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م والذى ادعى أن الإسلام: «رسالة لا حكم، ودين لا دولة.. وأن رسول الإسلام ـ ﷺ ـ ما كان إلا رسولًا لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة.. ما كان إلا رسولًا كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان مؤسس دولة، ولا داعيًا إلى ملك.. فعمله سماوى، لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان.. كانت ولايته على المؤمنين ولاية رسالة غير مشوبة بشيء من الحكم.. هيهات هيهات، لم يكن ثمة حكومة ولا دولة، ولا شيء من نزعات السياسة ولا أعراض الملوك والأمراء.. فيا بعد ما بين السياسة والدين[1].

وبهذه العلمنة للإسلام، أرادوا فتح الأبواب أمام القانون الأوروبى ـ الوضعى العلمانى ففى الفراغ القانونى ـ الذى ادعوه على الإسلام ـ من الطبيعى أن تتمدد القوانين التى جاءت فى ركاب الاستعمار.

* أما الدعوة الأخرى التى استهدفت فتح الأبواب ـ فى المجتمعات الإسلامية ـ أمام القانون الأوروبى فهى إنكار تميز الإسلام بشريعة خاصة وادعاء أن شريعة الإسلام وفقه المعاملات فى الحضارة الإسلامية ما هو إلا صورة من القانون الرومانى الذى كان مطبقًا فى المجتمعات الشرقية التى فتحها المسلمون.. فشريعتنا ـ وفق هذه الدعوى ـ كانت رومانية الأصل.. ومن ثم فلا حرج فى أن تكون رومانية الحاضر والمستقبل.. وفى هذا يقول المستشار محمد سعيد العشماوى: «إن القواعد القانونية تكاد تكون واحدة فى جميع النظم القانونية.. والشريعة الإسلامية ليست مختلفة جذريًا عن أى نظام قانونى آخر.. ومدونة «جستنيان» [٥٢٧ ـ ٥٦٥م] ـ (والقانون الرومانى) ـ تتضمن كافة الأسس التى تقوم عليها النظم القانونية العالمية.. كما تتضمن مشابهات كثيرة مع القواعد الفقهية الإسلامية.. وتعود المشابهة بين الفقه الرومانى والفقه الإسلامى إلى أن هذا الفقه الإسلامى نشأ ابتداء فى دمشق..

(١) على عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» ص ٦٤ ـ ٨٠ طبعة القاهرة ١٩٢٥م.

أقرب مكان فى الدولة الأموية إلى بيزنطة التى أصدر جستنيان فيها مدونته، هذا فضلًا عن أن القانون الرومانى كان يطبق فى سوريا ذاتها قبل الإسلام، والإسلام يتشرب الماضى بأكمله[1].

هكذا بذر الاستشراق البذور.. بذور علمنة القانون فى بلاد الإسلام.. وهكذا أخذ تلامذته فى تنمية هذه البذور!!

(٢)

كان القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين حقبة صعود المد الاستعمارى فى عالم الشرق والإسلام.. كما مثل حقبة التراجع لدولة الخلافة العثمانية.. ومن ثم صلاحية التربة الشرقية وقابليتها لزرع بذور الاستشراق والتغريب.. ولقد تكونت ـ فى هذه الحقبة ـ «نخبة» رأت الإسلام فى «الصورة العثمانية» فأدارت له ظهرها ويممت وجهها قبل النموذج الحضارى الغربى الذى كان فى أوج قوته وازدهاره.. كانت ليبراليته جذابة لم تظهر عيوبها بعد.. وكانت شيوعيته تدغدغ أحلام الفقراء والبؤساء.

وكان الدكتور طه حسين [١٣٠٦ ـ ١٣٩٣ هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م] واحدًا من النخبة التى انبهرت بالنموذج الحضارى الغربى فى الفترة الأولى من حياته الفكرية فابتلع طعم الاستشراق فى مناهج البحث وفى نزع القداسة عن المقدسات وفى الدعوة إلى أن نأخذ النموذج الحضارى الغربى بحلوه ومره بخيره وشره بما يحمد منه وما يعاب.. وفى خضم هذا الانبهار بالغرب تبنى الدكتور طه حسين دعوى التماهى والمماثلة بين العقل الشرقى والعقل اليونانى والقول بأن أسلافنا قد قبلوا حضارة الإغريق والرومان ومن ثم فعلينا أن نتقبل الحضارة الأوروبية الحديثة ـ وضمنها علمنة القانون ـ وفى هذا المقام قال الدكتور طه: «إن الحضارة العربية والحضارة الفرنسية تقومان على

(١) محمد سعيد العشماوى. «الشريعة الإسلامية والقانون المصرى» ص ٢٥ ـ ٢٩ طبعة القاهرة ١٩٨٨م. و«معالم الإسلام» ص ١٠٧، ١٠٨، ١٦٨ طبعة القاهرة ١٩٨٩م.

أصل واحد، هو فى نهاية الأمر الحضارة اليونانية اللاتينية»[1].. وأن العقل الشرقى هو كالعقل الأوربى مرده فى التكوين والمقومات، إلى عناصر ثلاثة:

١ ـ حضارة اليونان، وما فيها من أدب وفلسفة وفن.

٢ ـ وحضارة الرومان، وما فيها من سياسة وفقه.

٣ ـ والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان[2].

وأن الإسلام قد تقبل الحضارة اليونانية فلم لا يتقبل الحضارة الأوروبية[3]؟

وانطلاقًا من هذه الدعوى، دعوى نفى الاختلاف بين حضارة الشرق وحضارة الغرب ومن ثم نفى الاختلاف بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى، ورومانية الفقه الإسلامى، والتماثل والتماهى بين العقل الشرقى والعقل الأوربى، وإنكار تميز الإسلام عن المسيحية، والقرآن عن الإنجيل، ومن ثم ضرورة قبول القانون الوضعى الغربى ضمن قبول النموذج الحضارى الغربى أى إلغاء التمايز الحضارى والاستقلال القانونى.. انطلاقًا من هذه الدعوى العريضة والخطيرة اعتبر أنصار هذه الدعوى أن دعواهم هذه قد تجاوزت كونها «خيارًا» مطروحًا أمام العقل المسلم إلى حيث أصبحت «التزامًا» لا فكاك منه تجاه الأوروبيين، وبعبارة الدكتور طه حسين: «لقد التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها فى الحكم ونسير سيرتها فى الإدارة ونسلك طريقها فى التشريع[4].

هكذا فتح أصحاب هذه الدعوى ـ العريضة الخطيرة ـ الأبواب أمام القانون الوضعى الأوربى ليحل محل الشريعة الإسلامية وفقه المعاملات الإسلامية.. أى الوقوف بالإسلام عند العقيدة دون الشريعة، وأمام إلحاق الحضارة الإسلامية بالمركزية الحضارية الغربية.

(١) د. طه حسين «من الشاطئ الآخر» ١٩١، ١٢٢ ترجمة: عبد الرشيد الصادق المحمودى طبعة بيروت ١٩٩٠م.

(٢) د. طه حسين «مستقبل الثقافة فى مصر» ج١ ص ٢٩ طبعة القاهرة ١٩٣٨م.

(٣) «من الشاطئ الآخر» ص ٦٠.

(٤) «مستقبل الثقافة فى مصر» ج١، ص ٣٦، ٣٧.

* ولقد كان طبيعيًا أن تستفز هذه الدعاوى ـ بصورها المختلفة ـ روح المقاومة الوطنية والقومية والإسلامية، عند الذين يؤمنون بتمايز الحضارات الإنسانية وبالاختلاف الجذرى بين الشريعة الإسلامية ـ ذات المصدر الإلهى ـ وبين القانون الوضعى الغربى.. وكان طبيعيًا ـ كذلك ـ أن تبدأ هذه المقاومة منذ بدايات هذا الغزو القانونى الغربى لديار الإسلام.

فعندما بدأ تسلل القانون الوضعى الأوربى إلى مصر ـ فى خمسينيات القرن التاسع عشر ـ وبدأ الاحتكام إليه بالمجالس التجارية ـ فى الموانئ ـ بالمنازعات بين التجار الأجانب والمصريين ـ تصدى رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ ـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م] لهذا التسلل الذى يسعى لاغتصاب السيادة التشريعية والقانونية للشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها.. وتحدث عن «أن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق.. ومن أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابًا مستوعبة للأحكام التجارية، كالشركة، والمضاربة، والقرض، والمخابرة، والعارية، والصلح، وغير ذلك.. إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والري[1].

وفوق ذلك أعلن الطهطاوى تميز الشريعة ـ الإسلامية ـ بمصدرها الإلهى وارتباط فقه معاملاتها بمعايير الشرع المنزل وفلسفته فى التشريع، وذلك على عكس القانون الوضعى، الصادر عن العقل المجرد من الشرع، والذى يتغيا المصلحة بمعناها النفعى، وليس المصلحة الشرعية المعتبرة، فشتان بين القانون النابع من النواميس الطبيعية والعقل المجرد من الشرع وبين الفقه الإسلامى النابع من الشرع العقلانى والعقلانية المؤمنة، والذى يتغيا تحقيق صلاح الإنسان وسعادته فى المعاش والمعاد جميعًا.. وفى التمايز الفلسفى بين الحضارتين ـ الغربية والإسلامية ـ وبين القانونين

(١) الطهطاوى «الأعمال الكاملة» ج١ ص ٥٤٤، ٣٦٩، ٣٧٠ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة بيروت ١٩٧٣م.

ـ الإسلامى والأوربى قال الطهطاوى: «إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع.. وليس لنا أن نعتمد ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.. والذى يرشد إلى تزكية النفس هو سياسة الشرع.. ومرجعها الكتاب العزيز، الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول، مع ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها فى نظام أحوال الخلق كشرع الزواجر المفضية إلى حفظ الأديان، والعقول، والأنساب، والأموال، وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه يحصل به الغرض كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامه. فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى. ولا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا إليها تحسينًا وتقبيحًا وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود.. فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول ـ (المجردة عن الشرع)[1].

* وعندما فرض الاستعمار الإنجليزى تحت حراب الغزو المسلح ـ القانون الوضعى على مصر سنة ١٨٨٣م، اتخذت المقاومة طرقًا متعددة.. فالفقيه القانونى محمد قدرى باشا [١٢٣٧ ـ ١٣٠٦ هـ ١٨٢١ ـ ١٨٨٨م] وهو تلميذ الطهطاوى قام بتقنين أربعة كتب فى الفقه الحنفى، ليقدم البديل الإسلامى العصرى مقننًا تقنينًا حديثًا، ليبطل حجة أنصار الغزو القانونى الذين يرجحون كفة القانونى الأجنبى المصاغ صياغة قانونية حديثة على كتب الفقه الإسلامى التى لم يتم تقنينها[2].

* ويحذر جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٨م] من تقليد النموذجى الغربى سبيلًا للتقدم مؤكدًا أن بعث الأصول الإسلامية هو طريق النهوض، ضاربًا المثل بالتحديث العثمانى الذى سلك طريق أوروبا، والذى زاد من التبعية للغرب دون أن يحدث تقدمًا حقيقيًّا.. وفى ذلك يقول: «إنه لا ضرورة فى إيجاد المنعة» إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها أو سلكها بعض الدول الغربية، ولا ملجئ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الغربى فى نهايته، بل ليس

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧.

(٢) إلياس سركيس «معجم المطبوعات العربية والمعربة» طبعة القاهرة ١٩٢٨م.

له أن يطلب ذلك وفيما مضى أصدق شاهد على أن من سلك هذا السبيل فقد أوقر (أعجز) نفسه وأمته وقرًا وأعجزها وأعوزها.. لقد شيد العثمانيون عددًا من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يسمونه «تمدنًا» وهو ـ فى الحقيقة ـ تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى.

لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها.. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم.. إن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التى ينقلونها وإنما هم حملة ونقلة!.. لا يراعون فيها النسبة بينها وبين مشارب الأمة وطباعها.

إن الدين هو قوام الأمم وبه فلاحها وفيه سعادتها وعليه مدارها وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان.. ومن طلب إصلاح الأمة بوسيلة أخرى فقد ركب بها شططًا، وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وانعكس فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الأمة إلا نحسًا، ولا يكسبها إلا تعسًا[1].

* وعلى هذا الدرب ـ درب الإصلاح بالإسلام لا بالنموذج الغربى الوضعى اللادينى ـ سار الإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م].. فبعد أن انتقد لا دينية المدنية الأوروبية ـ «مدنية ـ الملك والسلطان ـ (القوة) ـ مدنية الذهب والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق.. التى عجز فلاسفتها وعلماؤها عن اكتشاف طبيعة الإنسان وجلاء الصدأ الذى غشى الفطرة الإنسانية ليعود لها لمعانها الروحى.

بعد هذا النقد لمادية المدنية الغربية ولا دينيتها.. انتقد المقلدين لها، والمأخوذين ـ فى مصر ـ بها، أولئك «الذين لم يزدادوا إلا فسادًا ـ وإن قيل إن لهم شيئًا من

(١) الأفغانى «الأعمال الكاملة» ص ٥٣٣، ١٩١، ١٩٧، ١٣١، ١٤١، ١٧٣ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

المعلومات ـ فما لم تكن معارفهم وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها فى نفوسهم.

ثم رفع الإمام محمد عبده شعار: الإسلام هو سبيل الإصلاح.. فقال: «إن سبيل الدين لمريد الإصلاح فى المسلمين سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مؤنه شىء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدًا.. لقد ظهر الإسلام، لا روحيًّا مجردًا، ولا جسدانيًّا جامدًا، بل إنسانيًّا وسطًا بين ذلك، آخذًا من كلا القبيلين بنصيب، فتوافر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة، وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدوه المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية.. لقد جاء الإسلام كمالًا للشخص، وألفة فى البيت ونظامًا للملك، امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه[1].

هكذا تصدى علماء الإسلام وطلائع المجددين أعلام تيار الإحياء والتجديد لمقاومة هذا الغزو الفكرى والتغريب الحضارى الذى أراد علمنة الإسلام، وإحلال القانون الوضعى الغربى محل شريعة الإسلام.

(٣)

فى أحضان الشريعة الإسلامية، تبلورت فى بلادنا مدرسة قانونية، جمعت بين فقه الشريعة الإسلامية وبين ثروة القانون الغربى فى الصياغة والتقنين، وكان الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا [١٣١٣ ـ ١٣٩١ هـ ١٨٩٥ ـ ١٩٧١م] واحدًا من أبرز أعلام هذه المدرسة، التى تصدت لمحاولات تغريب القانون وعلمنته فى بلادنا، وسعت إلى تجديد الفقه الإسلامى وإلى بعث الشريعة الإسلامية لتتخطى أعناق القرون، ولتكون المصدر الوحيد للقانون فى بلاد الشرق الإسلامى، وليكون لها الحضور

(١) محمد عبده «الأعمال الكاملة» ج٣ ص ٢٠٥، ١٠٩، ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٦٦ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة بيروت ١٩٧٢م.

اللائق بها فى الميادين الدولية والمؤتمرات الدولية التى تقارن بين المنظومات العالمية للقوانين.

كان بعث الشريعة الإسلامية، وتجديد الفقه الإسلامى هو حلم حياة السنهورى، والمشروع الفكرى الذى لم يغادر حمل أثقاله على امتداد سنوات عمره، وعندما ذهب إلى باريس فى عشرينيات القرن العشرين لنيل الدكتوراة كان تضلعه فى فقه الشريعة الإسلامية السبب الذى جعل أساتذته يطلقون عليه: «الإمام الخامس»!.. ولقد أسقطت الخلافة الإسلامية فى ذلك التاريخ، وصدر كتاب «الإسلام وأصول الحكم» ١٩٢٥م ـ الذى أهال التراب على مبدأ الخلافة، وعلى تاريخها، والذى سعى إلى علمنة الإسلام، ويومها تطوع السنهورى ـ رغم تحديدات المناخ الفكرى الغربى المعادى للخلافة، والمدافع عن علمنة الإسلام ـ تطوع فقدم دكتوراة ثانية عن فقه الخلافة الإسلامية، وكيف تصبح عصبة أمم إسلامية، تراعى مستجدات القوميات والوطنيات والقطريات مع وفائها بمقاصد الخلافة الثلاث: ١ ـ وحدة الأمة. ٢ ـ وتطبيق الشريعة ٣ ـ وتكامل دار الإسلام.. كما قام بالرد على كتاب «الإسلام وأصول الحكم» تحت عنوان: «رأى شاذ»!..

ولقد تبوأ السنهورى باشا، على امتداد حياته القانونية والدستورية والقضائية مكانة جعلته حجة لدى كل المشتغلين بالقانون فهو الوحيد ـ عالميًّا ـ الذى وضع القانون المدنى وشرحه.. وهو الذى وضع المقومات القانونية والدستورية للعديد من الدول العربية ـ مصر.. والعراق.. وسوريا.. والكويت.. والإمارات.. والسودان.. وليبيا.

وإذا كان هذا الجانب من إنجازات السنهورى معروفًا ومشهورًا.. فإن الوجه الإسلامى لهذا الفقيه القانونى لم يأخذ حقه الكامل عند كثير من القانونيين.. بل ولا الإسلاميين!. لقد كونت إسلاميات السنهورى مجلدات نافست مجلداته فى القانون.. ويكفى ـ فى هذا المقام ـ أن نقدم عددًا من صياغاته الفكرية التى تلفت الأنظار إلى هذا الوجه الإسلامى عند هذا الفقيه العظيم لقد قال: «إن الشرق بالإسلام، والإسلام بالشرق.. إنهما شىء واحد، وإذا تحدثت عن أحدهما فكأننى أتحدث عن الآخر، والشريعة الإسلامية هى شريعة الشرق، منتزعة من روح الشرق

وضميره، أوصى بها الله إلى عبد شرقى، فى أرض شرقية.. إنها شريعة الشرق ووحى أحكامه.. وإن دول الشرق لا يمكن أن تجتمع على شىء واحد غير دين الإسلام.. والإسلام دين ودولة.. مُلك إلى جانب العقيدة، وقانون إلى جانب الشعائر.. والنبى ﷺ ـ هو مؤسس الحكومة الإسلامية، كما أنه نبى المسلمين، أقام الوحدة الدينية للأمة العربية، والوحدة السياسية للجزيرة العربية.. ووضع قواعد الحياة الاجتماعية، والحياة السياسية، فالإسلام دين الأرض كما هو دين السماء.. والإسلام دين ومدنية.. والمدنية الإسلامية أكثر تهذيبًا من المدنية الأوروبية، والرابطة الإسلامية هى المدنية الإسلامية، وأساسها الشريعة الإسلامية.. وأمتنا أمة ذات مدنية أصيلة وليست الأمة الطفيلية التى ترقع لمدنيتها ثوبًا من فضلات الأقمشة التى يلقيها الخياطون!.. ولقد أعطى الإسلامى للعالم شريعة هى أرسخ الشرائع ثباتًا.. وهى تفوق الشرائع الأوروبية.. وإن استقاء تشريعنا المعاصر من الشريعة الإسلامية هو المتسق مع تقاليدنا القانونية.. إنها تراثنا التشريعى العظيم، وبها يتحقق استقلالنا فى الفقه والقضاء والتشريع.. إنها النور الذى نستطيع أن نضىء به جوانب الثقافة العالمية فى القانون.. لقد اعترف الغريب بفضل الشريعة الإسلامية فلماذا ننكره نحن؟!.. وما بالنا نترك كنوز هذه الشريعة مغمورة فى بطون الكتب الصفراء، ونتطفل على موائد الغير، نتسقط فضلات الطعام؟!.. وإن الفقه الإسلامى هو صفحة خالدة فى سجل الفقه العالمى.. وإن دراسة هذا الفقه المجيد والعتيد، فى ضوء القانون المقارن، هو مشروع حياتى والأمل المقدس الذى تنطوى عليه جوانحى، ويهفو له قلبى، ولا يبرح ذاكرتى منذ الشباب.. وإذا ما اكتمل لهذا الفقه تطوره، أصبحت الثقافة المدنية إسلامية.. وتحقق الهدف الذى قصدت إليه، وهو: أن يكون لبلادنا قانون واحد يُشق رأسًا من الشريعة الإسلامية.. وإن الكتاب والسنة هى المصادر العليا للفقه الإسلامى، فيها المبادئ العامة التى ترسم للفقه اتجاهاته، دون أن تكون هى الفقه ذاته.. فالفقه الإسلامى فقه صميم، من عمل الفقهاء، والصياغة الفقهية فيه وكذلك أساليب التفكير القانونى واضحة ظاهرة.. وإن الترتيب والتبويب والتنسيق والتحليل والتركيب فى الفقه الإسلامى لشاهد على الصناعة الفقهية فى أروع مظاهرها وأدق صورها.. إنه فقه محض، وقانون خالص، لكل الأمة، يصوغه فقهاء الأمة بسلطة الإجماع فى إطار

توجهات الشريعة الإسلامية.. إنه مثل الثوب، الذى راعى الشارع فى صنعه جسم من يلبسه وكان صغيرًا، ولحظ فى صنعه نمو هذا الجسم فى المستقبل، فبسط فى القماش بحيث يمكن توسيع الثوب مع نمو الجسم!.. إن الشريعة الإسلامية هى شريعة العصر، تتسع لمقتضيات الحضارة، وتصبح شريعة الشرق، دون تمييز بين دين ودين.. ولقد أعطت المسيحية ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، ولكن الإسلام خص المسلمين بما لله، وجعل ما لقيصر عامًا واجب التطبيق على الكافة، مسلمين وغير مسلمين.. فأحكام المعاملات جميعًا، سواء ما تعلق منها بالمال والعقود، وما تعلق بالمواريث والوصايا، وما تعلق بالأهلية، والحجر، وما تعلق بالأنكحة والنفقات يجب تطبيقها عدا استثناءات طفيفة على جميع المقيمين فى دار الإسلام من مسلمين وغير مسلمين.. ومتى كانت الشريعة الإسلامية أساسًا للقوانين المدنية فى الأمم الشرقية سهل وضع مشروع للقانون الدولى الخاص الموحد تطبقه كل الأمم الشرقية على السواء[1].

هكذا تحدث السنهورى باشا حديث الخبير بفقه الشريعة الإسلامية وفقه القوانين الغربية، عن شريعة الإسلام.. وفقه هذه الشريعة، التى تأسست عليهما حضارة الأمة ومدنيتها، والتى بدونها لن يتحقق لهذه الأمة الاستقلال الحقيقى ـ حتى ولو كان لها علم ونشيد!..

* وإذا كان السنهورى باشا قد علق بعث الشريعة الإسلامية كى تتخطى أعناق القرون لتصبح المصدر الوحيد للقوانين فى الشرق، على تجديد الفقه الإسلامى وتقنينه.. بعد إشادته بالتقنين الذى أنجزته الدولة العثمانية لفقه معاملات المذهب الحنفى ـ فى «مجلة الأحكام العدلية» ١٨٦٩م ـ وثنائه على التقنين الذى أنجزه فى إطار المذهب الحنفى ـ محمد قدرى باشا.. فلقد شاء الله لأحد تلامذة السنهورى باشا ـ الأستاذ الدكتور صوفى أبو طالب [١٣٤٣ ـ ١٤٢٩هـ ١٩٢٥ ـ ٢٠٠٨م] أن يقود إنجاز هذا المشروع العظيم ـ تقنين الفقه الإسلامى ـ بمذاهبه الموثقة والمعتمدة

(١) د. عبد الرزاق السنهورى «إسلاميات السنهورى باشا» ج١ ص ١١١ ـ ٢٢٠ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة ـ طبعة دار السلام ـ القاهرة ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

من خلال العمل الكبير الذى تبناه مجلس الشعب المصرى ـ والذى استغرق إنجازه أكثر من أربعين شهرًا ـ من ديسمبر سنة ١٩٧٨م إلى يوليو سنة ١٩٨٢م ـ والذى قامت به ثمانى لجان، ضمت ما يقرب من مائة عضو من كبار فقهاء الشريعة والقانون ـ من بينهم كوكبة من رجال القانون الأقباط ـ ولقد ـ استعانت هذه اللجان فى عملها بشيوخ الأزهر وعلماء الإفتاء، وعمداء وأساتذة الشريعة والحقوق، وأركان الهيئات القضائية ووزراء العدل والأوقاف.

لقد تحققت أحلام السنهورى فى تقنين الفقه الإسلامى.. وتحقق مطلبه «بأن يعمل فى هذه الحركة الإصلاحية إلى جانب المسلمين غيرهم من الشرقيين غير المسلمين القانونيين منهم والاجتماعيين»[١].

وفى الجلسة التى عقدها مجلس الشعب فى أول يوليو ١٩٨٢م تحدث القانونى القبطى الأستاذ أسطفان باسيلى الذى أمضى فى العمل القانونى سبعة وخمسين عامًا ـ عن تقنين الشريعة الإسلامية ـ قانونًا للأمة بأديانها المختلفة ـ فقال: «باسم الله الوهاب.. إنى إذ أتحدث الآن، وفى هذا الموضوع بالذات فإننى أشعر أن التاريخ هو الذى يتكلم، لشيخوختى أولًا، ولأننى عشت فى العمل القضائى سبعة وخمسين عامًا محاميًّا ولقد عرفت بمضى المدة أن الشريعة الإسلامية هى خير ما يمكن أن يطالب بها لا المسلم وحده بل وأيضًا المسيحى «تصفيق».. لأن بها كل ما يرضينا، والعهدة النبوية الموجودة فى دير سيناء، والمكتوبة بخط الإمام على تؤكد الحفاظ علينا فى كل ما لنا من حقوق وما علينا من واجبات والقاعدة الشرعية: «أمرنا بتركهم وما يدينون به».

واليوم مع هذه البهجة التى أراها، أحس كأنه يوم دخول الإسلام إلى مصر.. اليوم يستكمل كل ما كان ناقصًا وواجب الاكتمال فيما يتعلق بتطبيق الشريعة الإسلامية وما فيها من مصادر الرحمة الكثير بالنسبة للمواطنين.

لقد رأيت تجارب كثيرة فى حياتى، وعلى سبيل المثال: كان الولد يموت فى حياة أبيه فلا يرث أبناؤه شيئًا ويحصل الأعمام والعمات على كل تركة الجد ولكنهم

(١) نفس المصدر السابق.

وجدوا أن الشريعة الإسلامية بها أحكام تنصف هؤلاء الأبناء، فكانت الوصية الواجبة ١٩٤٦م.

لقد عشت معركة عند وضع القانون المدنى ١٩٤٨م وكانت اللجنة من بينها الأخ الدكتور السنهورى، والدكتور صادق فهمى، وكان الكفاح كله يدور حول سيادة الشريعة الإسلامية على التشريع المدنى، وفعلًا جاء التشريع المدنى وليس به مخالفة واحدة للشريعة الإسلامية، وإنما تشريع اليوم به كل شىء حسن، وبه ضوابط تريح كل المواطنين، ولا تغير من واقع عشناه جميعًا.

وستصدر التشريعات ولن يشعر أحد بأن هناك حقًّا ضاع له، فكلها جاءت لتصون الحق وتحميه فالشيء الذى يأتى وبه اسم الدين فإنه يرطب الحلق ويريح النفس ويهدئ الأعصاب لذلك أقول: إنه يوم بهجة، يوم أن يكون لكل إنسان فى مصر ما يسعده، ويوم أن يكون اسم الشريعة الإسلامية هو المسيطر على كل تشريعاتنا، فإن ذلك ما يسعدنا وللذين جاهدوا عند الله أجر ما عملوا.. والحمد لله، وشكرًا، والسلام عليكم» «تصفيق»[1].

هكذا تحققت آمال العلماء العظام ـ علماء الدين.. وفقهاء الشريعة والقانون.. من الطهطاوى.. إلى قدرى باشا.. إلى الأفغانى.. ومحمد عبده.. والسنهورى باشا ـ الذين تصدوا لتغريب القانون وعلمنته فى بلادنا.. والذين رفضوا دعاوى تأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الرومانى.. ودافعوا عن استقلال هذه الشريعة.. ذات المصدر الإلهى.. كمنظومة قانونية مستقلة ومتميزة وممتازة.. فكتب الله النصر المبين لهؤلاء العلماء المجاهدين العظام.

بهذه الصفحات ـ من تاريخنا التشريعى نقدم بين يدى الدراسة المتميزة والممتازة، التى كتبها فقيه الشريعة والقانون الدكتور صوفى أبو طالب عن «بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى».. والتى تجلى فيها واحدًا من كبار جيل الأساتذة العظام، ومحيطًا بفقه الشريعة وفقه القانون.. لم يترك صغيرة ولا كبيرة من دعاوى الذين زعموا وجود

(١) تقنين الشريعة فى مجلس الشعب المجلد الأول ص ١٧١ طبعة مكتبة الشروق الدولية ـ القاهرة ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

شبه بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى إلا وعرض لها بالبحث والدرس والتفنيد.

لذلك كان حقًّا علينا ـ وبلادنا تتجه نحو تطبيق تقنينات الفقه الإسلامى، وتفعيل حاكمية الشريعة الإسلامية ـ الإشادة بهذه الدراسة التى مضى على صدورها سنة ١٩٥٦م قرابة السبعين عامًا.

ففى هذه الدراسة سيجد الباحثون والقراء البرهنة العلمية والتاريخية والمنطقية على:

* النشأة المستقلة للشريعة الإسلامية، ذات المصدرية الإلهية.. بل واستقلال الأعراف والقوانين العربية ـ فى الجاهلية ـ عن القانون الرومانى وعن المصادر اليهودية والمسيحية التى يمكن أن تكون قد اتصلت بهذا القانون الرومانى.

* والبرهنة على جهل الفقهاء المسلمين بالقانون الرومانى، الذى لم يترجم منه شىء إلى العربية إلا فى سنة ١١٠٠م ـ أى بعد قرون من تبلور الفقه الإسلامى واستوائه على عوده.

* وأن مدارس الفقه الإسلامى قد نشأت وتبلورت ونضجت فى الحجاز والعراق، بعيدًا عن أية تأثيرات أو موروثات للقانون الرومانى.. وليس فى الشام، التى عرفت القانون الرومانى قبل الإسلام والفتوحات الإسلامية.

* وأن مدارس القانون الرومانى فى الشرق كانت قد أغلقت واندثرت قبل قرون من ظهور الإسلام.

* وحتى الثقافة الإغريقية، التى ترجمها المسلمون، فإنها قد وقفت عند الفلسفة والعلوم الطبيعية ولم يكن من بينها ما له علاقة بالقانون.. وحتى هذه الترجمة عن الإغريق ـ فى الفلسفة والعلوم الطبيعية فإنها قد حدثت بعد تبلور المدارس الكبرى والأساسية للفقه الإسلامى بزمن طويل.

* كما سيجد الباحثون والقراء فى هذه الدراسة مسحًا ميدانيًّا، يبين الاختلافات بين النظم والأفكار القانونية فى كل من الفقه الإسلامى والقانون الرومانى.. وشهادات

كثيرة لفقهاء القانون الرومانى تبرز ارتباط القواعد الفقهية الإسلامية بالقيم والأخلاق الإسلامية، ذات المصدرية الإلهية، على عكس نظائرها فى القانون الرومانى.. وكذلك الحال فى النظم التى ادعى البعض وجود شبه فيما بينها.

سيجد الباحثون والقراء فى هذه الدراسة التى نقدم بين يديها، علمًا غزيرًا.. ومنطقًا آسرًا.. وإحاطة شاملة.. وفنًا رفيعًا فى الصياغة والتأليف.. ونموذجًا راقيًا يحتذيه الباحثون وطلاب العلم فى بلادنا.

لذلك كله، كانت الحاجة العلمية إلى إعادة نشر هذه الدراسة شديدة.. كما كان فى هذا النشر لون من التكريم لصاحبها فقيه الشريعة والقانون الأستاذ الدكتور صوفى أبو طالب ـ عليه رحمة الله ـ[1].

والله نسأل أن ينفع بها.. وأن يتغمد صاحبها برحمته.. إنه سبحانه وتعالى ـ خير مسئول وأكرم مجيب.

(١) هذا، وقد ألحقنا بهذا الكتاب مقتطفات من محاضرات ألقاها الأستاذ الدكتور صوفى أبو طالب عن الشريعة الإسلامية ومحاضرة ألقاها عن المصالح المرسلة فى الشريعة الإسلامية.. وهى شواهد على أن تحكيم الشريعة الإسلامية والدفاع عنها كان يحتل المكان المتميز والكبير فى عقل هذا الأستاذ العظيم، منها جهاده الفكرى الذى يجب أن تتعلم منه الأجيال [انظر طبعتنا لهذا الكتاب ـ هدية مجلة [الأزهر] عدد ذى القعدة سنة ١٤٣٤ سبتمبر ـ أكتوبر ٢٠١٣م.

تقنين الشريعة الإسلامية بمجلس الشعب

كان إحلال القانون الوضعى الغربى محل الشريعة الإسلامية هدفًا معلنًا من أهداف الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة.. ولقد عبر عن ذلك أستاذ الحقوق الفرنسى «جورج سوردون» عندما قال: «إن الأسلحة الفرنسية هى التى فتحت البلاد العربية، وهذا يخولنا اختيار التشريع الذى يجب تطبيقه فى هذه البلاد»!

ولقد اعتمد الاستعمار لتحقيق هذا الغزو القانونى على سلطة القهر الاستعمارى، وعلى الإغراء بالمدونات القانونية الغربية المبوبة والمصاغة فى مواد مضبوطة وسهلة التناول على رجال القانون.. فى الوقت الذى كان فيه فقه الشريعة الإسلامية منتشرًا فى بحار كتب الفقه، التى لا يستطيع التعامل معها إلا المجتهدون وكبار الفقهاء الذين أصبحوا عملة نادرة بين رجال القضاء!

وبهذا القهر الاستعمارى، وهذا الإغراء القانونى تم الغزو الغربى لمؤسسات التشريع والقضاء فى البلاد التى تدنست أرضها بجيوش الاحتلال، ولقد تحدث عبد الله النديم عن هذا الغزو فقال: «إن كل الدول الأوروبية قد تعرضت بالتغيير للدين الإسلامى والعوائد الشرقية فى البلاد التى استعمرتها، وذلك عندما سنت لهذه البلاد قوانين تنسخ من الدين ما يقابل مواد هذه القوانين، ثم أخذت تتوسع فى نطاق النسخ الدينى كلما لم تجد معارضًا»!.

وفى مواجهة هذا السعى الاستعمارى لتغريب القانون، كان سعى الحركات الوطنية إلى تحرير العقل من هذا الغزو القانونى وذلك حتى تعود الأمة إلى استقلالها الحضارى، الذى هو جوهر الاستقلال عن الاستعمار، وفى مصر ـ على سبيل المثال ـ كان دفاع رفاعة الطهطاوى عن الشريعة الإسلامية موقفًا وطنيًا ضد القوانين

الفرنسية التى تسللت إلى قضائنا التجارى فى عهد الخديوى سعيد ـ فى ١٨ أبريل ١٨٥٥م ـ وفى ذلك قال الطهطاوى: «إن بحر الشريعة الغراء لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها، وإن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق.. ومن أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية يجد أنها قد بوبت للمعاملات الشرعية أبوابًا مستوعبة للأحكام التجارية: كالشركة والمضاربة والقرض والمخابرة والعارية والصلح وغيرها من الوسائل التى تحقق المنافع العمومية».

لكن تزايد النفوذ الأجنبى، وغيبة التقنين الحديث لفقه الشريعة الإسلامية، قد أفضى إلى انتشار القوانين الوضعية العلمانية على حساب فقه الشريعة الإسلامية، حتى وصفه أحد القضاة الأوروبيين ـ «فان بملن» ـ «بأنه وليد الاغتصاب الواقع من الأقوياء على حقوق الضعفاء.. وركن قوى من أركان السيطرة الأوروبية على مصر»!.

ولقد تعدت بلوى هذا الاستعمار القانونى المحاكم القنصلية، والمحاكم المختلطة إلى القضاء الأهلى ـ بعد الاحتلال الإنجليزى لمصر ـ فيما سمى بالإصلاح القضائى ـ فى ١٣ نوفمبر ١٨٨٣م.

ولقد حاول الفقيه المصرى محمد قدرى باشا ـ وهو تلميذ الطهطاوى ـ تقديم البديل القانونى الإسلامى فقام بتقنين أربعة من كتب الفقه الحنفى هى (مرشد الحيران) و(قانون العدل والإنصاف) و(تطبيق ما وجد فى القانون المدنى موافقًا لمذهب أبى حنيفة) و(الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية).. لكن الامتيازات الأجنبية التى فرضتها سلطات الاحتلال على بلادنا قد ظلت حارسة لهذا الغزو القانونى الذى عمت بلواه فى بلادنا عام ١٨٨٣م، حتى جاء فقيه الشريعة والقانون الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا، فرفع نسبة الشريعة الإسلامية فى القانون المدنى الجديد ـ الذى طبق عام ١٩٤٩م، بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية عام ١٩٤٨م.

لكن الثورة التشريعية الكبرى، التى قننت فقه الشريعة الإسلامية، انطلاقًا من كل المذاهب الفقهية المعتبرة، والتى لم تقف عند اعتماد القوانين التى لا تخالف الشريعة، وإنما ردت كل القوانين إلى القواعد الشرعية، وردت المواد القانونية إلى

المصادر الفقهية الإسلامية ـ كانت هى العمل التاريخى الذى أنجزته الدولة المصرية ـ على عهد الرئيس السادات ـ وبواسطة مجلس الشعب المصرى، وتحت قيادة فقيه الشريعة والقانون الدكتور صوفى أبو طالب ـ وهو العمل الذى استغرق أكثرمن أربعين شهرًا ـ من ديسمبر ١٩٧٨م إلى يوليو ١٩٨٢م ـ والذى تكونت لإنجازه ثمانى لجان، ضمت ما يقرب من مائة عضو من كبار فقهاء الشريعة والقانون، واستعانت فى عملها بشيوخ الأزهر وعلماء الإفتاء، وعمداء وأساتذة الشريعة والحقوق، وأركان الهيئات القضائية، ووزراء العدل والأوقاف.

ولأن الشريعة الإسلامية شريعة إقليمية ـ غير طائفية ـ تطبق على الإقليم والأمة ـ فلقد شارك فى تقنينها كوكبة من رجال القانون الأقباط، كان من بينهم الأساتذة: حنا ناروز، ووديع داود فريد، وجورج روفائيل رزق، وعدلى عبد الشهيد، ونشأت كامل برسوم، واسطفان باسيلى.

وفى جلسة مجلس الشعب، التى عقدت أول يوليو ١٩٨٢م والتى أعلن فيها هذا التقنين للشريعة الإسلامية، تحدث القانونى البارز الأستاذ اسطفان باسيلى الذى أمضى فى العمل القانونى سبعة وخمسين عامًا ـ تحدث عن الشريعة الإسلامية فقال: باسم الله الوهاب. السيد الدكتور رئيس المجلس، السادة الزملاء: إنى إذ أتحدث الآن، وفى هذا الموضوع بالذات، فإننى أشعر أن التاريخ هو الذى يتكلم، لشيخوختى أولًا، ولأننى عشت فى العمل القضائى سبعة وخمسين عامًا محاميًّا، ولقد عرفت بمضى المدة أن الشريعة الإسلامية هى خير ما يمكن أن يطالب به لا المسلم وحده بل وأيضًا المسيحى (تصفيق)ـ.

لأن بها كل ما يرضينا، والعهدة النبوية الموجودة فى دير سيناء، والمكتوبة بخط الإمام على، تؤكد الحفاظ علينا فى كل ما لنا من حقوق وما علينا من واجبات، والقاعدة الشرعية: «أمرنا بتركهم وما يدينون به»، واليوم، مع هذه البهجة التى أراها، أحس كأنه يوم دخول الإسلام إلى مصر، اليوم يستكمل كل ما كان ناقصًا وواجب الاكتمال فيما يتعلق بتطبيق الشريعة الإسلامية وما فيها من مصادر الرحمة الكثير بالنسبة للمواطنين.

لقد رأيت تجارب كثيرة فى حياتى، وعلى سبيل المثال: كان الولد يموت فى حياة أبيه فلا يرث أبناؤه شيئًا، ويحصل ا لأعمام والعمات على كل تركة الجد، ولكنهم وجدوا أن الشريعة الإسلامية بها أحكام تنصف هؤلاء الأبناء فكانت الوصية الواجبة سنة ١٩٤٦م. لقد عشت معركة عند وضع القانون المدنى سنة ١٩٤٨م، وكانت اللجنة من بينها الأخ الدكتور السنهورى والدكتور صادق فهمى، وكان الكفاح كله يدور حول سيادة الشريعة الإسلامية على التشريع المدنى وفعلًا جاء التشريع المدنى وليس به مخالفة واحدة للشريعة الإسلامية وإنما تشريع اليوم به كل شىء حسن، وبه ضوابط تريح كل المواطنين، ولا تغير من واقع عشناه جميعًا.

وستصدر التشريعات، ولن يشعر أحد بأن هناك حقًّا ضاع له؛ فكلها جاءت لتصون الحق وتحميه، فالشيء الذى يأتى وبه اسم الدين فإنه يرطب الحلق ويريح النفس ويهدئ الأعصاب، لذلك أقول: إنه يوم بهجة، يوم أن يكون لكل إنسان فى مصر ما يسعده، ويوم أن يكون اسم الشريعة الإسلامية هو المسيطر على كل تشريعاتنا، فإن ذلك ما يسعدنا. وللذين جاهدوا عند الله أجر ما عملوا والحمد لله، وشكرًا والسلام عليكم» (تصفيق).

وبعد هذا الإجماع على تحكيم الشريعة الإسلامية أجرى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية استطلاعًا للرأى حول تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بما فيها الحدود ـ فصوت ٦٣٪ من الأقباط مع هذا التطبيق، وفى ذات العام ـ ١٩٨٥م ـ نشرت صحيفة الأهرام ـ فى: ٦ـ٣ـ١٩٨٥م ـ تعليقًا للبابا شنودة قال فيه: إن الأقباط فى ظل حكم الشريعة يكونون أسعد حالًا وأكثر أمنًا، ولقد كانوا كذلك فى الماضى حينما كان حكم الشريعة هو السائد، نحن نتوق إلى أن نعيش فى ظل «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

إن مصر تجلب القوانين من الخارج وتطبقها علينا ونحن ليس عندنا ما فى الإسلام من قوانين مفصلة، فكيف نرضى بالقوانين المجلوبة ولا نرضى بقوانين الإسلام»؟!..

* * *

بقى أن نقول ـ فى هذا التمهيد ـ إن هذا التقنين للشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها، والذى مثل «الرد الشرقى» على الغزو القانونى الغربى لديار الإسلام، قد مثل البعث الجديد للشريعة الإسلامية، كى تتخطى أعناق قرون، لتصبح المصدر الأول والأساس لمدونات القانون فى بلادنا ـ وهو حلم حياة الفقيه الكبير الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا [١٣١٣ ـ ١٣٩١هـ، ١٨٩٥ ـ ١٩٧١م] الذى كتب فقال:

«إن الشرق بالإسلام، والإسلام بالشرق، وإنهما شىء واحد، وإذا تحدثت عن أحدهما فكأننى أتحدث عن الآخر، وإن الإسلام دولة إلى جانب الدين، وملك إلى جانب العقيدة، وقانون إلى جانب الشعائر، ويجب أن تصبح الشريعة الإسلامية شريعة العصر، تتسع لمقتضيات الحضارة، وتصبح شريعة الشرق، دون تمييز بين دين ودين، ومتى أصبحت الشريعة الإسلامية أساسًا للقوانين المدنية فى الأمم الشرقية سهل وضع مشروع للقانون الدولى الخاص الموحد تطبقه كل الأمم الشرقية على السواء، وإن الشريعة الإسلامية شريعة إقليمية ـ (لكل الوطن وجميع الأمة) ـ لأن الإسلام ليس كالمسيحية، إذ المسيحية أعطت ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، أما الإسلام فإنه جمع ما لله وما لقيصر، وخص المسلمين بما لله، وجعل ما لقيصر عامًا واجب التطبيق على الكافة، مسلمين وغير مسلمين، إن هذا الدين ـ الذى أتى به النبى ﷺ هو دين الأرض كما هو دين السماء، وهو لا يبشر بنعيم الآخرة وبجنات عدن تجرى من تحتها الأنهار فحسب، بل هو يبشر أيضًا بتاج كسرى وإيوانه وعرش قيصر وسلطانه، فالمسلم له عين إلى الأرض وعين إلى السماء، يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا، وكما أن الإسلام دين ودولة، وشريعة وقانون، فإنه دين ومدنية والمدنية الإسلامية أكثر تهذيبا من المدنية الأوروبية، والرابطة الإسلامية هى المدنية الإسلامية، وأساسها الشريعة الإسلامية، وأمتنا ذات مدنية أصيلة، وليست الأمة الطفيلية التى ترقع لمدنيتها ثوبًا من فضلات الأقمشة التى يلقيها الخياطون، لقد أعطى الإسلام للعالم شريعة هى أرسخ الشرائع ثباتًا، وهى تفوق الشرائع الأوروبية، وإن استقاء تشريعنا المعاصر من الشريعة الإسلامية هو المتسق مع تقاليدنا القانونية، إنها تراثنا التشريعى العظيم، وبها يتحقق استقلالنا فى الفقه والقضاء والتشريع، إنها النور الذى نستطيع أن نضىء به جوانب الثقافة العالمية فى القانون، لقد اعترف

الغريب بفضلها، فلماذا ننكره نحن؟! وما بالنا نترك كنوز هذه الشريعة مغمورة فى بطون الكتب الصفراء، ونتطفل على موائد الغير، نتسقط فضلات الطعام؟!».

هكذا تحدث السنهورى باشا عن الشريعة الإسلامية، وعن فقه معاملاتها، وهكذا جعل مشروع حياته بعث هذه الشريعة لتتخطى أعناق القرون، ولتصبح المصدر الأول لمدونات القانون فى بلادنا، كما حلم بتقنين الفقه الإسلامى، لتخرج كنوزه من بطون الكتب الصفراء، فتصبح القوانين الحاكمة لحركة الحياة فى بلاد الإسلام، بل ولتشع أضواءها على الثقافة القانونية فى العالم أجمع، وفى مواكبة الصحوة الإسلامية ـ فى سبعينيات القرن العشرين ـ وبعد انتصارات أكتوبر ١٩٧٣م، أنجزت مصر وحققت حلم الأمة، واستجابت لدعوة فقهاء الشريعة والقانون، وعلى رأسهم هذا الفقيه العظيم ـ السنهورى باشا.

أما فقيه الشريعة والقانون ـ الذى قاد الجهود التى حققت هذا الحلم العظيم فهو الدكتور صوفى أبو طالب [١٣٤٣ ـ ١٤٢٩هـ، ١٩٢٥ ـ ٢٠٠٨م] الذى نظم وقاد ـ من موقعه كرئيس لمجلس الشعب المصرى وبتوجيه من رئيس الجمهورية محمد أنور السادات [١٣٣٦م ـ ١٤٠١هـ، ١٩١٨ ـ ١٩٨١م] ـ هذا الإنجاز التاريخى، تقنين الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها، ولقد تكونت ـ لإنجاز هذا العمل العظيم ـ سبع لجان فرعية، تشرف عليها اللجنة الخاصة، وقد ضمت هذه اللجان الثمانية ـ خيرة عقول مصر ـ الشرعية والقانونية ـ كما استعانت بعدد غفير من ذوى الكفاءة والاختصاص، وهذه اللجان هى:

١ ـ اللجنة الخاصة ـ ورأسها الدكتور صوفى أبو طالب.

٢ ـ لجنة التقاضى ورأسها الأستاذ ممتاز نصار.

٣ ـ لجنة القوانين الجنائية ـ ورأسها الأستاذ حافظ بدوى.

٤ ـ لجنة المعاملات المدنية ـ ورأسها الدكتور جمال العطيفى.

٥ ـ لجنة التجارة البحرية ـ ورأسها الأستاذ أحمد على موسى.

٦ ـ لجنة قانون التجارة ـ ورأسها الدكتور محمد كامل ليلة.

٧ ـ لجنة القوانين الاجتماعية ـ ورأسها الدكتور محمد على محجوب.

٨ ـ لجنة القوانين المالية والاقتصادية ـ ورأسها الدكتور طلبة عويضة.

وهكذا أنجزت مصر ـ الأمة، والدولة، أعظم خدمة للشريعة والفقه والقانون فى العصر الحديث.

لقد كانت (مجلة الأحكام العدلية) ـ العثمانية ١٨٦٩م ـ تقنينًا لفقه المذهب الحنفى وحده، أما التقنين الذى أنجزته مصر، والذى تم فى يوليو ١٩٨٢م، فلقد تميز باحتضان كل تراثنا الفقهى الذى أبدعته المذاهب الفقهية الإسلامية المعتبرة على مر تاريخ الإسلام، الأمر الذى ميزه بما تميزت به مصر فى الوسطيه الجامعة لكل تراث الإسلام[1].

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب ـ هدية مجلة [الأزهر] عدد صفر سنة ١٤٣٤هـ يناير سنة ٢٠١٣م.

الشيخ عبد المتعال الصعيدى

بطاقة حياة الشيخ عبد المتعال الصعيدى

[١٣١١ ـ ١٣٨٦هـ ـ ١٨٩٤ ـ ١٩٦٦م]

* هو عبد المتعال عبد الوهاب أحمد عبد الهادى الصعيدى [١٣١١ ـ ١٣٨٦هـ / ١٨٩٤ ـ ١٩٦٦م].

* أحد أعلام علماء مدرسة الإحياء والتجديد ـ مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م].

* ولد بكفر النجباء ـ مركز أجا ـ محافظة الدقهلية ـ فى ٢٩ شعبان سنة ١٣١١هـ ـ ٧ مارس سنة ١٨٩٤م.. ولقى ربه فى ٢٣ محرم سنة ١٣٨٦هـ ـ ١٣ مايو سنة ١٩٦٦م.

* بدأ تعليمه بكُتاب القرية.. وبالمدرسة الإلزامية.. والمدرسة الابتدائية.. ثم التحق بالجامع الأحمدى ـ التابع للأزهر الشريف ـ بمدينة طنطا ـ وفيه ظهر نبوغه، فاجتاز مرحلة الشهادة الابتدائية فى سنة واحدة ـ بدلًا من أربع سنوات ـ وذلك لأول مرة فى تاريخ المعاهد الأزهرية.

* وفى سنة ١٣٣٢هـ سنة ١٩١٢م التحق بالقسم الثانوى ـ العالى ـ بمعهد طنطا الأحمدى.

* وفى سنة ١٣٣٦ هـ سنة ١٩١٨م اجتاز ـ بالقاهرة ـ امتحان الشهادة العالمية.

* وعقب تخرجه، وحصوله على العالمية، عين مدرسًا بالجامع الأحمدى ـ بطنطا.

* وفى سنة ١٣٥١هـ سنة ١٩٣٢م نقل للتدريس بكلية اللغة العربية بالقاهرة.

* ولقد تعرضت حياته الوظيفية ـ بسبب جرأته الفكرية ـ للعديد من الأزمات.. فعوقب سنة ١٣٥٦هـ سنة ١٩٣٧م بالنقل من كلية اللغة العربية إلى المعهد الأحمدى بطنطا.. ثم أعيد ـ ثانية ـ سنة ١٣٥٨هـ سنة ١٩٣٩م ـ للتدريس بالقسم العام بالأزهر ـ فى القاهرة ـ ولولا حماية الشيخ محمد مصطفى المراغى [١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م] للشيخ عبد المتعال لتم فصله نهائيًا من التدريس بالأزهر، وذلك بسبب معاركه الفكرية مع عدد من كبار الشيوخ.

* وفى سنة ١٣٧٠ هـ سنة ١٩٥١م أعيد إلى التدريس بكلية اللغة العربية من جديد.

* كانت حياته كلها معركة فكرية ممتدة وخصبة وحامية الوطيس ضد الجمود والتقليد ـ داخل الأزهر وخارجه.. وضد التغريب والزندقة والإلحاد.. وضد التنصير.. وتفنيدًا للشبهات التى احترف المنصرون توجيهها للإسلام.. فشارك بقلمه فى معارك إسقاط الخلافة الإسلامية سنة ١٣٤٢ هـ سنة ١٩٢٤م.. ومعركة كتاب الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ ـ ١٣٨٦هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦م] (الإسلام وأصول الحكم) سنة ١٣٤٣هـ سنة ١٩٢٥م.. ومعركة كتاب الدكتور طه حسين [١٣٠٦ ـ ١٣٩٣هـ ـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م] (فى الشعر الجاهلى) سنة ١٣٤٤هـ سنة ١٩٢٦م وأسهم فى معركة كتاب (من هنا نبدأ) للأستاذ خالد محمد خالد [١٣٣٩ ـ ١٤١٦هـ ١٩٢٠ ـ ١٩٩٦م] سنة ١٣٦٩هـ سنة ١٩٥٠م.. وقام بالرد على مقال الدكتور إسماعيل أدهم [١٣٢٩ ـ ١٣٥٩هـ ١٩١١ ـ ١٩٤٠م] (لماذا أنا ملحد؟) سنة ١٣٥٦هـ سنة ١٩٣٧م.

ـ بمقالين نشرتهما مجلة (الرسالة) تحت عنوان (حملة أصحاب الفيل).. كما كانت له صولات وجولات فى الدعوة إلى إصلاح التعليم فى الأزهر.. وذلك إلى جانب الكتب والمقالات التى دعت إلى تجديد العلوم اللغوية والأدبية والبلاغية والشرعية.

* ومن كلماته المعبرة عن مدرسته الفكرية واتجاهاته الإصلاحية ما قاله عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: (إنه إمام المصلحين فى هذا العصر، وخير من فقه الإسلام من أهل الأزهر).

وما كتبه عن فيلسوف الفقهاء وفقيه الفلاسفة أبو الوليد بن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م].

(لقد نسينا ابن رشد، وعرفته أوروبا، فكان له تلاميذ فيها نشروا فلسفته فى أقطارها، وساروا على ضوئها فى ركب الحضارة التى تخلفنا عنها.. لقد احتفينا بمن وقفت مدارسهم عند الطابع الدينى المحض، وغفلنا عن مدرسة ابن رشد ذات الطابع الدينى المدنى).

* أما كتبه، فقد قاربت أن تكون موسوعة لقضايا العصر ـ الدينية.. والسياسية.. والحضارية.. واللغوية.. والأدبية.. والبلاغية.. والفلسفية.. والمنطقية.. والتاريخية.. كما مثلت مشروعًا لإصلاح المؤسسات التى تصوغ العقل المسلم، وتهيئ المجتمع لإقامة شريعة الإسلام، وترسيخ سمات الهوية الإسلامية وقسماتها. ومن عيون هذه الكتب ـ التى قاربت السبعين ـ منها خمسون مطبوعة.. وعشرون مخطوطة:

١ ـ (الحرية الدينية فى الإسلام).

٢ ـ (حرية الفكر فى الإسلام).

٣ ـ (السياسة الإسلامية فى عهد النبوة).

٤ ـ (السياسة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين).

٥ ـ (فى ميدان الاجتهاد).

٦ ـ (القرآن والحكم الاستعمارى).

٧ ـ (القضايا الكبرى فى الإسلام).

٨ ـ (المجددون فى الإسلام).

٩ ـ (المصحف المبوب والمفسر).

١٠ ـ (مفاتيح كنوز القرآن).

١١ ـ (من أين نبدأ؟).

١٢ ـ (النظم الفنى فى القرآن).

١٣ ـ (نقد كتاب طه حسين فى الشعر الجاهلى).

١٤ ـ (الوسيط فى تاريخ الفلسفة الإسلامية).

١٥ ـ (لماذا أنا مسلم؟).

* كما ترك بصماته الفكرية على العديد من الذين تتلمذوا عليه وعلى كتبه.. فى مصر ووطن العروبة وعالم الإسلام.

* عليه رحمة الله[1].

* * *

(١) عصمت نصار ـ تقديم كتاب الشيخ عبد المتعال الصعيدى (الحرية الدينية فى الإسلام) ص ١٧ ـ ٧٦. طبعة مكتبة الإسكندرية ـ سلسلة (فى الفكر النهضوى الإسلامى) ـ القاهرة سنة ١٤٣٣ هـ سنة ٢٠١٢م.

لماذا أنا مسلم؟

للشيخ عبد المتعال الصعيدى

[١٣١١ ـ ١٣٨٦هـ ـ ١٨٩٤ ـ ١٩٦٦م]

لأن الإسلام قد جعل التعددية الدينية ـ فضلًا عن الفكرية ـ سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

ولأنه قد أكد سنة الاختلاف ـ التى هى فطرة إنسانية ـ بالنص الدينى المحكم قطعى الدلالة والثبوت:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فلقد عاشت فى الاجتماع الإسلامى، وضمن الأمة الواحدة اليهودية بمذاهبها المتعددة، والنصرانية بمذاهبها المختلفة، وشارك أهلها مع المسلمين فى بناء حضارة الإسلام.

ولقد كان طبيعيًّا فى مجتمعات تتعدد فيها الديانات، وتحكمها حرية الاعتقاد، أن يكون هناك حوار وجدال بين أهل هذه الديانات.. ولذلك رأينا فى تراث أئمة الفكر الإسلامى المؤلفات التى ترد على شبهات اليهود والنصارى، والتى تجيب عن الأسئلة التى يوجهونها إلى علماء الإسلام.. وجدنا ذلك فى تراث أغلب هؤلاء الأئمة ـ ومنهم: ـ حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م]..

وإمام الحرمين الجوينى [٤١٩ ـ ٤٧٨هـ ١٠٢٨ ـ ١٠٨٥م]. والإمام القرافى ـ أحمد بن إدريس [٦٨٤هـ ١٢٨٥م].. والإمام ابن حزم الأندلسى [٣٤٨ ـ ٤٥٦هـ ٩٤٤ ـ ١٠٦٤م].. والشهر ستانى [٤٧٩ ـ ٥٤٨هـ ١٠٨٦ ـ ١١٥٣م] وشيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ ـ ٧١٨ هـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م].. وابن القيم [٦٩١ ـ ٧٥١ هـ ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠م].. والإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] والشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م] والشيخ محمد أبو زهرة [١٣١٦ ـ ١٣٩٤ هـ ١٨٩٨ ـ ١٩٧٤م].. وغيرهم من الأئمة الأعلام الذين جعلوا من الحوار مع اليهود والنصارى، والرد على شبهاتهم، مهمة من مهمات البحث والدرس والتأليف.

* * *

لكن هذا الذى عرفته حضارتنا ـ بسبب التعددية الدينية فى أمتنا ـ شىء.. ومواجهة (التنصير) ـ الذى يبشر بمذاهب النصرانية الغربية فى بلاد الإسلام ـ شىء آخر.

ذلك أن هذا التنصير الغربى قد مثل ـ بالنسبة لعالم الإسلام ودول الجنوب ـ (كتيبة) من كتائب الزحف الاستعمارى الغربى على ديار الإسلام وعالم الجنوب فى العصر الحديث.. فالإمبريالية الغربية ـ التى هى أعلى مراحل الرأسمالية ـ والتى زحفت جيوش دولها الاستعمارية بحثًا عن الأسواق والمواد الخام، كان لا بد لها كى تخضع المستعمرات، وتشدها بحبال التبعية للمركز الغربى، كان لا بد لها، مع الجيوش المحاربة من (كتائب فكرية) تعمل على احتلال العقول والقلوب، وذلك حتى يكون المركز الحضارى الغربى هو القبلة والنموذج لدى شعوب المستعمرات، وحتى يتأبد احتلال الأرض ونهب الثروات.. ولتحقيق هذه الغاية كانت (كتائب الغزو الفكرى) و(إرساليات المنصرين) جزءًا أصيلًا من عملية الزحف الغربى على عالم الإسلام وبلاد الجنوب فى العصر الحديث.

فبالغزو الفكرى والتغريب الثقافى تنتشر العلمانية، التى تعمل على تهميش الإسلام، عندما تحوله إلى مجرد عقيدة قلبية خاصة، وطقوس فردية، لا علاقة له بالسياسة والتشريع والسلطة والدولة والقانون والاستقلال الحضارى.. وبالتنصير ـ

الذى يبشر بمذاهب النصرانية الغربية ـ يتم اقتلاع الإسلام من جذوره، وطى صفحته من كتاب الحياة!!

* ومنذ أن نجح الصليبيون فى غرب أوروبا فى إسقاط (غرناطة) ـ آخر معاقل الحضارة الإسلامية فى الأندلس ـ سنة ٨٩٧ هـ سنة ١٤٩٢م بدأت طلائع الغزوة الأوروبية الحديثة لعالم الإسلام.. فغرناطة أسقطت فى يناير سنة ١٤٩٢م.. وفى أغسطس من نفس العام، خرجت من أسبانيا أولى حملات الغزوة الغربية الحديثة، بقيادة (كرستوفر كولمبس) [١٤٥١ ـ ١٥٠٦م] قاصدًا جزر الهند الشرقية، ليجمع الذهب الذى يجيش به الحملة الصليبية التى تستعيد القدس والأرض المقدسة من جديد!.. فلما ضل طريقه، وذهب إلى أمريكا، بدلًا من جزر الهند الشرقية، جمع الذهب، وعاد ليلح على ملكى أسبانيا (فرديناند) [١٤٧٩ ـ ١٥١٦م] و(إيزابيلا) [١٤٧٤ ـ ١٥٠٤م] وعلى البابا (إسكندر السادس) [١٤٩١ ـ ١٥٠٣م] كى يعملوا على تجييش الجيش المكون من خمسين ألفًا من الجنود المشاة، وخمسة آلاف من الفرسان، لتحقيق هذا المقصد الاستعمارى التاريخى.

* لكن الحملة التى حققت حلم (كرستوفر كولمبس) كانت هى التى قادها (فاسكو دى جاما) [١٤٦٩ ـ ١٥٢٤م] والتى خرجت من البرتغال سنة ٩٠٣هـ سنة ١٤٩٧م ـ أى بعد خمس سنوات من إسقاط (غرناطة) ـ فدارت حول أفريقيا وكانت عيونها على الأقليات لتقيم بواسطتهم نقاط الارتكاز، فتحالفت مع ملكة أثيوبيا (هيلانة) ـ التى تحولت عن الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية ـ للعمل على تحويل مجرى النيل ليصب فى البحر الأحمر، بدلًا من أن يجرى إلى مصر!.. وليصعد الأسطول البرتغالى عبر البحر الأحمر ـ إلى (جدة) (فمكة) و(المدينة المنورة) لهدم الكعبة، وسرقة جثمان الرسول ﷺ للمساومة به على استعادة القدس والأرض المقدسة من جديد!.

ولما فشل هذا المخطط ـ لأسباب مناخية.. ولنقص المؤن اتجهت الحملة البرتغالية إلى شواطئ الهند لمحاربة المسلمين هناك، ولتتخذ من شرقى آسيا ـ بعد أثيوبيا ـ قواعد تنطلق منها الجيوش الاستعمارية ـ إلى الخليج العربى، للاستيلاء على قلب العالم الإسلامى ـ الوطن العربى ـ لإعادة احتلال القدس وفلسطين!

ولقد كان الشعار الذى رفعته هذه الحملة الصليبية البرتغالية ـ التى قادها (فاسكودى جاما) ـ هو (التوابل والمسيح)!.. أى المواد الخام، وأسواق التجارة الدولية، وتحويل طرقها بعيدًا عن الوطن العربى.. مع تنصير المسلمين لكسر شوكة المقاومة الإسلامية، واقتلاع جذورها من الأعماق!!

* وفى مواجهة هذه الحملة البرتغالية، خرج الجيش المصرى من ميناء السويس سنة ٩١٠هـ سنة ١٥٠٤م ـ على عهد الملك الأشرف قانصوه الغورى (٩٠٦ ـ ٩٢٢هـ ١٥٠١ ـ ١٥١٦م) لمحاربة البرتغاليين على شواطئ الهند.. فلما انهزم أسطوله وأصبح ضعف الدولة المملوكية بمثابة الفراغ الذى يغرى البرتغاليين ـ الذين زحفوا إلى الخليج العربى ـ بابتلاع المشرق العربى ـ زحفت الجيوش العثمانية على الشام ومصر سنة ٩٣٢هـ سنة ١٥١٧م بقيادة السلطان سليم الأول [٩١٨ ـ ٩٢٦هـ ١٥١٢ ـ ١٥٢٠م] فملأت الفراغ العسكرى، وأخرت الغزوات الغربية للوطن العربى عدة قرون.

وكما تحالف الصليبيون البرتغال ـ إبان هذه الحملة ـ مع أثيوبيا ضد الدولة المملوكية، فلقد تحالفوا ـ كذلك ـ مع الدولة الصفوية الشيعية ـ فى إيران ـ ضد الدولة العثمانية، فكان الزحف الصفوى على الحدود الشرقية للدولة العثمانية ـ بقيادة الشاه إسماعيل الصفوى [٩٠٧ ـ ٩٣٠هـ ١٥٠٢م ـ ١٥٦٦م] ـ على عهد السلطان العثمانى سليمان القانونى [٩٢٦ ـ ٩٧٣هـ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م] ـ كان سببًا فى انسحاب الجيوش العثمانية من على أسوار (فينا).. ثم تكرر ذلك ـ على عهد الشاه الصفوى نادر شاه [١١٤٨ ـ ١١٦٠هـ ١٧٣٦ ـ ١٧٤٧م] ـ الذى احتل بغداد، فاضطر السلطان العثمانى مراد الرابع [١٠٣٢ ـ ١٠٥٠هـ ١٦٢٢ ـ ١٦٤٠م] إلى سحب جيوشه من على أسوار (فينا) ـ مرة ثانية ـ كى يحرر بغداد من الاحتلال الصفوى [١٠٤٩ هـ ١٦٣٩م].

* * *

* أما على جبهة التنصير، فلقد بدأ تنصير الفلبين لتكون قاعدة للإمبريالية الغربية فى شرقى آسيا.. وتم تحويلها عن الإسلام إلى الكاثوليكية، وتغيير اسم عاصمتها من

(أمان الله) إلى (مانيلا)!.. وتم حشر المسلمين كأقلية ـ فى جنوبها، حيث لا يزالون يجاهدون للحفاظ على وجودهم الإسلامى حتى هذه اللحظات!

هكذا بدأت الغزوة الإمبريالية الغربية الحديثة لعالم الإسلام.. وهكذا أصبح التبشير بالمذاهب المسيحية الغربية فى البلاد الإسلامية كتيبة من كتائب الغزو الاستعمارى، تسعى إلى كسر شوكة المقاومة الإسلامية.. فبتنصير المسلمين تتم تبعيتهم الروحية للكنائس الغربية، فيتأيد ويتأبد إلحاق الشرق بالمركزية الحضارية الغربية!.

ومنذ ذلك التاريخ عرف الفكر الدينى فى بلادنا الجدال مع المنصرين، الذين جمعوا كل أشتات الشبهات التى سبق ووجهت إلى الإسلام، وخاضوا بها صراعًا حاميًا ومكرورًا مع علماء الإسلام.

* فلما كان القرن التاسع عشر، الذى شهد ضعف الدولة العثمانية ـ الدولة الإسلامية الجامعة الحامية ـ وفُتحت واتسعت الثغرات الاستعمارية لالتهام ولايات هذه الدولة، زحف التنصير الغربى فى ركاب النفوذ والجيوش الغربية إلى الكثير من أقطار الشرق الإسلامى، فقامت مدارس الإرساليات التبشيرية ـ وخاصة فى لبنان ـ بتخريج كتائب من المثقفين الذين يبشرون بالعلمانية وبالعاميات وبالمذاهب والفلسفات المادية الغربية التى تهمش الإسلام وتقلص شموله لكل مناحى الحياة.. ولقد حدد القناصل الفرنسيون فى بيروت أهداف هذه المدارس، فقالوا ـ فى مراسلاتهم لوزارة الخارجية الفرنسية ـ فى باريس ـ: (إنها تستهدف جعل الشام حليفًا أكثر أهمية من مستعمرة!.. وتأمين هيمنة فرنسا على منطقة خصبة ومنتجة! وتحويل الموارنة إلى جيش متفان لفرنسا فى كل وقت!.. وجعل البربرية العربية (كذا) ـ تنحنى لا إراديًا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا)[1]!!

(١) من مراسلات القناصل ـ أرشيف الخارجية الفرنسية ـ باريس ـ سنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٤٢ ـ ١٨٤٨ ـ ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨م. انظر: محمد السماك (الأقليات بين العروبة والإسلام ص ٧٣ طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت سنة ١٩٩٠م.

وإلى جانب مدارس الإرساليات هذه ـ والكتب والمجلات التى روجت لفكريتها ـ قامت كنائس المذاهب النصرانية الغربية ركائز للتنصير فى بلاد الإسلام..

ومع تصاعد ضعف الدولة العثمانية ـ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ـ تصاعدت موجات التنصير متزامنة مع تصاعد الزحف الاستعمارى على ولايات الدولة العثمانية.

وفى هذه الحقبة ظهر ـ فى الشرق ـ أشهر المنصرين الأمريكيين ـ القس (صموئيل زويمر) [١٨٦٧ ـ ١٩٥٢م] ـ بطل هذه المناظرات التى كتبها العالم المجدد الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى هذا الكتاب الذى نقدم بين يديه ـ كتاب (لماذا أنا مسلم)؟

لقد رمز شيخنا الجليل ـ فى هذه المناظرات ـ إلى المنصرين بالقس (ز) ـ الذى وصفه ـ فى التقديم لهذا الكتاب ـ بأنه: (من علماء المسيحية الذين درسوا الإسلام دراسة غير بريئة، دراسة لا يراد منها الوصول إلى الحق، والبحث فى الإسلام بحثًا يراعى صاحبه أنه قبل كل شىء مسيحى، وإنما يراد منه تصيد كل ما يشكك المسلم فى دينه، من شُبه متكلفة، واعتراضات بعيدة، ولو أنهم كانوا يدرسون الإسلام للوصول إلى رأى صحيح فيه لسهل عليهم أمر تلك الشبه، ولما رضوا أن يتوجهوا بها إلى المسلم ليشككوه فى دينه، فيقابلها بكل ازدراء واحتقار، لهوان أمرها، وحقارة شأنها).

* وإذا كان أسلافنا قد قالوا: (إن اختيار المرء هو قطعة من عقله).. فلقد كان اختيار شيخنا عبد المتعال الصعيدى للقس زويمر ـ ممثلًا للتنصير والمنصرين.. فى مرحلة استعلاء هؤلاء المنصرين تحت حماية الاستعمار ـ من شواهد عبقرية هذا الشيخ الجليل..

* فزويمر هذا هو القائل: (إن تبشير المسلمين يجب أن يكون بلسان رسول من أنفسهم، ومن بين صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أبنائها)[1]!

(١) ألف شاتليه (الغارة على العالم الإسلامى) ص ٩٣، ٩٤ تعريب محب الدين الخطيب، مساعد اليافى. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٠م.

* وهو الذى رفع سقف أطماع المنصرين من (التنصير بين المسلمين) إلى (تنصير كل المسلمين)!.. بل إلى (تنصير العالم)!.. فقال: (إن الله لم يقصد أن يقاسم المسيح أحدٌ فى ملكوته) بل قصد أن تكون مملكة المسيح بلا حدود، وأن تكون حروبه خالية من شروط الحياد عند أية أمة، وهناك مواعيد كتابية بنجاح هذه المشروعات التبشيرية. ولأن العالم الإسلامى الذى يحبه الله ـ لا يزال بعيدًا عن الله، فإن تنصيره هو رأفة من الله به وشفقة منه عليه)![1].

* وزويمر هذا هو الذى بلغ احتقاره للمسلمين ـ ربما فى لحظات يأسه من تنصيرهم ـ حد الدعوة إلى مجرد تشكيكهم فى دينهم، ودفعهم إلى الزندقة والإلحاد والكفر بكل الأديان.. مفضلًا كفر المسلم على إيمانه بأى دين، طالما لم ينخرط فى دين زويمر!.. وفى ذلك تحدث إلى أعوانه ـ من كتائب التنصير فى الزحف الاستعمارى الغربى فقال ـ فى مؤتمر القدس التنصيرى سنة ١٣٥٤هـ سنة ١٩٣٥م: «لا إن مهمة التبشير التى ندبتكم لها الدول المسيحية فى البلاد الإسلامية ليست فى إدخال المسلمين المسيحية.

فإن فى هذا هداية لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم هى أن تخرجوا المسلم من الإسلام، عن طريق التعليم ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالى لا صلة له بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها.. لقد أعددتم نشأً لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية، وبالتالى فقد جاء النشء طبقًا لما أراده الاستعمار، لا يهتم بعظائم الأمور، فإذا تعلم فللشهرة وإذا تبوأ أسمى المراكز ففى سبيل الشهرة يجود بكل شىء)[2]!

ـ وزويمر هذا هو الذى اتخذه المنصرون ـ الذين عقدوا أخطر مؤتمرات التنصير ـ فى كولورادو ـ بأمريكا سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م اتخذوه القدوة والأسوة والنموذج

(١) صموئيل زويمر (طريق المحبين إلى قلوب المسلمين) ص٩ وما بعدها. طبعة اللجنة التبشيرية للإرسالية الأمريكية ـ القاهرة بدون تاريخ ـ والنقل عن: د. عبد الرازق عبد الرازق عيسى (التنصير الأمريكى فى بلاد الشام) ـ القاهرة ـ مكتبة مدبولى سنة ٢٠٠٥م.

(٢) (الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة) ص ١٦٢، ١٦٣ ـ الندوة العالمية للشباب الإسلامى الطبعة الثانية ـ الرياض سنة ١٤٠٩هـ سنة ١٩٨٩م.

والمثل الأعلى، حتى لقد أطلقوا اسمه على المؤسسة التى تقود منظمات التنصير على النطاق العالمى (معهد صموئيل زويمر) ـ الذى أرادوه (مركز الأعصاب) و(بنتاجون) عالم التنصير!.

بل وتوجهوا ـ فى توصيات مؤتمرهم هذا ـ إلى ربهم (أن يرزقهم نماذج من المنصرين مثل صموئيل زويمر الذى أتقن اللغة العربية، وكان عالمًا محترفًا فى الإسلاميات، ومنصرًا مقنعًا، لقد عمل ٢٣ سنة منصرًا فى الجزيرة العربية، وستة عشر عامًا مديرًا لمركز الدراسات الإسلامية والمطبوعات فى القاهرة واستطاع فى الوقت نفسه أن يشرف على تحرير أهم مجلة نصرانية عن الإسلام لمدة ٣٦ سنة، وهى مجلة (العالم الإسلامى)[١].

ـ وزويمر هذا هو الذى ألف عشرات الكتب والدراسات التى ملأها بالشبهات التى تحاول أن تشكك المسلمين فى دينهم.. ومنها:

١ ـ (يسوع فى إحياء الغزالى) سنة ١٩١٢م.

٢ ـ (بلاد العرب منذ الإسلام).

٣ ـ (الغواص والآلئ ـ أو ترجمة الغزالى) ـ مصر سنة ١٩٢١م.

٤ ـ (الإسلام فى العالم) سنة ١٩١١ ـ سنة ١٩١٣م.

٥ ـ (مصنفات المكتبة الإسلامية) سنة ١٩١٢م.

٦ ـ (ترجمات القرآن) سنة ١٩١٥م.

٧ ـ (الإسلام فى جنوب أمريكا) سنة ١٩١٦م.

٨ ـ (القرينة) سنة ١٩١٦م.

٩ ـ (أوائل المسلمين فى الصين) سنة ١٩١٨م.

(١) (التنصير الأمريكى) ـ خطة لغزو العالم الإسلامى ص٦ ـ وثائق مؤتمر كولورادو ـ طبعة مكتبة وهبة ـ القاهرة سنة ٢٠١١م. وانظر كتابنا (الغارة الجديدة على الإسلام) طبعة نهضة مصر ـ القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

١٠ ـ (أمية النبى) سنة ١٩٢١م.

١١ ـ (الحديث القدسى) سنة ١٩٢٢م.

١٢ ـ (الإسلام فى الهند) سنة ١٩٢٥م.

١٣ ـ (الإسلام فى أفريقيا) سنة ١٩٢٥م.

١٤ ـ (الإسلام فى جنوب أوروبا) سنة ١٩٢٧م.

١٥ ـ (تنوع الإسلام فى الهند) سنة ١٩٢٧م.

١٦ ـ (حياة محمد لاندراى) سنة ١٩٢٧م.

١٧ ـ (سورة الإخلاص) سنة ١٩٣٦م.

١٨ ـ (إكرام آدم والملائكة) سنة ١٩٣٧م.

١٩ ـ (الإسلام) سنة ١٩٣٨م.

٢٠ ـ (الإسلام فى الصحراء الغربية) سنة ١٩٤٣م.

٢١ ـ (الإسلام فى مدغشقر) سنة ١٩٤٥م.

٢٢ ـ (فرنسيس الأسيزى والإسلام) سنة ١٩٤٩م.

٢٣ ـ (إرث النبى) سنة ١٩٤٨م[١].

أى أنه عاش حياته ـ ٨٦ عامًا ـ يحارب الإسلام.. وظل يؤلف الكتب والدراسات ضد الإسلام إلى ما قبل وفاته بثلاث سنوات!!

هذا هو القس (زويمر).. الذى اختاره شيخنا عبد المتعال الصعيدى فى هذه المناظرات ـ نموذجًا للمنصرين.. وساق على لسانه ـ فى المناظرات العشرين ـ كل حصاد المنصرين من الشبهات التى تفننوا فيها على مر التاريخ!.

(١) نجيب العقيقى (المستشرقون) ج٣ ص ١٠٠٥ طبعة دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٦٥م.

* أما ردود شيخنا الجليل على هذه الشبهات، فلقد جاءت ـ كما سيجد القارئ لهذا الكتاب ـ إبداعًا فكريًّا متميزًا وممتازًا، استخدم فيه العقل والنقل والفطرة وحقائق التاريخ.. وضم إلى العلوم الإسلامية الفقه النقدى لأسفار العهدين القديم والجديد.. كما قدم إشراقات من الاجتهادات الجديدة التى لم يسبقه إليها أحد من علماء الإسلام الذين أبدعوا فى هذا الفن من التأليف على مر تاريخ الحوار والجدال بين المسلمين وأهل الكتاب.

كما التزم شيخنا الجليل ـ فى هذه المناظرات ـ آداب البحث والمناظرة، التى علمنا إياها القرآن الكريم:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤].

رحم الله شيخنا الجليل عبد المتعال الصعيدى.. ونفع بكتابه هذا (لماذا أنا مسلم؟).. هذا الكتاب الذى بدأ صغير الحجم ـ فى ٣٢ صفحة ـ طبعته المطبعة المحمودية ـ بالقاهرة سنة ١٩٣٤م.

ثم اكتمل وأخذ صورته الحالية، فى ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٣٥٥هـ ـ ١٣ يونيو سنة ١٩٣٦م ـ ونشرته مكتبة الآداب ـ بالجماميز ـ فى ١٨٨ صفحة ـ القاهرة سنة ١٩٣٦م.

ثم صدرت له طبعتان فى سنة ١٩٤٧م وسنة ١٩٥٢م.

وهذه هى طبعته الأولى بعد وفاة المؤلف.. والتى تتميز وتنفرد بالدراسة والتقديم والتعليقات.. ونحن إذ نقدمها للباحثين والقراء ـ من المسلمين وأهل الكتاب ـ نسأل الله ـ عز وجل ـ أن ينفع بها، وأن يجعلها فى ميزان حسنات عالمنا الجليل.. المجدد المجاهد الشيخ عبد المتعال الصعيدى.. أنه ـ سبحانه وتعالى ـ خير مسئول وأكرم مجيب[1].

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب ـ هدية مجلة [الأزهر] عدد جمادى الأولى سنة ١٤٣٥هـ، ١٥ مارس سنة ٢٠١٤م وطبعة دار الفكر العربى القاهرة سنة ٢٠١٦م.

الشيخ محمد متولى الشعراوى

بطاقة حياة الشيخ / محمد متولى الشعراوى

[١٣٢٩ ـ ١٤١٩ هـ ـ ١٩١١ ـ ١٩٩٨م]

فى المأثور الإسلامى، الذى بلغ مبلغ الحكمة: «إن ألسنة الخلق هى أقلام الحق».

وعندما ننظر إلى مئات الملايين من أبناء الأمة الإسلامية، على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام، وخارج عالم الإسلام، وكيف اجتمعت قلوبها، وتعلقت عقولها، وارتبطت أفكارها بشيخنا الراحل ـ شيخ العصر وإمام الزمان ـ الشيخ محمد متولى الشعراوى [١٣٢٩ ـ ١٤١٩هـ / ١٩١١ ـ ١٩٩٨م] نقول ـ مع المأثور الإسلامى دون أن نزكى على الله أحدًا: نعم، «إن ألسنة الخلق هى أقلام الحق»، ناهيك أننا ـ فى حالة الشيخ «الشعراوى» ـ لسنا بإزاء الألسنة وحدها، وإنما بإزاء الألسنة الناطقة بما فى القلوب والعقول، فهذا رجل ندر أن اجتمعت وأجمعت على داعية سواه هذه المئات من الملايين، فهو لم يكن ـ ككثيرين من عظماء علماء الأمة ـ مفكر نخبة أو فيلسوف صفوة، وإنما كان داعية أمة، تلعقت به الجماهير كما لم تتعلق بداعية فى عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر..

وفى المأثور الإسلامى أيضًا ـ أن «الحسن البصرى» [٢١ ـ ١٠٠هـ / ٦٤٢ ـ ٧٢٨م] ـ وكان إمام عصره ـ الذى رضع فى بيت النبوة، ورأت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنه فى قراءته للقرآن ـ يشبه قراءة الأنبياء ـ أن الحسن البصرى هذا قد سمع موعظة واعظ، فلم تؤثر فيه، فسأله:

ـ يا أخى، أبقلبك مرض أم بقلبى؟!

ذلك أن فارقًا كبيرًا بين العالم الذى ينثر المعلومات، حتى لكأنه «بنك معلومات»، وبين العالم ـ صاحب العلم النافع ـ الذى يعيش علمه، والذى صاغ العلم قلبه ووجدانه، حتى إذا خرجت الموعظة من فمه، وجدت القنوات مفتوحة أمامها إلى القلوب، تستقر فيها، وتعيد صياغتها من جديد.

ومن هذا القبيل كان الشيخ «الشعراوى» ـ رحمه الله ـ فحصيلته من أسرار البلاغة على وفرتها، هى معلومة مشهورة ومبذولة فى كتب التراث، لكن هذه المعلومات قد صاغت قلبه، فجعلته قلبًا نورانيًّا، فلما قرأ القرآن فى ضوء هذا النور القلبى إذا به يكتشف من أسرار التركيب القرآنى والإعجاز البيانى للوحى الإلهى ما يمر عليه الحفاظ والقراء صباح مساء دون أن يكتشفوه، لذلك بهر «الشعراوى» الأمة بالقرآن الكريم كما لم يبهرها داعية فى العصر الحديث، لأنه كان قلبًا متوقدًا، وفؤادًا حيًّا، وعقلًا واعيًّا، وإنسانًا صالحًا، ولم يكن «بنك معلومات».

ولقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن ينجز الرجل ما أنجز عندما علا صوت الفكر المادى والإلحادى، مهددًا بإحداث فتنة فى الدين والتدين والإيمان الدينى، فكانت رسالته الدعوية اصطفاءً إلهيًّا، ولبنة فى البناء الإسلامى الخالد على مر التاريخ.

* ولد الشيخ الشعراوى بقرية «دقادوس» ـ مركز ميت غمر ـ محافظة الدقهلية ـ بدلتا النيل ـ فى ١٥ من ربيع الآخر سنة ١٣٢٩هـ ١٥ من إبريل سنة ١٩١١م.

* وأتم حفظ القرآن الكريم ـ بكتَّاب القرية ـ وهو فى العاشرة من عمره.. وأتم تجويده وهو فى الخامسة عشرة من عمره..

* والتحق بمعهد الزقازيق الابتدائى سنة ١٣٤٥هـ سنة ١٩٢٦م.. ثم بالقسم الثانوى، بذات المعهد، سنة ١٣٥١هـ سنة ١٩٣٢م.

* ونال شهادة العالمية من كلية اللغة العربية سنة ١٣٦٠هـ سنة ١٩٤١م.. وحصل على إجازة التدريس سنة ١٣٦٢هـ سنة ١٩٤٣م.

* وفى مراحل طلبه للعلم، كان خطيبًا مفوهًا، وزعيمًا طلابيًّا، حتى إنه رأس اتحاد الطلاب وهو فى المرحلة الابتدائية الأزهرية، وبسبب نشاطه السياسى، وانتمائه

لحزب الوفد، ومشاركته مع الطلاب فى الحراك الوطنى، لوحق، وتعرض للسجن والاعتقال أكثر من مرة.

* وعقب تخرجه، عمل مدرسًا بالمعهد الأحمدى الدينى بطنطا.. ثم انتقل للتدريس بمعهد الإسكندرية الدينى.. ثم إلى التدريس بمعهد الزقازيق.. ثم عين وكيلًا لمعهد طنطا سنة ١٣٧٩هـ سنة ١٩٦٠م.. ثم مديرًا للدعوة بوزارة الأوقاف سنة ١٣٨٠هـ سنة ١٩٦١م.. ومفتشًا للعلوم العربية بالأزهر سنة ١٣٨١هـ سنة ١٩٦٢م.. ثم مديرًا لمكتب شيخ الأزهر ـ الشيخ حسن مأمون [١٣١٢ ـ ١٣٩٣هـ/ ١٨٩٤ ـ ١٩٧٣م] سنة ١٣٨٣هـ سنة ١٩٦٤م.. ثم مديرًا عامًا لمكتب وزير شئون الأزهر سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥م.. ووزيرًا للأوقاف وشئون الأزهر [١٩٧٦ ـ ١٩٧٨م].

* وفى خارج مصر: أعير للعمل مدرسًا بكلية الشريعة ـ جامعة الملك عبد العزيز آل سعود ـ بمكة المكرمة ـ سنة ١٣٦٩هـ سنة ١٩٥٠م..

ورأس البعثة الأزهرية بالجزائر سنة ١٣٨٥هـ سنة ١٩٦٦م..

ثم عمل أستاذًا زائرًا بجامعة الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٣٩٠هـ سنة ١٩٧٠م.. ورأس قسم الدراسات العليا سنة ١٣٩٢هـ سنة ١٩٧٢م.. واختارته رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة ـ عضوًا بالهيئة التأسيسية لمؤتمر الإعجاز العلمى للقرآن الكريم.

* ونال عضوية مجمع البحوث الإسلامية ـ بالأزهر الشريف سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٠م.. كما نال عضوية مجمع اللغة العربية سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٨م.. وعضوية مجلس الشورى سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٨م.

* ومنح وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى بمناسبة بلوغه سن التقاعد، وتفرغه للدعوة، سنة ١٣٩٦هـ سنة ١٩٧٦م.. وحصل على جائزة الدولة التقديرية سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٨م.. كما حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة المنصورة سنة ١٤١٠هـ سنة ١٩٩٠م.. وعلى جائزة دبى لشخصية العام سنة ١٤٢٠هـ سنة ١٩٩٨م.

* ورافق الرئيس محمد أنور السادات [١٣٣٧ ـ ١٤٠١هـ/ ١٩١٨ ـ ١٩٨١م] فى زيارته للأمم المتحدة سنة ١٣٩٩هـ سنة ١٩٧٩م.. وخطب الجمعة وأم الناس فى أول جمعة أقيمت هناك.

* وطاف الكثير من ديار العالم الإسلامى، ومواطن الجاليات الإسلامية فى الغرب، داعيًا إلى الله، وكاشفًا الشبهات عن الإسلام.. كما تناقلت أحاديثه وأماليه أجهزة البث ـ المسموعة والمرئية ـ ودور النشر فى مختلف بلاد المعمورة.

* لقد تميز الشيخ الشعراوى كمدرس للبلاغة.. وبرع فى إدراك أسرار الإعجاز القرآنى.. ودخل الإذاعة، لأول مرة، سنة ١٣٦٩هـ سنة ١٩٥٠م.. ثم بهر جماهير الأمة عندما أطل من شاشة التلفاز، فى عقد الستينيات من القرن العشرين، ببرنامج «نور على نور» ـ الذى كان يعده ويقدمه الأستاذ أحمد فراج [١٣٥٠ ـ ١٤٢٧هـ/ ١٩٣١ ـ ٢٠٠٦م] ـ وكان المناخ الفكرى ـ المحلى والعالمى ـ قد صعدت فيه جاذبية الفكر المادى، فكأنما كان الشيخ الشعراوى على موعد، إذ اجتذب جماهير غفيرة ـ عبر مصر والعالم ـ إلى القرآن الكريم والإيمان الدينى، على نحو جعله إمام الدعاة دونما منازع أو منافس، الأمر الذى جعله خصمًا عنيدًا وهدفًا لتطاول الماديين والزنادقة وغلاة العلمانيين.

* وإلى جانب عبقرية الدعوة، امتلك الشيخ الشعراوى ملكة الشعر، فكان له فيه عطاء وفير واكب قضايا الأمة الوطنية والدينية.

* وفى الدعوة، كان الإخلاص لله ورسوله ﷺ ولدينه وأمته.. مع المنطق.. وجدل العقل والنقل.. وحقائق العلوم.. وخبرات التاريخ.. وفقه الواقع.. ومقارنات الأديان.. وتراث الملل والنحل.. آليات حاضرة فى خواطر الشيخ وأماليه.. الأمر الذى فتح له عقول الخاصة والعامة، وقلوب الجماهير العريضة، على نحو ميزه عن كثيرين من الدعاة المعاصرين..

* ولقد انبهر به قطاع من أهل الثقافة الرفيعة، فسأله واحد منهم ـ الأستاذ الدكتور حسين مؤنس [١٣٢٩ ـ ١٤١٦هـ/ ١٩١١ ـ ١٩٩٦م] ـ فى حوار بمجلة (المصور):

ـ من أين لك كل هذا؟!.

فأجاب:

ـ إنه فيض جود، لا بذل مجهود!.

فعبر بذلك عن الإخلاص، والتواضع، والفتح الربانى الذى هيأه لحراسة التدين وتعميق الإيمان الدينى، فى مواجهة المادية والزندقة والإلحاد.

* لقد قدم الإسلام ـ فى الاجتماع والاقتصاد ـ بديلًا للرأسمالية والشيوعية كليهما.

* وقدم العقل سبيلًا لمعرفة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتوحيده.. ومن ثم للخضوع لمنهاج الله الذى يتغيا سعادة الإنسان فى المعاش والمعاد..

* كما قدم الإسلام بديلًا وسطيًا بين غلو اليهود فى المادية وغلو النصارى فى المثالية.

* ولقد استطاع، بعبقرية فذة، أن يفتح عقول الجماهير العريضة لفلسفة الإيمان الدينى، على نحو عجز عنه كثير من الفلاسفة والمتكلمين.. فكان «جامعة علمية شعبية» انتقلت إلى الناس فى منازلهم ومنتدياتهم، فنافست مدارس الفلسفة وجامعات العلم وتفوقت عليها.

* ولقد لفت الأنظار إلى أن إعجاز القرآن الكريم لا يقف فقط عند الكلمة والآية والسورة، وإنما يشمل كل حرف من حروف هذا الذكر الحكيم.

* وغير ميدان الدعوة، كان الشيخ الشعراوى قلبًا كبيرًا فى ميدان الإحسان.. فله فى العمل الخيرى مآثر وعطاءات فرجت الكثير والكثير من كربات الفقراء والمحتاجين.

* وعندما انتقل إلى رحاب ربه فى ٢٢ صفر سنة ١٤١٩هـ ١٧ يونيو سنة ١٩٩٨م ودّعته الجماهير الغفيرة وداعًا غير مسبوق فى جنازات العلماء والزعماء.. ودفن فى قريته «دقادوس» ـ عليه رحمة الله.

ولقد شاء الله أن يجمعنى بالشيخ الشعراوى فى العقد الأخير من عمره.. ففى أوائل تسعينيات القرن العشرين دعوناه ـ مع عدد من كبار العلماء والمفكرين والدعاة ـ إلى وفد الوساطة بين الدولة وبين جماعات العنف ـ (الجهاد.. والجماعة الإسلامية).

* وبعد لقاءات عدة ـ بمنزل الشيخ.. ومضيفته بالسيدة نفيسة ـ رأيته يعلّق عليّ آمالًا كبيرة.. وخاصة بعد رحيل كوكبة من كبار علمائنا سنة ١٤١٦هـ سنة ١٩٩٦م ـ حتى كان اللقاء بمجلس عزاء الراحل العظيم الشيخ جاد الحق على جاد الحق [١٣٣٥ ـ ١٤١٦هـ/ ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م] ـ شيخ الأزهر ـ بميدان الحسين.. فعندما رآنى الشيخ الشعراوى.. وكان يتلقى العزاء ـ نهض واقفًا، وضمنى إلى صدره، ورفع يديه إلى السماء داعيًا:

ـ الله يجعل فيك العوض.. الله يجعل فيك العوض.. الله يجعل فيك العوض..

حتى لقد جلست فى العزاء، وكأن جبلًا ثقيلًا قد حط على كاهلى، من هذا التكليف الذى جسده هذا الدعاء!

هذا هو شيخ العصر وإمام الزمان ـ الشيخ محمد متولى الشعراوى ـ الذى خلّف لنا ـ مع السيرة العطرة، والقدوة الحسنة، آثارًا فكرية ـ هى أمالى جمعها المحبون والناشرون ـ بلغت عناوينها نحو الستين.. منها:

١ ـ خواطره حول القرآن الكريم ـ فى العديد من المجلدات.

٢ ـ كتاب الفتاوى الكبرى ـ فى عشرة مجلدات.

٣ ـ من نبض الرحمن فى معجزة القرآن ـ طبع بالإنجليزية فى المملكة العربية السعودية.

٤ ـ القضاء والقدر.

٥ ـ السحر.

٦ ـ الربا.

٧ ـ الرحلات.

٨ ـ الغيب.

٩ ـ قصص الأنبياء.

١٠ ـ قصص الحيوان فى القرآن الكريم.

١١ ـ معجزة القرآن.

١٢ ـ الإسراء والمعراج.

١٣ ـ ١٠٠ سؤال وجواب.

١٤ ـ محمد ﷺ.

١٥ ـ خطب الشعراوى.

١٦ ـ الخير والشر.

١٧ ـ المرأة فى القرآن الكريم.

١٨ ـ شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها.

١٩ ـ الحلال والحرام.

٢٠ ـ التربية الإسلامية.

٢١ ـ عقيدة المسلم.

٢٢ ـ المختار من تفسير القرآن الكريم.

٢٣ ـ الجهاد فى القرآن الكريم.

٢٤ ـ خطب الجمعة والعيدين.

٢٥ ـ ردًا على الملاحدة والعلمانيين.

وهو تراث لا يزال حيًّا وفاعلًا فى عقول الأمة وقلوبها، حتى الآن، وإلى أن يشاء الله.. رحم الله شيخ الدعاة وإمام الزمان ـ الشيخ محمد متولى الشعراوى ـ وألحقنا به فى الصالحين[1].

(١) (الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة) ج٢ ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة سنة ١٩٩٢م. (موسوعة الفلسفة والفلاسفة) د. عبد المنعم الحفنى جـ٢ ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة مدبولى القاهرة سنة ١٩٩٩م. (موسوعة أعلام الفكر الإسلامى) ـ أ.د. محمد رجب البيومى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة سنة ١٤٢٥ سنة ٢٠٠٤م. (الموسوعة العربية) ـ محمد هشام برهانى ـ دمشق سنة ٢٠٠٥م. (هذا إسلامنا: خلاصات الأفكار) د. محمد عمارة ـ دار الوفاء ـ المنصورة سنة ١٤٢١هـ سنة ٢٠٠٠م.

الإيمان بوجود الله ضرورة لغوية وعقلية

لإمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى

[١٣٢٩ ـ ١٤١٩ هـ ـ ١٩١١ ـ ١٩٩٨م]

فى حقبة السبعينيات ـ من القرن العشرين ـ برزت ظاهرة الصحوة الإسلامية، بادئة من طلاب الجامعات، ثم عمت مختلف الفئات والطبقات، حتى أصبحت أعظم ظواهر العصر الذى نعيش فيه.

ولقد برزت هذه الصحوة عقب هزيمة سنة ١٩٦٧م، التى لم تكن مجرد هزيمة عسكرية أمام الصهيونية المدعومة من الإمبريالية الغربية، وإنما كانت هزيمة لنماذج التحديث على النمط الغربى التى وفدت إلى بلادنا فى ركاب الغزوة الغربية الحديثة.. فعادت الأمة ـ بهذه الصحوة الإسلامية ـ إلى ذاتيتها وهويتها ومنهاجها الإسلامى فى التجديد والتقدم والنهوض..

ولقد استدعى شباب الصحوة الإسلامية صفوة العلماء يلتمسون على أيديهم العلم والفقه والفكر والثقافة والتوجيه.. وكان الشيخ الشعراوى فى مقدمة العلماء الذين احتضنوا هذه الصحوة الإسلامية، وأسهموا فى تثقيف شبابها.. وكانت هذه المحاضرة ـ التى نقدم بين يديها ـ عن [الإيمان بوجود الله: ضرورة لغوية وعقلية وحياتية] ـ واحدة من المحاضرات التى ألقاها شيخنا الجليل على طلاب الجامعات وطالباتها..

ولقد شبه الشيخ ـ فى هذه المحاضرة ـ طلائع شباب هذه الصحوة بفتية أهل الكهف، الذين آمنوا بالحق، وسلكوا طريق الإصلاح بالإسلام.. وكان المنطلق الإيمانى الذى ركز عليه الشيخ الشعراوى فى هذه المحاضرة ـ هو بداية الطريق

لهؤلاء الفتية، الذين دعاهم الشيخ الشعراوى إلى أن يضموا إلى قدراتهم الفتية على العمل فكر الشيوخ وحكمتهم حتى يكونوا ـ كما وصفهم القرآن الكريم ـ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]..

ولأن هذه المحاضرة قد ألقيت فى جمهور له حظ من الفكر والثقافة، **فلقد تجلى فيها الشيخ الشعراوى فيلسوفًا من كبار فلاسفة الإيمان الدينى**.. وذلك رغم «الارتجال» الذى طبع أغلب أسلوبه فى عطائه الفكرى والعلمى..

* وإذا نحن شئنا ـ فى هذا التقديم لهذه المحاضرة ـ أن نلقى بعض الأضواء على بعض محاورها الفكرية، فإننا نجد فيها حديثًا عن:

١ ـ أن الإيمان بالله هو ضرورة.. ضرورة عقلية.. وضرورة اجتماعية.. وضرورة سياسية.. بل وضرورة لغوية أيضًا..

وعن هذه الضرورة اللغوية ـ التى ربما كانت واحدة من إبداعات الشيخ الشعراوى ـ قال إمام الدعاة وفيلسوف الإيمان: «إن المعنى يوجد أولًا، ثم يوضع له اللفظ ثانيًا.. فالمعانى توجد أولًا، ثم توجد لها الألفاظ..

ونحن نقول لمن ينكر ذلك: قولوا لنا، بالله، من أين جاء لفظ الله فى لغة البشر؟..

إن كان الله أمرًا عدميًا لا وجود له.. والعدميات لا يوجد لها ألفاظ تدل عليها؟..

والأعجب من هذا، أنك تجد نظير ذلك اللفظ ـ [الله] ـ فى كل اللغات، فلا مفر أن يكون الأصل الأصيل فى الإنسان الأول قد علم الله، وقد عرف الله من أبيه آدم، ثم تنوقل ذلك، وبعد ذلك طرأ جحد الله على الناس.. لماذا؟.. لأن الناس ألفوا المُحَسَّ ولم يألفوا الغيب، والله غيب.

٢ ـ وأن كلمة الكفر نفسها دليل على الإيمان.. كيف ذلك؟.. لأن كَفَر ـ فى اللغة ـ معناها سَتَر، فكأن الكفر طرأ على شىء موجود ليستره.. فكلمة الكفر فى ذاتها تدل على الإيمان، وكأن الإيمان هو الأصل، الأصل المشهدى فى آدم، ثم نقله إلى بنيه..

إذن، فكلمة «الله» وكلمة «كفر» تدلان على الإيمان بالله.

٣ ـ والإيمان عزاء لنفس المؤمن..

ذلك أن المحروم من الإيمان حين تعز عليه الأسباب، لا يوجد له عزاء نفسى أبدًا، وذلك بخلاف المؤمن، فإنه يوجد له العزاء النفسى..

إن الإيمان يغير طبيعة وكيماوية النفس البشرية «والتاريخ يحدثنا أن «الخنساء» [٢٤هـ ٦٤٥م] مات أخوها «صخر» ـ فى الجاهلية ـ فملأت الدنيا عليه بكاء وعويلًا حتى فقدت بصرها، وهو أخ لها وليس ابنًا.. وبعد ذلك أسلمت، وجاء لها خبر استشهاد أبنائها الأربعة فى معركة «القادسية» فى وقت واحد..

كان أخوها واحدًا، وهؤلاء أربعة فلذات أكبادها، فماذا قالت:

قالت: الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم، وأسأله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته.

ما هذا الشعور الذى دخل عليها؟. إنه عزاء بالإيمان، أعظم المصائب يهون أمرها أمامه.

إذن، فالعزاء للإنسان فى كل أحداث الحياة أن يكون له إيمان، ولذلك يقول الصالحون: «لا كرب وأنت رب».. مادام فيه رب لا يوجد كرب.

٤ ـ والعقل ـ فى التنوير الغربى الوضعى المادى العلمانى مطلق، لا سلطان عليه.. أما العقل ـ فى الرؤية الإسلامية ـ فهو نسبيّ الإدراك ـ ككل ملكات الإنسان ـ.

لقد فتن العقل نفسه عندما لم يؤمن بما لا يدخل فى حيزه الفكرى..

ونحن نقول له:

يا عقل، على رسلك. أنت وسيلة من وسائل الإدراك.. ونقول له: والعين وسيلة من وسائل الإدراك.. فيقول: نعم.. فنقول له:

لماذا كان للعين مجال لترى؟.. لها قوانين لترى، فلماذا لا يكون لك أنت كذلك مجال لتفهم؟..

لماذا حددت مجال رؤية العين ومدى ما ترى.. وأردت أن تطلق أنك ترى كل شيء، فكل ما لا تراه لا وجود له؟!..

أنت فُتنت بنفسك إذا يا عقل عندما حسبت أنك تعقل كل شيء، إلا أنك ـ للأسف ـ لم تعقل نفسك، وكان من الواجب أن يعقل العقل نفسه أولًا ليعرف أنه وسيلة من وسائل الإدراك، وما دام وسيلة من وسائل الإدراك، وتوجد له نظائر.. وما دامت وسائل الإدراك محددة المدى، يكون عقلك أيضًا محدد المدى.. ولو أنك فهمت ذلك لكنت قد فهمت غاية الفهم، **لأن الذى يفهم أن ذلك الشيء لا يُفهم قد فهم.. ولذلك يقول أهل المعرفة: إن العجز عن الإدراك إدراك.**

إن ابتكار العقل لشيء أو اختراعه لشيء ليس شهادة على تفوقه، وإنما شهادة على عجزه، لأنه لو لم يعجز بالأمس لما اكتشف اليوم، وما دام قد عجز بالأمس فإنه عاجز اليوم أيضًا. ولو أن العقل بطبيعته قادر على أن يستوعب طبائع الأشياء كلها لكان العقل الأول بمجرد وجوده فى الرأس قد انتهى إلى كل قضايا الوجود فهمًا، ولكن الوجود لا يعطيه إلا بقدر ما تسمح به ظروفه، وما يشاؤه الله من أجل إبراز حقائق الكون.

ولنا أن نتساءل:

ماذا أعد الله فى الكون للعقل فى القرن الثلاثين؟

لا بد أنه أعد أشياءً لتكون موضوع العقل فى القرن الثلاثين، وإلا فلو كانت الأشياء فى الكون اكتشفها العقل مرة واحدة، ستكون الحياة مكررة.. فتعطينا صورة تافهة للوجود، لأننا فى هذه الحالة استطعنا بعقولنا أن نستقصى أسرار الله مقدمًا.. ولكن أسرار الله لا تنتهى حتى يأذن الله للأرض أن تزول ومعها وليدها المغرور!..

إننا لو وقفنا عند تعقل الشيء لاتفقنا، ولكن اختلفنا لأننا حاولنا تجاوز منطقة التعقل إلى منطقة التصور.. فمثلًا إذا حدثونا أن الصوت له نصف مليون ذبذبة فى الثانية.. هذا أمر يُعقل.. ولكن لا يستطيع العقل أن يتصوره، لأن دقة الموازين هى التى تتعب الناس..

إن الفرق بين تعقل شيء وتصوره، هى المسألة التى أتعبت الفلاسفة فى الإيمان بالله، فلم يكتفوا بتعقل وجود الإله، ولكن أرادوا أن يتصوروا ذلك الإله، فأتعبهم ذلك..

إذا كنا، فى هذا المكان، وأغلقنا الأبواب والنوافذ، ثم دق الجرس.. هنا نعقل أن طارقًا بالباب، وكلنا نتفق فى هذا التعقل.. فإذا اتفقنا ندخل فى منطقة التصور، وذلك يدخلنا فى «متاهات».. واحد يقول: هو رجل.. وواحد يقول: امرأة، وواحد يقول: طفل صغير.. وهكذا..

فمنطقة التصور هى منطقة الاختلاف، فلو أننا اكتفينا بالتعقل، وتركنا الطارق بالباب ليدلنا على «من هو» لالتقينا..

لقد أرهقنا الفلاسفة بآرائهم وأفكارهم فيما وراء المادة ـ الميتافيزيقا ـ دون أن يصلوا إلى حقيقة ما.. فلم تتفق مدرسة من مدارسهم مع مدرسة أخرى، ولا تلاميذ مدرسة مع تلاميذ مدرسة واحدة، واختلفوا مع أنفسهم فيما ذهبوا إليه فيما وراء الطبيعة، لأن العقل يستقبل من الماديات ليستنبط منها، وأما ما غاب عنه فلا يمكن أن يصل إلى شيء فيه.

إن الصنعة لا تدرك أبدًا من صنعها.. وهذا الكوب ـ [الصنعة] ـ لا يدرك من صنعه.. وقس على نفسك، أنت صنعة الله، إذا أنت لا تستطيع أن تدرك الله، ولو أدركته لما كان يصلح أن يكون إلهًا. لماذا؟

إننا إذا أعطينا الولد مسألة هندسية.. وحلها، قلنا: دخلت فى مقدور عقله، يعنى أصبح عقله قادرًا عليها، فأنت إذا أدركت الحق الخالق انقلب القادر مقدورًا والمقدور قادرًا. ولا ينقلب المقدور قادرًا ولا القادر مقدورًا أبدًا، إذًا فمن عظمة ربك أنك لاتدركه.

كذلك.. الضوء لا يُرَى، ولكن إن وجدت ذرات غبار يُرَى، فعندما نقول لك إن الله لا يُرَى، وإنما يُرَى فى صنعته، يبقى هذا الكلام سليمًا، وكلام علمى، وكلام منطقى.

٥ ـ والمنطق العقلى فى العدالة والقيم ـ يزكى الإيمان بالحساب والجزاء الأخروى..

ذلك أن الذين يسرفون على أنفسهم ويهلكون المجتمعات بانحرافهم ويسومون المجتمعات سوء العذاب.. هؤلاء لو أن الحياة هذه هى كل شىء، ماذا كان المدخر لمثل هؤلاء ليحاسبوا على ما قدموا من انحرافات ومظالم ومتاعب؟ فلو أن هذه الحياة نهائية ولا حياة بعدها، إذًا فقد كسب المنحرفون الذين أطلقوا لشهواتهم العنان فى أعراض الناس ودمائهم وأموالهم، هؤلاء قد أخذوا حظهم وأخذوا متعتهم فى الحياة، وهى هذه الحياة.

إذًا فما أشقى الذين التزموا بمبادئ الحق ومناهج الخير.. كل هؤلاء ما أشقاهم، لأنهم أمتعوا غيرهم وظلوا محرومين فى حياة هى هذه الحياة ولا حياة بعدها.

فمنطق العقل، إذًا مجردًا عن الدين، يوجب أن نؤمن بأن وراء هذه الحياة حياة.. يجازى فيها الإنسان بإحسانه ويعاقب فيها الإنسان على سيئاته.. ولو لم يكن كذلك لهان أمر القيم وهان أمر المبادئ وهانت أوامر الخير.

٦ ـ وأما عن الغيب.. فيجب أن نعلم أن هناك فرقًا قويًا بين غيب وضع الله له فى الكون مقدمات، وبين غيب آخر لم يضع الله له فى الكون مقدمات..

أما الغيب الذى لم يجعل الله له فى الكون مقدمات فذلك غيب «مُفاض» من الحق على بعض الخلق، ولذلك قصره على نفسه فقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦].

إذن فالذهن البشرى حين يعمل طاقته فى ملاحظة ظواهر الكون يستطيع أن يستنبط الظواهر الكثيرة استنباطه للأشياء الكثيرة التى كانت غيبًا على العقول حتى الآن.

إن ما غاب عن حسه وإدراكه يجب ألا يحكم بأنه معدوم، بل يجب أن يقول إن وسيلة إدراكه لم تصل إليه، ويجب أن يأخذ من ذلك بمقدمات بعين المادة التى يتكلم فيها. فمثلًا الميكروب قبل أن يُكتشف، عدم إدراكنا له لا يعنى أنه غير موجود، بل هو موجود، ولكن وسائل إدراكنا للميكروب لم تكن موجودة، وحينما شاء الله أن

ينجز بنشاطنا الذهنى وسائل تطلعنا على هذا الغيب، وهو الميكروب.. عرفناه، وفقد صفة الغيبية..

٧ ـ والقرآن الكريم واحد.. لكن المستقبلين له أنواع..

فهناك القابل الذى يستقبل القرآن على أنه منهج الله الذى يشفيه. وهناك القارئ الذى يقرأ القرآن على أنه كلام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. أو يقول هو ليس من عند الله، أو يقول أساطير الأولين اكتتبها.. أيمن الله عليه بشيء من الفتح ليفقه عن الله فيه؟!.. لا، إن الذى يضن بمثل هذا القلب لن يفتح الله له بابًا من أبواب الخير لكلامه ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤]..

٨ ـ والقيم ثابتة ـ وليست من المتغيرات.. فالقيم هى القيم حتى عند المنحرف عنها.. ولكن الذى يسهّل للمنحرف الخروج عن القيم هى الشهوات العاجلة والنفعيات الطارئة دون نظر إلى خير يراه صاحب الشهوة، خيرًا يعقبه شر. وقديمًا قيل: لا خير فى خير بعده النار، ولا شر فى شر بعده الجنة.

٩ ـ وعلى الدعاة أن يكونوا أسوة حسنة تزكى الدين قبل كل شيء.. أسوة تلفت الناس إلى ما هم فيه من قيم الخير. فإن التفت الناس إلى ما هم فيه من قيم الخير سألوهم:

لماذا أنتم كذلك؟.. فيقولون: لأننا مسلمون.

ولذلك يقول الحق فى ذلك: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].. فكل عمل خير يعمله الإنسان يجب أن يعزوه إلى دينه.

١٠ ـ والحوار إنما يكون مثمرًا إذا كان محدود الأطراف.. فكل نقاش بين اثنين دائمًا ما ينتهى إلى وفاق. أما إذا زادت جمهرة النقاش عن اثنين فإنك لا تظفر للحق بطائل، لأن كل واحد ستأخذه العزة بالإثم، ويحاول جاهدًا أن يأتى لرأيه بأدلة حقًّا

أو باطلًا حتى ينتصر على خصمه، إذا فنفسه أعز عليه من الحق، وقليل من الناس هم الذين يكون الحق أعز عليهم من أنفسهم.

١١ ـ وفى العلاقة بالآخر.. والغزو الفكرى.. فإن إيماننا بالله يجب ألا يكون به شك، وإيماننا بالتوثيق عن الله يجب ألا يكون فيه شك. لماذا؟..

لأن لنا فكرًا أسمى من فكر اليونان وأسمى من فكر الرومان، لأن إلهنا لم نصوره كما صوره اليونان يسرق ويزنى ويشرب الخمر. إلهنا مستحق لصفات الألوهية الكاملة.

إن نَصَّنا ـ [القرآن] ـ موثق من السماء، وإلهنا واحد. فما المشكلة بيننا؟. وما الجفوة بيننا وبين الدين إلا أن تكون جفوة مفتعلة.. جفوة مصنوعة من خصوم الإسلام أولًا.

ولكن عز عليهم أن يحاربوا الإسلام كخصوم له، لأنك إذا ما لقيت خصمًا فإنك تكون متحفزًا، لأنه عدو دينك، فماذا صنعوا؟..

أحبوا أن يدخوا إلى الإسلام بالمسلمين أنفسهم، وهذا هو الخطر كل الخطر.

حين واجهونا عسكريًّا هزمناهم، حين واجهونا مبشرين أخذنا كل خيراتهم ومستشفياتهم وما ظفروا منا بواحد يأخذونه فى دينهم.. فإذا ماذا صنعوا؟..

يدخلون بالمسلمين أنفسهم، يدخلون علينا بفتن الاستشراق، وفتن الاستغراب ـ وهم الجماعة التى مكنت لهم ظروفهم أن يذهبوا ويأخذوا من علم هؤلاء، فجاءوا إلينا لكى يفهمونا أنهم أصبحوا أمة ثانية وشيئًا آخر، ورددوا ما قاله لهم هؤلاء، وحاولوا محاولات شتى ليأخذوا منا شيئًا، ولكن «الخميرة» موجودة، والمناعة موجودة، فماذا هم صانعون؟..

لا بد أن يدخلوا علينا بترف الحياة لا بد أن يدخلوا علينا بزخارفها، حتى إذا ألفنا مفاتنها ومظاهرها نحن أنفسنا الذين ننهار، وهذا هو الواقع.

إلا أننى أستبشر خيرًا، وبخاصة فتية وفتيات الجامعة الذين لهم معرفة بأفكار العالم كله، وقد قرأنا القرآن فى قول الحق: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣].

فتية، لأنهم أقدر على العمل. قد يكون الشيوخ أقدر على المعرفة، ولذلك قال الشاعر العربى القديم:

أُوَّاه لـــو عـــرف الـشـبـاب وآه لـــو عـــرف الـمـشـيـب

الاثنين معًا. فنريد من شبابنا أن يأخذ من معرفة شيوخهم أداة حتى تكتمل له المعرفة وتوجد عنده القدرة، حينئذ سيكون عملهم عملًا مبرورًا ومباركًا إن شاء الله.

والله لا يريد منا إلا أن نتوجه بقلوبنا إليه، وبعد ذلك منه المعونة. لقد جعل الله المفتاح بيدك بمجرد إيمانك به».

* * *

هكذا تحدث إمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى.. إلى شباب الصحوة الإسلامية عن فلسفة الإيمان بالله.. وكيف أنه ضرورة لغوية.. وعقلية.. وحياتية..

وهو حديث يفتح الأبـواب.. أبواب العقلانية المؤمنة.. التى تحصن الذات الإسلامية فى مواجهة مخاطر العصر.. مخاطر الزندقة.. والعلمنة.. والإلحاد.. وتقدم الفلسفة الإيمانية الإسلامية طوق نجاة للإنسانية التى تفترسها هذه المخاطر فى واقعنا المعيشن..

ردًّا على الملاحدة والعلمانيين

لإمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى

[١٣٢٩ ـ ١٤١٩ هـ/ ١٩١١ ـ ١٩٩٨م]

فى حقبة الستينيات ـ من القرن العشرين ـ.. وعقب انتكاسة الوحدة المصرية السورية سنة ١٩٦١م.. أرادت الناصرية معالجة هذه الانتكاسة القومية بالتوجه أكثر فأكثر نحو اليسار.. فكان «التنظيم الطليعى» الذى اتخذ قوامه من عدد من المثقفين الماركسين ـ غير المنخرطين فى التنظيمات الشيوعية ـ.. وكانت مجلة [الطليعة] منبر الأيديولوجية اليسارية لهذا التنظيم.. وكان [الميثاق] الذى أعلن أن «الاشتراكية العلمية» هى الطريق.

وفى هذا المناخ الفكرى والأيديولوجى ظهر الشيخ محمد متولى الشعراوى، بتوفيق إلهى، ودونما مقدمات منظورة، ليشيع موجات وموجات من المنطق الإيمانى والإيمان العقلانى، انطلاقًا من تفسير غير مسبوق لآيات الله فى كتابه المسطور تعانق آيات الله فى كتابه المنظور.. وعلى نحو اجتذب مئات الملايين من المسلمين، الذين لم تكن لهم من قبل اهتمامات بالفكر الدينى والمنطق الإيمانى.. فاجتذب الشيخ إلى الدين والتدين جماهير لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الدعوة والدعاة..

ولقد مثلت هذه «**الفتوحات الشعراوية**» تمهيدات وإرهاصات للصحوة الإسلامية، التى برزت معالمها بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م ـ والتى طوت صفحة الأيديولوجية اليسارية من سجل تاريخنا الفكرى المعاصر.

لقد مثل الشيخ الشعراوى واحدًا من أبرز الطلائع الفكرية التى مهدت لإحلال شعار «**الإسلام هو الحل**» محل شعار «**الإشتراكية العلمية ـ أى الماركسية ـ هى الحل**»..

ولقد شاركه فى هذا الإنجاز العظيم كوكبة من العلماء الذين قادوا ـ فى «مؤتمر الميثاق» سنة ١٩٦٢م ـ التيار المناهض لحركة الميثاق.. والذين نجحوا فى صياغة «تقرير الميثاق»، الذى جاء تحفظًا على التوجه اليسارى.. وكان الشيخ محمد الغزالى [١٣٣٥ ـ ١٤١٦هـ ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م] والشيخ سيد سابق [١٣٣٣ ـ ١٤٢١هـ ١٩١٥ ـ ٢٠٠٠م] فى طليعة الذين صاغوا هذا «التقرير»، الذى قال عنه الشيخ الغزالى للشيخ سيد سابق: «**إن المهم أن يوضع تقرير تبرز فيه الصبغة الإسلامية لمصر، ويخسر هذا التيار اليسارى المنكور**»[1]!

* وإذا كان الذين أرخوا للفكر فى هذه المرحلة قد تحدثوا عن دور الشيخ الشعراوى فى التمهيد للصحوة الإسلامية، وفى مناهضة الاستعلاء المادى اللادينى.. فإن هناك حقيقة غائبة عن التطور الفكرى للشيخ الشعراوى نفسه.. فالرجل ـ عليه رحمة الله ـ قد عُرف ـ قبل تلك الحقبة ـ مدرسًا للبلاغة بمعهد طنطا الدينى، وواحدًا من أبرز العلماء بأسرار التركيب البلاغى للقرآن الكريم.. كما عُرف كشاعر له انتماء سياسى «لحزب الوفد» ـ حزب الليبرالية والعلمانية ـ..

لكن مشيئة الله ـ المدبر لسنن الكون والاجتماع ـ قد انتقلت بالشيخ الشعراوى من مظلة [الوفد] ـ مظلة الليبرالية والعلمانية ـ إلى طليعة الكتيبة المناهضة للعلمانية والليبرالية واليسارية.. والداعية إلى الإصلاح بالإسلام.. وليس بأيديولوجيات التغريب..

لقد أصبح الشيخ الشعراوى ـ منذ عقد الستينيات ـ واحدًا من أبرز حراس الإيمان الدينى.. والتوجه الإسلامى.. وفى مقدمة المناهضين للغزو الفكرى، والخصوم الألداء للملاحدة والعلمانيين ـ كما سنراه فى هذا الكتاب: [ردًا على الملاحدة والعلمانيين] ـ والذى نقدم بين يديه بإشارات إلى أبرز المحاور التى جاءت فيه..

(١) مذكرات الشيخ الغزالى.

١ ـ لقد اتخذ الشيخ الشعراوى شعارًا له حديث رسول الله ـ ﷺ ـ الذى يقول: «كل منكم على ثغرة من ثغور الإسلام، فليحذر أن يُؤتى الإسلام من قِبله».

وحتى يقوم بمهمة الرباط على ثغور الإسلام، كان لا بد أن يعى مشكلات الأمة، والمخاطر المحيطة بها، وبدينها، ليذب عن هذا الدين، وليحصن الأمة ضد مخاطر الاختراق..

ولقد تحدث عن هذه المهمة وهذه الرسالة ـ فى هذا الكتابة ـ سنة ١٩٨٢م ـ فقال:

«لقد تلقيت فى بحر هذا العام ـ سنة ١٩٨٢م ـ سبعة عشر كتابًا، كلها من بلاد إسلامية، وهذه الكتب تشترك فى سمة واحدة، هى ما وصل إلى هذه البلاد من تشكيكات فى دينها، مرة يتصل ذلك بأصل الدين والإيمان بإله قادر، وبعضها يتصل بالتشكيك فى أمر الوحى، وفى أمرالقرآن، وفى رسالة محمد ـ ﷺ ـ، ومرة يأتى التشكيك فى نظام الإسلام وعدم صلاحيته لقيادة حركة الحياة فى ذلك العصر..

٢ ـ كذلك وصلتنا أخبار عن مؤتمرات عقد أولها فى لوزان سنة ١٩٧٤م. وعقد الثانى فى ولاية كاليفورنيا ـ فى بلدة اسمها «باسنتيا» ـ سنة ١٩٧٧م.. وأيضًا مؤتمر آخر عقد فى مدينة «لاجلين إيرى» بولاية كلورادو الأمريكية سنة ١٩٧٨م..

وأصحاب هذه المؤتمرات لم يكتفوا بالتبشير بالديانة المسيحية ـ كما كان حالهم من قبل ـ ولكنهم أرادوا تنصير المسلمين الذين يؤمنون برسالة الإسلام..

لقد انتقلت المسألة عندهم من مرحلة التبشير إلى مرحلة التوطيد لإدخال المسلمين فى المسيحية، يعنى تنصيرهم..

والمخططون لهذا رجال لهم خبرة بكل قضايا الإسلام، فهم يتعمقون فى دراستها، لا لينشروا هداية، ولكن ليأخذوا من سطحيات القضايا الإسلامية قرارًا ضد الإسلام. ولذلك أهاب بى كثير من الذين كتبوا إليّ أن نحاول جاهدين أن نرد على مثل هذه الأقضية كلها..

وبعض الكتب التى وصلتنى من نيجيريا بالذات ـ تقول لى: إنا نستحلفك بالله ألا تترك الإجابة عن شىء من هذا المذكور فى ذلك الكتاب اتكالًا على أنك تناولته فى كثير من أحاديثك فنحن نريد أن تكتب فى كل قضية طلبنا منك أن تكتب فيها.

٣ ـ كذلك تحدث الشيخ الشعراوى عن ضرورة الوعى بما لدى الأعداء، لتحصين الأمة ضد المخاطر التى يدبرونها.. فقال:

من مصلحة المسلمين لصالح إسلامهم أن يعرضوا على من يتولون تربيتهم وتنشئتهم الفكر المناهض للإسلام حتى لا يدعوا فرصة للفكر المهاجم أن يهاجم من خلفهم، لأنه إن هاجم من خلفهم هاجم بشراسة، وهاجم وليس مع أولادنا دليل نقده..

ونحن فى الأمور المادية، حين نتخوف على أبنائنا مرضًا من الأمراض القاتلة نقوم بتحصينهم ضد هذا المرض..

إن خصوم الإسلام يدرسون الإسلام، ويعملون له الإحصائيات التى يستطيعون بها أن يعلنوا أنهم لم يقولوا ذلك إلا عن دراسة، **ولينفذوا إلى الأشياء التى ربما لم ينفذ إليها الكثير من المؤمنين بالقرآن، لأن المؤمنين بالقرآن حين يقرأون القرآن يقرأونه بقداسة، لأنه كلام الله، والسماع للقرآن، بقداسة على أنه كلام الله يسد منافذ النقد، لأنه مؤمن أن كلام الله حق وصدق، وهو فوق النقد.**

ولذلك فإن كثيرًا من خصوم الإسلام هم الذين نبهوا المسلمين إلى جمال قضايا الإسلام، فالحسود هو الذى ينبه على الفضيلة، أما غير الحسود فلا يتنبه لمثل هذه الأمور التى أثارها الملحدون ضد القرآن الكريم.

٤ ـ وتحدث الشيخ الشعراوى عن تشكيك الأعـداء فى الكتاب المؤسس ـ [القرآن] ـ فقال:

لقد قالوا ـ فى الرسالة التى وصلتنا ـ إن القرآن ليس من الله فى شىء، لأن الإله لا يمكن أن يتضارب قوله، والقرآن متضارب فى كثير من آياته..

لقد قالوا ذلك فى المخطوط الذى عنونوه: [سفر البرهان فى متناقضات القرآن].. وفى هذا المخطوط ادعاء بأن القرآن يدعو لعقوق الوالدين، وإلى معاملة الناس آباءهم معاملة قاسية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].. ففى هذه الآية منع الأولاد من «ود» آبائهم.. بينما يقول فى آية أخرى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]..

ونحن نقول: **إنهم لم يفهموا الفارق بين «الود» و«المعروف»، فالود: حب القلب، وحب القلب يدعو إلى انجذاب القالب [الجسم].. لكن المعروف ليس هو الحب، وإنما هو بذل القالب مع من تحب ومن لا تحب..**

فالممنوع من الآباء أن يكون لك ود خالص إذا كانوا كافرين، ولا يمنع أن تكون صاحب معروف للأب الكافر. ومن الممكن أن تكون صاحب معروف حتى على أعدائك. إذن الممنوع هنا هو الود، لأن الود عملية قلبية، والمأمور به هنا المعروف، يكون مع من تحب ومع من لا تحب.

إن القرآن نزل باللسان العربى الفصيح، ولا أقول كل جملة لها مراد ومعان، بل أقول كل حرف.

إن العرب ما أمكنهم أن يأخذوا على القرآن أى مأخذ.. وإذا كان فى زمن العرب، الذين كانوا يتكلمون العربية سليقة وفطرة، لم يستطيعوا أن يجدوا ثغرة فى القرآن للقدح فيه.. فهل يمكن لهؤلاء المستشرقين الذين لا يفهمون العربية أن يقدحوا فى القرآن ويصفونه بالتناقض؟! لا ريب أنهم لن يستطيعوا ذلك.

٥ ـ ولقد قالوا: إن القرآن والحديث القدسى والحديث النبوى هى كلام محمد.

ونحن نقول لهم: هاتوا لى فى عالم الإنس إنسانًا له موهبة القول.. وسجلوا له ظاهرة أسلوبه، ثم سلوه أن يغير الأسلوب إلى أسلوب آخر، وسجلوا أسلوبًا آخر، ثم اطلبوا منه أسلوبًا ثالثًا، فستجدونه لا يستطيع أن يخرج عن أسلوبه أبدًا، **لأن الأسلوب هو الطريقة اللازمة للشخص فى أداء المعانى..**

فإذا ما جئنا بالأسلوب القرآنى، وأسلوب الحديث القدسى، وأسلوب الحديث النبوى، فسنجد أساليب ثلاثة، لا يمتزج فيها أسلوب بأسلوب، أساليب ثلاثة لكل أسلوب خواصه ومميزاته وطبائعه.

فهل يستطيع بشر أن يجعل لموهبته الأدائية ثلاثة أساليب بحيث يقول: أنا سأتكلم الآن أسلوب قرآن، وأتكلم الآن أسلوب حديث قدسى، وأتكلم الآن أسلوب حديث نبوى؟

هذا لا يوجد فى طاقة البشر ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

فالرسول قد أعطى ثلاثة أساليب للأداء، لا يشترك أسلوب مع أسلوب، ولا تشتبه طريقة أدائية بطريقة أدائية أخرى.

وأحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ بالنسبة للقرآن كاللائحة التنفيذية للدستور أو القوانين المكملة لمطلوبات الدستور..

والقرآن لم يأت كتاب تشريع فقط، وإنما جاء كتاب معجزة أيضًا، وجاء بالتشريع إجمالًا وترك التفسير والتفصيل لما أجمل لرسول الله ـ ﷺ.

٦ ـ وإذا كان قد جاء بذلك، وأنتم تنسبونه إلى الكذب.. فنقول لهم: فما الكذب؟ كل كذاب يكذب يحاول أن يحقق لنفسه نفعًا لم يوجد قبل الكذب.. فما النفع الذى يريده محمد ﷺ حتى يدعوه إلى الكذب؟

إنه ـ كما نعلم ـ عاش فقيرًا (عاش مسكينًا متواضعًا) (عاش يلبس المرقع، عاش لم يشبع من خبز الشعير)، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا إذًا يكذب؟.

لو أنه اقتصر على ما كان فيه من أمانة التجارة لعاش فى يسر، وعاش فى أمن ورخاء، وعاش فى أسرة مترفهة، لم يكن كذلك، لكنه لم يرد لنفسه الحياة، وإنما أراد الله له وهو واهب الحياة.

إن صاحب الكمال ينسبه إلى نفسه، والقرآن المعجزة فى غاية الكمال، لم ينسبه إلى نفسه.

إذن، فقول الكفار والملاحدة إنه كذاب، نقول لهم: إن الكذاب عادة يكذب لغاية. فما الغاية التى من أجلها يكذب محمد؟.

لقد كانت حياته حياة هادئة رتيبة فى مستوى يحسد عليه، وفى مركز فى تجارة خديجة من الممكن أن يعيش به عزيز قوم، فما الذى أداه إلى هذا الكذب لنفسه.. ليصنع ماذا؟.

والمتاعب كلها انصبت عليه بعد قيامه بهذه الدعوة، ثم بعد أن انتصر فى الفتح ودانت له الجزيرة وأصبح سيدها، كيف عاش؟

إنه دخل مكة فى منتهى التواضع وفى منتهى الانكسار لله، وقالوا: إنه من خشيته وتواضعه لله كانت رأسه وهو على دابته تمس قربوس فرسه..

ولقد كان يمر الشهر ولا يوقد فى بيته نار للطهى، ولا يشبع من خبز الشعير ليلتين متواليتين.. كل ذلك يدل على ماذا؟

يدل على أنه ليس هناك سبب للكذب.

لقد منع أهله من أن يأخذوا حظهم من الزكاة وإن كانوا فقراء. ومنع أهله أن يرثوه «نحن معاشر الأنبياء لا نورث.. ما تركناه صدقة».

إذن فليس هناك سبب يدعوه أن يكذب ليعيش هذه العيشة فى هذه الدنيا التى يحاول الناس فيها أن يأخذوا حظهم منها.

كل هذا يدل على أن محمدًا لم يستلب هذه الزعامة، وإنما وُهبت له من السماء، وكانت لها تبعات لم يستفد منها هو، ولم يستفد منها واحد من بنيه ولا واحد من أهله.

٧ ـ ويقول الملحدون: إن محمدًا نشأ فى أمة بليغة، لها فى البلاغة مجال، ولها فى الفصاحة تميز، ولها فى الأداء المستنير سوابق. فلماذا لا تجعلون مسألة القرآن من محمد سابقة جميلة من هذه السوابق، كما وجد منهم شعراء وخطباء وحكماء؟. وما دامت هذه الظاهرة فى البلاغة شائعة، لماذا لم تجعلوا القرآن من هذه الظاهرة الشائعة، إلا أنها ظاهرة متفوقة؟.

نقول لهم: إذا كان صاحب هذه الظاهرة لم يقل بها، ولم ينسبها له، وقال لهم: ليست هذه المعجزة لى، وإنما أنا ناقلها من إله بعثنى إليكم، بدليل أنكم لم تجربوا على طيلة عمرى أنى بليغ أو أنى أديب، أو أنى كاتب، أو أنى شاعر، أو أنى خطيب. ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

إذن، فلا بد أن يكون صادقًا.

٨ ـ ولقد أشاعوا ـ فيما وصلنى من كتب ـ أن محمدًا ﷺ رجل كان يصيبه الصرع، وكل ما حدث مما قال إنه قرآن أو حديث قدسى أو حديث نبوى، كل ذلك كان نتيجة الصرع.

وللرد على هؤلاء نقول: هل المصروع يمكنه أن يقول ويردد ما قال حين صرعه؟.

إن المصروع يفعل، وحين يفيق ينكر ما فعل ولا يذكره. ولكن الذى حدث لمحمد ﷺ أنه كان حين يأتيه الوحى تراه فى منتهى الهدوء والسكون.. وإذا ما انفصلت عنه هذه الحالة حكى ما أُحى به إليه.. وكتبه عنه كتاب الوحى.. فهل يوجد واحد يستطيع أن يأتى بكلام يستغرق الساعة فأكثر، ثم يقال له أعده كما قلته فيعيده كما قاله؟.

لا شك أنه حين قال فكُتب عنه، وحين قال ما كتب فجاء طبق ما قال دليل على أنه يصدر عن قضية قالها القرآن: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] لأن هذا أمر خارج عن نطاق البشر. فهات أى إنسان ليتكلم ربع ساعة، ثم سجل عليه ما تكلم به، ثم قل له أعد عليّ ما قلت، إن لم يكن حافظًا وربما إن كان حافظًا أيضًا فإنه ينسى ولا يستطيع إعادته طبق ما سجل عليه..

أما الرسول فلا تجد فارقًا بين ما قاله فكُتب عنه، وبين ما يردده فى الصلاة بعد أن كُتب عنه.

٩ ـ وفى رد الشبهات عن تعدد زوجات الرسول ـ ﷺ ـ قال الشيخ الشعراوى:

إن الذى أبيح له معدود، لا عدد: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

ذلك حكم ليس لتابع من أتباع محمد، إذن فالعدد الأربعة قد يدور عند تابع محمد فى أربعة، بمعنى أن يتزوج أربعة ثم يطلقهم ثم يتزوج غيرهن، فالعدد دائر، ولكن عند رسول الله غير دائر، فهو محصور بهؤلاء، فلو مُتن جميعًا لا يحل للرسول الزواج بعدهن بواحدة.

لقد تزوج الرسول واجتمع عنده تسع زوجات حين شرع الله تحديد الزوجات بأربع. وكان ـ ﷺ ـ إما أن يحتفظ بأربع ويسرح خمسة، وحين يسرح الخمسة، وهن أمهات المؤمنين، أى محرمات على أى واحد آخر من المؤمنين، لا يحل لواحد أن يتزوج بواحدة منهن.

إذن لو احتفظ الرسول بأربعة وسرح الخمسة لم يتزوجن، لأنهن محرمات على جميع المسلمين لأنهن أمهات لهم.

لقد أباح لأمته ـ ممن عنده أكثر من أربعة ـ أن يمسك بأربعة ويفارق الباقى لأنه يمكن أن يصبحن زوجات لأزواج أخر. ولكن ذلك بالنسبة لزوجات الرسول ﷺ يصبحن محرمات.

إذن لا بد أن يكنّ مستمرات زوجات لرسول الله ﷺ.

ثم إن الرسول ﷺ وسنه ٢٥ سنة تزوج امرأة فى سن الأربعين من الكهولة قبل أن يبعث، بفارق ١٥ سنة.. رغم أن المعروف أن الرجل يتزوج عادة من كانت دونه فى السن.

وظل مع خديجة حتى ماتت، وعندما ماتت مر بعام الحزن. ومات عمه وماتت خديجة، فكان لا بد أن يتزوج بمن تقوم بخدمته، فتزوج سودة بنت زمعة، امرأة تقوم بواجبات الزوجية.

وعندما تزوج عائشة كانت صغيرة لا تشتهى.. فالاحتمال الجنسى أو العاطفى ممنوع هنا..

ومن زوجاته من كانت تتبرع بليلتها لأخرى ـ مع حرص المرأة على أن تحتفظ بالزوج ـ وتلك شهادة منها بأنها لا تصلح فى ذاتها لأن تكون امرأة يقضى معها الرجل

ليلته. وهذا يدل على أنها إنما تزوجت لمعنى غير هذا المعنى نهائيًا.. **فكأنها فهمت من نفسها أنها لا مصلحة لها ولا للرسول إلا أن تكون أمًا للمسلمين، وهو وسام من الأوسمة.**

كذلك نجد أم سلمة، وعندها أولاد كثيرون من زوجها أبى سلمة، أراد الرسول ﷺ أن يجعلها أمًا للمؤمنين، وأن يلقن الناس درسًا بأن الإنسان عندما يصاب فى عزيز يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] «اللهم أجرنى فى مصيبتى، واخلفنى خيرًا منها».

حين مات أبو سلمة، وكانت أم سلمة تحبه، قال لها رسول الله ﷺ: قولى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ «اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلفنى خيرًا منها». فقالت: أهناك خير من أبى سلمة؟.

فكأن رسول الله يعلمها أن هذا الدعاء لا بد أن يأتى بخير من أبى سلمة.

وحين يكون الذى هو خير من أبى سلمة هو رسول الله فهذا لا يطعن فى أبى سلمة، ولكن حين يكون غير رسول الله فإن هذا يخدش أبا سلمة.. فحين تصير زوجة للرسول وأمًا للمؤمنين فهذا يرضيها ويرضى أبا سلمة.

وعندما خطبها الرسول، وقالوا لها: «أوجدت خيرًا من أبى سلمة؟» ضحكت وقالت: نعم، وهل يجادل فى ذلك أحد؟».

ومن هنا فإن كل زيجة من زوجات رسول الله ﷺ قضية إيمانية يريد أن يثبتها الرسول فى قلوب المؤمنين.

ويجب أن يلحظ فى زواج الرسول أنه لم يوسع عليه.. بل لقد ضُيّق عليه فى ذلك، لأن الذى له أربعة من أتباع الرسول من الممكن أن يبدلهن إن ماتت واحدة أو طلقها. ولكن الرسول لا يستطيع أن يتزوج غير التسعة، ولو متن جميعًا لا يستطيع أن يتزوج ولا واحدة.

١٠ ـ ومن الأشياء التى يذيعها الملاحدة، ويحاولون جاهدين أن يؤثروا بها على الشباب المسلم أنهم يقولون: «دعوهم فى إسلامهم الذى أوقفهم فى الأرض موقف التخلف، وجعلهم فى الكون فى منزلة الأتباع».

ونحن نقول لهم:

أكان ذلك الأمر الذى عرض للمسلمين فى بقاع الأرض فى هذا العصر، هل كان أمرًا لازمًا عليهم كمسلمين فى كل عصر؟.

الجواب ـ الذى يجيبونه: لا.

لماذا؟

لأنهم كانوا يسمون عصورهم فى أوروبا العصور المظلمة، وكنا نحن فى غاية الازدهار والحضارة.

ونحن إذا نسبنا أى علم موجود الآن وجدنا أن بذرته ونواته للرواد الأوائل من العلماء المسلمين، وأنهم كانوا القنطرة التى عبرها الغرب إلى الحضارة، وذلك بإقرارهم أنفسهم.

إن نواة كل حضارة وبذرة كل علم تقدمى هى من عندنا.. وهم بأنفسهم يشهدون أننا كنا متحضرين، وأنهم أخذوا عنا كل شىء من الممكن أن يكون أساسًا لهذه الحضارة.

والإسلام لم ينزل الآن حتى يقال إن المسلمين بمجرد أن اعتنقوه تخلفوا. لقد نزل منذ أربعة عشر قرنًا، وأول من تأثر به أمة متبدية، أمة أمية فى ذلك العالم، وبعد ذلك قادت أممًا متحضرة.

ولا يعقل أن يمنع الإسلام ابتكار الأشياء النافعة للجميع..

إن واقع المسلمين ـ لا الإسلام ـ هو الذى خذل قضية الإسلام.. والخصوم قد جعلوا حال المسلمين حكمًا على الإسلام.. وواجب ألا نأخذ من عصيان العاصين

الذين اعتنقوا الإسلام دون أن يلزموا أنفسهم بتطبيق مناهجه ومبادئه حكمًا على الإسلام..

نعم.. المسلمون اليوم متخلفون.. لكن الإسلام ليس متخلفًا، وتخلف المسلمين راجع إلى أنهم لم يكونوا مسلمين، بدليل أنهم حينما كانوا مؤمنين ـ كما عرفناهم فى الصدر الأول ـ كان دينهم هو الغالب.

١١ ـ وعن العلاقة بالآخر.. وماذا نأخذ منه؟.. وماذا ندع؟.. قال الشيخ الشعراوى:

لقد خلق الله الكون كله بنواميسه وعناصره وأجناسه وقوانينه.. وهذه الأمور تخضع دائمًا للتجربة المعملية، سواء أقام بها مؤمن أم قام بها كافر.. فهى تعطى ثمرتها للمؤمن وللكافر على السواء، كما أن الله تعالى بعطاء الربوبية جعل خير الأرض لكل أجناسها، للمؤمن والكافر..

وإشرافًا إلى هذه القضية فى أنه يجب أن نفرق بين أمانة المؤمنين المسلمين لله حين يحملنها وحين يؤتمنّ عليها، وبين رزق أهل الأرض.. فمسألة الرزق بقانونه ونواميسه وبعطاء الأرض والشمس والريح والماء كل ذلك أمر من عطاء الربوبية يستوى فيه المؤمن والكافر، ولذلك كانت كل التجارب عليه لا تخضع للإيمان، ولكن تخضع لقضية الحركة فى الأرض وللتجربة المعملية..

إن كل من تحرك واستنبط وجد واجتهد يؤتى خير الأرض وإن كان كافرًا.

«أنتم أعلم بشئون دنياكم»، أى التى يعطيها العمل، السماء لا دخل لها فيها، لأنها أعطت كل الرزق بكل أسبابه ومقوماته وأنتم تجتهدون فيما هدتكم تجربتكم العملية إليه.

إن عالم اليوم فيه موجتان:

الموجة الأولى: موجة نظرية، لكل نظريته التى يأتى بها حسب هواه.

الموجة الثانية: معملية، أى علم مادى تجريبى..

والحضارة التى نعيش فى ظل ارتقاءاتها الآن تجارب معملية، حضارات توصل إليها من سبقنا، واكتشفوا كثيرًا من آيات الله فى الكون.

وإذا كانت الموجة النظرية مبنية على الهوى، فإن المسألة المعملية يستفاد بها، ذلك أن الأمور المعملية لا اجتهاد فيها، وإنما تخضع للتجربة المعملية المادية، والله قد أنطق رسوله ليقول: «أنتم أعلم بشئون دنياكم».. والسماء لا تتدخل، فقد ذهبت العقول لتبحث، وذهبت الجوارح لتعمل، والأشياء التى خلقها الله لخدمة الإنسان مسخرة، بمعنى أنه لا رأى لها فى أن تفعل أو لا تفعل. ما دام الله قد خلقها مسخرة فهى مسخرة للكل، وتعطى خيرها للمؤمن والكافر.. وما دامت تعطى خيرها للكل فهى فاعلة بنفسها.

١٢ ـ وعن جزاء المحسنين من غير المؤمنين بالله، قال الشيخ الشعراوى:

لقد وصلتنا رسالة تقول:

هل الكفار من العلماء الذين أفادوا البشرية باكتشافاتهم وابتكاراتهم لهم نصيب من جزاء الله فى الآخرة؟.

ونحن نجيب عن ذلك فنقول:

إن قاعدة الجزاء تقضى أن يكون «الأجر ممن عملت له».

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣] ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩] ـ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود: ١٥].

وهذ فى شأن الكافرين.

١٣ ـ وفى الحديث عن التنوير الغربى.. والرفض الإسلامى له.. قال:

عندما قامت الثورة ضد الكنيسة ـ فى أوروبا ـ ووضعت الكنيسة موضعها.. بدأت أوروبا ترتقى فلما ارتقت أوروبا، جاء الذين يكرهون الدين.

لم يقولوا إن الكنيسة كانت تسيطر على العلم والعلماء، ومن هنا نشأ التأخر.. وإنما قالوا: إن الدين معوق للحضارة..

ولقد لقن رجال الدين المسيحى هذا المفهوم للمستغربين [الذين عشقوا الغرب] من أبنائنا، ونشروه بواسطة أبواق الإلحاد، وقالوا إن الدين هو سبب التخلف، **والمسلمون الذين «استغربوا» أخذوا قضية الدين على أنها سبب التخلف. أخذوها من واقع أوروبا آنذاك، من سلطان الكنيسة، من سلطان البابا وقهر العلماء. وبعد ذلك نقلوها من المسيحية، ونقلوها على أنها من الدين، ثم عمموها تعميمًا فى كل دين، مما يدل على أن أبواقها من «المستغربين» رددوها دون أن تكون عندهم خميرة دينية.. كانوا يعتقدون أن الدين مجرد طقوس عبادة.. ولم يفهموا أنه نظام كامل لقيادة حركة الحياة..**

ونحن نقول لهم: لا، أنتم مخطئون فى هذا.. الدين لا يدعو مطلقًا للتخلف.. حتى المسيحية لا تدعو للتخلف.. صحيح أنها قد جاءت بشحنة روحية، ولم تضع نظامًا لحركة الحياة.. وكانت على النقيض من مادية اليهودية.. فلما جاء الإسلام جمع بين الأمرين، والدليل على ذلك **أن العلماء المسلمين الأوائل الذين فهموا دينهم، وفهموا لفتة الدين إلى العلم التجريبى.. قد قالوا إننا نبحث فى استنباط أسرار الله فى آياته، لأن الله له آيات مكتوبة هى القرآن، وله آيات فى الكون، هذه الآيات فى الكون آيات منظورة، وهذه الآيات فى القرآن آيات مكتوبة، ونحن نريد تطبيق ما نجده فى القرآن من آيات مكتوبة على ما نشاهده فى الكون من آيات منظورة..**

١٤ ـ وفى رفض العلمانية.. قال:

إن الخلاف مع العلمانيين هو خلاف فى أصل الأصول.. والعلمانية هى بدعة المنافقين..

ولقد تنبه أعداء الإسلام إلى أن هذا الدين القوى الحق لا يمكن أن يتأثر بطعنات الكفر، بل يواجهها ويتغلب عليها، فما قامت معركة بين حق وباطل إلا انتصر الحق..

ولقد حاول أعداء الإسلام أن يواجهوه سنوات طويلة، ولكنهم عجزوا، ثم تنبهوا إلى أن هذا الدين لا يمكن أن يهزم إلا من داخله، وأن استخدام المنافقين فى الإفساد هو الطريقة الحقيقية لتفريق المسلمين، فانطلقوا إلى المسلمين اسمًا ليتخذوا منهم الحربة التى يوجهونها ضد الإسلام، **وظهرت مذاهب واختلافات، وما أسموه العلمانية واليسارية، وغير ذلك، وكل هذا قام به المنافقون فى الإسلام وغلفوه بغلاف إسلامى، ليفسدوا فى الأرض ويحاربوا منهج الله.**

١٥ ـ وردًا على الداعين للتغريب.. بدعوى ضرورة أن نعيش العصر.. وكأن العصر هو التغريب.. قال الشيخ الشعراوى:

إنه لا يصح لعالم مطلقًا أن يقول: يجب أن نعيش العصر، **فالعصر هو الشرع**، فإذا اضطرت ظروف العصر إلى أشياء أن نأخذها، والدين لا يمانع فيها فلا مانع.. **ورجل الدين يجب أن يقول: أن نعيش الدين، وليخضع العصر لمنطق الدين.**

١٦ ـ وفى مواجهة الإلحاد.. كشف الشيخ الشعراوى عن أن الإلحاد هو المقدمة الممهدة للاستبداد ففى تمرد الإنسان على سلطان الله قمة الاستبداد.. وفى ذلك قال:

إن التشكيك فى طبيعة الدين وفى أصله ـ سواء كان إسلامًا أو مسيحية أو يهودية ـ هو أمر يراد به نفى القداسات عن أشياء يعتقدها الناس ليسيروا حركة حياتهم على منهجها، وبذلك يخلو الجو لمريدى التسلط على الكون والمتسلطين على الحكم حتى لا يجدوا منازعًا لهم لا من قانون السماء ولا من قوانين الأرض.

١٧ ـ وفى نقض فرضية الداروينية ـ التى هى ركيزة الإلحاد المعاصر ـ قال:

يقول علماء السلالات: إن السلالات تصير دائمًا فى المستقبل إلى كثرة.. وكلما أوغلت فى القدم نقص العدد.. فالتكاثر نشأ فى الاستقبال.. والقلة ناشئة فى الماضى.. ونتدرج إلى أن نصل إلى أقل عدد يأتى من التكاثر وهو عدد اثنين، ولا نقول واحدًا لأن الواحد لا يأتى من التكاثر..

والذى حل لغز التكاثر والسلالات وأصل الإنسان هو الدين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]..

ومن هذا المنطلق وهذه الحقيقة نرد على الذين يقولون إن الإنسان أصله قرد.. نقول لهم: إن كل جنس موجود باستقلاله..

* يقول الملحدون: أنتم تؤمنون بإله خرافى ليس موجودًا..

ونحن نقول لهم: الإله الذى تقولون عنه إنه خرافى هو الذى فسر لنا الحقائق التى وصلتم إليها.. والإيمان بهذا الإله الذى يسيطر على الوجود كله، والذى يجب أن ينفذ قانونه ليمنعهم من أن يكونوا جبارين فى الأرض ومتسلطين، ويمنعهم أن يكونوا حكامًا آمرين بأهوائهم..

١٨ ـ وعن أجناس الوجود: الجماد.. والنبات.. والحيوان.. والإنسان.. قال:

إن أجناس الوجود التى أمامنا متدرجة، جنس يسلم إلى جنس، وتجد كل جنس فى خدمة الأجناس التى فوقه..

فالجماد (ماء، هواء، عناصر أرض، شمس، قمر) كل هذه جمادات هى فى خدمة النبات، تغذيه بالضوء، تغذيه بالعناصر، الماء يذيب له العناصر ليتغذى..

ثم **النبات** يخدم ما فوقه، وهو الحيوان، **والحيوان** يخدم ما فوقه وهو **الإنسان**

فالإنسان تصب فيه كل الأجناس لخدمته هو.

أصبت فيه لخدمته هو بفكره، وبقدرته عليها؟..

لا.. إنها تخدمه بدون قدرة له عليها، تخدمه ولا قدرة له، وهو صغير، وهو طفل، وهو جنين.. شمس تمده بالضوء والحرارة، والماء يمده بالحياة، والهواء يمده بالتنفس، والنبات يمده بالطعام، والحيوانات تمده بأشياء كثيرة، قبل أن توجد له قوة..

أما كان من العقل أن نبحث عن القوة التى سخرت لى من لا يدخل تحت قدرتى ليكون فى خدمتى؟.

لقد كان من الواجب عليك أيها العاقل أن تقف وقفة لتبحث عن هذا السر، الذى سخر لك ما هو أقوى منك.

١٩ ـ وفى تميز العقلانية الإسلامية المؤمنة عن العقلانية اللادينية.. قال:

الإسلام يريد من العقل أن يثبت أن هناك وحيًا.. ولذلك قالوا: العقل كالمطية، توصلك إلى حضرة السلطان ولا تدخل معك.

العقل يوصلنى إلى إثبات الأمور التكليفية.. إلى أن فيه إلهًا.. وفيه بلاغًا عنه.. وأيضًا لأن علوم الشرع ـ كما قلنا ـ جاءت لتعصمنا من اختلاف الأهواء.. ولذلك، فى العلوم التجريبية، قال النبى ـ ﷺ ـ: «أنتم أعلم بشئون دنياكم». فى الأمور التجريبية المعملية حتى لا يتدخل فيها الدين..

٢٠ـ وعن التشريع الإسلامى المنظم لكل أمور الحياة.. قال:

لقد شمل التشريع الإسلامى كل أمور الحياة.. من القمة.. من لا إله إلا الله ـ والتى ربما ينكرها البعض ـ إلى إماطة الأذى عن الطريق..

لقد جاء التشريع الإسلامى بنظام فيه حل لكل قضايا الحياة.. حل ذهب إليه حتى الذين يدينون بغير الإسلام.. لم يذهبوا إليه تدينًا.. ولكن لأنهم وجدوها حلولًا مُثلى لكل قضايا الحياة التى عضتهم.

انظروا إلى موقف الغرب من «الطلاق»، وكيف كان يرفضه، بل لعلهم كانوا يعيبونه على الإسلام.. هذا الموقف انتهى إلى ماذا؟

انتهى إلى أنهم واجهوا مشاكل لا حل لها إلا بالطلاق.. وذهبت إيطاليا ـ التى يوجد بها الفاتيكان ـ إلى الطلاق الذى شرعه الإسلام، ولعل ذلك أبلغ شهادة للنظام الإسلامى.. حيث «شهد شاهد من أهلها»..

ولذلك كان عليهم أن يطالبوا بأن تكون المرجعية للإسلام فى كل الأمور: اقتصادية واجتماعية وتنظيمية إلى آخره، لأن الإسلام جاء بالنظام الذى استوعب كل أقضية الحياة..

٢١ ـ وعن علاقة المرأة بالرجل ـ علاقة التكامل لا ندية التنافر ـ قال:

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]..

يعنى لكل واحد مجال فى سعيه.. فإياك يا رجل أن تأخذ مهمة المرأة، وإياك يا امرأة أن تأخذى مهمة الرجل..

وبينكما قدر مشترك، وهذا القدر المشترك هو أن كلًا منكما إنسان مفكر، وإنسان مفكر له عقل يقارن فيه بين البديلات فى مجاله..

وفى العملية التكوينية نلحظ أن الرجل يمتاز بالصرامة، ومعنى الصرامة أن طاقة العقل تتحكم فى تصرفاته، وطاقة العاطفة تكون على قدرها فيه..

والمرأة تتعرض لمسائل تتطلب العاطفة قبل العقل، والرجل يتعرض لمهمة تتطلب العقل قبل العاطفة.

فإذا أردنا أن نأخذ عمل المرأة فى تربية النشء وجدتها أتعب من الرجل وأشقى من الرجل، لأنها تتعامل مع من لا يفهم، تتعامل مع من لا يستطيع أن يبين موضع آلامه، وتلك مهمة صعبة، **وأطول مهمة فى حياة طفولة الأشياء..**

إن الحد الذى يخرجنى من الطفولة هو أن أبلغ الحلم، وأصير رشيدًا، عندى القدرة على أن أنجب مثلى..

وتلك الطفولة فى حاجة إلى حاضن، وهذا الحاضن إذا نظرنا إليه وجدناه فى الأب والأم، وحضانة الأب فى الخارج، وحضانة الأم فى الداخل..

ولكن لماذا طالت طفولته؟

لأن مهمته عالية تتطلب طفولة واسعة، لأنه سيتعرض لقضايا كثيرة جدًّا تتلاءم ورسالته فى الحياة، لأنه هو السيد والمهيمن على هذه الأشياء، وهو خليفة الله فى الأرض، إذن لا بد أن يعد الإعداد المناسب.. **والأم هى سيدة هذا الفضل.. ومن الممكن أن تكون المرأة هى كل شىء فى الوجود إذا أرادت أن تخلص لمهمتها..**

* إن المرأة مطلوب رعايتها من أبيها إن كان موجودًا.. مطلوب رعايتها من إخوتها.. مطلوب رعايتها من عصبتها.. مطلوب رعايتها من أعمامها.. مطلوب رعايتها من زوجها..

فإذا لم تجد المرأة من واحد من هؤلاء، أو هم موجودون ولكنهم عجزة.. فالإسلام لم يمنع المرأة أن تضرب فى الأرض الضرب المناسب لمهمتها، وتحتفظ أيضًا بكونها امرأة..

٢٢ ـ وعن صيانة المرأة بالحجاب.. قال:

إن المرأة الواعية هى التى تعشق مهمة التستر.. تعشق مهمة الاحتجاب، لأن الحجاب فيه كرامة المرأة..

إن التشريع لم يمنع أن تدرك، ولم يمنع أن تجد إعجابًا فى نفسك، **ولكن التشريع وقف عند العملية النزوعية، إلا فى مسألة المرأة.. لماذا؟**

لأنك لا تستطيع أن تفصل الإدراك عن الوجدان، ولا تستطيع أن تفصل الوجدان عن النزوع.. لماذا؟ لأن العملية سيترتب عليها شىء مادى فى تكوينك.. هذا الشيء المادى فى التكوين إما أن تكبته وإما أن تنطلق به.. فإذا انطلقت به فى أعراض الناس، وإن لم تنطلق به أتعبت نفسك، وحملت لنفسك ما لا تطيق، فكأن الله رحمة بك قال أنا سأتعدى فى عملية التشريع مرتبة النزوع، وأحرم الإدراك، حتى لا يوجد وجدان، وحتى لا يوجد نزوع، وبذلك أكون قد رحمتك.

إذن، فالتشريع الإسلامى حين قال للمرأة: احتجبى.. لا تعرضى مفاتنك، هو تكريم للمرأة، ومنع للعملية النزوعية التى تنشأ عن الوجدان الذى ينشأ عن الإدراك، لأنك إذا أدركت وجدت، وإذا وجدت حاولت أن تنزع..

٢٣ ـ وفى الرد على شبهة ظلم الإسلام للمرأة فى الميراث.. قال:

إن الإسلام، فى ميراث المرأة، لم يكن ضدها، وإنما كان محابيًا لها..

وليس فى كل أحوال الميراث تأخذ المرأة نصف الرجل، بل فى كثير من مسائل الميراث تأخذ مثله، كالإبنة تأخذ مثل الأب، والأخوات من الأم يأخذ الذكر مثل الأنثى تمامًا مستويًا.. ولكن المسألة فى الأخ والأخت فقط..

إن المرأة غير مسئولة عن نفقة نفسها، فإن كانت بنتًا تكون مسئولة من أبيها، وإن كانت أمًا فهى مسئولة من زوجها، ومن أبنائها، وإن كانت متزوجة فهى مسئولة من زوجها، ولا يلزمها الإسلام أن تنفق من مالها ولو كانت غنية وزوجها فقير. بل على الرغم من فقر المتزوج من غنية، عليه أن يقترض من سواها كى ينفق عليها:

فإذا ما أعطاها الشرع نصف أخيها فلأن النصف سيكفيها إن هى ظلت دون أن تتزوج، وإن تزوجت فإن هذا النصف وفْرٌ لها، لأنها ستلحق بمن ينفق عليها.

ولكن الأخ الذى أخذ ضعفها مطلوب منه أن يبنى حياته بزوجة يأتى بها لينفق عليها..

ولذلك كان الكلام المنطقى هو: لماذا حابى الإسلام المرأة؟

والجواب: أنه حاباها، لأنه راعى أن المرأة قد يكون من سلاحها فى الحياة أنوثتها، فهو أراد أن يستعصمها من أن تستعمل سلاح الأنوثة فى حياتها، فأعطاها هذا النصف، فإذا ما ظلت بلا عائل يمكن أن يكفيها، وإن جاء لها عائل فهذا الدخل يكون وفرًا لها..

وواجب على المسلمين فى كل بقاع الأرض إن وفدت إليهم شبهة من هذه الشبهات أن تكون عندهم المناعة الكافية التى تدحضها، والتى تبطل كل الحجج الباطلة التى يأتى بها خصوم الإسلام.

ثم إن الدين ـ وليس المال ـ هو معيار التفاضل بالنسبة للرجال والنساء.. هو المقياس بالنسبة للرجل، وهو بعينه بالنسبة للمرأة.. وفى هذا يقول الرسول ـ ﷺ ـ بالنسبة للرجل: «إن جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه».. ويقول أيضًا ـ فى المقياس بالنسبة للمرأة: «فاظفر بذات الدين تربت يداك»..

٢٤ ـ وعن الحكمة الإسلامية فى تشريع الطلاق.. وعن ضوابطه الشرعية.. قال:

لقد امتاز الطلاق عن الزواج بأن الزواج يتم بكلمة: «زوجنى. زوجتك»، ولكن الطلاق لا يأتى بكلمة واحدة، «طلقتك»، لأنه يعطى فرصة، وبعد ذلك إذا عز اللقاء فى العشرة كان الطلاق أمرًا لا بد منه.

إذن فالطلاق ليس بكلمة كما يقولون، ولكنه بكلمات. وكلمات متفرقات بمدة.. فلم يقل القرآن: الطلاق كلمتان، وإنما قال ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. والمرة حدث فى زمن، ثم يأتى بعدها حدث فى زمن آخر، وبعد ذلك يأتى إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

وإذا قالوا: إن محاكم المسلمين مملوءة بقضايا الطلاق، فنقول لهم: ليس ذلك حجة ضد قضية الطلاق فى الإسلام، ولكن قد تكون حجة فى تطبيق الإسلام فى مسألة اللقاء بين الزوج وزوجته.. فالذين دخلوا على الزواج بغير معايير الإسلام وقوانين القرآن فمن الضرورى أن يحدث بينهم هذا الشقاق.

٢٥ ـ وعن ما يثار حول تعدد الزوجات.. قال:

إن التعدد، منطقيًّا وواقعيًّا فى أى شىء، لا يمكن أن يتعدد شىء على شىء إلا إذا كان المتعدد فائضًا، فإذا كان المتعدد فائضًا فمن الطبيعى أن يتعدد ـ وفائض يعنى زائد على الأصل.. وعنصر الإناث أكثر دائمًا من عدد الرجال فى كل عنصر من عناصر التكاثر..

ولو أخذنا رأى من لم تتزوج: ألا تكونين زوجة ثانية بدل ألا تكونى زوجة؟ فسيكون الجواب: أكون زوجة ثانية. وسيكون الرأى هكذا بالنسبة لبقية الزوجات، فلو أننا استفتينا النساء اللاتى لم يتزوجن لما وجدنا واحدة منهن تكون على غير رأى الإسلام.

ونحن نقول للمسلم الذى تزوج بأكثر من واحدة: إنك إن عدّدت بحكم الله، ولأن الله أباح لك التعدد، فهل التزمت بحكم الله فى كل أمر؟.. صحيح أنك أخذت التعدد بحكم الله، فلماذا لم تأخذ العدالة بين الزوجات بحكم الله أيضًا؟

إننا حين نأخذ حكم الله فى التعدد، ولا نأخذه فى العدل، تنشأ الآثار المنفرة البغيضة التى يستغلها خصوم الإسلام..

إذن لم يبح الله للإنسان أن يعدد إلا إذا استطاع أن يعدل، فإذا خاف ألا يعدل فلا يتزوج الثانية.

٢٦ ـ وفى الرد على من يقولون: لماذا لا يتعدد الأزواج للمرأة الواحدة كما تتعدد الزوجات للرجل الواحد؟

نقول: إن المرض الخبيث ـ [السرطان] ـ لا ينشأ إلا من تعدد ماء الرجال فى المحل الواحد، أما أن يوجد محل واحد لماء واحد فلا خطر منه لمرض خبيث.

٢٧ ـ وعن الغلو المادى فى اليهودية.. قال:

لقد أرادوا أن يجعلوا الله جسمًا يجلس ويضع رجليه على قصعة!. وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

فهم أرادوا الإله الغيب أن يكون أمرًا ماديًّا. كذلك جاءوا فى كل النظم وجعلوها مادية.

وأنت إذا استعرضت كل أسفار التوراة فلن تجد شيئًا يتعلق باليوم الآخر أبدًا.

٢٨ ـ وعن الوسطية الإسلامية.. قال:

إنك لو نظرت إلى دين الله لوجدته قد أخذ جوانب الحُسن فى الديكتاتورية وترك ملامح القبح فيها، وأخذ الحُسن فى جوانب الديمقراطية وترك ملامح الشر فيها، فأعطانا الأمرين بفائدة وبعدالة.. فالأمور التى يجب أن يبت فيها بحزم ولا تُترك لأهواء البشر لها مجال شرعها الله تشريعًا، ولا يجعل لأحد عليها استفتاء أبدًا.. ففى هذه القضية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ـ [المؤمنون: ٧١].

وفى القضية الثانية: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] ـ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إن بعض الناس يرى أن اجتهاده هو الحق، وأن اجتهاد غيره هو الباطل، وأنه باجتهاده يمثل وجهة نظر الإسلام، وهذا لا يمثل وجهة نظر الإسلام. ومن هنا جاء الخلط والتخبط.

إن الله حين يترك نصًّا محتملًا للفهم يجب أن يحترم فيه كل فريق رأى الفريق الآخر.

٢٩ ـ وحول الأمراض الداخلية فى الأمة الإسلامية.. قال:

إن كل خلاف بين المسلمين يُستغل ضد الإسلام، والذى يصنع شيئًا من هذا إما مفت أو مطبق أو منفذ سيكون مثل الذين يمسكون معولًا يضربون به قضية الإسلام عند خصوم الإسلام.

ولقد رأى الخصوم أن للإسلام مذاهب وطرقًا وطوائف، وكل مذهب يرى أنه هو الأحق أن ينسب إليه الإسلام أو ينسب إلى الإسلام، ويكفّر الطوائف الأخرى. وعلى هذا يصبح الإسلام لا مبدأ تجميع للناس ولكنه يصبح مبدأ تفريق. واستغلوا هذه المسألة، وقالوا: أى إسلام هؤلاء صحيح؟. فإن كان الإسلام صحيحًا فى مذهب فالمذاهب الأخرى باطلة.. وهكذا دخلوا من باب تمزيق الإسلام بالمذهبية والطائفية.

وهذه الظاهرة إنما نشأت لخطأ المسلمين فى فهم كثير من قضايا الدين الأساسية..

وآفة وجود المذاهب: أن الأمر الذى ترك الله فيه الأمر للمشورة والاختيار والاجتهاد، جُعل عند كل طائفة أمرًا يجب الجزم فيه والبت، وأن الذى يخالف رأيهم يكون مخالفًا للإسلام، ويقولون له: أنت لم تفهم الإسلام.

وتلك هى الآفة التى جرأت علينا الخصوم ليقولوا إن الإسلام لم يعد دين تجميع وإنما عاد دين تفريق!.

إذن فالمسلمون هم الذين فتحوا الباب وجعلوا الملحدين يجدون منافذ يدخلون بها علينا ليهدموا لنا قضية إيماننا وإسلامنا.

إن الله حين يترك نصًّا محتملًا للفهم يجب أن يحترم فيه كل فريق رأى الفريق الآخر.

فكل الأحكام الاجتهادية التى تركها التشريع لاجتهادات البشر معناها إذْنٌ من الله، وأن ما وصل إليه الاجتهاد يقبله الله، ويعتبره حقًّا فى هذه المسألة.

فالشىء الذى ينفذ منه خصوم الإسلام هو ما يفعله بعض علماء المسلمين، أو بعض الأتباع لعلماء الإسلام، حين يرون فى اجتهاداتهم التى أباح الله فيها أن نجتهد فى النص أنها أصوب، وأن ما عدا اجتهاداتهم يجب أن تترك، وأن فهمهم هو الحق وما عداه فهو الباطل.

ومن هنا نشأت النكبة على المسلمين فى جميع بقاع الأرض، ولذلك نجد أمة مسلمة يُنْتَقَدُ إسلامها من أمة أخرى، إسلام فى دولة يُنْتَقَدُ من إسلام فى دولة أخرى. لماذا؟.. لأنهم أرادوا أن يجعلوا من فهمهم للأمور المجتهَد فيها نصًّا محكمًا، كما أنزله الله نصًّا محكمًا، وترتب على ذلك أن المخالف هو على الباطل فى زعمهم.

ولينظروا إلى ثمار ذلك فيما يجدونه من الهجوم علينا فى أن الإسلام لم يعد دين تجميع، وإنما أصبح دين تفريق. ونحن فى البلد الواحد نشاهد ذلك الآن. نجد أننا فى كل حى وفى كل مسجد طائفة. ولو نظرت إلى إسلام هؤلاء لوجدته بعيدًا عن إسلام هؤلاء. لماذا؟. لأنهم جعلوا لسلوكهم فهمًا، ومن لم يوافقهم على فهمهم فهو خارج عن الإسلام لا عليهم.

ويجب أن ينظروا إلى تبعات هذه الأشياء الآن.. هذه التبعات التى سنشقى بها طويلًا من خصوم الإسلام.

٣٠ ـ وعن الاختلاف فى معاملات البنوك.. قال:

من العلماء من قال بحلها.. ومنهم من قال بحرمتها..

وما دام كثيرون من العلماء قد قالوا بحرمتها، فإن رأى البعض ـ الذى أحلها ـ لا ينسخ رأى الجمهور والجماعة.. فهناك وجهة نظر أحسن من وجهة نظر».

* * *

هكذا تحدث فيلسوف الإيمان.. وإمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى.. فى كتابه [ردًّا على الملاحدة والعلمانيين]..

حوار الإيمان والإلحاد

أطراف هذا الحوار ـ الذى دار بين الإيمان والإلحاد ـ فى ثلاثينيات القرن العشرين ـ والذى جاء نموذجًا للموضوعية والاستنارة، والتحلى بآداب البحث والحوار والمناظرة ـ هم ثلاثة من الباحثين والمفكرين والعلماء:

(١)

أولهم الدكتور الطبيب أحمد زكى أبو شادى [١٣٠٩ ـ ١٣٧٤هـ، ١٨٩٢ ـ ١٩٥٥م] الذى اشتهر كشاعر وأديب، وعلم من أعلام الرومانسية الأدبية والحداثة الشعرية والتجديد الأدبى.

ولد بالقاهرة، ودرس الطب، وقام بتدريسه، ثم انصرف بكليته إلى الأدب والشعر، فتألق فى سماء الحياة الأدبية والإبداع الشعرى.. وخلف فى هذا الميدان أعمالًا مرموقة، منها: «معشوقات ابن طولون» و«مفخرة رشيد» «والزباء ملكة تدمر» ودواوين: «من السماء» و«الشفق الباكى».

* ولقد غطت هذه الإبداعات الأدبية والشعرية ـ التى ركز عليها النقاد كل الأضواء ـ على الجانب الإسلامى فى إبداعات أحمد زكى أبو شادى.. فلم يلتفت الكثيرون إلى أن الرجل كان له ولع بالفكر الإسلامى، ونزعة تجديدية لهذا الفكر، وروحانية صوفية تناول بها العديد من قضايا هذا الفكر الإسلامى..

نعم.. لقد كتب الرجل ـ غير هذه النصوص التى نقدم بين يديها ـ دراسات إسلامية رصينة، منها:

١ ـ «مذهبى» الذى تحدث فيه عن توجهه الإسلامى الذى يجمع بين العقل والعلم والتصوف.

٢ ـ و«رسالة محمد» ـ ﷺ ـ وهو شرح للروح الإنسانية العالية ـ روح الإنسان الكامل ـ التى تمثلت فى رسالة نبى الإسلام وسيرته.

٣ ـ و«المال فى الإسلام» وهو بحث يبرز فيه تفوق المنهاج الإسلامى فى فلسفة التعامل مع الثروات والأموال، وإنقاذ المستضعفين فى الأرض من الفقر والفاقة، ومن القارونية التى تفترس جماهير الأمم والشعوب.

٤ ـ و«حقوق الإنسان» الذى أبرز فيه تفوق المنهاج الإسلامى فى فلسفة هذه الحقوق وفى تطبيقاتها على المناهج الإنسانية الأخرى. وذلك بالإضافة إلى النصوص التى نقدم بين يديها.. والتى تمثلت فى:

٥ ـ محاضرة «عقيدة الألوهية» ـ التى ألقاها فى «ندوة الثقافة» بالإسكندرية ـ مساء الثلاثاء ٣ نوفمبر ١٩٣٦م ـ والتى نشرت ملحقًا بمجلة «أدبى» ١٩٣٦م.. وهى المحاضرة التى نحا فيها منحًا منطقيًّا وصوفيًّا ـ جمع بين العقل والقلب والفطرة ـ فى إثبات الألوهية.

٦ ـ و«لماذا أنا مؤمن؟» الذى رد به على مقال الدكتور إسماعيل أدهم [١٣٢٩ ـ ١٣٥٩هـ ١٩١١ ـ ١٩٤٠م]: «لماذا أنا ملحد؟» الذى كتبه نقدًا لمحاضرة «عقيدة الألوهية» ـ فجاء هذا البحث إضافة لما كتبه أبو شادى فى «عقيدة الألوهية» ـ والذى نشر، هو الآخر، ملحقًا بمجلة «أدبى» ١٩٣٧م.

* هذا هو الطرف الأول من أطراف هذا الحوار ـ بين الإيمان والإلحاد ـ.. الدكتور الطبيب أحمد زكى أبو شادى، الذى اشتهر ولمع فى سماء الشعر والأدب، بمصر..

وبالمهجر الأمريكى، والذى صعدت روحه إلى بارئها بواشنطن فى ١٩ شعبان ١٣٧٤هـ أبريل ١٩٥٥م[١].

وفى هذه المحاضرة عن «عقيدة الألوهية» تحدث الدكتور أبو شادى عن:

* أن التعليم الطبى يؤدى حتمًا إلى شىء من الصراع مع الدين، وإلى زعزعة الإيمان الدينى، بسبب ضعف الإيمان الفطرى عند الذين يفشلون فى التوفيق بين العلم والدين.

* وكيف أنه قد تصدى لهذه المهمة ـ مهمة التوفيق بين العلم والدين ـ بتشجيع من أستاذه الإمام الجليل المرحوم السيد محمد رشيد رضا «١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م» الذى كان يكاتبه ويكاتب مجلة «المنار» حتى إبان إقامته فى إنجلترا.

ذلك أن إيمانه بعقيدة الألوهية قد دفعه للتطوع متحمسًا لتفسير هذه العقيدة والإشادة بمكانتها وآثارها سنوات طويلة.

* وكأثر من آثار الإيمان، الذى يؤدى إلى انتماء المؤمن للكون والمطلق، والذى يولد الإحساس بعلاقة الجزء ـ الإنسان ـ بالكل ـ الكون والمطلق ـ فلقد عشق الفلك، وتردد على المراصد، فوجد فى ذلك عبادة صوفية واستغراقًا فى معانى الألوهية.

* كما اطلع اطلاعًا واسعًا على ما كتبه الفلاسفة وأساتذة الفلسفة حول الإيمان بالألوهية، فزادت قناعته بأن الإيمان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما يتمشى مع حقائق العلم.. فالطبيعة والدنيا ـ التى هى موضوع العلم ـ إنما تدل على الألوهية.. ذلك أن الأسباب الثانوية إنما تدل على السبب الأول، والنظام الكونى إنما يشهد بوجود العقل غير المحدود. والجمال، فى هذا العالم، إنما يدل على الروح الأعلى الراعى لهذا الوجود وما به من نظام وحكمة وجمال.

* كما أشار إلى المناخ الذى ألقى فيه محاضرته عن «عقيدة الألوهية».. مناخ التغريب الذى تتمدد فيه نزعات الفكر المادى الغربى، الذى غرق فى ثنائية التناقض المزعوم بين العلم والإيمان، الأمر الذى أدى إلى تراجع الإيمان الدينى،

(١) عمر رضا كحالة (معجم المؤلفين) طبعة دمشق ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

وصعود الفلسفة المادية على أنقاض الدين، حتى إن الإحصاءات التى أجريت فى البلاد الغربية قد أثبتت أن المسيحيين فيها هم فى ـ الحقيقة ـ بعيدون كل البعد عن المسيحية وكنائسها!

* وتحدث عن مذهبه الرافض لما يقول به بعض المفكرين الغربيين من أن الشعور بالألوهية هو ثمرة للخوف أو الجهل.. ذلك أن هذا الشعور هو ـ فى الحقيقة ـ مسألة فطرية سيكلوجية مبعثها إحساس الجزء ـ الإنسان ـ بالكل ـ الكون والمطلق.. ثم تساءل:

* وهل نحن ـ فى المعنى الصوفى ـ إلا أبناء الله؟

* وبالتفسير الإشارى، رأى الدكتور أبو شادى فى آية الكرسى ـ الآية ٢٥٥ من سورة البقرة:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾

رأى فيها مفتاح التصوف الإسلامى، وباب الألوهية الحقة.. فقال:

«إنها تملؤنى إحساسًا بوحدة الوجود، واعتقادًا تامًّا بأن الإسلام لا يفصل بين الله والعالم كما تفعل بعض الأديان».

* إن عقيدة الألوهية، فى ضوء الإسلام ـ على عكس ما يظنه الفلاسفة الماديون ـ لا تخالف العلم السليم ولا الإحساس النفسانى النقى، وهى بعيدة كل البعد عن الخوف والخرافة والجهل، لأنها تقوم على ركنين:

أولهما: الإحساس الصفوى الفطرى.. إحساس الجزء بالكل..

وثانيهما: وحدة الوجود التى تشع عليها آية الكرسى وغيرها من الآيات القرآنية التى ينبع منها التصوف.. كقوله تعالى:

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١١٥].

وقوله:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

لذلك، فلا حاجة لنا، نحن المسلمين، بذلك النقاش البيزنطى بين المفكرين الغربيين الذين تجاهلوا الاعتبارين السابقين، وحصروا تفكيرهم فى نواح بعينها.

فالنفس البشرية لا يمكن أن تتخلى عن عقيدة الألوهية.. والأسماء الحسنى وصفات الجلال والكمال والجمال المنسوبة إلى الذات الإلهية هى ـ فى الواقع ـ رموز للعوامل المختلفة التى أطلقها الله، سبحانه وتعالى، فى هذا الوجود لتكييفه وتنظيمه بين هدم وبناء وتبديل وتحويل على قاعدة الأسباب والنتائج، وكثير منها رموز لا يجوز أن نسىء تفسيرها.

وحتى ظاهرة النبوة، التى رفضها الماديون ظنًا منهم منافاتها للعقل والمنطق، هى مفارقة للعادة، وليست مفارقة للعقل والمنطق، إذ تحكمها قوانين خاصة أبدعها بديع السموات والأرض، ومسبب الأسباب.. فهى ليست بعيدة عن الحقائق العلمية والنفسية ـ كما أوضح ذلك فيلسوف الإسلام الفارابى [٢٦٠ ـ ٣٣٩هـ، ٨٧٤ ـ ٩٥٠م].

كذلك لا تناقض بين الحس الصوفى وبين العلم الفلسفى، فالعلم الفلسفى سند للحس الصوفى، على عكس دعاوى النزعات المادية التى تأخذ بالعلم والفلسفة وحدهما، دون الحس الصوفى.

إن النموذج الإسلامى قد برئ من الثنائيات التى عرفتها الحضارة المادية الغربية.. فالقران الكريم ـ وهو النقل ـ يتمشى فى جميع أجزائه مع العقل والعلم الصحيح، لمن أراد أن يفهمه على هذا الوجه من ذوى الألباب.. والمعرفة الصحيحة تأتى عن طريق البحث العلمى وعن طريق التذوق الصوفى لفلسفة الدين.. لا عن طريق أحدهما دون الآخر.. وهذا المنهاج الإسلامى، الذى يجمع بين العلم وبين التصوف، يرفض

الوقوف عند ظواهر النصوص رفضه للباطنية التى صاغها السهروردى ـ المقتول ـ [٥٣٩ ـ ٦٣٢هـ ـ ١١٤٥ ـ ١٢٤٣م] فى فلسفة الإشراق.

هكذا تحدث الدكتور الطبيب أحمد زكى أبو شادى عن مذهبه فى الإيمان بعقيدة الإلوهية.

* * *

فلما قرأ الدكتور إسماعيل أدهم هذه المحاضرة، رد عليها بمقال: «لماذا أنا ملحد؟».. وهو المقال الذى رفض فيه قيام الكون الطبيعى والبشرى على قانون السببية، وعلاقة الأسباب بالمسببات، واضعًا بدلًا من ذلك «قانون» الاحتمالات.. ورافضًا وجود سبب أولى لما فى الوجود من أسباب.. واضعًا بدلًا منه «قانون» الصدفة.. فكان رد الدكتور/ أحمد زكى أبو شادى على مقال «لماذا أنا ملحد؟» بدراسة: «لماذا أنا مؤمن؟» التى أثبت فيها افتقار القائلين «بقانون» الصدفة إلى الدقة فيما نقلوه عن الفلاسفة الغربيين.. فالذين قالوا بالصدفة من الغربيين ـ ومنهم الفيلسوف «هنرى بوانكاريه» [١٨٥٤ ـ ١٩١٢م] قد أرجع القول بالصدفة إلى «الجهل» بالأسباب، وليس إلى «علم» يقول بالصدفة! ذلك «أن الصدفة تخفى جهلنا بالأسباب. والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب».

ولذلك، فإنه لا يمكن أن يفسر الوجود وما فيه من نظام وحكمة وإبداع بدعوى هى ثمرة للجهل بالأسباب الحاكمة لهذا الوجود.. ثم كيف نضفى وصف «القانون» على الصدفة التى لا يحكمها قانون؟!

كذلك ذهب الدكتور أحمد زكى أبو شادى إلى نقد ما ادعاه الدكتور إسماعيل أدهم من إرجاع ما يحدث فى الوجود إلى «قانون» الاحتمال.. فلا الغربيون ـ الذين ينقل عنهم إسماعيل أدهم ـ قالوا بذلك.. ولا هو قدم تعليلًا معقولًا لقيام الوجود على الاحتمالات ـ دون سببية، ودون مسبب للأسباب.. فكان موقفه شاذًا وغريبًا عن كل من العلم والدين!

هذا هو الطرف الأول من أطراف هذا الحوار الخصب بين الإيمان والإلحاد..

* * *

(٢)

أما الطرف الثانى فى هذا الحوار، فهو صاحب مقالة: «لماذا أنا ملحد؟» والتى اشتهر بها حتى غطت على أعماله الفكرية والعلمية الأخرى.. إنه:

* الدكتور إسماعيل أدهم [١٣٢٩ ـ ١٣٥٩هـ ١٩١١ ـ ١٩٤٠م] ـ إسماعيل بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم باشا أدهم.. الذى ولد بالإسكندرية لأب تركى، كان ضابطًا بالجيش التركى، ولأم ألمانية مسيحية بروتستانتية.. وكان جده معلمًا للغة التركية بجامعة برلين، وجد أبيه مديرًا لديوان المدارس المصرية فى عهد محمد على باشا الكبير [١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م].

* ولقد تعلم إسماعيل أدهم بالإسكندرية وبالآستانة.. ولأن والده كان مستغرقًا فى جبهات القتال أثناء الحرب العالمية الأولى، فلقد كان شديد الحرص على تربية ابنه تربية إسلامية، تنقذ عقيدته من مسيحية الأم ـ التى توفيت وهو فى الثانية من عمره ـ تاركة له أختين مسيحيتين.. فلقد عهد الوالد إلى من يدفع ابنه دفعًا نحو التدين بالإسلام، فكان تكليف الصغير بحفظ القرآن، والصيام، والصلاة ـ بما فى ذلك صلاة التراويح.. فرأى الطفل من التربية الإسلامية الوجه القاسى، بينما كانت أختاه تصحبانه إلى الكنيسة، حيث رأى فى المسيحية نزهة أسبوعية لا تكلفه مشقة فى العقائد ولا فى العبادات، لأن أختاه لم تكونا مؤمنتين إيمانًا مسيحيًّا حقيقيًّا.

هكذا نشأ الطفل إسماعيل أدهم، فى ظل «تربية إسلامية متشددة وقاسية» وفى ظل «مسيحية فارغة خفيفة»!

* ولقد تعلم ـ مع العربية والتركية ـ الألمانية والروسية وقليلًا من الإنجليزية.. واتجه ـ فى الثقافة ـ إلى الميادين الفكرية والعلمية البعيدة عن الدين.. بل والمناهضة للدين، فقرأ لداروين [١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م] وهكسلى [١٨٢٥ ـ ١٨٩٥م] وهيكل [١٨٣٤ ـ ١٩١٩م] والسير على، وبيجهوت، وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، ومن ثم ملأت نظرية التطور الداروينية الفراغ الدينى فى عقل الفتى ووجدانه.

* وفى ١٩٢٧م غادر إسماعيل أدهم مصر إلى الآستانة ـ فى ظل الثورة الأتاتوركية على الإيمان الدينى فدرس هناك الرياضيات، وانضم إلى «جماعة نشر الإلحاد» التى

كونها الطلاب الملحدون فى جامعة الآستانة، والتى ضمت ثمانمائة من طلاب المدارس العليا، وأكثر من مائتى طالب من المدارس الثانوية والإعدادية!.. ولقد اتصلت هذه الجمعية بنظيرتها الأمريكية، التى كان يديرها داعية الإلحاد تشارلز سمث، فتحول اسمها إلى «المجمع الشرقى لنشر الإلحاد».. ثم تواصل الفتى مع مجلة «العصور» التى كان يصدرها الدكتور إسماعيل مظهر [١٣٠٨ ـ ١٣٨١هـ ١٨٩١ ـ ١٩٦٢م] والتى كانت تدعو إلى التحرر الفكرى والداروينية وشىء من الإلحاد.

* وفى ١٩٣١م غادر إسماعيل أدهم تركيا إلى الاتحاد السوفيتى، فى بعثة لدراسة الرياضيات والطبيعيات فى جامعة موسكو، ومنها نال الدكتوراه ١٩٣٣م.. ثم واصل دراسته، فحصل على دكتوراه ثانية فى الميكانيكا الجديدة ـ الطبيعيات النظرية.

ولقد عمق المناخ المادى الماركسى الذى عاشه فى موسكو النزعة الإلحادية عنده، فاستراح إلى عقيدة الإلحاد، متخلصًا من أى إيمان دينى.. وكانت دراسته العلمية والفلسفية، مع أسلوب تربيته، والمناخ الإلحادى الذى أحاط به، أهم العوامل التى وصلت به إلى هذا الموقف، الذى استراحت له نفسه، حتى قال: «أنا ملحد، ونفسى ساكنة لهذا الإلحاد، ومرتاحة إليه، فأنا لا أفترق، من هذه الناحية، عن المؤمن المتصوف فى إيمانه»!

* وهو يعرّف الإلحاد بأنه: «هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون ذاته، وأن ثمة لا شىء وراء هذا العالم».. ويرى «أن أصل فكرة الله قد تطورت عن حالات بدائية، وأنها شقت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخوف وجهل بأسباب الأشياء الطبيعية، ومعرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التى كنا نخلعها عليها»!

ولقد ذهب ـ فى تعليل وجود العالم ـ إلى نظرية الصدفة، وأنكر السببية التى تربط بين المسببات والأسباب، مرجعًا ما يحدث فى العالم ـ عالم الوجود وعالم البشر ـ إلى نظرية الاحتمالات.. وقال: «إن العلاقة بين الأسباب والنتائج تخضع لسنن الاحتمال المحضة، التى هى أساس الفكر العلمى الحديث.. وإذا كان كل ما فى العالم يخضع لقانون الاحتمال، فإنى أمضى بهذا الرأى إلى نهايته، وأقرر أن العالم

يخضع لقانون الصدفة.. ومثل العالم فى ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف، وقد أخذت هذه الحركة فى الاصطدام، فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل هكذا فى دورة لا نهائية، فلا شك أنه فى دورة من هذه الدورات اللانهائية لا بد أن يخرج هذا المقال الذى تلوته الآن، كما أنه فى دورة أخرى من دورات اللانهائية لا بد أن يخرج كتاب «أصل الأنواع» وكذلك «القرآن» مجموعًا منضدًا مصححًا من نفسه. ويمكننا إذن أن نتصور أن جميع المؤلفات التى وضعت ستأخذ دورها فى الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان فى اللانهائية.

إن عالمنا لا يخرج عن كونه كتابًا من هذه الكتب، له وحدته ونظامه وتنضيده، إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة»!

هكذا أنكر إسماعيل أدهم قانون السببية.. واضعًا بدلًا منه «خبط الاحتمالات اللانهائية».. و«الصدفة».. وذهب فأطلق على خبط الاحتمالات وعلى الصدفة وصف «القانون»!

ويبدو أن الرجل لم يكن مطمئنًا كل الاطمئنان إلى هذا الذى ذهب إليه، وحاول إقناع نفسه به، ولذلك قال: «إن هناك صعوبة فى التعبير الرياضى عن قانون الصدفة.. وهذه الصعوبة مانعة للكثيرين من الإيمان بهذا القانون.. أما أنا شخصيًا فلا أجد هذه الصعوبة إلا شكلية، والزمن وحده قادر على إزالتها، ومن هنا لا أجد بدًا من الثبات على عقيدتى العلمية والدعوة إلى نظريتى القائمة على قانون الصدفة الشامل الذى يعتبر فى الوقت نفسه أكبر ضربة للذين يؤمنون بوجود الله»!

لقد خالف ـ وحده ـ كل الفلاسفة والعلماء ـ بمن فيهم الملحدون الذين آمنوا بالسببية، ورأوها ذاتية فى هذا العالم ـ وحاول أن يطمئن نفسه، فأطلق على «خبط الاحتمالات» وعلى «الصدفة» وصف «السنة.. والقانون»! ثم علق صدق هذا الذى قال على الزمن المستقبل القادر وحده على حل هذه الألغاز وإزالة هذه الصعوبات!!

* * *

هكذا كانت مسيرة الرجل: تربية دينية قاسية، نفرته من الإيمان.. ثم حلول الداروينية محل نظرية الخلق الإلهى للعالم.. ثم مناخ إلحادى جعله يحل نظرية

الصدفة وخبط الاحتمالات محل النظام الذى يربط بين الأسباب والمسببات فى كل عوالم الوجود، والذى يعود بالخلق إلى سبب أول لما فى الكون من علاقات.

لقد وقع الرجل ـ إذا شئنا الدقة ـ فى متاهة اللا أدرية.. ثم سماها ـ وهذا عجيب ـ بالعلم المنطقى العلمى!!

يشهد على ذلك قوله: «لقد خرجت من كل بحثى بأن الحقيقة اعتبارية محضة، وأن مبادئ الرياضيات اعتبارية محضة[1].. وكانت نتيجة هذه الحياة أنى خرجت عن الأديان، وتخليت عن كل المعتقدات، وآمنت بالعلم وحده وبالمنطق العلمى، ولشدة ما كانت دهشتى وعجبى أنى وجدت نفسى أسعد حالًا وأكثر اطمئنانًا من حالتى حينما كنت أغالب نفسى للاحتفاظ بمعتقد دينى»!

لقد رفض الإيمان، المؤسس على منطق السببية ـ مع الفطرة ـ واستراح إلى الإلحاد، القائم على نظرية الصدفة وخبط الاحتمالات!!.. ولقد علق صدق هذا الذى اعتقده على الزمن، الذى مضى منه قرابة القرن، سقطت فيه نظريات المادية الجدلية والمادية التاريخية.. وأخذ الإيمان الإسلامى المؤسس على المنطق والفطرة يتمدد فى الفراغ الذى خلفه الإلحاد والفلسفة الوضعية فى الفضاء الغربى!

بقى أن نقول: إن الرجل الذى اشتهر بمقالته: «لماذا أنا ملحد؟».. قد شغل وظيفة مدرس للرياضيات بجامعة سان بطرسبرج، وانتخب عضوًا ـ أجنبيًا ـ فى أكاديمية العلوم السوفيتية، وعهدت إليه جامعة فريبورج بالإشراف على طبع كتاب المستشرق أسبرنجر [١٨١٣ ـ ١٨٩٣م] عن «حياة محمد» ﷺ.. كما انتخب وكيلًا للمعهد الروسى للدراسات الإسلامية.

وعندما عاد من الاتحاد السوفيتى إلى تركيا قام بتدريس الرياضيات فى معهد أتاتورك بأنقرة، وهناك نشر كتابه: «إسلام تاريخى» ـ بالتركية.

(١) فى المعجم الفلسفى الذى وضعه مجمع اللغة العربية: أن الأمر الاعتبارى هو: «اعتبار ما ليس بعلة وأنها إحدى حجج السوفسطائيين. التى تتلخص فى استخدام سبب غير السبب الحقيقى فى الاستدلال.

فلما عاد إلى مصر ١٩٣٦م بعد عشر سنوات من مغادرته لها ـ نشر رسالة ـ بالعربية ـ عنوانها: «من مصادر التاريخ الإسلامى» ـ صادرتها الحكومة المصرية.. ثم نشر كتابًا عن «الزهاوى الشاعر». كما كتب عدة مقالات فى عدد من المجلات تدعو إلى التحرر من الإيمان الدينى.. منها: «علم الأنساب عند العرب» و«نظرية النسبية» و«خليل مطران الشاعر» و«طه حسين: درس وتحليل» و«عبد الحق حامد» ـ الشاعر التركى.. كما نشر مقالته: «لماذا أنا ملحد؟» فى مجلة «الإمام» ـ التى كان يصدرها الأديب الناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتى [١٣٢٠ ـ ١٤٠٣هـ، ١٩٠٢ ـ ١٩٨٣م] فى عدد أغسطس ١٩٣٧م.. معلقًا وناقدًا ورافضًا لما جاء فى محاضرة الدكتور أحمد زكى أبو شادى «عقيدة الألوهية» ـ التى نشرت ملحقة بمجلة «أدبى» ١٩٣٦م.

* ولقد أثارت مقالته: «لماذا أنا ملحد؟» ردود أفعال فكرية.. فكتب الدكتور أحمد زكى أبو شادى دراسته: «لماذا أنا مؤمن؟».. وكتب العلامة محمد فريد وجدى دراسته: «لماذا هو ملحد؟».. ووجد إسماعيل أدهم أن الإيمان الدينى ـ الذى غادر محيطه فى العشرينات ـ لا يزال راسخًا رسوخ الجبال، يمثل هوية الأمة وذاتيتها، والأكسجين الذى تستنشقه فينعشها ويحييها.. كما تقاوم به فتنة الإلحاد التى أصبح لها دولة ـ الاتحاد السوفيتى تمثل سدس الكرة الأرضية لأول مرة فى التاريخ!.. فمرض جسمه بالسل، بعد أن مرض عقله بالإلحاد.. وبسبب من اليأس والقنوط ـ الذى يولده الإلحاد ـ تعجل الموت، فانتحر غرقًا فى بحر الإسكندرية ١٩٤٠م[1].

(٣)

أما الطرف الثالث ـ فى هذا الحوار بين الإيمان والإلحاد ـ فهو العلامة محمد فريد وجدى [١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ، ١٨٧٨ ـ ١٩٥٤م] ـ محمد فريد بن مصطفى وجدى بن على رشاد.

(١) الزركلى «الأعلام» طبعة بيروت.

* ولد ونشأ بالإسكندرية.. وأقام زمنًا بدمياط، حيث كان والده وكيلًا لمحافظتها ـ مدير مديريتها ـ وانتقل مع أبيه إلى مدينة السويس.. ولما سكن القاهرة عمل موظفًا فى وظيفة صغيرة بديوان نظارة الأوقاف.

* أتقن اللغة الفرنسية مع إتقانه اللغة العربية.. وتبحر فى الثقافة الغربية ـ مع تبحره وإحاطته بالثقافة العربية والإسلامية ـ وكان عصاميًّا فى تكوينه الثقافى والفكرى، إذ انصرف عن التعليم النظامى وهو فى المرحلة الثانوية.

* وكانت قضيته الأولى طوال حياته الدفاع عن الإسلام، بالعلم والمنطق العقلى، ردًّا على الفلسفة المادية والوضعية التى غزت العالم الإسلامى فى ركاب الاستعمار.. ولقد وهب حياته خالصة للرباط على ثغور الفكر، مترفعًا عن غشيان المجالس العامة، وقل أن يزور أحدًا أو يجيب دعوة أحد.. وكان يأنس بزواره فى بيته.

* ولقد توجه بفكره إلى علماء الغرب، فألف بلغتهم، وإلى قراء العربية ليحصن عقولهم ضد الفكر المادى ونزعات الزندقة والإلحاد، وضد خداع المنصرين.. كما توجه بفكره هذا إلى علماء الإسلام ليساعدهم على التجديد ومغادرة حياة الجمود والتقليد.

* أصدر عددًا من المجلات.. منها مجلة «الحياة» إبان إقامته بدمياط.. وفى القاهرة أنشأ مطبعة أصدر بواسطتها جريدة «الدستور» ـ يومية، مناوئة للاستعمار الإنجليزى.. ثم مجلة «الوجدانيات» ـ شبه أسبوعية.

* وكانت باكورة تأليفه ١٣١٣هـ ١٨٩٥م ـ وهو فى الثامنة عشرة من عمره ـ رسالة:

* «الفلسفة الحقة فى بدائع الأكوان».. ثم توالت مؤلفاته.. ومنها:

* «تطبيق الديانة الإسلامية على النواميس المدنية» ١٣١٦هـ ١٨٩٨م ـ كتبه أولًا بالفرنسية.. ثم ترجمه إلى العربية.. ولقد سماه ـ فى الطبعة الأولى ـ «المدنية والإسلام».

* «الحديقة الفكرية فى إثبات وجود الله بالبراهين الطبيعية» ١٣١٨هـ ١٩٠٠م.

* «على أطلال المذهب المادى» ـ فى أربعة أجزاء ـ ١٣٣٩هـ ١٩٢١م.

* «صفوة العرفان» ـ وهو تفسير موجز للقرآن الكريم.

* «كنز العلوم واللغة» ١٣٣٣هـ ١٩١٥م ـ وهو دائرة معارف لفصيح اللغة العربية، وخلاصات العلوم النقلية والعقلية والطبيعية، ومختصر لتراجم المشاهير.. ولقد رتب مواده ترتيب القاموس.. ثم توسع فيه فتحول إلى «دائرة معارف القرن العشرين».

* «مجموعة الرسائل الفلسفية» ١٣٣٣هـ ١٩١٥م.

* «المرأة المسلمة» ـ رد به على كتاب «المرأة الجديدة» لقاسم أمين ـ ١٣١٩هـ ١٩٠١م ـ ولقد تُرجم إلى التركية والفارسية والأردية.

* «الوجديات» ١٣٢٨هـ ١٩١٠م ـ وهو مقالات فى الدين واللغة والوطن.

* «الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة الأجنبية».

* «دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى العشرين الميلادى» ـ فى عشرة مجلدات ـ صدرت طبعتها الأولى ما بين ١٣٢٨هـ و١٣٣٦هـ، ١٩١٠م ـ ١٩١٨م ـ ولقد أراد أن تكون ـ فى العربية ـ كقاموس «لاروس» فى الفرنسية ـ فكانت أشهر أعماله الفكرية.. ولقد قررتها نظارة المعارف فى مكتبات المدارس.

* ما وراء المادة» ـ فى جزءين.

* «الإسلام فى عصر العلم» فى مجلدين.

* «الإسلام دين عام خالد».

* «معالم الإسلام».

* «كتاب المعلمين» ١٣٣٦هـ ١٩١٨م.

* «مهمة الإسلام فى العالم».

* «نقد كتاب الشعر الجاهلى لطه حسين «١٣٤٤هـ ١٩٢٦م» وهو الذى قرظه زعيم الأمة سعد زغلول باشا «١٢٧٣ ـ ١٣٤٦هـ، ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧م» فى رسالة بليغة إلى فريد وجدى قال فيها:

«حضرة الأستاذ الفاضل محمد فريد وجدى وصلنى كتابك الذى وضعته فى نقد كتاب «فى الشعر الجاهلى»، وتفضلت بإرساله إليّ، وقرأته فى عزلة تجمع الفكر، وسكون يحرك الذكر، فراقنى منه قول شارح للحق، ومنطق يقارع بالحجة فى أدب رائع، وتحقيق دقيق فى أسلوب شائق، وإخلاص كامل للدين فى علم واسع، وانتصاف للحقيقة فى احترام فائق، ومجموع من هذه الخصال استمليت منه قلبًا فياضًا بالإيمان وعقلًا مثقفًا بالعرفان، ونفسًا محلاة بالأدب، فقررت عينًا بوجود مثلك بيننا، ورجوت الله أن يكثر من أمثالك فينا، وأن يجازيك على ما تصنعون بتوفيق الباحثين والمتناظرين لاحتذاء مثالكم فى دقة البحث، وأدب المناظرة، وإنكار الذات، والانتصار للحق، وبتوفيق الناس لاستماع أقوالكم واتباع أحسنها والسلام على المهتدين».

سعد زغلول[1]

[١٦ أكتوبر ١٩٢٦م]

* «ليس من هنا نبدأ» ـ وهو رد على كتاب الأستاذ خالد محمد خالد [١٣٣٩ ـ ١٤١٦هـ، الموافق ١٩٢٠ ـ ١٩٩٦م] «من هنا نبدأ».

* كما أصدر فريد وجدى مجلة لمباحث الحياة الروحية والتنويم المغناطيسى، جعل أبحاثها حجة علمية على المنكرين لعالم الغيب من الماديين.. وكان يحسن الاستفادة من الاكتشافات العلمية الأوروبية الحديثة فيوظفها فى نصرة التفسير الإيمانى للظواهر العلمية.

* كما كتب فصولًا فى السيرة المحمدية ـ جمعها المرحوم الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى [١٣٤٢ ـ ١٤٣٢هـ، ١٩٢٣ ـ ٢٠١١م] وأصدرها فى كتاب.

(١) محمد إبراهيم الجزيرى «سعد زغلول ذكريات تاريخية» ص ٣٧ طبعة كتاب اليوم القاهرة.

* ولقد تولى فريد وجدى رئاسة تحرير مجلة «الأزهر» ثمانية عشر عامًا، فارتفع مستواها وخصها بنفائس أفكاره ثم اعتزل رئاسة تحريرها ـ مخلدًا إلى الراحة ـ قبل وفاته بنحو عامين.

* وغير المجلات التى أصدرها، والتى رأس تحريرها، أسهم بالمقالات والدراسات فى «المؤيد» و«الأهرام» و«الرسالة» و«الهلال» و«المعرفة» و«المقتطف» و«الحديث» ـ وغيرها من المجلات الفكرية المتخصصة.

* وعندما انتقل إلى رحاب ربه نعاه العلماء والكبراء والزعماء.. ووصفه الأستاذ عباد محمود العقاد [١٣٠٦ ـ ١٣٨٣هـ، ١٨٨٩ ـ ١٩٦٤م] بأنه «فريد عصره، وما وجد اسم فى هذا العصر يوافق صفته إلا اسم «فريد».. وكان البعض يقرنه بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.. رحمهم الله جميعًا..

* ولقد شارك العلامة فريد وجدى فى هذا الحوار ـ بين الإيمان والإلحاد ـ بدراسة فلسفية متألقة، نشرها بمجلة «الأزهر» ـ المجلد الثامن ـ عدد رجب ١٣٥٦هـ سبتمبر ١٩٣٧م. ص ٤٥٧ ـ ٤٧٥ ـ أى فى الشهر التالى لظهور مقال الدكتور إسماعيل أدهم «لماذا أنا ملحد؟».. وذلك تحت عنوان: «لماذا هو ملحد؟». فجاءت بيانًا شافيًّا فى فلسفة الإيمان، وتفنيد «حجج» الماديين والملحدين.. كما تحلت بروح الاستنارة فى الحوار مع «الآخر».. التى هى قسمة أصيلة من قسمات الإسلام وتراث المسلمين.

«فنحن لا نضيق ذرعًا بما تواضعت عليه الأمم المتمدنة من إطلاق حرية الكتابة والخطابة للمفكرين فى كل مجال من مجالات النشاط العقلى.. بل إن هذا التسامح الذى يدعى أنه من ثمرات العصر الحاضر، هو فى الحقيقة من نفحات الإسلام نفسه، ظهر به آباؤنا الأولون أيام كان لهم السلطان على العالم كله. فقد كان يجتمع المتباحثون فى مجلس واحد بين سنى ومعتزلى ومشبه ودهرى إلخ.. فيتجاذبون أطراف المسائل المعضلة، فلم يزدد الدين حيال هذه الحرية العقلية إلا هيبة فى النفوس، وعظمة فى القلوب، وكرامة فى التاريخ..».

* «ولقد اعترف العلماء أن العلم يعجز عن إقامة دليل على نفى الصانع.. وليس من وظيفة العلم البحث فيما وراء المحسوسات، والحكم بوجود شىء أو نفيه مما وراءها إلا إذا كان له فى تلك المحسوسات أثر يستهدى به».

* إن القول بأن سبب الكون يتضمنه الكون ذاته، لا يمكن أن يعدو كونه رأيًا.. والرأى فى عرف العلم ـ لا يولد إيمانًا راسخًا لا يقبل المناقشة.

إن العلل الجزئية لا يتأتى أن تكون معلولاتها منتظمة إلا إذا كانت كلها متنزلة من علة رئيسية، تصدر عن تدبير سابق للحوادث».

* ولقد نقل الدكتور ـ صاحب رسالة: «لماذا أنا ملحد؟» ـ عن الفيلسوف الألمانى «كانت» [١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م] قوله: «إنه لا دليل عقلى أو علمى على وجود الله، وإنه ليس هناك من دليل عقلى أو علمى على عدم وجود الله».

ثم قال الدكتور عقب ذلك: «وهذا القول الصادر من أعظم فلاسفة العصور الحديثة وواضع الفلسفة الانتقادية يتابعه فيه جمهرة الفلاسفة. وقول «عمانويل كانت» لا يخرج عن نفس ما قاله لوقريتوس الشاعر اللاتينى [٩٩ـ ٥٥ق.م] منذ ألفى سنة».

وأنا أقول: لا أظن أن الدكتور صاحب الرسالة يجهل تاريخ الفيلسوف الذى يصفه بأنه أعظم فلاسفة العصور الحديثة، إن هذا الفيلسوف كان من أكبر المؤمنين بالله وبالروح وخلودها من طريق التحليل العلمى والفلسفى. لقد جاء عنه فى قاموس «لاروس» ما يأتى:

«شرع الفليسوف كانت فى إصلاح مجموع المعارف الإنسانية، فبدأ عمله على أسلوب التشكك، وبنى عليه الوصول إلى الحق اليقين بواسطة العقل العملى، والناموس الأدبى، واستنتج من ذلك وجود الخالق وخلود الروح».

* كذلك، ادعى الكاتب «أن العقيدة بالله لم تصبح من مستلزمات الجماعات إلا منذ ألفى سنة؟! مع أن الأحجار المنقوشة فى الهند والصين ومصر وغيرها تدل على أن تلك الأمم قبل ستة آلاف سنة كانت متدينة على أشد ما يمكن أن يكون،

وكان للدين السلطان المطلق عليها حتى كان الحكم فيها قبل نشوء الملكية للكهنة والرهابين.

إن العقيدة بالله تقوم على أقوى البداهات العقلية، وأعظمها سلطانًا على النفس البشرية، ويزيدها الشعور الوجدانى الذى لا سبيل إلى عدم الاعتداد به.. ذلك أن كل إنسان سأل نفسه بالفطرة: ماذا أنا، وأى شىء أوجدنى فى هذا العالم؟ وكل إنسان وجد الجواب العقلى والوجدانى عقب هذا السؤال كما يأتى: لا بد أن يكون قد أوجدنى موجد قادر، وهو نفسه الذى أوجد هذا العالم أيضًا..».

* «وما أورده الكاتب من أن الخبط ـ خبط الاحتمالات ـ هو العامل الرئيسى فى قيام العالم، يرد عليه أن جميع ملاحدة العالم قديمًا وحديثًا بنوا إلحادهم لا على أن العامل الرئيسى هو الخبط، لأنهم لم يروه، ولكن على أنه وليد نظام آلى محض لا يصد رعنه إلا ما هو آلى منتظم كل الانتظام..».

* «ثم، أليس انفراد الكاتب بهذا القول الذى أورده ـ وهو يعترف بذلك ـ يصح أن يكون من أقوى أسباب الارتياب فيه، بل والقذف به إلى عالم المهملات؟..

وهل تصح تسمية الخبط بالقانون؟! لقد غفل الكاتب عن أن فى قوله: «قوانين الاحتمال» تناقضًا لا يسيغه عقل عاقل فى الأرض، فإن افتراضه سيادة الخبط والاتفاق فى العالم تنفى وجود أى ضرب من ضروب القوانين فيه.. إذ كيف يعقل حدوث نواميس رياضية محكمة، لكون تولد من قوى مجردة من كل ناموس، ومن أى ضابط كان؟!

إن الذى حفز كاتب رسالة: «لماذا أنا ملحد؟» لأن يدفع بنفسه إلى هذا المهمة من الخيال المحض، هو أن يتفادى ما يلزم القائلين بوجود النواميس الأزلية المحكمة من إيرادات، فقد قيل لهم: إن ما تقررونه من وجود تلك النواميس الرياضية المحكمة ملازمة للهيولي[1] الأولية، هو مظهر الحكمة الإلهية، وإلا كيف يعقل وجود قوى منتظمة، تؤدى إلى كائنات غاية فى الإبداع، دون أن يكون وراءها عقل أوجدها؟!».

(١) الهيولى ـ Hyle ـ كلمة يونانية ترجع إلى أرسطو يراد بها المادة الأولى وهو كل ما يقبل الصورة.

* «أما المثل الذى ضربه الكاتب بوجوه زهر الطاولة، والذى يقرر فيه أن الدين لا بد من مجيئه مرة فى كل ستة وثلاثين مرة للزهر ففيه غفلة عن أن وجوه الزهر قائمة على شكل هندسى، وأعدادها معينة مكتوبة، فهى بجملتها موجودة فى عالم آلى يسوده النظام فى كل ذرة من ذراته، فلا بدع أن تسرى عليه قوانين الاحتمال. ولكن عالم الخبط الذى لا أثر للعدد فيه، ولا صورة متعينة لشىء من أشيائه، ولا وجود للقوانين فيه، كيف يطبق عليه عمل رياضى قائم على أصول مقررة فى عالم تسوده القوانين وتحفظه من أى نوع من أنواع الخبط؟!».

* «ثم، كيف يسوغ لباحث أن يشبه حالة القوى الوجودية العارية عن كل قانون، المجردة من كل ضابط ـ كما يفترضها الكاتب ـ بآلة ميكانيكية كالمطبعة، قائمة على أدق قوانين الميكانيكا والرياضة، ولها قطع منقوش على رءوسها حروف تتألف منها كلمات، وهى مفصلة تفصيلًا هندسيًّا، بحيث يقوم بعضها إلى جانب بعض فتؤلف منها صحف، وللمطبعة أسطوانات مكسوة بالغراء تستمد من محبرة بجوارها حبرًا تنقله إلى الحروف، بحركات مدبرة تدبيرًا محكمًا. وهذه المطبعة الميتة لا تغنى شيئًا إذا لم يكن لها عمال يحركونها، ويدبرون دوراتها، ويراقبون كل خلل يطرأ عليها أثناء العمل؟!

إن هذا التشبيه معيب للدرجة القصوى، بل هو غير جائز أصلًا، ومجيئه من باحث ينتمى للرياضيين يزيد فى غرابته، ويجعله أطروفة الأعاجيب فى عصر المباحث الدقيقة، والمقررات المحررة..

وإن اليوم الذى يقرأ فيه الرجل كتابًا فيتبادر إلى ذهنه أن يكون قد صدر عن غير عقل، ولكن بتأثير قانون الخبط الشامل تحت قيادة نواميس الاحتمال، وأن يكون قد خرج مرتبًا مجموعًا مصححًا من المطبعة ذات المليون حرف، إن ذلك اليوم يكون فيه التصور الإنسانى قد انحل انحلالًا لا يرجى فيه التئام، ووصل من عالم الخبط إلى مكان سحيق».

* «وأقسم، لولا أنى أنقل عبارات الكاتب ـ كاتب رسالة: «لماذا أنا ملحد؟» ـ لخشيت أن يظن ظان» أنى أتقول عليه.

فهل يحتاج مثل هذا الخبط إلى رد؟!

إننا كنا نستطيع أن لا نرد عليه بحرف، لأن رسالته تحمل فى ثناياها معاول هدمها، معاول لا يستطيع أبلغ قلم أن يأتى بأشد فعل منها، ولكنا خشينا أن يتوهم من لا علم له أن هذا الكلام فيه أثارة من علم».

* * *

هكذا تناول العلامة محمد فريد وجدى كشف عوار أول رسالة تدعو إلى الإلحاد فى بلادنا ـ فى العصر الحديث ـ فدفن دعاواها فى عالم المهملات.. قبل سنوات قليلة من انتحار كاتبها ـ يأسًا وقنوطًا ـ فى بحر الإسكندرية!

ولقد ضرب لنا العلامة ـ فريد وجدى فى هذا الرد المثل والنماذج فى الصبر على الحوار الموضوعى، حتى مع تهافت الدعاوى وتدنى الشبهات، وذلك انطلاقًا من المنهاج الإسلامى الذى لم يترك قرآنه الكريم شبهة من شبهات الدهريين والمشركين وأهل الكتاب إلا وتناولها بالرد والتفنيد.. والذى ضرب المثل الأعلى فى دعوة الآخرين إلى الحوار عندما قال لهم:

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

.. وعندما جعل الحكم فى الحوار إلى حقائق العلم وبراهين العقول:

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

إنها صفحة من صفحات الحوار ـ حوار الإيمان والإلحاد ـ عرفتها حياتنا الفكرية فى ثلاثينيات القرن العشرين ـ نعيد نشر وثائقها ـ محققة ـ ونقدم بين يديها، مسلطين الأضواء على أطرافها، وعلى قضاياها.. لمواجهة تسلل فتنة الإلحاد إلى بلادنا عبر

«الشبكة العنكبوتية» التى تستدرج شبابًا لم تقو مداركهم فى المنطق الإيمانى وفلسفة الإلهيات وفطرة الانتماء إلى خالق هذا الوجود[1].

إن الغرب، الذى تجرع كأس المادية والإلحاد والعلمانية، حتى صار فراغًا دينيًّا يتمدد فيه الإسلام، يسعى ـ فى خضم حربه على الإسلام ـ إلى أن نتجرع ذات الكأس المسموم الذى سبق وتجرعه.. ومن هنا تأتى أهمية إعادة نشر هذه الوثائق تحصينًا للعقل المؤمن، وإزالة لما يثار فى هذا الميدان من شبهات.

سائلين المولى ـ عز وجل ـ أن ينفع بهذا العمل، وأن يتقبله خالصًا لوجهه الكريم.. إنه ـ سبحانه ـ خير مسئول وأكرم مجيب.

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب ـ هدية مجلة [الأزهر] عدد جمادى الآخرة سنة ١٤٣٥هـ ـ إبريل سنة ٢٠١٤م. وطبعة دار الفكر العربى القاهرة.

الدكتور مصطفى محمود

بطاقة حياة ـ دكتور مصطفى محمود

[١٣٤٠ ـ ١٤٣٠هـ ـ ١٩٢١ ـ ٢٠٠٩م]

* هو مصطفى كمال محمود حسين.

* ولد بمحافظة المنوفية ـ بدلتا النيل ـ فى ٢٦ ربيع ثانى سنة ١٣٤٠هـ ـ ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٢١م..

* حصل على بكالوريوس الطب من كلية طب قصر العينى سنة ١٣٧١هـ سنة ١٩٥٢م.

* وعقب تخرجه عمل طبيبًا بوزارة الصحة من سنة ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م حتى سنة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م.. حيث استقال وتفرغ للكتابة الصحفية والفكرية والأدبية.

* عمل محررًا بمجلة «روز اليوسف» أكثر من عشرين عامًا ـ من سنة ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م حتى سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ عندما بلغ سن المعاش، فتفرغ للعمل الفكرى والأدبى.

* ولقد تميز فى حياته الفكرية ـ التى انعكست فى إبداعاته ـ بمجيئها ثمرة لتجربة ذاتية خصبة، وسياحة فكرية واسعة، فلقد ارتحل ـ فى الإيمان ـ من الشك إلى اليقين.. وكان لمعاشرته ومعايشته ـ فى الوسط الفكرى والثقافى والصحفى بالماركسيين والعلمانيين والليبراليين والوجوديين.. ولنظرته النقدية، وفطرته السوية، الأثر الكبير فى معاناته وفى تطوره الفكرى.

فلقد كان ـ كما يقول ـ: «إنسانًا عقلانيًّا ماديًّا بتأثير دراساته العلمية، لا يؤمن إلا بما يلمس ويرى ويسمع، ثم اكتشف أن العلم عاجز عن أن يجيب عن أسئلته، وأن

الإنسان ليس مجرد لحم وعضلات وأحشاء، ولا مجرد مركبات كيميائية من نحاس وحديد وكبريت، ولا مجرد باحث عن الطعام، ولا هو شهوة جنسية، ولا يمكن تفسيره بهذه المسائل، فالإنسان مثلًا يصيبه الجوع فيتغلب عليه بالصيام، ومعنى هذا أنه يتجاوز حاجاته المادية ومطالبه الجسدية، فهو الذى يتحكم فى جسمه، وليس جسمه الذى يتحكم فيه، وإذن فهو أسمى من كل حاجاته».

وهكذا رأى الإنسان ـ فى صورته الإسلامية ـ وعلى العكس من صورته فى المذاهب المادية والعدمية ـ رآه مجتمع الموجودات.. رآه الجرم الصغير الذى انطوى فيه العالم الأكبر.. رآه خليفة الله فى أرضه.. ورأى فى إبداعاته تجليات أسماء الله الحسنى فى الخليقة..

وكما أن هذا الإنسان هو صفوة الموجودات، فإن الأنبياء هم صفوة الإنسانية.. وصفوة هؤلاء الأنبياء هو خاتمهم: الإنسان الكامل، إمام أولى العزم من الرسل، صاحب الرسالة الجامعة والخاتمة والخالدة.. المراد من جنس الإنسان على الإطلاق ـ محمد بن عبد الله ﷺ...

* ولقد كانت حياة مصطفى محمود واجتهاداته وإبداعاته ـ منذ نضجه الفكرى تجسيدًا للوسطية الإسلامية الجامعة.. فلقد جمع بين قلب الصوفى وعقل الفيلسوف، وتجربة العالم، وعين الفنان، وأحاسيس العاشق لكل ما فى الوجود من جمال وجلال وكمال، كما تجلت وسطيته الإسلامية فى رفضه الفلسفة الغربية التى انشطرت ـ بالغلو ـ بين «المادية» و«المثالية».

وفيه تعانق الذكاء مع بداهة الفطرة، فقرأ بهما آيات الله فى الأنفس والآفاق.. وفقه بهما كتاب الله المنظور وكتابه المسطور.. فجاءت قراءاته عذبة رقراقة، خالية من جفاف الجدل العقيم.. جاءت صفحة مشرقة من صفحات العلم الممتع والدين المقنع.. حتى لكأنما قد تحقق فى نهجه هذا ما أراده إمام دار الهجرة مالك بن أنس [٩٣ ـ ١٧٩هـ ـ ٧١٢ ـ ٧٩٥م] ـ رضى الله عنه ـ عندما قال: «إن علمنا هذا دين، وإن ديننا هذا علم، فانظروا عمن تأخذون دينكم».

* كذلك جمع مصطفى محمود ـ بالوسطية الإسلامية الجامعة ـ بين الحياء الشديد والأدب الجم، وبين الفروسية الفكرية التى لا تخشى فى الحق لومة لائم عندما تكون المواجهة مع أعداء الله والأمة والإسلام... رأيته يصفح الصفح الجميل أمام استفزاز وسوء أدب غُلاة العلمانيين.. ويوجع ـ بحد الكلمة ـ أعداء الإسلام.

* وكما كان مصطفى محمود فارسًا فى مواجهة الشيوعية... والصهيونية... والمادية.. والزندقة.. والإلحاد.. والعنصرية الغربية... والعلمانية الدهرية.. كان فارسًا كذلك فى مواجهة الجمود والتقليد والتنطع فى ميدان الفكر الإسلامى... لذلك عاداه عبيد التغريب ـ الذين رأوه شاهدًا منهم وعليهم، كشف عوراتهم الفكرية.. وعبيد الجمود والتقليد من أهل التفسير الحرفى والأجوف للنص الدينى الإسلامى.. وكان ـ كذلك ـ فارسًا فى نقده للكهانة وولاية الفقيه الخمينية..

* كان مصطفى محمود صوفيًا فيلسوفًا... ومع ذلك، رأيناه ـ من موقع العرفان الصوفى وبالبرهان العقلى، يخوض معارك العصر، ويبدع فى علوم العصر، حتى لكأنه تلميذ نجيب فى مدرسة حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م]، الذى واجه، من موقع الفيلسوف الصوفى، تحديات عصره، وأصبح ظاهرة فكرية جسدت علوم العصر الذى عاش فيه.

ولقد كان الكتاب والسنة الإطار الحاكم والعاصم لتصوف مصطفى محمود من عرفانية الغنوصية الباطنية... فالتصوف عنده هو القرب من صفات الجلال والجمال والكمال، ومن سيرة الإنسان الكامل.. البشر الذى يوحى إليه... إنه التصوف الذى لا يفصل بين الحقيقة والشريعة... وإنما يجاهد لفقه حقيقة الشريعة وتجسيد شريعة الحقيقة.

ولقد حاكى مصطفى محمود، فى بعض إشراقاته الصوفية، النفرى محمد بن عبد الجبار [٣٥٤هـ ـ ٩٦٥م]، فكتب فى مخاطباته يقول:

«قالت لى نفسى:

نارك وجنتك بين جنبيك!.

نارك وجنتك فيما تختار، وما تعجل إليه من أقوال وأفعال، وما تبادر إليه من عمل، وما تمتد إليه يدك من حلال وحرام.

إن يدك هى التى تحفر بها قبرك، وتصنع بها مصيرك، ولسانك هو الذى يهوى بك إلى الهاوية أو يصعد بك إلى أعلى عليين.

أنت ما تقول وأنت ما تفعل.

وانظر ماذا تفعل تعلم مسكنك، وتشهد قيامتك قبل قيامك، وتعلم ساعتك قبل ساعتك..».

وبذلك امتاز هذا التصوف عن «رسوم الطرقية» أهل «الثريد والهُبر».. كما تميزت هذه الفلسفة عن جدل سكان الأبراج العاجية وجفاف مقولاتهم..

* وحتى ما أُخذ على بعض اجتهادات مصطفى محمود، فإن المنصفين لا ينفون عنه حسن النية وسلامة القصد.. وإسلامنا هو الذى يعلمنا أن الأعمال بالنيات.. وأن رب هذا الدين قد كتب أجرًا للذين يجتهدون فلا يحالفهم الصواب.. ولهذا كان مصطفى محمود رجلًا أوَّابًا عندما يكتشف ـ أو يكشف له أحد ـ جديدًا يصوب ما قدم من آراء.. ولقد كانت لى معه تجربة شاهدة على ذلك إبان المعركة الفكرية التى ثارت حول ما كتبه عن الشفاعة..

* كذلك كان مصطفى محمود عارفًا بأقدار الرجال ومعادن العلماء والدعاة.. ترى ذلك فى حبه لشيخنا محمد الغزالى [١٣٣٥ ـ ١٤١٦هـ ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م].. وفى وصفه للشيخ الشعراوى [١٣٢٩ ـ ١٤١٩هـ ١٩١١ ـ ١٩٩٨م] «بمولانا العبد الصالح».

* وإذا كان مصطفى محمود قد ترك آثارًا فكرية زاد عددها على الثمانين ـ وذلك غير المقالات الصحفية ـ فلقد قدم للمشاهدين رائعته: برنامج «العلم والإيمان»، الذى اجتذب جمهورًا واسعًا من المشاهدين على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام ومواطن المسلمين خارج ديار الإسلام.

كما كانت المؤسسة الإسلامية الكبرى التى أقامها وأشرف عليها فى قلب القاهرة ـ المسجد والمشفى وقاعة المحاضرات والمدارس وأبواب الإعانة والرعاية والإغاثة ـ منارة جسدت المنهج الإصلاحى الذى عاش له مصطفى محمود..

* لقد رحل مصطفى محمود عن الدنيا فى ١٢ ذى القعدة سنة ١٤٣٠هـ ـ ٣١ أكتوبر سنة ٢٠٠٩م ـ لكن مؤسسته الخيرية لا تزال مصدرًا للعطاء.. كما أن آثاره الفكرية التى يقبل عليها القراء ـ بينما كتب ناقديه قد دخلت معهم إلى القبور ـ تقول: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

لقد ترك مصطفى محمود لأمته زادًا فكريًّا تمثل فى هذه الكتب:

١ ـ إسرائيل البداية والنهاية.

٢ ـ الذين ضحكوا حتى البكاء.

٣ ـ الطريق إلى جهنم.

٤ ـ ألعاب السيرك السياسى.

٥ ـ الغد المشتعل.

٦ ـ الإسلام فى خندق.

٧ ـ الإسلام السياسى.

٨ ـ عالم الأسرار.

٩ ـ عظماء الدنيا وعظماء الآخرة.

١٠ ـ على حافة الانتحار.

١١ ـ قراءة المستقبل.

١٢ ـ كلمة السر.

١٣ ـ زيارة للجنة والنار.

١٤ ـ المؤامرة الكبرى.

١٥ ـ علم نفس قرآنى جديد.

١٦ ـ ماذا وراء بوابة الموت.

١٧ ـ الشفاعة.

١٨ ـ سواح فى دنيا الله.

١٩ ـ على خط النار.

٢٠ ـ حوار مع صديقى الملحد.

٢١ ـ الله.

٢٢ ـ إسرائيل النازية ولغة المحرقة.

٢٣ ـ رحلتى من الشك إلى الإيمان.

٢٤ ـ على حافة الزلزال.

٢٥ ـ القرآن: محاولة لفهم عصرى.

٢٦ ـ رأيت الله.

٢٧ ـ تأملات فى دنيا الله

٢٨ ـ السر الأعظم.

٢٩ ـ عصر القرود.

٣٠ ـ فى الحب والحياة

٣١ ـ الأحلام

٣٢ ـ الشيطان يحكم.

٣٣ ـ محمد ﷺ.

٣٤ ـ لغز الحياة.

٣٥ ـ لغز الموت.

٣٦ ـ العنكبوت

٣٧ ـ الوجود والعدم

٣٨ ـ الروح والجسد

٣٩ ـ الشيطان يسكن فى بيتنا.

٤٠ ـ شلة الأنس.

٤١ ـ حكايات مسافر.

٤٢ ـ المسيخ الدجال.

٤٣ ـ جهنم الصغرى.

٤٤ ـ نقطة غليان.

٤٥ ـ اعترافات عاشق.

٤٦ ـ أكل عيش.

٤٧ ـ عنبر ٧.

٤٨ ـ رائحة الدم.

٤٩ ـ الزلزال.

٥٠ ـ إبليس.

٥١ ـ أينشتين والنسبية.

٥٢ ـ يوميات نصف الليل.

٥٣ ـ المستحيل.

٥٤ ـ الأفيون.

٥٥ ـ الخروج من التابوت.

٥٦ ـ رجل تحت الصفر.

٥٧ ـ الإسكندر الأكبر.

٥٨ ـ الإنسان والظل.

٥٩ ـ غوما.

٦٠ ـ الغابة.

٦١ ـ مغامرات فى الصحراء.

٦٢ ـ اعترفولى.

٦٣ ـ ٥٥ مشكلة حب.

٦٤ ـ الطريق إلى الكعبة.

٦٥ ـ التوراة.

٦٦ ـ الماركسية والإسلام.

٦٧ ـ الطوفان.

٦٨ ـ من أسرار القرآن.

٦٩ ـ لماذا رفضت الماركسية.

٧٠ ـ القرآن كائن حى.

٧١ ـ أكذوبة اليسار الإسلامى.

٧٢ ـ نار تحت الرماد.

٧٣ ـ أناشيد الإثم والبراءة.

٧٤ ـ من أمريكا إلى الشاطئ الآخر.

٧٥ ـ أيها السادة اخلعوا الأقنعة.

٧٦ ـ الإسلام ما هو.

٧٧ ـ وبدأ العد التنازلى.

٧٨ ـ حقيقة البهائية.

٧٩ ـ السؤال الحائر.

٨٠ ـ سقوط اليسار.

٨١ ـ هل هو عصر الجنون.

٨٢ ـ الله والإنسان.

رحم الله الدكتور مصطفى محمود.. وضاعف له الحسنات لقاء حسن نواياه.. وما أبدع عقله من اجتهادات.. وما قدمت يداه من خير لأمة الإسلام[١].

(١) انظر فى سيرة الدكتور مصطفى محمود:

(أ) [الموسوعة القومية للشخصيات البارزة] هيئة الاستعلامات المصرية جـ٢ ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٩٢م.

(ب) [موسوعة الفلسفة والفلاسفة] للدكتور عبد المنعم الحفنى جـ٢ ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة مدبولى القاهرة سنة ١٩٩٩م.

(جـ) [الموسوعة الصوفية] للدكتور عبد المنعم الحفنى الطبعة الخامسة ـمكتبة مدبولى القاهرة ٢٠٠٦م.

حوار مع صديقى الملحد

للدكتور مصطفى محمود

[١٣٤٠ ـ ١٤٣٠هـ ـ ١٩٢١ ـ ٢٠٠٩م]

لا نبالغ إذا قلنا إن هذا الكتاب هو من أمتع وأجمل وأدق ما كتب فى موضوعه، وإن قارئه عندما يقترب من ختامه يتمنى أن لا يحدث هذا الختام!

لذلك، كان اختيار إشارات من هذا الكتاب للتقديم بها بين يديه أمرًا بالغ الصعوبة، إذ إن معظم ما فيه يغرى بأن يكون ضمن هذه الإشارات!

وإذا كان لا بد من الاختيار، فإن فى هذا الكتاب:

ـ حديث عن الدين يقول: «إن الدين ليس له إلَّا معنى واحد هو معرفة الإله. أن تعرف إلهك حق المعرفة، ويكون بينك وبين هذا الإله سلوك ومعاملة، أن تعرف إلهك عظيمًا جليلًا قريبًا مجيبًا يسمع ويرى فتدعوه راكعًا ساجدًا خاشعًا خشوع العبد للرب».

وإن شهادة لا إله إلا الله هى لمن يعمل بها، وليست لمن يشقشق بها لسانه. لا إله إلا الله منهج عمل وخطة حياة وليست مجرد حروف، إننا حينما نقول لا إله إلا الله نعنى أنه لا معبود إلا الله، وبين (لا) و(إلا) بين النفى والإثبات فى العبارة، بين هاتين الدفتين تقع العقيدة كلها «لا» النافية تنفى الألوهية عن كل شىء، ومعنى كلمة «إله» أى «فاعل» كل شىء، ومعنى كلمة «إله» أى «فاعل»، والفاعل بحق عندنا هو الله، أما كل هذه الأشياء فوسائط وأسباب، «إلا» واحد نستثنيه ونثبت له تلك الفاعلية والقدرة هو الله، ومعنى «لا إله إلا الله» أنه لا حسيب ولا رقيب إلا الله، ومعنى ذلك أن «لا إله إلا الله» عهد ودستور ومنهج حياة، والمقصود بها العمل بها، فمن عمل بها

كانت له طلسمًا بالفعل يفتح له كل الأبواب العصية، وكانت نجاة فى الدنيا والآخرة، ومدخلًا إلى الجنة.

ـ ووجود الله ليس فى حاجة إلى برهان «فالله هو الذى يبرهن على الوجود، ولا يصح أن نتخذ من الوجود برهانًا على الله، تمامًا كما نقول إن النور يبرهن على النهار، ونعكس الآية لو قلنا إن النهار يبرهن على النور، فالله هو الدليل الذى لا يحتاج إلى دليل».

ـ «والخالق واحد، لأن الكون كله مبنى من خامة واحدة، وبخطة واحدة».

ـ والعبودية لله هى قمة التحرر والحرية «فنحن لا نعبد الله بأمر تكليف، ولكننا نعبده لأننا عرفنا جماله وجلاله، ونحن لا نجد فى عبادته ذلًا بل تحررًا وكرامة، تحررًا من كل عبوديات الدنيا، تحررًا من الشهوات والغرائز والأطماع والمال. ونحن نخاف الله فلا نعود نخاف أحدًا بعده، ولا نعود نعبأ بأحد، خوف الله شجاعة، وعبادته حرية، والذل له كرامة، ومعرفته يقين، وتلك هى العبادة.

نحن الذين نجنى أرباحها ومسراتها، أما الله فهو الغنى عن كل شىء، إنما خلقنا الله ليعطينا لا ليأخذ منا، خلقنا ليخلع علينا من كمالاته، فهو السميع البصير، وقد أعطانا سمعًا وبصرًا، وهو العليم الخبير، وقد أعطانا العقل لنتزود من علمه، والحواس لنتزود من خبرتها، وهو يقول لعبده فى الحديث القدسى: «عبدى، أطعنى أجعلك عبدًا ربانيًّا تقول للشيء كن فيكون».

العبودية لله إذن هى عكس العبودية فى مفهومنا، فالعبودية فى مفهومنا أن يأخذ السيد خير العبد، أما العبودية لله فهى على العكس، أن يعطى السيد عبده ما لا حدود له من النعم، ويخلع عليه ما لا نهاية له من الكمالات، فحينما يقول الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فمعناها الباطن: ما خلقت الجن والإنس إلا لأعطيهم وأمنحهم حبًّا وخيرًا، وكرامة وعزة، وأخلع عليهم ثوب التشريف والخلافة».

ـ وليس فى موقف الإسلام من الرق ما ينقض هذا التحرير الإسلامى للإنسان، فلقد جاء الإسلام «والاسترقاق حقيقة ثابتة، وكانت الأديان السابقة توصى بولاء

العبد لسيده، فنزل القرآن ليكون أول كتاب سماوى يتكلم عن فك الرقاب وعتق الرقاب، وكان الحل القرآنى هو قفل باب الرق ثم تصفية الموجود منه».

ـ ويتحدث الدكتور مصطفى محمود عن تجربته مع القرآن الكريم، ومع سيرة رسول الله ﷺ فيقول: «لقد قرأت القرآن فكان له فى سمعى رنين وإيقاع ليس فى مألوف اللغة، وكان له فى عقلى انبهار، فهو يأتى بالكلمة الأخيرة فى كل ما يتعرض له من أمور السياسة والأخلاق والتشريع والكون والحياة والنفس والمجتمع برغم تقادم العهد على نزوله أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وهو يوافق كل ما يستجد من علوم برغم أنه أتى على يد رجل بدوى أمى لا يقرأ ولا يكتب، وفى أزمنة متخلفة بعيدة عن نور الحضارات.

وقرأت سيرة هذا الرجل وما صنع، فقلت: بل هو نبى، ولا يمكن إلا أن يكون نبيًّا..

ولا يمكن لهذا الكون البديع إلا أن يكون صنع الله القدير الذى وصفه القرآن، ووصف أفعاله».

وعن الإشارات القرآنية الشاهدة على إعجازه العلمى يقول مصطفى محمود: «ما كان الفلك الحديث، ولا علوم الذرة ولا علوم البيولوجيا والتشريح معروفة حينما نزلت الآيات الكونية فى القرآن منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة لتتكلم عن السماوات والأرض والنجوم والكواكب، وخلق الجنين وتكوين الإنسان بما يتفق مع أحدث العلوم التى جاء بها عصرنا.

ولم يتعرض القرآن لهذه الموضوعات بتفصيل الكتاب العلمى المتخصص، لأنه جاء فى المقام الأول كتاب عقيدة ومنهج تشريع، ولو أنه تعرض لتلك الموضوعات بتفصيل ووضوح لصدم العرب بما لا يفهمونه، ولهذا لجأ إلى أسلوب الإشارة واللمحة والومضة لتفسرها علوم المستقبل وكشوفه بعد ذلك بمئات السنين، وتظهر للناس ـ جيلًا بعد جيل كآيات ومعجزات على صدق نزول القرآن من الله الحق ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

لأنهم لم يكتفوا بشهادة الله على كتابه، فأصبح من الضرورى أن نريهم ذلك بالآيات الكاشفة».

ـ ولقد تميز الإنسان بالضمير الذى «هو نور وضعه الله فى الفطرة، ومؤشر ودليل وبوصلة نولد بها، تهدينا إلى الحقائق، وكل دور الاكتساب الاجتماعى أنه يجلو مرآة هذه البوصلة ويصقل زجاجها.

«استفت قلبك وإن أفتاك الناس».

لسنا فى حاجة إلى كلية شريعة لنعرف الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، والحرام من الحلال، فقد وضع الله فى قلب كل منا كلية شريعة، وميزانًا لا يخطئ، وكل ما نحن مطالبون به أن نجلو نفوسنا من غواشى المادة ومن كثافة الشهوات، فنبصر ونرى ونعرف ونميز بدون عكاز «الخبرة الاجتماعية»، وذلك بنور الله الذى اسمه الضمير.

ـ وفى معنى القضاء والقدر والجبر والاختيار والتسيير والتخيير «فإن أفعال الإنسان معلومة عند الله فى كتابه، ولكنها ليست مقدرة على الإنسان بالإكراه.

ومجال المساءلة هو مجال التكليف، وأنت فى هذا المجال حر، والحرية الإنسانية لا تعلو على المشيئة الإلهية. إن الإنسان قد يفعل بحريته ما ينافى الرضا الإلهى، ولكنه لا يستطيع أن يفعل ما ينافى المشيئة، وهنا وجه آخر من وجوه نسبية الحرية الإنسانية، إن حرياتنا كانت عين أمره ومشيئته وحكمه.

والقضاء والقدر لا يصح أن يفهم على أنه إكراه للناس على غير طبائعهم، وإنما على العكس، الله يقضى على كل إنسان من جنس نيته، ويشاء له من جنس مشيئته، ويريد له من جنس إرادته، فتسيير الله هو عين تخيير العبد، لأن الله يسير كل امرئ على هوى قلبه وعلى مقتضى نياته، الله يسيرنا إلى ما اخترناه بقلوبنا ونياتنا، فلا ظلم ولا إكراه ولا جبر، ولا قهر لنا على غير طبائعنا ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

لقد أرادنا الله أحرارًا، والحرية اقتضت الخطأ، ولا معنى للحرية دون أن يكون لنا حق التجربة والخطأ والصواب، والاختيار بين المعصية والطاعة.

إن التسيير الإلهى هو عين التخيير، لأن الله يختار للعبد من جنس نيته وقلبه، ومعنى ذلك أنه يريد للعبد نفس ما أراد العبد لنفسه بنية واختيار قلبه، أى أن العبد يسير إلى ما اختار، ومعنى ذلك أنه لا إكراه، وأنه لا ثنائية ولا تناقض، وأن التسيير هو عين التخيير».

ـ والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد سمح بوجود الشر ـ لحكمة ـ لكنه لم يأمر به، فالله كله رحمة وكله خير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٢٨ ـ ٢٩].

والشر فى الكون كالظل فى الصورة، إذا اقتربت منه خيل إليك أنه عيب ونقص فى الصورة، ولكن إذا ابتعدت ونظرت إلى الصورة ككل نظرة شاملة، اكتشفت أنه ضرورى لا غنى عنه، وأنه يؤدى وظيفة جمالية فى البناء العام للصورة.

وهل كان يمكن أن نعرف الصحة لولا المرض، إن الصحة تظل تاجًا على رؤوسنا لا نراه ولا نعرفه إلا حينما نمرض، وبالمثل ما كان ممكنًا أن نعرف الجمال لولا القبح، ولا الوضع الطبيعى لولا الوضع الشاذ، ولهذا يقول الفيلسوف أبو حامد الغزالى: «إن نقص الكون هو عين كماله، مثل اعوجاج القوس هو عين صلاحيته، ولو أنه استقام لما رمى».

ـ والوسطية الإسلامية هى الوسطية الجامعية لعناصر الحق والعدل من الأقطاب المتقابلة «وبالمعنى العلمى كان الإسلام تركيبًا جدليًّا جامعًا بين مادية اليهودية والروحانية المسيحية، وبين العدل الصارم الجاف الذى يقول: السن بالسن والعين بالعين، وبين المحبة والتسامح المتطرف الذى يقول: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر.

وجاء القرآن وسطًا بين التوراة التى حرفت حتى أصبحت كتابًا ماديًّا ليس فيه حرف واحد عن الآخرة، وبين الإنجيل الذى مال إلى رهبانية تامة، فنادى القرآن بناموس الرحمة الجامع بين العدل والمحبة، فقال بشرعية الدفاع عن النفس، ولكنه فضل العفو والصفح والمغفرة ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وإذا كانت الرأسمالية أطلقت للفرد حرية الكسب إلى درجة استغلال الآخرين، وإذا كانت الشيوعية سحقت هذه الحرية تمامًا، فإن الإسلام قدم الحل الوسط ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ﴾ [النساء: ٣٢] ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فقد اختار الإسلام الوسط العدل فى كل شىء، وهو ليس الوسط الحسابى، وإنما الوسط الجدلى، أو هو التركيب الذى يجمع النقيضين (اليمين واليسار) ويتجاوزهما ويزيد عليهما، ولذلك ليس فى الإسلام يمين ويسار، وإنما فيه «صراط» الاعتدال الوسط الذى نسميه الصراط المستقيم، من خرج عنه باليمين أو اليسار فقد انحرف..».

«كذلك يرفض الإسلام الفلسفة المثالية كما يرفض الفلسفة المادية، ويختار موقفًا وسطًا يرفض المثالية الفلسفية؛ لأن الفلسفة المثالية لا تعترف بوجود الآخرين ولا بوجود العالم الموضوعى كحقيقة خارجية مستقلة عن الذات العارفة كما يرفض الإسلام أيضًا الفلسفة المادية، لأن الفلسفة المادية تعترف بالعالم الموضوعى ولكنها تنكر ما وراءه، تنكر الغيب والله.

والإسلام بهذا يقدم فلسفة واقعية وفكرًا واقعيًّا، فيعترف بالعالم الموضوعى ثم يضيف إلى هذا العالم كل الثراء الذى يتضمنه الوجود الإلهى الغيبى، ويقدم تركيبًا جدليًّا جامعًا بين فكر اليمين وفكر اليسار فى فلسفة جامعة ما زالت تتحدى كل اجتهادات المفكرين فتسبق ما سطروا من نظريات ظنية لا تقوم على يقين».

وليس صحيحًا ما يقال من أننا تخلفنا بالدين وتقدم الغرب بالإلحاد، والحق أننا تخلفنا حينما هجرنا أوامر ديننا وحينما كان المسلمون يأتمرون بهذه الآيات حقًّا كان هناك تقدم، وكانت هناك دولة من المحيط إلى المحيط وعلماء مثل ابن سينا فى الطب، وابن رشد فى الفلسفة، وابن الهيثم فى الرياضيات، وابن النفيس فى التشريح، وجابر بن حيان فى الكيمياء..

وكانت الدنيا تأخذ عنا علومنا وما زالت مجمعات النجوم وأبراجها تحتفظ إلى الآن بأسمائها العربية فى المعاجم الأوروبية.

ولم يتقدم الغرب بالإلحاد، بل بالعلم وإنما وقع الخلط مما حدث فى العصور الوسطى من طغيان الكنيسة ومحاكم التفتيش وحجرها على العلم والعلماء وما حدث من سجن جاليليو وحرق جيوردانو برونو فحينما حكمت الكنيسة وانحرف بها البابوات عن أهدافها النبيلة كانت عنصر تأخر فتصور النقاد السطحيون أن هذا ينسحب أيضًا على الإسلام، وهو خطأ فالإسلام ليس فيه بابوات ولا كهنوت والله لم يقم بينه وبين المسلمين أوصياء ولا وسطاء».

والتجديد سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل وهو ضرورى فى المتغيرات لا فى ثوابت العقيدة وصلب الشريعة «ولذلك كان النظر فى الدين وتطوير فهمه مطلوبًا وتاريخ الإسلام كله حركات إحياء وتطوير والقرآن برىء من تهمة التحجير على الناس وكل شىء فى ديننا يقبل التطوير، ما عدا جوهر العقيدة وصلب الشريعة، لأن الله واحد ولن يتطور إلى اثنين أو ثلاثة، هذا أمر مطلق وكذلك الشر شر والخير خير لن يصبح القتل فضيلة ولا السرقة حسنة ولا الكذب حلية يتحلى بها الصالحون.

وجوهر الإسلام عقلانى منطقى يقبل الجدل والحوار ويحض على استخدام العقل والمنطق».

كذلك امتاز الإسلام وتميز فى نظم الحكم فلقد أتى بأكثر الشرائع تقدمية فى نظم الحكم وفى شريعته هذه إذا قتل الحاكم فردًا واحدًا ظلمًا، فإنه يكون كمن قتل الناس جميعًا فالفرد فى الإسلام له قيمة مطلقة فى حين أن قيمته نسبية فى كل المذاهب السياسية».

وبنظرة موضوعية، جمعت بين العلم والإيمان، تناول الدكتور مصطفى محمود نظرية داروين فى التطور والنشوء والارتقاء فميز بين ما لداروين وبين ما عليه، وقال: «لقد أصاب داروين وأبدع حينما تحدث عن التشابه التشريحى بين الحيوانات وأصاب حينما قال بالتطور...

ولكنه أخطأ حينما حاول أن يفسر عملية الارتقاء، وأخطأ حينما حاول أن يتصور مراحل هذا الارتقاء وتفاصيله، كان تفسير داروين لعملية الارتقاء أنه يتم بالعوامل

المادية التلقائية وحدها حيث تتقاتل الحيوانات بالناب والمخلب فى صراع الحياة الدموى الرهيب فيموت الضعيف ويكون البقاء دائمًا للأصلح، تلك الحرب الناشبة فى الطبيعة هى التى تفرز الصالح والقوى وتشجعه وتبقى على نسله وتفسح أمامه سبل الحياة.

وإذا كانت هذه النظرية تفسر لنا بقاء الأقوى، فإنها لا تفسر لنا بقاء الأجمل، وإذا دخل تفضيل الأجمل فى الحساب فإن النظرية المادية تنهار من أساسها وتبقى النظرية بعد ذلك عاجزة عن تفسير لماذا خرج من عائلة الحمار شىء كالحصان ولماذا خرج من عائلة الوعل شىء رقيق مرهف وجميل كالغزال مع أنه أقل قوة وأقل احتمالًا كيف نفسر جناح الهدهد وريشة الطاووس وموديلات الفراش بألوانها البديعة ونقوشها المذهلة نحن هنا أمام يد مصور فنان ماهر يتفنن ويبدع ولسنا أمام عملية غليظة كصراع البقاء وحرب المخلب والناب..

وخطأ هذه النظرية أنها أقامت التطور على أساس الطفرات والأخطاء العشوائية وأسقطت عملية التدبير والإبداع تمامًا.

ولا يمكن أن تصلح الطفرات العشوائية أساسًا لما نرى حولنا من دقة وإبداع وإحكام فى كل شىء ولا يمكن تصور حدوث الارتقاء بدون هذا العقل المبدع ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

والعقبة الثالثة أمام نظرية داروين هى ما اكتشفناه الآن باسم الخريطة الكروموسومية أو خريطة الجينات، ونحن نعلم الآن أن لكل نوع حيوانى خريطة كروموسومية خاصة به ويستحيل أن يخرج نوع من نوع بسبب اختلاف هذه الخريطة الكروموسومية...

وربما كان أفضل فهم لعملية التطور أنها كانت «تطويرًا بفعل فاعل وبذات مبدعة خلاقة ولم تكن تطورًا تلقائيًّا كما تصورها داروين وصحبه ولم تكن مراحل متروكة للصدفة وإنما كانت تخليقًا مرادًا ومخططًا لخالق حكيم وأنها هندسة وراثية لمهندس عظيم ليس كمثله شىء، وما جاء فى القرآن الكريم هو أصدق صورة لما حدث.

تلك إشارات ـ مجرد إشارات ـ إلى ما فى هذه الرائعة من روائع الدكتور مصطفى محمود (حوار مع صديقى الملحد) نقدم بها بين يدى هذه الطبعة سائلين المولى

جل وعلا أن يجعلها فى ميزان حسنات هذا الفارس من فرسان الكلمة الإسلامية وهذا العقل الذى فقه أصول الإسلام وفقه الواقع الإسلامى واستشرف المستقبل، إنه سبحانه وتعالى خير مسئول وأكرم مجيب[1].

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب ـ هدية مجلة [الأزهر] عدد جمادى الأولى سنة ١٤٣٦هـ مارس سنة ٢٠١٥م.

فى الرد على الماديين

للعلامة محمد فريد وجدى

[١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ ـ ١٨٧٨ ـ ١٩٥٤م]

* على امتداد التاريخ الإسلامى تبلور فى الفلسفة مذهبان وتياران:

* المذهب الإلهى، الذى يؤمن بقوة علوية فاعلة فى هذا الوجود.. ويستخدم العقل فى البرهنة على ما يريد..

* ومذهب مادى، حسى، لا يؤمن بما هو خارج عن المحسوس، ويحصر مصادر المعرفة الإنسانية فيما تدركه الحواس والمشاعر الخمسة.

ولقد عرفت الفلسفة اليونانية هذا المذهب الحسى منذ بواكيرها، عند الفيلسوف «ديمقريطس» [القرن الخامس ق.م].. وبعد مرحلة التدين الأوروبى بالمسيحية، عاد هذا المذهب الحسى المادى إلى السيادة والصدارة إبان النهضة الأوروبية الحديثة.. وقال به فلاسفة كثيرون، من أبرزهم «هوبز» [١٥٨٨ ـ ١٦٧٩م] و«كوندياك» [١٧١٤ ـ ١٧٨٠م] و«هيوم» [١٧١١ ـ ١٧٧٦م].. وذلك فضلًا عن فلاسفة المادية الجدلية والتاريخية، مثل «ماركس» [١٨١٨ ـ ١٨٨٣م] و«إنجلز» [١٨٢٠ ـ ١٨٩٥م] وغيرهم من الذين رأوا أن الحواس هى المصدر الوحيد لجميع المعارف الإنسانية، وهى وحدها التى تفصل فى قيمة هذه المعارف وأن المعقول مردود إلى المحسوس.. ولذلك أنكر أصحاب هذا المذهب الحسى المادى وجود مصادر للمعرفة خارج المحسوسات التى تدركها الحواس، إذ الطبيعة ـ برأيهم ـ مستكفية بنفسها ولا وجود لشيء خارج هذه الطبيعة، وأن الحياة الخلقية هى امتداد للحياة البيولوجية، وأن الإنسان حيوان طبيعى اجتماعى، فهوجزء من الطبيعة، وهى التى تزوده، وسعادته

دنيوية محضة، يجدها فى العاطفة والشهوة وحدهما.. ومن ثم، فلقد أنكروا معارف الوحى الإلهى والغيب والدين..

* ولقد عرفت الفلسفة الشرقية ـ هى الأخرى ـ هذا المذهب الحسى.. فقال به الدهريون ـ ومنهم مشركو العرب ـ الذين قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] ـ أى الزمان..

وفى المصادر الأولى التى أرخت للمذاهب والمقالات فى حضارتنا الإسلامية ـ ومنها كتاب [مقالات الإسلاميين] لأبى القاسم البلخى [٣١٩هـ/ ٩٣١م] ـ حديث عن سيادة هذا المذهب الحسى، الذى يقول أصحابه: «إنه لا طريق للعلم سوى الحس» ببلاد «السند» ـ فى شبه القارة الهندية ـ حيث سادت الديانات الوضعية، التى ينكر أهلها الوحى والغيب والنبوات والرسالات.

ولقد روى البلخى قصة المناظرة التى قامت بين بعض علماء «السُّمنية» من أصحاب هذا المذهب ـ ببلاد السند ـ وبين «الجهم بن صفوان» [١٢٨هـ/ ٧٤٥م] والتى سأل فيها علماء السُّمنية الجهم عن معبوده الذى يعبده، فقالوا له:

ـ «هل يخرج المعروف ـ [أى المعلوم] ـ عن المشاعر الخمسة ـ [أى الحواس الخمسة]؟.

ـ فقال الجهم: لا.

ـ فقالوا له: فحدثنا عن معبودك الذى تعبده، أشيء وجدته فى هذه المشاعر ـ [الحواس]؟.

ـ فقال الجهم: لا.

ـ فقالوا له: فإذا كان المعروف لا يخرج عن ذلك، وليس معبودك منها، فقد دخل فى المجهول.

فسكت الجهم»!!

لكن الجهم بن صفوان ـ وكان جبريًّا ـ بعد أن انهزم أمام علماء «السُّمنية» فى هذه المناظرة، كتب بخبرهاووقائعها إلى زعيم المعتزلة وفيلسوفها «واصل بن عطاء» [٨٠ ـ ١٣١هـ / ٦٩٩ ـ ٧٤٨م] ـ بالبصرة ـ الذى قيل إنه لم يبلغ الثلاثين من عمره حتى كان قد رد على جميع المخالفين للإسلام ولمذهب الإسلام فى المعرفة ـ الذى لا يقف بها عند الحواس ـ فقد ورد ضمن عناوين كتبه: [كتاب الألف مسألة]!.. فرد «واصل بن عطاء» على «الجهم بن صفوان» برسالة ذكر له فيها مذهب الإسلام فى المعرفة الذى لا ينكر الحواس كمصدر من مصادر المعرفة، لكنه لا يقتصر عليها وحدها، وإنما يضيف إليها «الدليل» الذى يثبت المعارف غير المحسوسة ـ ومنها لوازم المحسوسات ـ وطلب «واصل» من «الجهم» أن يعود إلى علماء «السُّمنية» طالبًا منهم إقامة المناظرة من جديد..

وفى رسالة «واصل» إلى «الجهم» قال له:

«إن المعروف لا يخرج عن المشاعر الخمسة ـ وعن الدليل.. فارجع إليهم الآن وقل لهم:

هل تفرقون بين الحى والميت؟ وبين العاقل والمجنون؟. فإنهم يعترفون بذلك، وإنه يُعرف بالدليل لا بغيره».

فالدليل: الذى يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، يدرك به الإسنان غير المحسوسات.. يدرك به لوازم المحسوسات.. والإدراك بالدليل ليس إدراكًا مباشرًا كحال الإدراك بالحواس.. ومن أمثلة الإدراك بالدليل:

إنه يلزم من العلم بالمصنوع البديع ـ وهو محسوس ـ العلم بوجود الصانع المبدع ـ وهو معلوم غير محسوس، لا يُردك بالحواس..

وبالدليل، الذى يدرك لازم المحسوس، يدرك الإنسان وجود «الحياة» فى الأحياء ـ وهى ليست مادة تدرك بالحواس..

ويدرك وجود «الموت» فيمن فارق الحياة ـ وهو الآخر ليس مادة تدرك بالحواس..

ويدرك وجود «العقل» عند العقلاء ـ وهو ليس مادة تدرك بالحواس..

ويدرك وجود «الجنون» فى المجانين ـ وهو ليس مادة تدرك بالحواس..

فمذهب الإسلام فى المعرفة لا يقف بمصادرها عند المحسوسات، ولا يقف بأدواتها عند الحواس.. كذلك فإن تعريف الإسلام «للعقل» لا يلحقه بالحواس، ولا بمادة الدماغ، وإنما يراه «لطيفة ربانية لها تعلق بالقلب الجسمانى.. ونور فى القلب، يعرف الحق والباطل.. فهو نور معنوى، يبصر به القلب ـ [أى النفس الإنسانية] ـ المطلوب، أى ما غاب عن الحواس بتأمله وتفكره بعد انتهاء درك الحواس، ولهذا قيل: بداية العقول نهاية المحسوسات.. فهو نور الغريزة، يزيد مع التجارب، ويقوى بالعلم والحلم»[1].

فلما عاد الجهم بن صفوان إلى علماء السُّمنية بمذهب الإسلام فى المعرفة ـ الذى علّمه إياه واصل بن عطاء ـ وأعاد معهم المناظرة من جديد.. وجدوا أنفسهم أمام منطق جديد، يقيم الدليل المنطقى على وجود مصادر للمعرفة تتجاوز المحسوسات، وعلى آليات لتحصيل المعرفة تتجاوز الحواس.. وعند ذلك، سأل علماء السُّمنية الجهم بن صفوان: ـ «ليس هذا من كلامك، فمن أين لك؟».

ـ فقال الجهم: «كتب به إليّ رجل من علماء البصرة، يقال له واصل». فخرجوا إليه ـ إلى واصل بن عطاء ـ وكلموه «فأجابوه إلى الإسلام»![2].

* هكذا عرفت الفلسفة الإنسانية ـ عبر تاريخها ـ الشرقى والغربى فى نظرية المعرفة ـ مصادرها وآليات تحصيلها ـ مذهبين:

١ ـ المذهب الحسى، الذى يقف بمصادر المعرفة ـ عند المحسوسات، وبآليات تحصيلها عند الحواس..

(١) الجرجانى: [التعريفات] طبعة القاهرة ١٩٣٨م. وأبو البقاء الكفوى [الكليات] تحقيق: عدنان درويش، محمد المصرى. طبعة دمشق ١٩٨١م. والحارث المحاسبى [العقل وفهم القرآن] ص ١٤٧. تحقيق: حسين القوتلى طبعة بيروت الثانية ـ ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(٢) أبوالقاسم البلخى، والقاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى، والحاكم الجشمى: [فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة] ص ٢٢٦ تحقيق: فؤاد سيد. طبعة تونس ١٩٧٢م.

٢ ـ والمذهب الإلهى، الذى لا يقف بمصادرها عند المحسوسات، والذى لا يختزل أدوات تحصيلها فى الحواس. وهو المذهب الذى أطلق عليه الإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] «الهدايات الأربع».. هداية العقل.. والنقل.. والتجربة.. والوجدان.. والذى يصحح العقل فيه أخطاء الحواس.. ويقدم فيه الوحى من نبأ الغيب ما لا تدرك كنهه وحقيقة جوهره العقول التى هى ككل ملكات الإنسان ـ نسبية الإدراك..

وبعبارة الإمام محمد عبده:

«.. فلقد منح الله الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته:

أولاها: هداية الوجدان الطبيعى والإلهام الفطرى، وتكون للأطفال منذ ولادتهم.

والثانية: هداية الحواس والمشاعر، وهى متممة للهداية الأولى فى الحياة الحيوانية ويشارك الإنسان فيهما الحيوان الأعجم، بل هو فيهما أكمل من الإنسان، فإن حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل، بخلاف الإنسان، فإن ذلك يكمل فيه بالتدريج فى زمن غير قصير.

والثالثة: هداية العقل. خُلق الإنسان ليعيش مجتمعًا، ولم يُعط من الإلهام والوجدان ما يكفى مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطى النحل والنمل. فحباه الله هداية هى أعلى من هداية الحس والإلهام، وهى العقل الذى يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعيد صغيرًا، ويرى العود المستقيم فى الماء معوجًا، والصفراوى ـ [المريض بالصفراء] ـ يذوق الحلو مرًا، والعقل هو الذى يحكم بفساد هذا الإدراك.

الرابعة: هداية الدين. يغلط العقل فى إدراكه كما تغلط الحواس، وقد يهمل الإنسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية، والنوعية، ويسلك بهذه الهدايات

مسالك الضلال، فيجعلها مُسخرة لشهواته ولذاته حتى تورده موارد الهلكة.. فاحتاج الناس إلى هداية ترشدهم فى ظلمات أهوائهم، إذا هى غلبت على عقولهم، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها، ويكفوا أيديهم عما وراءها..

ثم، إن مما أودع فى غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان، ينسب إليها كل ما لا يعرف له سبب، لأنها هى الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة. فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث إلى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة، الذى خلقه وسواه ووهبه هذه الهدايات وغيرها مما فيه سعادته فى تلك الحياة الثانية؟

كلا! إنه فى أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة ـ الدين ـ وقد منحه الله إياها[1] ذلك هو مذهب الإسلام فى المعرفة ـ مصادرها.. وآليات إدراكها..

* وكما سبقت إشارتنا، فإن المذهب الحسى الذى يقف بالمعرفة عند الحواس والمحسوسات والذى ينكر الوحى والنبوات والرسالات والمعجزات المفارقة للواقع المحسوس ـ قد عاد فساد فى النهضة الأوروبية الحديثة..، التى نظرت إلى حقبة النصرانية الأوروبية «كجملة معترضة» بين الحقبة اليونانية وبين هذه النهضة الحديثة..

* وعندما ذهب رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ/ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م] إلى باريس ١٢٤١هـ / ١٨٢٦م، وخبر واقع النموذج الحضارى الغربى، رأى الفلسفة الوضعية المادية التى تقف عند التجارب الحسية، والتى تستعين بالعقل المجرد عن الشرع، والتى وإن طورت علوم التمدن المدنى، وعمران الواقع المادى، إلا إنها أنكرت وتنكر الوحى والغيب والدين والنبوات والرسالات والمعجزات، بل وتفسر ظاهرة «الوحى» تفسيرًا «بيولوجيا» ماديًّا، فتراه لونًا من ألوان الخيالات الجنونية أوالهوس المرضى!!. فمدح الطهطاوى ما رآه فى باريس وأوروبا من تقدم فى علوم التمدن المدنى وعمران الواقع الاجتماعى.. وانتقد ورفض ما وجده من

(١) الإمام محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ٤ ص ٤٣ ـ ٤٦. دراسة وتحقيق. د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق. القاهرة ١٩٩٣م.

الفلسفة الوضعية الحسية، التى وصفها بأنها: «حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية.. إذ إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع».

وتحدث عما رآه هناك من تقدم علمى وتقنى ـ فى علوم التمدن المدنى ـ وما غرقوا فيه من ضلالات فلسفية، فقال:

أيوجد مثل باريس ديار شموس العلم فيها لا تغيب

وليل الكفر ليس له صباح أما هذا، وحقكم عجيب!

فهذه المدينة ـ باريس ـ كباقى مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية.

إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المحسّنة والمقبّحة بالعقل وحده، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون: «إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب» ولذلك، فهو لا يصدق بشيء مما فى كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية»[1].

ولقد تحدث الطهطاوى عن الأصول الإسلامية لعلوم التمدن المدنى، علوم عمران الواقع المادى التى أخذها الأوروبيون ـ إبان نهضتهم الحديثة ـ عن تراثنا الإسلامى، ثم طوروها وأضافوا إليها.. لقد أخذوا هذه العلوم الطبيعية ومناهج التجريب التى أبدعها المسلمون، لكنهم لم يأخذوا خصوصيات الإسلام فى الإيمان بالوحى والغيب والنبوات والرسالات، ومن ثم بنوا نهضتهم الحديثة على العلوم الطبيعية وتقنياتها ـ التى هى مشترك إنسانى عام بين كل الحضارات ـ وعلى الفلسفة الحسية الوضعية المادية ـ التى ورثوها عن قدماء اليونان.

* ولقد انعكست هذه الازدواجية ـ الإشادة بالجانب العلمى فى الحضارة الإسلامية.. مع الرفض للمعرفة الإيمانية فى هذه الحضارة ـ انعكست فى العديد

(١) الطهطاوى [الأعمال الكاملة] جـ٢ ص ١٥٩، ١٦٠، ٧٩، ٣٢، ٤٧٧، ٣٨٧. دراسة وتحقيق. د. محمد عمارة. طبعة بيروت ١٩٧٣م.

من الدراسات التى أبدعها فلاسفة ومفكرون أوروبيون كثيرون عن الحضارة الإسلامية، وإنجازاتها العبقرية، وتميزها عن غيرها من الحضارات.. فكانت إشادة هؤلاء الفلاسفة والمفكرين الأوروبيين بالتمدن المدنى الإسلامى، ورقى الشخصية الحضارية العربية.. مع رد كل ذلك إلى الأسباب المادية والوضعية، دون العامل الدينى بسبب إنكار هؤلاء الفلاسفة والمفكرين للنظرية الإيمانية فى المعرفة، وانحصار عقولهم فى الحواس والمحسوسات، كمصادر للمعرفة وآليات لتحصيلها.

* ومن بين هؤلاء الفلاسفة الأوروبيين عالم الاجتماع الفرنسى «جوستاف لوبون» [١٨٤١ ـ ١٩٣١م] الذى أنصف الحضارة العربية إنصافًا عظيمًا فى كتابه الفذ [حضارة العرب].. والذى أساء فيه ـ فى ذات الوقت ـ الحديث عن الجانب الدينى والغيبى.. جانب الوحى ـ لرسول الإسلام ـ ﷺ.. فانطلق فى وصف هذا العامل ـ الذى هو المؤسس الحقيقى للحضارة الإسلامية، والمميز الأول لها عن غيرها من الحضارات ـ انطلق جوستاف لوبون فى وصفه لهذا الجانب من فلسفته الحسية الوضعية المادية، معتبرًا ذلك الوحى «خيالات مرضية.. أو لونًا من الهوس» لازم كل الأنبياء والرسل على مر التاريخ!!

* وعندما ترجم الأستاذ عادل زعيتر [١٣١٤ ـ ١٣٧٦هـ/ ١٨٩٧ ـ ١٩٥٧م] هذا الكتاب إلى العربية ـ ونشره ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م. رحبت الحياة الفكرية العربية بما فيه من إنصاف كبير لما بناه العرب والمسلمون من حضارة عبقرية فريدة تعلمت منها أوروبا والدنيا كلها.. ورأوا فيما كتبه جوستاف لوبون شهادة أوروبية ضد الافتراءات الأوروبية الكثيرة التى كانت تنهال على الشرق العربى والإسلامى.. ومع هذا الترحيب والاحتفاء تم النقد والتفيذ لما فى كتاب جوستاف لوبون فى إساءة إلى الجانب المعجز والغيبى فى إنجاز النبوة بصدر الإسلام.

ولقد كانت مجلة [الأزهر] فى مقدمة المنابر الفكرية التى اتخذت هذا الموقف المتوازن من كتاب الدكتور جوستاف لوبون.. وذلك عندما رحبت بترجمة الكتاب ونشره، لما فيه من إيجابيات رجحت وترجح ما فيه من سيئات وخطايا وسلبيات..

فقدمت النقد الفلسفى والعلمى الموضوعى للفلسفة الحسية المادية الوضعية التى جعلت الدكتور جوستاف لوبون يقع فى هذه الخطيئة..

ولقد كانت الدراسة التى قدمها العلامة محمد فريد وجدى [١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ/ ١٨٧٨ ـ ١٩٥٤م] وكان يومئذ رئيسًا لتحرير مجلة [الأزهر] ـ عن كتاب [حضارة العرب] لجوستاف لوبون أو فى الدراسات التقويمية والنقدية التى نشرت عن هذا الكتاب، عندما صدرت ترجمته العربية فى طبعتها الأولى.. ولقد جاءت هذه الدراسة ضمن الفصول التى كتبها الأستاذ محمد فريد وجدى عن [السيرة المحمدية] ـ ونشرتها مجلة [الأزهر] بالمجلد السابع عشر ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

* ومع تكرار طبعات هذا الكتاب ـ فى سنة ٢٠٠٠م. وسنة ٢٠١٢م ـ تجددت المواقف النقدية لما جاء فيه من خطايا وسلبيات؛ ففى سنة ٢٠٠٠م، وبتكليف من مجمع البحوث الإسلامية، قدم كاتب هذه الدراسة تقريرًا عن هذا الكتاب نوقش فى اجتماع مجلس المجمع المنعقد بتاريخ ٧/ ١١/ ٢٠٠٠م.

ـ كما قدم الأستاذ الدكتور عبد الرحمن العدوى ـ عن ذات الكتاب ـ تقريرًا ثانيًا، نوقش فى جلسة مجلس المجمع بتاريخ ١١/ ٢/ ٢٠٠١م. ـ كما قام المرحوم الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى بكتابة تقرير لخص فيه دراسة العلامة محمد فريد وجدى، بتاريخ ٩/ ١/ ٢٠٠٢م. قدم هو الآخر، إلى مجلس المجمع..

* ومع صدور طبعة جديدة لهذا الكتاب ٢٠١٢م.. ومع تجدد الاعتراضات على ما جاء بالكتاب من سلبيات شابت ما جاء به من إيجابيات.. رأى مجمع البحوث الإسلامية إعادة طبع الدراسة النقدية التى سبق ونشرتها مجلة [الأزهر] ـ للعلامة محمد فريد وجدى كاملة ـ مرة أخرى.. وذلك تعبيرًا عن الموقف المتوازن من إيجابيات النظرات الغربية المنصفة لحضارتنا.. دون إغفال النقد والتفنيد لما فى هذه الدراسات الغربية من سلبيات[1]..

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب ـ دار المعارف. القاهرة.

فمع تصاعد ظاهرة الكراهية الغربية للإسلام، والنمو المخطط للتخويف من الإسلام، والتزييف لصورته.. تتزايد الحاجة إلى نشر الشهادات الغربية التى كتبها أعلام وعلماء غربيون فى إنصاف حضارة الإسلام، وذلك دون إغفال النقد العلمى والموضوعى لما فى هذه الشهادات من سلبيات..

والله من وراء القصد.. نسأله الهداية والتوفيق.. إنه خير مسئول وأكرم مجيب.

وهم الإلحاد

للدكتور عمرو شريف

الإلحاد: ظاهرة غربية، استقطبت قطاعًا من الفلاسفة والمفكرين الغربيين، وشرائح من الجماهير، منذ الجاهلية اليونانية وحتى العصر الذى نعيش فيه.. ويعود دارسو الفلسفة القديمة بظاهرة الإلحاد إلى الفيلسوف اليونانى (ديموقريطس الأبديرى) [حوالى ٤٦٠ ـ ٣٧٠ق.م] الذى أرجع تولد العوالم وموتها إلى الضرورة، دون أن يخلقها إله.. ولقد وصف (كارل ماركس) [١٨١٨ ـ ١٨٨٣م] ديموقريطس بأنه: (إنه ألمع دعاة المادية فى العالم القديم)[١].

وعبر تطور الحضارة الغربية أصبح الإلحاد مذهبًا فلسفيًّا، وبلغ ذروته فى الماركسية ـ بماديتها الجدلية والتاريخية التى هيمنت على أحزاب وحكومات ومجتمعات مثلت أكبر ظواهر الإلحاد فى التاريخ الإنسانى، حتى جاء سقوطها المدوى أوائل العقد الأخير من القرن العشرين.

ورغم سقوط الماركسية، فلقد ظلت ظاهرة الإلحاد ملحوظة، بل ومتزايدة فى المجتمعات الغربية، بسبب سيادة الفلسفة الوضعية المادية، وبسبب العلمانية التى نزعت القداسة عن المقدسات.. فالذين يؤمنون بوجود إله لهذا الكون ـ فى أوروبا ـ حتى وإن لم يعبدوه ـ لا تتجاوز نسبتهم ١٤٪ من الأوروبيين!.. وفى إنجلترا ـ حيث الملكة هى رئيسة الكنيسة ـ قفزت نسبة الملحدين المعلنين إلى ٢٥٪ من السكان! ـ بعد أن كانت ٨, ١٤٪ منذ سنوات[٢]!

(١) (الموسوعة الفلسفية) وضع لجنة من العلماء السوفيتيين بإشراف: م. روزنتال. و. ب. يودين، ترجمة سمير كرم، طبعة دار الطليعة، بيروت سنة ١٩٧٤م.

(٢) (الأهرام) عدد ٢٠/ ٥/ ٢٠١٣م.

وعلى العكس من ذلك لم يكن الإلحاد ظاهرة فى تاريخ الحضارة الإسلامية، بل لا نلمح له وجودًا حقيقيًّا.. قد نجد شخصيات قلقة إزاء الإيمان الدينى.. وأغلب هذا القلق إنما كان بمعايير المذاهب التى تقف عند ظواهر النصوص الدينية، والتى تنفر من التأويل.. أما إذا عرض هذا القلق على مذاهب التأويل التى اتسعت آفاقها فى الفلسفة الإسلامية، وعلى مذاهب الإسلاميين التى جعلت (الشك المنهجى) السبيل إلى اليقين فلن نجد لهذا القلق ولا لهذه الشكوك أثرًا يربط بينها وبين حقيقة الإلحاد، الذى لا يؤمن أصحابه إلا بالمادة مصدرًا للمعرفة، ولا يعتمدون سوى الحواس سبيلًا لتحصيل هذه المعرفة[1].

لقد كان العقل اليونانى عقلًا تأمليًّا نظريًّا، ونادرًا ما اعتمد التجربة لاختبار صدق الأقيسة والنظريات؛ لأن التجربة ـ عند اليونان ـ كانت محتقرة، باعتبارها عملًا يدويًّا لا يحترفه سوى العبيد!

وجاء العقل المسيحى الغربى عقلًا خرافيًّا، يحصر كل المعارف والعلوم فى اللاهوت، ويخاصم التجربة؛ لأن العالم ـ موضوع التجارب ـ دنس، إذ مملكة المسيح ليست فى هذا العالم الدنس، وإنما هى فى السماء!.. ولذلك أحالت الكنيسة كل العلماء الذين اشتغلوا بالتجارب فى هذا العالم إلى محاكم التفتيش[2]!

وعلى العكس من ذلك التاريخ الغربى، الذى ضيّق على العقل وعلى العلم، فوسع الأبواب التى تفضى إلى الزندقة والإلحاد كان تاريخ الإسلام وحضارته مع العقل والعقلانية والمعارف والعلوم والمنهج التجريبى والعلوم التجريبية.. لقد جاءت معجزة الإسلام عقلية، تستنفر العقل كى يتعقل ويتدبر ويتفكر ويتذكر.. بل لينظر ويشك كى يصل إلى اليقين.. على حين كانت معجزات النبوات السابقة مادية، تدهش العقل فتشله عن التفكير!

(١) د. محمد عمارة (قراءة النص الدينى بين التأويل الغربى والتأويل الإسلامى) طبعة دار السلام، القاهرة سنة ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

(٢) د. محمد عمارة (الإسلام فى عيون غربية) ص ٣٢٩ ـ ٣٥٨، طبعة دار الشروق، القاهرة سنة ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٥م.

وفوق شيوع الاستدلال العقلى والمنطقى، فى القرآن، على الحقائق والفلسفات جاء الحديث عن العقل.. كفعل للضبط العقلى فى تسع وأربعين آية.. فإذا أضيفت إليها الآيات التى تتحدث ـ باللفظ ـ عن أدوات التعقل ـ القلب.. واللب.. والنهى.. والفقه.. والتدبر.. والاعتبار.. والحكمة.. إلخ.. إلخ.. قاربت الثلثمائة آية فى القرآن الكريم.

ومع شهرة المقابلة ـ بل والتناقض ـ بين العقل والنقل فى التراث الغربى، فإن المقابل للعقل ـ فى تراثنا العربى والإسلامى هو الجنون!

وعلى حين كان الضيق الغربى بسباحة العقل فى عوالم الأفكار، وبالفروض وبالشكوك المنهجية قيودًا وأغلالًا دفعت قطاعات من العقل الفلسفى الغربى إلى الزندقة والإلحاد.. كانت الأبواب الإسلامية مشرعة أمام العقل كى ينظر فى الخلق والواقع والمسيرة والمصير دونما قيود.. حتى قال بعض علماء الإسلام: (إن أول شرط للمعرفة هو الشك).. وقال آخرون: (إن الواجب الأول على الإنسان هو الشك).. وأعلن البعض: (إن من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر ففى العمى والضلال)!

ولقد تحول هذا الشك المنهجى ـ فى التراث الإسلامى ـ إلى (علم) من العلوم التى يجب تعلمها، لأنه هو الطريق إلى تحصيل اليقين الذى تطمئن به القلوب.. وعبّر الجاحظ [١٦٣ ـ ٢٥٥هـ ٧٨٠ ـ ٨٦٩م] عن ذلك فقال لقارئه:

(فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له.. وتعلّم الشك فى المشكوك فيه تعلّمًا، فلو لم يكن فى ذلك إلا تعرّف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يُحتاج إليه، فلم يكن يقين قط حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك)[1].

(١) الجاحظ (كتاب الحيوان) ج٦، ص ٣٥، ٣٧ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، طبعة القاهرة ـ الثانية، (والحديث هنا عن الشك المنهجى) وليس عن (الشك العبثى) الذى يناقض الفطرة ويشكك فى البدهيات.

وبهذا الأفق الإسلامى المتميز ـ بل والفريد ـ تم استيعاب العقلانية بكل تجلياتها فى أحضان الإيمان الإسلامى، فانعدمت ـ أو كادت ـ القيود والضرورات الملجئة إلى الإلحاد.

وعلى حين أغلق العقل المسيحى الغربى أبواب المنهج التجريبى، وحرم على العلماء الاشتغال بالعلوم التجريبية التى اعتبرها اشتغالًا بالدنس ـ جاءت الرؤية الإسلامية للكون، لتقرر أن العالم ليس دنسًا، وإنما هو خلق الله، يسبح بحمده حتى وإن لم نفقه نحن لغة تسبيحه، ومن ثم فهو ـ بمكوناته وطاقاته وإمكاناته ـ مسخر للإنسان فى القيام برسالة العمران.. ولذلك فإن فقه هذا العالم، واكتشاف أسراره ـ بالتجريب والعلوم التجريبية ـ هو عبادة، تجعل علماءها الأكثر خشية لله، حتى لقد جاء الحديث القرآنى عن العلماء الذين هم الأكثر خشية لله فى سياق الحديث عن العلوم الكونية الطبيعية ـ وليس العلوم النظرية ـ فى سياق الحديث عن علوم: الماء.. والسماء.. والنبات.. والجيولوجيا.. والإنسان.. والحيوان.. والحشرات.. إلخ.. إلخ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

فبينما كان التجريب فى الطبيعة وعلومها ـ فى الغرب المسيحى ـ هرطقة يفر أصحابها من محاكم التفتيش ومحارقها إلى الإلحاد.. كان التجريب ـ فى الحضارة الإسلامية ـ عبادة يتقرب بها أصحابها إلى الله.. كانت (علمًا لأشراف أهل الحكمة، يتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلَّة والكهول العلية، حتى ليختارون النظر فيه على التسبيح والتهليل، وقراءة القرآن، وطول الانتصاب فى الصلاة، وحتى يزعم أهله أنه فوق الحج والجهاد، وفوق كل بر واجتهاد)! ـ على حد تعبير الجاحظ[1].

(١) المصدر السابق، ج١، ص ٢١٦، ٢١٧.

وعلى حين كان الوقوف بمصادر المعرفة ـ عند الملاحدة ـ محصورًا فى المادة.. وبسبل المعرفة عند الحواس.. فلقد استوعبت نظرية المعرفة الإسلامية ـ فى مصادر المعرفة ـ عالم الغيب وعالم الشهادة.. كتاب الله المنظور وآياته المبثوثة فى الأنفس والآفاق، وكذلك كتابه المسطور ونبأ السماء العظيم.. كما استوعبت ـ فى سبل المعرفة وأدواتها ـ الهدايات الأربع: العقل.. والنقل.. والتجربة.. والوجدان.. فالعقل يضيف ويصحح للحواس.. والنقل يضيف أنباء عالم الغيب التى لا يستقل العقل بإدراك كنهها.. والوجدان يضيف إلى حسابات العقل ما يرطبها، كما تضبط حسابات العقول خطرات القلوب وإلهاماتها..

وهكذا تستوعب نظرية المعرفة الإسلامية كل مستويات النظر.. كما يستوعب الخطاب القرآنى كل مستويات المخاطبين:

١ ـ أهل الحكمة والبرهان.

٢ ـ وأهل الموعظة من جمهور المخاطبين وعامتهم.

٣ ـ وأهل الجدل الذين يقفون بين الخاصة وبين الجمهور..

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فلم تقم ـ فى هذا الخطاب الإسلامى ـ التناقضات بين مستويات الخطاب، ولا بين مستويات المخاطبين[1].

ولهذه الفروق الجوهرية بين الإسلام وبين فلسفة اليونان ولاهوت المسيحية الغربية.. ومن ثم بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الغربية اختلف أمر الإلحاد بينهما.. فكان الإلحاد وكانت الفلسفة المادية ـ فى التاريخ الغربى ـ ظاهرة حاضرة وملحوظة ـ إلى جانب الفلسفة الإلهية والمثالية دائمًا وأبدًا.. بينما خلا تاريخ الإسلام الفلسفى والفكرى والحضارى من ظاهرة الإلحاد، ولم يعرف سوى بعض الشخصيات القلقة، والشكوك التى ضاق بها الذين خاصموا التأويل ووقفوا عند

(١) د. محمد عمارة (مقام العقل فى الإسلام)، طبعة نهضة مصر، القاهرة، سنة ٢٠٠٨م.

ظواهر النصوص التى جاءت فى المتشابهات، فلم يتم توظيفها ـ بالشك المنهجى ـ لتكون سبيلًا لليقين الذى تطمئن به القلوب.

* * *

وإذا كان التاريخ الإسلامى قد شهد بروز قرن الزندقة عن طريق الشعوبية الفارسية، التى أرادت الانتقام من الإسلام الذى طوى صفحة كسرويتها وذلك بإشاعة الشكوك التى لبست ـ فى بعض الأحيان ـ أثواب الخلاعة والمجون.. وهى الموجة التى كسرت شوكتها عقلانية الإسلام التى رفع رايتها أهل العدل والتوحيد.. فإن الغزو الفكرى الغربى، الذى جاء إلى بلادنا ـ فى العصر الحديث ـ بركاب الغزوة الغربية الحديثة، قد فتح العديد من الثغرات الفكرية والدينية للانحراف عن منهاج الفكر والحياة الإسلامى.

فلقد كانت الفلسفة المادية الوضعية أداة غربية للانحراف بالعقل المسلم عن العقلاينة الإسلامية المؤمنة.. أرادت الوقوف بالمسلم عند العقل والحواس، دون الشرع والشريعة.. ولقد تصدى العقل المسلم لهذا الانحراف ـ على لسان رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م] الذى قال عن هذه الفلسفة الوضعية المادية ـ التى بلورتها النهضة الأوروبية: (ولهم فى الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية) والذى ميز بين ما لدى الغرب من علوم طبيعية للتمدن والمدنية ـ عمران الواقع ـ وبين هذه الفلسفة المادية التى أشاعت الإلحاد والكفر بالدين، وصاغ ذلك شعرًا قال فيه:

أيوجد مثل باريس ديار شموس العلم فيها لا تغيب

وليل الكفر ليس له صباح أما هذا، وحقكم، عجيب!

كما نبه على تميز العقلانية الإسلامية عن العقلانية الغربية.. فعقلانيتنا تتزاوج مع الشرع، بينما يقفون هم عند العقل المجرد عن الشرع.. فقال:

(إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع، وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.. فكل رياضة لم

تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى.. فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة)[1].

وجاءت مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامية، التى هندس مشروعها الفكرى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ، ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] لتنتقد الطابع المادى الإلحادى للنموذج الحضارى الغربى، ولتتحدث عن هذه المدنية الغربية باعتبارها: (مدنية الملك والسلطان) مدنية الذهب والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو (الجنيه) عند قوم، و(الليرا) عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل فى شىء من ذلك.. لقد اكتشف أهلها كثيرًا مما يفيد فى راحة الإنسان وتعزيز نعمته، ثم عجزوا عن أن يكتشفوا طبيعة الإنسان، ويعرضوها على الإنسان حتى يعرفها فيعود إليها.. لقد عجزوا عن جلاء الصدأ الذى غشى الفطرة الإنسانية، وعن صقل النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحى.. لقد عجزوا ـ مع قوة العلم ـ عن كشف الطبيعة الإنسانية التى عرّفها الدين إلى أربابها فى كل زمان)[2].

كما لفت النظر إلى تميز الإسلام بالوسطية الجامعة التى أنقذت أمته وحضارته مما وقع فيه الغرب من المادية، (فلقد ظهر الإسلام) لا روحيًّا مجردًا، ولا جسدانيًا جامدًا، بل إنسانيًّا وسطًا بين ذلك، آخذًا من كلا القبيلين بنصيب، فتوافر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة، وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدوه المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية.. لقد جاء الإسلام كمالًا للشخص، وألفة للبيت، ونظامًا للملك، امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه[3].

وضمن الغزو الفكرى الغربى وفد التنصير إلى بلادنا فى ركاب الغزوة الغربية الحديثة.. جاء لاختراق الإسلام، طامعًا فى تنصير كل المسلمين، وطى صفحة

(١) الطهطاوى (الأعمال الكاملة) ج٢، ١٦٠، ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، طبعة بيروت، سنة ١٩٧٣م.

(٢) محمد عبده (الأعمال الكاملة) ج٣، ص ٢٠٥، ٤٩٥، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

(٣) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٦٦.

الإسلام من الوجود!.. ولقد توسل المنصرون إلى ذلك بوسائل كثيرة منها ـ عند العجز عن تنصير المسلم ـ تشكيكه فى إسلامه، ودفعه إلى الزندقة والإلحاد.. ولقد حاكوا فى تعصبهم ضد الإسلام، وتفضيلهم إلحاد المسلم على إيمانه بالدين الذى يصدق بكل الكتب وبجميع النبوات والرسالات، حاكوا يهود المدينة المنورة على عهد النبوة، الذين شهدوا للوثنية القرشية ضد التوحيد الإسلامى، فقالوا لمشركى مكة:

ـ (إن دينكم خير من دين محمد، وأنتم أولى بالحق منه)!

والذين أشار إليهم القرآن الكريم فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١].

هكذا وقف المنصرون ليعلنوا بلسان كبيرهم (صموئيل زويمر) [١٨٦٧ ـ ١٩٥٢م]: أن تشكيك المسلم فى دينه هو الموقف الأولى إذا لم يمكن الانتقال به من الإسلام إلى النصرانية[1]!

وفى بداية ثلاثينيات القرن العشرين نجح المنصرون فى تنصير أحد أبناء الأسر المصرية بمدينة الإسكندرية، وهربوا به إلى الخارج، فاهتز ضمير الأمة لهذا الحدث الجلل والغريب، حتى أنه قد أحدث تحولًا فى الحياة الفكرية قاد عددًا من رموز الفكر العلمانى إلى الكتابة فى الإسلاميات.. وكان فى مقدمة هؤلاء الكتاب الكبار الدكتور محمد حسين هيكل باشا [١٣٠٥ ـ ١٣٧٥هـ، ١٨٨٨ ـ ١٩٥٦م] والأستاذ عباس محمود العقاد [١٣٠٦ ـ ١٣٨٣هـ، ١٨٨٩ ـ ١٩٦٤م].

وفى عام ١٩٣٧م كتب إسماعيل أدهم [١٣٢٩ ـ ١٣٥٩هـ، ١٩١١ ـ ١٩٤٠م] رسالة صغيرة فى تحبيذ الإلحاد عنوانها: (لماذا أنا ملحد).. وكانت ثقافة الرجل ثمرة للفكر المادى الماركسى الذى درسه وعاشه وعايشه عدة سنوات فى الاتحاد السوفييتى.. ولقد قامت الردود الإسلامية ـ العقلانية المستنيرة ـ بوأد هذه النزعة

(١) د. محمد عمارة (الغارة الجديدة على الإسلام)، طبعة نهضة مصر، القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

الإلحادية فى مهدها.. ثم طويت صفحتها بانتحار صاحبها غرقًا عند شاطئ الإسكندرية سنة ١٩٤٠م.

ومضت الحياة الفكرية بعالم الإسلام دون أن يعرف الإلحاد (كظاهرة)، وإن عرف ـ كما أشرنا من قبل ـ بعض الشخصيات القلقة، وبعض الغلو العلمانى الذى يفترى الكذب على شريعة الإسلام والتاريخ الفكرى والحضارى للمسلمين.. كما عرف عالم الإسلام إبان القرن العشرين هوامش للفكر المادى المركسى، تمثلت فى تنظيمات شيوعية لم تكن الدعوة إلى الإلحاد ملحوظة فى أدبياتها، مراعاة منها للإيمان الدينى الذى تدين به الجماهير التى تتوجه إليها هذه الأدبيات.

ولقد ظل الحال كذلك حتى جاءت ثورة الاتصالات المعاصرة التى أزالت الحواجز النسبية بين الثقافات والحضارات، والتى جعلت فيها شبكة المعلومات العالمية من الكون الثقافى والعولمة الفكرية صفحة مفتوحة أمام جميع الناس فى كل القارات والأقطار والحضارات.. فرأينا ـ ولأول مرة فى تاريخنا ـ تسلل الإلحاد الغربى إلى نفر من الشباب المسلم، الذين لم تقو مداركهم فى العلم القومى، ولم تتحصن عقولهم بالوعى الفكرى الإسلامى، ولم تتهذب وجداناتهم بالتربية الإسلامية التى تؤسس لطمأنينة القلوب.. فعلى مواقع (النت) وفى غرف الدردشة، يتساقط نفر من هؤلاء الشباب فى مستنقع الإلحاد، تساقط الغرقى الذين اجتذبتهم أمواج المحيطات، دون أن تكون لهم الدراية ـ فضلًا عن المهارة ـ فى التعامل مع أمواج المحيطات وعواصفها وتقلباتها.. ولقد وضح ذلك أكثر ما وضح فى المجتمعات الإسلامية التى يسود فيها خطاب دينى غريب عن العصر، أو غارق فى الجمود والتقليد..

لذلك.. وقيامًا بالواجب العلمى للعقل الإسلامى فى أداء فرائضه الثلاث:

١ ـ تبليغ الدعوة بالحكمة والبرهان والموعظة الحسنة.

٢ ـ وإقامة الحجة بالحوار والمجادلة بالتى هى أحسن.

٣ ـ وإزالة الشبهات التى يقذف بها دعاة الإلحاد عقول الشباب.

قيامًا بهذه الفرائض تطلعت إلى ساحة الفكر الإسلامى وخاصة فى مصر ـ بلد الأزهر الشريف، فكانت الصدمة عندما لم أجد أحدًا بين علماء الإسلام قد أولى هذا الحقل، حقل الرد على الماديين ومحاورة الملحدين.. ما يستحق من التخصص والاهتمام، لكن ولحسن الحظ وجدت هذا العالم الفاضل، أستاذ الطب الدكتور عمرو شريف، الذى استوعب تاريخ الإلحاد ودعاوى فلاسفته قديمًا وحديثًا فى الغرب والشرق، والذى أسهم بجهود فكرية مشكورة ومتميزة وممتازة فى هذا الميدان، والذى قام بمحاورة عدد من مشاهير الملحدين العرب، فكسر شوكتهم بالعقلانية العلمية والمنطق الإيمانى، فطلبت منه أن يقدم لقراء مجلة الأزهر، التى كانت على مر تاريخها حارسة لعقائد الإسلام وشريعته وحضارة أمته.. والتى سبق لها وأسهمت فى الرد على كتاب إسماعيل أدهم سنة ١٩٣٧م[1]، طلبت من الدكتور عمرو شريف أن يقدم للشباب المسلم الحقائق التى تعرى أوهام الإلحاد وأكاذيب الملحدين، فكان هذا الكتاب الذى أقدم بين يديه.

لقد عشت معه، وعايشت أفكاره، وتأملت منطقه وحججه، فوجدته ثمرة ناضجة لعلم غزير، وتجارب غنية، وإخلاص يتميز به أصحاب الرسالات، وغيرة على الإنسانية أن تضل طريق الهداية فتقع فى مستنقع الإلحاد الذى يقطع طريق الأمل أمام أهله فيغرقهم فى بحار اليأس والقنوط.

إنه كتاب علمى دقيق وعميق، ومع ذلك فهو واضح، بل وممتع، وجذاب.. ففيه مستويات من الحقائق العلمية، وطبقات من البراهين المنطقية، تجعل لكل قارئ من القراء، الذين تتفاوت مداركهم العلمية ومستوياتهم الفكرية، نصيبًا وحظًا يدعم الإيمان ويبدد شبهات الإلحاد.

إن الإلحاد يفترس طمأنينة النفوس البشرية فى مجتمعات غربية تتمتع بأعلى مستويات المعيشة والإشباع للشهوات، فتشهد ـ مع ذلك ـ أعلى مستويات القلق والانتحار!

(١) لقد نشرت مجلة الأزهر ـ يومئذ ـ دراسة علمية ممتازة لرئيس تحريرها العلامة محمد فريد وجدى، عنوانها: (لماذا هو ملحد؟)..

بينما يضمن الإيمان الدينى طمأنينة النفوس فى أكثر المجتمعات الإسلامية فقرًا، فلا تجد فيها أثرًا لانتحار الملحدين!!

لذلك كان تبديد أوهام الإلحاد والملحدين سبيلًا لتحقيق الطمأنينة والسعادة فى هذه الحياة الدنيا.. فضلًا عن النعيم فى يوم الدين.

وتلك هى رسالة هذا الكتاب الذى نقدمه إلى القراء، سائلين المولى ـ عز وجل ـ أن ينفع به، وأن يجزى كاتبه خير الجزاء.. إنه سبحانه وتعالى خير مسئول وأكرم مجيب[1].

* * *

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب ـ هدية مجلة [الأزهر] عدد المحرم سنة ١٤٣٥هـ نوفمبر ـ ديسمبر سنة ٢٠١٥م.

أ. أورخان محمد علي

[١٣٥٦ ـ ١٤٣١هـ ـ ١٩٣٧ ـ ٢٠١٠م]

* ولد فى مدينة كركوك / العراق، فى ٣٠/ ١٠/ ١٩٣٧م، من عائلة تركمانية.

* كان والده مديرًا لمدرسة ابتدائية.

* له أخان وخمس أخوات.

* متزوج له ولدان وبنت وكلهم تخرجوا فى الجامعات.

* أكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة والثانوية فى كركوك.

* أرسله أهله إلى إسطنبول لإكمال دراسته الجامعية فيها، وقد التحق هناك بجامعة الهندسة / كلية الإنشاءات، أى كلية ا لهندسة المدنية، وتخرج فيها عام ١٩٦٣م حاصلًا على شهادة الماجستير فى الهندسة المدنية.

* رجع إلى بلده العراق وأدى الخدمة العسكرية كضابط احتياط، وبعد انتهاء الخدمة العسكرية عين مهندسًا فى وزارة الإسكان والتعمير فى قسم المشاريع الكبرى، حيث شارك فى إنجاز العديد من المشاريع الكبيرة فى بغداد.

* أثناء خدمته فى تلك الوزارة سجل فى القسم المسائى لجامعة المستنصرية فى كلية الإدارة والاقتصاد / قسم الاقتصاد عام ١٩٧١ وتخرج عام ١٩٧٦ حاصلًا على درجة البكالوريوس فى الاقتصاد حيث كانت الدراسة آنذاك خمس سنوات.

* طلب إحالته إلى التقاعد فى عام ١٩٨٩م.

* بعد أن ساءت الأوضاع السياسية فى العراق سافر إلى إسطنبول عام ١٩٩٤. وأقام فيها حتى وفاته يوم الاثنين ٨ـ٢ـ٢٠١٠م ٢٣ ـ ٢ ـ ١٤٣١هـ.

* وكانت هوايته الوحيدة منذ أن دخل الابتدائية هى القراءة.

وبعد إنهاء الثانوية بدأ فى الجامعة بترجمة ما رآه مفيدًا من الكتب من اللغة التركية إلى العربية، ثم أضيف بعد التخرج لهذه الترجمة بعض الكتب من الإنجليزية إلى العربية، ثم بدأ بتأليف الكتب التى يرى أن المكتبة العربية فى حاجة إليها[1].

آثار المؤلف (تأليفًا وترجمة)

أ ـ كتب العلوم الكونية / الطبيعية:

١ ـ دارون ونظرية التطور: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٢ ـ الإنسان ومعجزة الحياة: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٣ ـ فى نظرية التطور: هل تعرضت لغسيل الدماغ؟ مترجمة عن الإنجليزية (مطبوع).

٤ ـ الانفجار الكبير أو مولد الكون: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٥ ـ أسرار الذرة: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٦ ـ النظريات العلمية ونظرية التطور: مترجمة عن الإنجليزية (مطبوع).

٧ ـ نظرية التطور ليست ثابتة (مطبوع).

٨ ـ تهافت نظرية التطور أمام العلم الحديث: (مطبوع).

٩ ـ مناقضة علم الفيزياء لنظرية التطور: (مطبوع).

١٠ ـ سجل المتحجرات يتحدى نظرية التطور: مترجمة من الإنجليزية (غير مطبوع).

١١ ـ الإيدز: مأساة المستقبل: مترجمة عن التركية (غير مطبوع).

١٢ ـ (الدماغ والنظام العصبى فى الإنسان) مترجمة عن التركية (غير مطبوع).

(١) [موسوعة تركمان العراق] ـ شبكة الإنترنت. وموقع «هيئة علماء المسلمين فى العراق] على شبكة الإنترنت.

١٣ ـ الإيمان من نافذة العلم: مترجمة عن التركية (غير مطبوع).

١٤ ـ مذكرات نحلة مترجمة عن التركية: (غير مطبوع).

١٥ ـ حقيقة الخلق ونظرية التطور: مترجمة عن التركية (مطبوع).

١٦ ـ مناقضة علم الكيمياء لنظرية التطور: (مطبوع).

١٧ ـ مولد الكون ونهايته: (غير مطبوع).

١٨ ـ معجزة خلق الإنسان: مترجمة عن التركية (مطبوع).

١٩ ـ معجزة النحل: مترجمة عن التركية (غير مطبوع).

ب ـ السيرة وفقهها (سلسلة النور الخالد):

١ ـ النبى المرتقب: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٢ ـ من صفات الأنبياء: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٣ ـ عظمة الفطنة فى نبوة محمد (ﷺ): مترجمة عن التركية (مطبوع).

٤ ـ فن التربية وحل المعضلات: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٥ ـ الرسول (ﷺ) قائدًا: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٦ ـ العصمة النبوية: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٧ ـ السنة النبوية: مترجمة عن التركية (مطبوع).

ج ـ الكتب التاريخية:

١ ـ السلطان عبد الحميد الثانى حياته وأحداث عهده (مطبوع).

٢ ـ سعيد النورسى: رجل القدر فى حياة أمة (مطبوع).

٣ ـ روائع من التاريخ العثمانى (مطبوع).

٤ ـ قصة حزب الرفاه (مطبوع).

٥ ـ سعيد النورسى: نظرة عامة عن حياته (مطبوع).

٦ ـ الذى رجم حتى الموت (مطبوع).

٧ ـ ما وراء الأستار (مطبوع).

٨ ـ الدولة العثمانية المجهولة: تأليف بالاشتراك مع الأستاذ عونى عمر، مترجمة عن التركية (غير مطبوع).

د ـ الكتب الفكرية:

١ ـ موقف الدين من العلم: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٢ ـ حوار حول القضاء والقدر: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٣ ـ حوار حول الحقيقة: مترجمة عن التركية (غير مطبوع).

٤ ـ حوار بين مؤمن وكافر: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٥ ـ أسئلة العصر المحيرة: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٦ ـ الموازين: أضواء على الطريق: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٧ ـ تحليل جديد لأفكار فرويد: مترجمة عن التركية (غير مطبوع).

٨ ـ أضواء قرآنية: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٩ ـ رسائل إلى مبشر (غير مطبوع).

١٠ ـ سعيد النورسى لدى مفكرى الغرب: مترجمة عن الإنجليزية (مطبوع).

١١ ـ ملامح الجيل المرتقب: مترجمة عن التركية (غير مطبوع).

١٢ ـ القرآن المذهل: مترجمة عن الإنجليزية (مطبوع).

هـ ـ الكتب الأدبية:

١ ـ مسرحية: السلطان عبد الحميد: مترجمة عن التركية (غير مطبوع).

٢ ـ (الفرصة الأخيرة): قصص قصيرة: مترجمة عن التركية (مطبوع).

٣ ـ (كيسان من الذهب) قصة للأطفال: مترجمة عن التركية (غير مطبوع).

٤ ـ (ترانيم روح وأشجان قلب): مترجمة عن التركية (مطبوع).

مناقضة علم الفيزياء لفرضية التطور

لأورخان محمد على

[١٣٥٦ ـ ١٤٣١هـ ـ ١٩٣٧ ـ ٢٠١٠م]

لقد مثلت الكنيسة الغربية ـ ولاهوتها اللاعلمى واللاعقلانى ـ جناية على البحث العلمى فى الحضارة الأوروبية؛ وذلك أنها قد نظرت إلى «الطبيعة» والعالم باعتباره «دنسًا» فى مقابل «الإنجيل» الذى هو «المقدس».. وبما أن مملكة المسيح ـ فى ذلك اللاهوت ـ ليست فى هذا «العالم» فإن التجربة والبحث فى هذا العالم وأسراره قد أصبح محرمًا ومجرمًا، يفضى بأصحابه الذين يطلبون العلم ويبحثون عنه فى «الطبيعة» و«العالم» وليس فى «الإنجيل» إلى الإحراق والإغراق والإعدام على «الخازوق المقدس» بواسطة محاكم التفتيش!

ولهذه الحقيقة المأساوية لم تعرف أوروبا المسيحية أول فلكى إلا فى القرن السادس عشر الميلادى «كوبر نيكوس» [١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م] ـ أى بعد ثلاثة عشر قرنًا من تدين أوروبا بالنصرانية! وحتى الكتاب الذى ألفه «كوبر نيكوس» لم تسمح الكنيسة بنشره إلا فى القرن الثامن عشر للميلاد! على حين عرفت الحضارة الإسلامية الإبداع فى العلوم الطبيعية مع الإبداع فى العلوم الشرعية والإنسانية فى القرن الهجرى الأول[1]!!

ولهذا الموقف الكنسى واللاهوتى المعادى للعلم الطبيعى والمنهج التجريبى ـ جاء العلم الطبيعى الأوروبى ـ فى النهضة الأوروبية الحديثة ـ ثورة على النصرانية

(١) انظر كتابنا «الإسلام فى عيون غربية» ص ١٧ ـ ٣٩. طبعة دار الشروق. القاهرة سنة ١٤٢٥هـ، سنة ٢٠٠٥م.

ولاهوتها الكنسى.. جاء ـ فى مجمله ـ علمًا ماديًّا، يعلن أصحابه: «موت الإله»! ويؤسسون للفلسفة المادية فى النظر إلى الكون والحياة!

* * *

وانظلاقًا من هذه الفلسفة المادية كان التوظيف الغربى لنظرية النشوء والارتقاء التى اشتهر بها «داروين» [١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م] والتى سبق إليها وأسهم فيها علماء الطبيعة الألمانى «لامارك» [١٧٤٤ ـ ١٨٢٩م] والإنجليزى «والاس» [١٨٢٣ ـ ١٩١٣م] والألمانى «إرنست هنرى هيكل» [١٨٣٤ ـ ١٩١٩م] كان التوظيف لهذه النظرية فى نقض الدين والتدين، وإنكار التصور الدينى لقصة الخلق الإلهى للإنسان والأحياء..

فهذه النظرية ـ الداروينية ـ تقوم على قوائم ثلاث:

١ ـ التوالد الذاتى:

الذى بدأت به الحياة على هذا الكوكب.. وليس بالخلق الإلهى لنسمة الحياة والأحياء.

٢ ـ التنازع للبقاء:

الذى يفصح عن فلسفة الصراع والقوة التى تمثل الروح السارية فى الحضارة المادية الغربية.. والتى تؤسس ـ وتبرر ـ للعلاقات الصراعية مع الآخرين فى عوالم الأحياء والطبقات والحضارات!

٣ ـ الانتخاب الطبيعى:

الذى هو فى هذه النظرية الثمرة الطبيعية لتنازع البقاء؛ لأن الأقوى هو الأصلح، ومن ثم فهو الأحق بالبقاء!

وهكذا أصبحت هذه النظرية ـ الداروينية ـ سلاحًا بيد المادية والإلحاد.. ومحاولة «علمية» لتأسيس هذا الإلحاد على أساس من «العلم» الطبيعى.. والحفريات! حتى لقد قال «إرنست هيكل»:

«من ذا الذى يعرف هذا كله، ويعلم بنتائج علم طبقات الأرض وعلم الحفريات، ولا يقول إن هذا يذهب بأسطورة الدين فى مسألة الخلق؟ ذلك لأن ماجاء به العلم يناقض أشد المناقضة رواية موسى فى الخلق، ويعارض غير هذه من المعتقدات التى روتهاالتوراة.. والتى لا تزال تساكن أدمغة نَشْئنا.. تلك التصورات الصبيانية التى تجعل للعالم إلهًا، هو الواجب الوجود، والخالق والمدبر لكل شىء، وما إلى ذلك من الصفات التى لا تتفق مع ما جاءنا به العلم الحديث فى القرن التاسع عشر.. إن هذه النظرية ترمى إلى ألاَّ تترك من بناء الدين حجرًا على حجر»[1]!!

* * *

وفى الإطار العربى والإسلامى كان المفكر المارونى ـ المادى ـ شبلى شميل [١٨٦٠ ـ ١٩١٧م] أبرز الذين توفروا على نقل الداروينية إلى اللغة العربية.. والدفاع عنها.. والدعوة إلى تبنى فلسفتها فى نشأة الحياة والأحياء، بدلًا من فلسفة الإيمان الدينى فى هذا الميدان..

ويومئذ تخلَّق فى الفكر العربى والإسلامى ـ إزاء الداروينية ـ تياران رئيسيان:

الأول: سلَّم بعلميتها، فأخذ يبحث عن التوفيق بينها وبين الإسلام.. ودعا إلى «أن نعمد إلى آيات القرآن ونجتهد فى فهمها بدون وساطة أولئك المفسرين الذين لا يحجمون عن تغيير المعنى وفق آرائهم»!

وتساءل أصحاب هذا الاتجاه:

«هل ينص القرآن على أن الإنسان خلق من الطين مباشرة أى بدون أن يمر على حالات دنيئة أخرى كالتى تذكرها نظرية التطور؟

إن كان الأمر كذلك، فالتناقض صريح بين الاثنين، وإلا فلا علاقة بينهما، إذ إن نظرية التطور لم تحاول مطلقًا أن تنفى وجود قوة أزلية خالقة للكون[2]».

(١) هرمن كلاتشى «كتاب النشوء والارتقاء أو مصير الإنسانية ونشوء المدنية» ـ تعريب: عصام الدين حفنى ناصف ـ مقدمة المعرب ص ٩، ١٠ ـ طبعة القاهرة ـ مطبعة الشباب ـ بدون تاريخ.

(٢) المرجع السابق، ص ١١.

وعلى هذا الدرب ـ درب محاولة التوفيق بين نظرية التطور والقرآن ـ ذهب كاتب آخر إلى الآية القرآنية: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] فاختار تفسير «الخازن» [٧٤١ هـ ـ ١٣٤١م] لهذه الآية، والذى يقول فيه:

«إن آدم بقى أربعين سنة طينًا، وأربعين سنة حمأً مسنونًا، وأربعين سنة صلصالًا كالفخار، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة»[١].

ثم تساءل:

«.. فكم من الأيام فى مائة وعشرين سنة؟ وكم من ملايين السنين تكون إذا ضربنا عدد هذه الأيام فى ألف سنة ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] أو فى خمسين ألف سنة ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]».

ونقل عن «إخوان الصَّفا» قولهم:

«إن حيوان البحر كان قبل حيوان البر».. وأنهم ـ إخوان الصفا ـ «يسمون حكمة إلهية ما يسميه داروين انتخابًا طبيعيًّا»..

كما استشهد بقول الشاعر الفيلسوف أبى العلاء المعرى [٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ = ٩٧٣ ـ ١٠٥٧م]:

وجائز أن يكون آدم هذا

قبله آدم على إثر آدمِ[٢]

أما الاتجاه الثانى إزاء الداروينية فهو اتجاه الرفض لها.. والتشكيك فى علميتها.. وفى شمولية المنهج الذى استندت إليه فى الحفريات.. وصولًا إلى رفض المادية والإلحاد، والتأكيد على الفلسفة الإيمانية فى الخلق وفى نشأة الحياة والأحياء.

(١) حسن حسين ـ مقدمة المترجم لكتاب «فصل المقال فى فلسفة النشوء والارتقاء» ـ لإرنست هيكل ـ ص ٢٧ طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢هـ، سنة ١٩٢٤م.

(٢) المرجع السابع، ص ٢٩ ـ ٥٣.

ولقد كان جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] فيلسوف الشرق وموقظ الإسلام هو الرائد الذى نهض فبلوَرَ هذا الاتجاه، ففى «رسالة الرد على الدهريين» التى خصصها لنقض مذهب «النيتشرية والنيتشريين» ـ الطبيعيين الماديين ـ تحدث عن أصحاب نظرية النشوء والارتقاء فقال:

«ومنهم ذاهب إلى أن جراثيم الأنواع كافة ـ خصوصًا الحيوانية ـ متماثلة فى الجوهر، متساوية فى الحقيقة، وليس بين الأنواع تخالف جوهرى، ولا انفصال ذاتى، ومن هذا ذهب صاحب هذا القول إلى جواز انتقال الجرثومة الواحدة من صورة نوعية إلى صورة نوعية أخرى بمقتضى الزمان والمكان وحكم الحاجات والضرورات وقضاء سلطان القواسر الخارجية».

ورأس القائلين بهذا القول «داروين» وقد ألَّف كتابًا فى بيان «أن الإنسان كان قردًا..».. ثم عرض له التنقيح والتهذيب فى صورته بالتدريج على تتالى القرون المتطاولة، وبتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية، حتى ارتقى إلى برزخ «أوران أوتان»، ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الإنسان، فكان صنف اليميم ـ (نيمنيم) ـ وسائر الزنوج، ومن هنا عرج بعض أفراده إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين، فكان الإنسان القوقاسى.

وعلى زعم «داروين» هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلًا بمرور القرون وكر الدهور، وأن ينقلب الفيل برغوثًا كذلك.

فإن سئل «داروين» عن الأشجار القائمة على غابات الهند، والنباتات المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ إلا ظنًّا، وأصولها تضرب فى بقعة واحدة، وفروعها تذهب فى هواء واحد وعروقها تُسقى بماء واحد، فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيته وشكل أوراقه، وطوله وقصره، وضخامته ورقته، وزهره وثمره، وطعمه ورائحته، وعمره؟ فأى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء؟

أظن أن لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه.

وإن قيل له: هذه أسماك بحيرة «أورال» وبحر «كسين» مع تشاركهما فى المأكل والمشرب وتسابقهما فى ميدان واحد، نرى فيها اختلافًا نوعيًّا، وتباينًا بعيدًا فى الألوان والأشكال والأعمال، فما السبب فى التباين والتفاوت؟

لا أراه يلجأ فى الجواب إلا إلى الحَصَر (العجز).

وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى ـ (جمع بنية) ـ والصور والقوى والخواص، وهى تعيش فى منطقة واحدة، ولا تسلم حياتها فى سائر المناطق، أو الحشرات المتباينة فى الخلقة، المتباعدة التركيب، المتولدة فى بقعة واحدة، ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة لتخلو إلى «تربة» تخالف تربتها، فماذا تكون حجته فى علة اختلافها، كأنها تكون كسفًا لا كشفًا؟!

بل إذا قيل له: أى هادٍ هدى تلك الجراثيم فى نقصها وخداجها (نقصها)؟ وأى مرشد أرشدها إلى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة، وأبدع لكل منها قوة على حَسَبه، وأناط بكل قوة فى عضو أداء وظيفة، وإيفاء عمل حيوى، مما عجز الحكماء عن إدراك سره، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول إلى تحديد منافعه؟ وكيف صارت الضرورة العمياء، مُعَلِّمًا لتلك الجراثيم، وهاديًا خبيرًا لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية؟

لا ريب أنه يقبع قبوع القنفذ، وينتكس بين أمواج الحيرة، يدفعه ريب، ويتلقاه شك، وإلى أبد الآبدين.

* * *

وكأنى بهذا المسكين «داروين» ما رماه فى مجاهل الأوهام ومهامه الخرافات إلا قرب المشابهة بين القرد والإنسان، وكأن ما أخذ به من الشبه الواهية ألهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة، وحسرات العماية. وإنا نورد شيئًا مما تمسك به، فمن ذلك أن الخيل فى سيبيريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرًا من الخيل المتولدة فى البلاد العربية، وإنما علة ذلك الضرورة وعدمها.

ونقول: إن السبب فيما ذكره هو عَيْنُ السبب لكثرة النبات وقلته فى بقعة واحدة، لوقتين مختلفين، حسب كثرة الأمطار وقلتها، ووفور المياه ونزورها، أو هو علة النحافة ودقة العود فى سكان البلاد الحارة، والضخامة والسمن فى أهل البلاد الباردة، بما يعترى البدن من كثرة التحلل فى الحرارة، وقلته فى البرودة.

ومن واهياته: ما كان يرويه «داروين» من أن جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم، فلما واظبوا على عملهم هذا قرونًا، صارت الكلاب تولد بلا أذناب، كأنه يقول: حيث لم تعد للذنب حاجة كفَّت الطبعة عن هبته.

وهل صُمَّت آذان هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب، وما يجرونه من الختان ألوفًا من السنين، ولا يولد مولود حتى يختن، وإلى الآن لم يولد واحد منهم مختونًا إلا لإعجاز؟!

ولما ظهر لجماعة من متأخرى الماديين فساد ما تمسك به أسلافهم، نبذوا آراءهم واتخذوا طريقًا جديدة، فقالوا: ليس من الممكن أن تكون المادة العارية من الشعور مصدرًا لهذا النظام المتقن، والهيئة البديعة والأشكال المعجبة، والصور الأنيقة، وغير ذلك مما خفى سره وظهر أثره، ولكن العلة فى نظام الكون علويه وسفليه، والموجب لاختلاف الصور والمقدر لأشكالها وأطوارها، وما يلزم لبقائها، تتركب من ثلاثة أشياء: «تيير» ـ (أى مادة) ـ و«فورس» ـ (قوة) ـ و«إنتليجانس» ـ (إدراك)..

وظنوا أن المادة بما لها من القوة، وما يلابسها من الإدراك، تجلت وتتجلى بهذه الأشكال والهيئات، وعندما تظهر بصورة الأجساد الحية ـ نباتية كانت أو حيوانية ـ تراعى بما لابسها من الشعور ما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع، فتنشئ لها من الأعضاء والآلات ما يفى بأداء الوظائف الشخصية والنوعية، مع الالتفات إلى الأزمنة والأمكنة، والفصول السنوية.

هذا أنفس ما وجدوا من صلة لمذهبهم العاطل، بعدما دخلوا ألف جحر، وخرجوا من ألف نفق، وما هو بأقرب إلى العقل من سائر أوهامهم، ولا هو بالمنطبق على سائر أحوالهم، فإنهم يرون كسائر المتأخرين ـ أن الأجسام مركبة من الأجزاء

الديمقراطيسية[1]، ولا ينطبق رأيهم الجديد فى علة النظام الكونى على رأيهم فى تركيب الأجسام.

وذلك لأنه يلزم على القول بشعور المادة، أن يكون لكل جزء ديمقراطيسى شعور خاص، كما يلزم أن تكون له قوة خاصة ينفصل بها عن سائر الأجزاء، إذ لا يمكن قيام العَرَض الواحد ـ وحدة شخصية ـ بمحلَّين، فلا يقوم علم واحد بجزءين ولا بأجزاء.

وبعد هذا، فإنى أسائلهم: كيف اطلع كل جزء من أجزاء المادة ـ مع انفاصلها ـ على مقاصد سائر الأجزاء؟ وبأية آلة أفهم كل منها باقيها ما ينويه من مطلبه؟ وأى برلمان ـ (مجلس الشورى) ـ أو أى سنات ـ (مجلس الشيوخ) ـ عقدت للتشاور فى إبداع هذه المكونات العالية التركيب، البديعة التأليف؟! وأنَّى لهذه الأجزاء أن تعلم ـ وهى فى بيضة العصفور ـ ضرورة ظهورها فى هيئة طير يأكل الحبوب؟! فمن الواجب أن يكون له منقار وحوصلة لحاجته فى حياته إليها، وإذا كانت فى بيض الشاهين والعُقاب، فمن أين لها العلم بأنها تقوم طيرًا يأكل اللحوم، فلا بد له من منسر ومخلب يصول بهما فى الصيد لاقتناص ما يحتاج إليه من حيوان، ثم ينسر لحمه ليأكله؟!

ومن أين لها أن تعلم، وهى فى مشيمة الكلبة، أنها ستكون على صورة أنثى الجرو، ثم تكبر حتى تبلغ حد الإدراك، ثم تكون حبلى لوقت من الأوقات، وقد تلد جراءً متعددة فى زمن واحد، فهى تهيئ لطَبيها ـ [حلمة الضرع] ـ حلمات كثيرة على حسب حاجة جرائها؟!

ومن لهذه الأجزاء المتبددة أن تدرك حاجة الحيوانات إلى القلب والرئة، والمخ والمخيخ، وسائر الأعضاء والجوارح؟!

لو عقلت هذه الطائفة ما رمى إليه سؤالى لارتكست (انتكست) ـ فى أفكارها، وانقلبت إلى تيهور (تيه) من الحيرة، لا ترفع منه رأسًا، ولا تحير جوابًا، إلى أن يتخبطهم

(١) نسبة إلى الفيلسوف اليونانى ديمقراطيس [٤٦٠ ـ ٣٥٧ق.م] وهو فيلسوف مادى، يرجع حدوث العالم إلى المادة المكونة من ذرات تتحرك فى فضاء لا حد له، حركة أبدية. وأن كل شىء قد حدث عرضًا!

شيطان الجهل، فيقولون ولا يعون: إن لكل جزء من هذه الأجزاء الديمقراطيسية علمًا بجميع ما كان ويكون، وبجميع ما فى العالم من الأجزاء، علويًّا كان أو سفليًّا، ولكل منها حرص على مراعاة نظام الكون وأركانه، فيتحرك كل منها للانضمام إلى الآخر، على وفق ما يريده من المصلحة، حتى لا يقع الخلل فى شىء من نظم العالم، عامًّا كان أو خاصًّا، وبهذا قام العالم على ناموس واحد.

فإن أفضت بهم العماية إلى هذا القول، قلنا:

أولًا: يلزمهم أن كل جزء ديمقراطيسى يحتوى على أبعاد غير متناهية وهو فى صغره لا يدرك ولا بالميكروسكوب «النظارة المعظمة».

وبيان اللزوم: أن العلم عندهم إنما هو بارتسام الصور المعلومة فى ذات العالم، وهو مادى فى موضوعنا، فكل صورة معلومة تأخذ منه بعدًا بمقدارها، والصور العلمية على هذا الزعم غير متناهية، وكلها يرتسم فى مادة الجزء العالم، فيكون فى كل جزء ـ وهو متناه فى غاية الصغر ـ أبعاد غير متناهية للصور غير المتناهية، وهذا مما يتطلبه بداهةُ العقل.

ثانيًا: إن كانت الأجزاء الديمقراطيسية بالغة من العلم هذا المبلغ، وهى من القوة على نحوه، إذ لا قوة إلا بها على رأيهم، فلماذا لم تبلغ الكائنات ـ وهى هى ـ غاية ما يمكن لها من الكمال، ولم تنزل بذواتها الآلام والأوصاب، ثم تعانى العناء فى احتمالها والتخلص منها؟ ولماذا قصر إدراك الإنسان، وإدراك سائر الحيوانات ـ وهو عين إدراك هذه الأجزاء على هذا المذهب ـ عن اكتناه حالها أنفسها، وعجز عن حفظ حياتها؟

وأعجب من هذا أن المتأخرين من الماديين بعدما صافحوا كل خرافة لتأييد مذهبهم، حاصوا (عدلوا) إلى الحيرة فى بعض الأمور فلم يستطيعوا تطبيقها على أصل من أصولها الفاسدة، لا أصل الطبع، ولا أصل الشعور، وذلك عندما رأوا شيئين يختلفان فى الخواص، وعناصرهما تظهر عند التحليل متماثلة، ولم يجدوا المحيص عن الوقفة ـ بعدما قدموا من الترهات ـ إلا بالحكم على الأجزاء الديمقراطيسية رجمًا

بالغيب، بأنها ذوات أشكال مختلفة، وعلى حسب الاختلاف فى الأشكال والأوضاع كان الاختلاف فى الآثار والخواص.

وبالجملة: فهذه عشرة مذاهب[1] اختلف فيها منكرو الألوهية، الزاعمون ألا وجود للصانع الأقدس، وهم المعروفون بين شيعهم أو عند الإلهيين بالطبيعيين والماديين، والدهريين، وإن شئت قلت: نيتشريين، وناتوراليسميين، وماتير ياليسميين»[2].

هكذا نقض الأفغانى التوظيف المادى لنظرية داروين فى النشوء والارتقاء بالمنطق والعلم والفلسفة. وهكذا كان تناوله لها فى رسالته (الرد على الدهريين) ـ التى كتبها فى ثمانينيات القرن التاسع عشر الميلادى.

* * *

فلما كان عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر الميلادى ـ وإبَّان إقامة الأفغانى بالآستانة ـ عرض ـ ثانية ـ لنقد ونقض الداروينية، وذلك عندما أجاب عن سؤال عن: «البيت المشهور لأبى العلاء المعرى:

والذى حارت البريةُ فيه

حيوانٌ مستحدث من جمادٍ

هل يقصد المعرى من هذا البيت من الشعر ارتقاء الحيوان من الجماد؟ ويوافق مذهب داروين فى النشوء والارتقاء؟ ذلك المذهب الحديث الذى أوجده «داروين» وأقام علماء الأرض وأقعدهم؟ أم قصد المعرى معنى آخر، وتماسّ اتفافًا أو عرضًا مع أهل مذهب النشوء والارتقاء؟».

ولقد أملى الأفغانى عدة صفحات فى الإجابة عن هذا السؤال.. وفيها قال ـ ضمن ما قال:

(١) اكتفينا هنا ـ فى هذا التقديم ـ بإيراد رد الأفغانى على المذهب المادى الذى تسلح بنظرية التطور والنشوء والارتقاء فى إنكار الألوهية والخلق الإلهى للحياة والأحياء.

(٢) رسالة الرد على الدهريين: انظر «الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى» ص ١٣٤ ـ ١٣٩، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

«.. أما مقصد أبى العلاء فظاهر، ليس فيه خفاء ـ فهو يقصد بالنشوء والارتقاء ـ أخذًا بما قاله علماء العرب قبله بهذا المذهب ـ إذ قال أبو بكر بن بشرون، فى رسالته لأبى السمح، عرضًا فى بحث الكيمياء: «إن التراب يستحيل نباتًا، والنبات يستحيل حيوانًا، وإن أرفع المواليد هو الإنسان (الحيوان)، وهو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها. وإن أرفع مواليد التراب (ومنه المعادن) النبات ـ وهى أدنى طبقات الحيوان ـ سلسلة تنتهى عند الإنسان...» إلخ.

فإذا كان بناء مذهب النشوء والارتقاء على هذا الأساس، فالسابق فيه علماء العرب وليس «داروين» ـ مع الاعتراف بفضل الرجل وثباته وصبره على تتبعاته وخدمته «للتاريخ الطبيعى» من أكثر وجوهه، وإن خالفته وخالفت أنصاره فى مسألة «نسمة الحياة» التى أوجدها الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ لا على سبيل الارتقاء من سعدان فالإنسان، أو من الزوابع المائية؛ أو أن «البرغوث» سيكون بعد ألوف أو ملايين من السنين، فيلًا عظيمًا! لأننا نرى اليوم فى البرغوث ما يشبه خرطوم الفيل! وغير ذلك من المباحث التى دونتها فى رسالة «نفى مذهب الدهريين»، ردًّا على «داروين» وأشياعه، وأرى إغراقًا فى نسبة الإبداع والابتكار للنشوء والارتقاء والانتخاب الطبيعى له.

* * *

ولو قال بذلك مثل «بخنر» [١٨٢٤ ـ ١٨٩٩م] و«هكسلى» [١٨٢٥ ـ ١٨٩٥م] و«سبنسر» [١٨٢٠ ـ ١٩٠٣م] وغيرهم من علماء الغرب ممَّن لو جاز ترك مناقشتهم، فلا يسعنى أن أمر على حكيم شرقى انخرط مع من ذكرتُ من العلماء ممن أيدوا مذهب «داروين» وأخذوا بناصره، وهجموا على مألوف الشرقيين بقواعد ذلك المذهب.

فمن حيث الجهر بمعتقد يعتقده الإنسان أنه اعتقاد صحيح، ولو خالف الجمهور، فالدكتور شميل ـ (شبلى شميل) ـ له فى نشر مذهب «داروين»، وتحمله أعباء المكفرين له (عن غير علم وتحقيق) ما يُعد لشميل فضلًا.

ولكن لا أرى الدكتور«شميل» قد تخلص مع جرأته الأدبية وبعض رسوخه فى الفلسفة ـ من وصمة التقليد الأعمى لعلماء الغرب ـ وبمعنى أوضح ـ أنه أراد أن

ينتصر لداروين وأن ينشر مذهبه رغم أهل الأديان، وفى ذات الوقت عارض أستاذه وصاحب المذهب المنتصر له؟ إذ لا يخفى أن القصد من مذهب الماديين الوصول إلى أن الإنسان تدرج من الحيوان، وأعظم دليل لهم ما يُرى فى السعدان والقرود ـ وأعلى أنواعه «الأورانج أوطان» ـ من الذكاء والحركات وتركيب الأعضاء.

ثم إنهم نظروا فى أجنة ذوات الفقر ـ ومنها الإنسان ـ فرأوه يمر نموه بدرجات الحيوانات التى دونه حتى الأحفورية أو السابقة لها... إلخ.

ولكى يتوصلوا إلى جحود الإنسان بتقويمه الحسن هذا، رأيناهم يركضون وراء الأحافير ويغوصون فى طبقات الأرض، وإمامهم فى مذهب النشوء والارتقاء هو «داروين» بلا شك.

وهذا الحكيم لما وصل إلى النقطة الجوهرية، وهى (موجد نسمة الحياة) لم يسعه إلا أن قال: «إن الخالق هو الذى نفخ نسمة الحياة فى الأحياء». وهذا قوله بالنص الواحد: «إنى أرى أن الأحياء التى عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية نفخ الخالق فيهانسمة الحياة». أهـ.

إن قول «داروين» هذا، ينفى ظهور الحياة على سبيل طبيعى، ولكنه لم يرُق لعلماء الطبيعة الماديين، وأنكروا على «داروين» هذا القول، واتهموه بالخوف من أهل دينه، وقالوا إن قوله هذا يجعل المذهب ناقصًا، بل ينقضه من أساسه؛ لأن الغاية ـ كما ذكرنا ـ من مذهب الطبيعيين إنكار الخالق، وإسناد الأعمال إلى الطبيعة.

هذا مقام الحيرة لمريدى مذهب «داروين» فإما أن يكون إمام مذهبهم «داروين» قال قوله السابق عن علم وتحقيق، وفيه كما قالوا نقض لأساس المذهب، وإما أن يكون الخوف الذى اتهموه به من أهل الأديان حمله على الجهر بهدم أساس مذهب الطبيعيين!

وبالنتيجة، يريد الدكتور شميل والأستاذ «برن» وغيرهما أن يوافقوا «داروين» إذا أصر على إنكار «الخالق» ويخالفوه إذا أقر بوجوده!

وبالاختصار، إن كل ما جاء فى مذهب الطبيعيين من حصر الأحياء بأنواع قليلة، وتفرع الكثير منها وعنها، كل هذا لا يضر التسليم به، كما أنهم لا يفيدهم أن الحياة وظهور الأحياء نتيجة لقوى طبيعية.

نعم. إذا أمكنهم إثبات التولد الذاتى، كان لأقوالهم معنى ولمذهبهم مستند..

* * *

أما الانتخاب الطبيعى، فهو فى جيل البداوة وفى حضارة الإسلام أمر معروف ومعمول به، سواء أكان فى انتخاب الزوجات من النساء وتحرى النجيبات من الأمهات فيخطبون لبناتهن، وفى ذلك أقوال مأثورة ـ كالقول: «خذ لابنك خالًا» ـ أى زوجة يكون لها من الصفات الطيبة وحسن الخلق والخُلق والمزايا ما لإخوالها، حتى إذا جاء الولد يكون فيه من الوراثة عن طريق أمه ما يشبه أخواله من موجبات الفخر ـ وكذلك عن طريق الأب ـ فيشبه الأعمام فيُفتخر أو يُمتدح فيُقال: فلان مُعم ومُخول!

وأما حرص العرب على الانتخاب الطبيعى فى تحسين الحيوان أو فى تحسين نسل الخيل. فأمر مشهور، إذ البدوى إلى اليوم يطوف البرارى والأمصار ليجد لفرسه جوادًا من جياد الخيل! ويحرصون على حفظ أنساب الخيل حرصهم ـ أو أكثر من حرصهم ـ على أنساب البشر!»[1].

* * *

هكذا كان موقف الفكر العربى والإسلامى من نظرية النشوء والارتقاء ـ «الداروينية» ـ وهكذا تصدى جمال الدين الأفغانى موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام ـ لنقض المذهب المادى.. الذى تسلح أهله بنظرية النشوء والارتقاء لإنكار الألوهية والخلق الإلهى للحياة والأحياء.. مع التمييز بين التطور والانتخاب الطبيعى اللذين زكاهما وأثبت أن للعرب السبق فيهما وإليهما.. وبين النزعة المادية الإلحادية التى قال بها الغربيون الماديون..

(١) خاطرات الأفغانى انظر «آثاره الكاملة» جـ ٦. ص ١٥٤ ـ ١٥٨ إعداد: سيد هادى خسرو ـ تقديم: د. محمدعمارة. طبعة القاهرة سنة ١٤٢٣هـ، سنة ٢٠٠٢م.

كما انتقد الأفغانى التقليد الأعمى لمذاهب الغرب المادية ـ على النحو الذى تمثل فى فكر الدكتور شبلى شميل ـ ومحاولات هؤلاء المقلدين هدم أصول الاعتقاد الدينى، التى هى قوام الإيمان والاستقلال الحضارى عند الشرقيين.

لقد حدث هذا قبل أكثر من قرن من الزمان..

* * *

أما اليوم.. فإن العلم الطبيعى ذاته.. بحقائقه المؤكدة.. هو الذى ينقض «نظرية أو فرضية» النشوء والارتقاء ويجردها من كل دعاوى العلمية.. ومن ثم، يعود العلم الطبيعى إلى الوفاق مع العلم الدينى والفطرة الإيمانية.. يعود العلم الطبيعى ليكون كما تمثل فى القرآن الكريم وفى الحضارة الإسلامية ـ سبيلًا إلى زيادة الإيمان الدينى.. وزيادة الخشية لله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وليس كما أراده الماديون الغربيون سبيلًا إلى الإلحاد، ودعوى موت الإله!

وصدق الله العظيم ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وتلك هى مهمة هذا الكتاب ـ الموجز.. والمهم ـ الذى نقدم بين يديه.. والذى كتبه الأستاذ أورخان محمد على حفظه الله ورعاه ـ إقامة البرهان الفيزيائى على فساد نظرية النشوء والارتقاء. والله نسأل أن يبارك فى هذا الجهد العلمى المتميز.. وأن ينفع به.. إنه ـ سبحانه وتعالى ـ أفضل مسئول وأكرم مجيب[1].

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب ـ نهضة مصر ـ القاهرة سنة ٢٠٠٧م.

الدكتور عبد الرحمن بدوى

بطاقة حياة الدكتور عبد الرحمن بدوى

[١٣٣٥ ـ ١٤٢٣هـ ـ ١٩١٧ ـ ٢٠٠٢م]

* ولد بقرية شرباص، مركز فارسكور، بمحافظة دمياط، فى ٤ فبراير سنة ١٩١٧م ـ ربيع ثانى سنة ١٣٣٥هـ.. لأسرة ريفية موفورة الثراء وثروتها الأساسية أراض زراعية.

* وحصل على شهادة الابتدائية من مدرسة فارسكور الابتدائية سنة ١٩٢٩م سنة ١٣٤٨هـ، وكان ترتيبه أول مدرسته.. وحصل على شهادة الكفاءة من مدرسة السعيدية ـ بالجيزة سنة ١٩٣٢م سنة ١٣٥١هـ.. ثم على شهادة البكالوريا سنة ١٩٣٤م سنة ١٣٥٣هـ.. وكان ترتيبه الثانى على جميع الحاصلين عليها بمصر فى ذلك العام.

* ولقد بدأ التكوين الثقافى والفكرى لعقله مبكرًا.. وتحدث عن ذلك فقال: «لقد بدأ اهتمامى بالقراءة والدراسة والبحث عندما كنت دون العاشرة، حيث بدأت قراءتى لكتب المنفلوطى [١٢٩٣ ـ ١٣٤٢هـ ـ ١٨٧٦ ـ ١٩٢٤م]، وكانت هذه القراءات من أشد الأشياء تأثيرًا فى نفسى، وفى توجيهى إلى الأدب، والشعر منه خاصة، فى إطار النزعة الرومانتيكية. وفى هذه السن ـ العاشرة ـ تنبهت إلى أن تحصيل أكبر عدد من اللغات هو أهم أداة فى يد الباحث، ولهذا كنت وأنا فى المدرسة الثانوية ـ أدرس الألمانية والإيطالية إلى جانب اللغات المقررة علينا وقتئذ، وهى الإنجليزية والفرنسية. وكنت أقرأ صحيفتى «السياسة الأسبوعية» و«البلاغ الأسبوعى»، وفى الأولى يكتب محمد حسين هيكل [١٣٠٥ ـ ١٣٧٥هـ ١٨٨٨ ـ ١٩٥٦م] والدكتور طه حسين [١٣٠٧ ـ ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م] وأستاذى الشيخ مصطفى عبد

الرازق [١٣٠٢ ـ ١٣٦٦هـ ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦م] وأخوه الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ ـ ١٣٨٦هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦م]، وفى الثانية كان الأستاذ العقاد [١٣٠٦ ـ ١٣٨٤ـ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٤م] هو الكاتب الأول، والمازنى [١٣٠٦ ـ ١٣٦٨هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٤٩م] هو الكاتب الذى يشد الانتباه. وأعترف أن لهؤلاء جميعًا كبير الفضل فى توجيه استعدادى للاطلاع».

* ولقد التحق عبد الرحمن بدوى بكلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول ـ القاهرة الآن، واختار قسم الفلسفة، وحصل على الليسانس الممتازة فى مايو سنة ١٩٣٨م ـ ربيع أول ١٣٥٧هـ.. وكان ترتيبه الأول على جميع طلاب الكلية طوال السنوات الأربع.

* وفى كلية الآداب تتلمذ على «ألكسندر كواريه [١٨٩٢ ـ ١٩٦٤م]ـ وهو أستاذ فرنسى صاحب مؤلفات فى تاريخ العلوم وفى الفلسفة الألمانية.. وعلى الفيلسوف الفرنسى «أندريه لالاند» [١٨٦٧ ـ ١٩٦٣م].. وعلى عالم النفس «برلو» ـ الأستاذ بجامعة «رن».. وعلى الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ الذى تأثر به الدكتور بدوى، حتى وضعه ـ دون المسلمين المعاصرين ـ بين الفلاسفة، ووصفه بأنه «كان مثلًا كاملًا للإنسان، نبالة نفس ومكارم أخلاق، كما كان عالمًا بالعلوم الإسلامية، متعمقًا فى قراءة النصوص الإسلامية، مع إلمام بالفكر الأوروبى» وهو وصف لم يجد به الدكتور بدوى ولا بعشر معشاره ـ على أحد من معاصريه!

* وفى الفلسفة ـ التى تخصص فيها الدكتور بدوى.. والتى قدم فيها رسالته للماجستير عن (مشكلة الموت فى الفلسفة الوجودية) سنة ١٩٤١م سنة ١٣٦٠هـ، ورسالته للدكتوراه عن (الزمان الوجودى) سنة ١٩٤٤م سنة ١٣٦٣هـ، ـ تأثر بالوجودية ـ وجودية الفيلسوف الألمانى «هيدجر» [١٨٨٩ ـ ١٩٧٦م]ـ مع الاهتمام بالنزعة الديناميكية التى تجعل للفعل أولوية على الفكر والتى تستند فى استخلاصها لمعانى الوجود إلى العقل والعاطفة والإرادة معًا، وإلى التجربة الحية، وعلى ملكة الوجدان بوصفها أقدر ملكات الإدراك على فهم الوجود الحى.

ولقد تحدث الدكتور بدوى عن توجهه إلى الفلسفة الوجودية فقال: سافرت سنة ١٩٣٧م للدراسة فى جامعة ميونخ، فتوافرت لى قراءة مؤلفات «هيدجر»، رائد الفلسفة الوجودية الحديثة، وزميله «كارل ياسبرز» [١٨٨٣ ـ ١٩٦٩م].. ونتج عن ذلك أن بدأت أرى الوجودية خير مذهب فلسفى يطابق روح العصر، ويعبر عن حال الإنسان، ويهتم بكل ما يتعلق بالأحوال الإنسانية، ومن هنا يمكن أن يقال إن تفكيرى الفلسفى الخاص بالوجودية قد نبع من منبعين: فلسفة «هيدجر» من ناحية، ونزعات «نيتشة» (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م) من ناحية أخرى».

* ولقد عين الدكتور بدوى معيدًا بقسم الفلسفة بكلية الآداب فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٨م شعبان سنة ١٣٥٧هـ. وتولى مساعدة الأستاذ «لالاند» فيما كان يلقيه من دروس فى مادتى «مناهج البحث» و«ما بعد الطبيعة».. ومنذ يناير سنة ١٩٣٩م قام بتدريس تاريخ الفلسفة اليونانية، وشرح نصوص فلسفية بالفرنسية لطلاب قسم الفلسفة.. وكذلك تدريس المنطق، ونصوص فى الفلسفة اليونانية..

* ثم عين مدرسًا للفلسفة فى إبريل سنة ١٩٤٥م ـ جمادى الأولى سنة ١٣٦٤هـ. ثم رقى أستاذًا مساعدًا فى يوليو سنة ١٩٤٩م ـ رمضان سنة ١٣٦٨هـ.

* وفى المدة من سنة ١٩٤٧م إلى سنة ١٩٤٩م ـ ١٣٦٦ ـ ١٣٦٨هـ ـ عمل أستاذًا للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب العليا ـ بالجامعة الفرنسية ـ ببيروت ـ التابعة لجامعة ليون بفرنسا.

* وفى صيف سنة ١٩٥٠ م سنة ١٣٦٩هـ انتقل الدكتور بدوى للتدريس بجامعة عين شمس، فأنشأ فيها قسم الفلسفة، وتولى رئاسة هذا القسم إلى أن ترك هذه الجامعة سنة ١٩٧١م ـ ١٣٩١هـ.. وكان قد رقى لدرجة الأستاذ فى يناير سنة ١٩٥٩م ـ رجب سنة ١٣٧٨هـ..

* كما عمل مستشارًا ثقافيًّا ومديرًا للبعثة التعليمية ببرن ـ فى سويسرا ـ من سنة ١٩٥٦م سنة ١٣٧٥هـ إلى سنة ١٩٥٨م ـ سنة ١٣٧٧هـ..

* وفى فبراير سنة ١٩٦٧م ـ ذى القعدة سنة ١٣٨٦هـ انتدب أستاذًا زائرًا فى قسم الفلسفة بمعهد الدراسات الإسلامية بكلية الآداب ـ بالسوربون ـ فى باريس ـ وحتى مايو سنة ١٩٦٧م ـ صفر سنة ١٣٨٧هـ.

* ومن سنة ١٩٦٧م ١٣٨٧هـ حتى ١٩٧٣م ١٣٩٣هـ عمل أستاذًا للمنطق والفلسفة فى كلية الآداب ـ بالجامعة الليبية ـ ببنغازى ـ وهناك تعرض لمحنة الاعتقال من قِبْل نظام العقيد معمر القذافى [١٩٤٢ ـ ٢٠١١م] فتدخلت مصر، وطلب الرئيس السادات (١٩١٨ ـ ١٩٨١م) الإفراج عنه.

* وفى العام الدراسى سنة ١٩٧٣م ـ سنة ١٩٧٤م عمل أستاذًا بكلية الإلهيات والعلوم الإسلامية بجامعة طهران.. وفيها درس التصوف الإسلامى والفلسفة الإسلامية لطلاب الدراسات العليا.. وحاضر أساتذتها وطلابها فى التصوف الإسلامى.

* وفى سبتمبر سنة ١٩٧٤م ـ رمضان سنة ١٣٩٤هـ. انتقل إلى جامعة الكويت أستاذًا للفلسفة المعاصرة والمنطق والأخلاق والتصوف بكلية الآداب.

* ولقد أجاد الدكتور بدوى إلى جانب العربية ـ اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإسبانية والإيطالية واللاتينية واليونانية.. وكتب بها الكتب والأبحاث والمقالات ـ التى بلغت المئات.

* كما عاش راهبًا فى محراب الفكر متخذًا من المكتبات والمراجع أسرته.. ولقد اعتاد ـ منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ـ وبعد الفراغ من تصحيح أوراق الامتحانات فى الجامعة أن يطير ليقضى ثلاثة أشهر على الأقل فى باريس وأوروبا (خصوصًا هولندا وإسبانيا) للاطلاع على المخطوطات.. وكانت حياته بباريس بين المكتبة الوطنية وبين تلاميذه، ولقاءكبار المفكرين والأدباء والرسامين.

* وفى السياسة الوطنية كان الدكتور بدوى عضوًا بحزب «مصر الفتاة» ما بين عامى سنة ١٩٣٨م سنة ١٣٥٧هـ وسنة ١٩٤٠م سنة ١٣٥٩هـ. ثم عضوًا فى اللجنة العليا للحزب الوطنى الجديد من سنة ١٩٤٤م سنة ١٣٦٣هـ حتى سنة ١٩٥٢م سنة ١٣٧١هـ..

* ولقد اختير عضوًا بلجنة الخمسين التى عهد إليها سنة ١٩٥٣ سنة ١٣٧٢هـ بوضع دستور جديد لمصر بدلًا من دستور سنة ١٩٢٣م، الذى ألغته ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م.

* ولقد انتهى المطاف بالدكتور بدوى إلى الإقامة بباريس فى السنوات الأخيرة من حياته.. وهناك واجه صعود ظاهرة العداء للإسلام، التى عمت الكثير من المجتمعات الغربية، وخاصة بعد سقوط المنظومة الشيوعية، وتوحد قبضة الحضارة الغربية، واتخاذها الإسلام عدوًا أحلته محل الخطر الشيوعى الأحمر.. فكان ختام حياته الفكرية بالدفاع عن الإسلام والقرآن ونبى الإسلام ﷺ مفندًا الجذور الفكرية الاستشراقية التى تغذى ظاهرة «الإسلاموفوبيا».. وذلك بعد أن عاش ردحًا من الزمن ينشر فى الثقافة العربية مناهج الاستشراق والمستشرقين.

* فقبيل سقوط الشيوعية، نشر الرئيس الأمريكى «ريتشارد نيكسون» (١٩١٣ ـ ١٩٩٤م) ـ وهو مفكر استراتيجى ـ كتابه (الفرصة السانحة) الذى أعلن فيه الحرب الغربية على الأصولية الإسلامية ـ التى تدعو ـ حسب رأيه ـ إلى:

ـ استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضى، لاتخاذه هداية للمستقبل.

ـ والسعى إلى تطبيق الشريعة الإسلامية.

ـ واتخاذ الإسلام دينًا ودولة[1].

* وفور سقوط الشيوعية ـ الخطر الأحمر ـ قرر الغرب الإمبريالى الرأسمالى، اتخاذ الإسلام عدوًا بديلًا للخطر الأحمر ـ وشن عليه حملة واسعة من الكراهية والتخويف والتزييف.. فكتبت مجلة [شئون دولية] ـ التى تصدر بلندن عن جامعة كمبردج ـ تقول: «**لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفييتى، وبالنسبة لهذا الغرض فإن الإسلام جاهز فى المتناول!.. فالإسلام مقاوم**

(١) نيكسون [الفرصة السانحة] ص ـ ١٤٠ ترجمة: د. أحمد صدقى مراد ـ طبعة دار الهلال ـ القاهرة سنة ١٩٩٢م.

للعلمنة، وسيطرته على المؤمنين به قوية، وهى أقوى الآن عما كانت من مائة سنة مضت. لذلك فهو، من بين الثقافات الموجودة فى الجنوب، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلى وحقيقى لمجتمعات يسودها مذهب اللأدارية، وفتور الهمة واللامبالاة، وهى آفات من شأنها أن تؤدى إلى هلاك تلك المجتمعات ماديًّا، فضلًا عن هلاكها المعنوي[1].

* ولقد تبارى المفكرون الاستراتيجيون الغربيون فى التحذير من الإسلام، وفى تأجيج نيران العداء له، وإعلان الحرب عليه.. فكتب «فوكوياما» يقول: «**إن الإسلام هو الحضارة الوحيدة فى العالم التى ترفض الحداثة الغربية، ومبدأها الأكثر أساسية وهو العلمانية.. وإن الصراع الحالى ليس ضد الإرهاب، ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التى ترفض الحداثة والدولة العلمانية.. وهذا الصراع يمثل تحديًّا أيديولوجيًّا، هو فى بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية**»!

* ولقد انضم «فيلسوف صدام الحضارات» «صموئيل هنتجتون» [١٩٢٧ ـ ٢٠٠٨م] إلى «فوكوياما»، وأعلنا «**ضرورة قيام «حرب داخل الإسلام، حتى يقبل الحداثة الغربية، والعلمانية الغربية، والمبدأ المسيحى: فصل الدين عن الدولة**»[2]!

* ويعلن الكاردينال «بول بوبار» مساعد بابا الفاتيكان: «**أن الإسلام يشكل تحديًّا لأوروبا وللغرب عمومًا.. وأن هذا التحدى يكمن فى أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، فى حين أن المسيحيين فى أوروبا يميلون إلى ـ تهميش الكنيسة ـ أمام المجتمع**»[3].

* ويعلن المونسنيور «جوزيبى برناردينى » فى حضرة بابا الفاتيكان ـ: «**أن العالم الإسلامى لديه برنامج للتوسع فى أوروبا وهو يريد أن يفتحها فتحًا جديدًا**»[4]!

(١) مجلة [شئون دولية] عدد يناير سنة ١٩٩١م.
(٢) مجلة [نيوزويك] ـ الأمريكية ـ العدد السنوى ديسمبر سنة ٢٠٠١ ـ فبراير سنة ٢٠٠٢م.
(٣) صحيفة [الشرق الأوسط] ـ لندن فى ١ ـ ١٠ ـ ١٩٩٩م.
(٤) المرجع السابق. فى ١٣ ـ ١٠ ـ ١٩٩٩م.

* وتنصح مراكز الدراسات الغربية ـ وفى المقدمة منها «مؤسسة راند» الأمريكية ـ صانع القرار الغربى بالاعتماد على الحداثيين والعلمانيين فى العالم العربى والإسلامى، لاستخدامهم فى الصراع ضد الإسلاميين الأصوليين والراديكاليين!

* ويجد الدكتور عبد الرحمن بدوى كل معالم هذه الحرب على الإسلام ـ فى فرنسا والغرب فى السنوات التى عاشها هناك.. وفى مواجهة هذه التحديات انتفض عقل الدكتور بدوى، فعاد بكل كيانه إلى أصالته الحضارية، وبدأ مرحلة إيابه الفكريّ ودفاعه عن الإسلام.. والقرآن.. ورسول الإسلام ﷺ.. ويومها قال: «**إن عنصرية الغربيين ضد الإسلام واضحة.. فالغرب، فيما يتعلق بالإسلام، يكيل ليس بمكيالين فقط، بل بعشرة أو ربما بمائة مكيال.. فهو أكثر عنصرية ووحشية مع الإسلام ممايمكن أن نتصور.. وفى مكتبات باريس عشرات الكتب التى تقطر سما على الإسلام.. بل إن الكتابة فى الإسلام قد أصبحت حكرًا على ذوى الخط الأعوج!.. إن كل من هب ودب من الغربيين بات يعطى نفسه الحق فى الحديث عن الإسلام، وترجمة قرآنه المجيد.. ولقد تألمت كثيرًا لأن باحثًا يهوديًّا يدعى «أندريه شوراكى» (كان يشغل منصب عمدة القدس) قام بوضع ترجمة للقرآن الكريم هى عار على الترجمة والمترجمين فى كل زمان، لأنها مليئة بالاعتداءات الصارخة على قداسة النص القرآنى!.. إن الغرب لا يريد أن يفهم من الإسلام إلا ما يريد هو أن يفهمه، ولذلك يرحب ويفسح المجال أمام ترجمة مؤلفات الكتاب العلمانيين دون غيرها.. إنهم يحرصون على ترجمة مقالات الكتاب العلمانيين، أمثال فرج فودة وسعيد العشماوى وفؤاد زكريا ـ التى جمعها وترجمها من العربية إلى الفرنسية المستشرق جيل كيبيل.**

ولقد لاحظت أن حياة النبى ﷺ أصبحت تلوكها ـ عن علم أو عن غير علم ـ ألسن الأدعياء من الكتاب الغربيين. ولذلك أردت أن أقطع عليهم هذا العبث، فقمت بترجمة ـ السيرة النبوية لابن هشام، وأنفقت فيها عامين كاملين من العمل المتواصل.

وبهذه الترجمة أكمل سلسلة الكتب التى أدافع بها عن الإسلام ـ بالفرنسية ـ وأهمها: [دفاع عن القرآن ضد منتقديه] سنة ١٩٨٩م و[دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره] سنة ١٩٩٠م.

إن هناك جرأة جهولة حمقاء عند هؤلاء الكتاب الأجانب، الذى يجهلون العربية، مع معلومات ضحلة عن المصادر الإسلامية، وسيطرة الحقد الدفين لديهم ضد الإسلام، ونقلهم الأكاذيب والافتراءات حول القرآن والإسلام بعضهم من بعض، والتزامهم التبشيرى الشديد التعصب والاجتراء على الإسلام.. لذلك كرست جهودى فى السنوات الأخيرة للدفاع عن الإسلام، وتصديت بالتفنيد والتحليل لكل الكتابات الغربية المغرضة..

وأعتزم كتابة دراسة نقدية لكل الترجمات الفرنسية التى صدرت عن القرآن الكريم فى السنوات العشر الأخيرة»..

* كذلك وجد الدكتور بدوى ـ بباريس ـ نماذج من الأساتذة والباحثين «العرب» الذين سقطوا فى غواية الاستشراق الغربى، فأصبحوا خدمًا لهذه المخططات الاستشراقية ـ ومن هؤلاء د. محمد أركون ـ الذى قال عنه الدكتور بدوى: «.. **وهل لأركون من رسالة سوى تشويه التراث الإسلامى؟!.. إنه تلميذ فى مدرسة الاستشراق الاستعمارى الكبرى التى تضع نصب عينيها كهدف ثابت تشويه الإسلام والإساءة إلى نبيه والطعن فى قرآنه المجيد، وهو يحيط نفسه بمزاعم معرفية لا أساس لها.. وهو مشكوك فى وطنيته.. لقد جنى على الفكر العربى جناية لا تغتفر.. ولقد كتب مقدمة لترجمة «كازيمسكى» للقرآن الكريم حوت أخطاء ومغالطات لاتكاد تغتفر لدارس مبتدئ فى تاريخ الفكر الإسلامى»!**

* **وفى باريس، رفض الدكتور بدوى استقبال أستاذ مصرى للفلسفة.. معللًا ذلك بأن هذا الأستاذ «قد اعتنق النصرانية لمدة لا تقل عن عشر سنوات عندما كان يدرس فى فرنسا وكان ينام الليل والنهار فى الدير لا يبرحه»!!**

هكذا انتفض عقل الدكتور عبد الرحمن بدوى.. وانتفض وجدانه، فعاد إلى أصالته الحضارية، مدافعًا عن الإسلام وعن القرآن وعن رسول الإسلام ﷺ.

* وقبل شهر من وفاته ـ التى جاءت فى ٢٥ ـ ٧ ـ ٢٠٠٢م ـ ١٥ جمادى الأولى سنة ١٤٢٣هـ ـ وهو على فراش المرض ـ أجرت معه مجلة [الحرس الوطني] السعودية ـ

حوارًا أعلن فيه صراحة إيابه الفكرى إلى الإسلام وحضارته.. وطيه لصفحة الوجودية التى استغرقت من حياته عدة عقود.. وفى هذا الحوار سأله مندوب المجلة:

ـ ماذا تود أن تقول وأنت على فراش المرض؟

ـ لا أستطيع أن أعبر عما بداخلى من إحساس الندم الشديد، لأننى عاديت الإسلام والتراث العربى لأكثر من نصف قرن. أشعر الآن أننى بحاجة إلى من يغسلنى بالماء الصافى الرقراق، لكى أعود من جديد مسلمًا حقًّا. إننى تبت إلى الله وندمت على ما فعلت، وأنوى إن شاء الله ـ بعد شفائى ـ أن أكون جنديًّا للفكر الإسلامى وللدفاع عن الحضارة التى شادها الآباء والأجداد، والتى سطعت على المشارق والمغارب لقرون وقرون.

ـ وهل تبرأت من كتاباتك السابقة عن «الوجودية» و«الزمن الوجودى» وعن كونك رائد الوجودية فى الوطن العربى؟!

ـ نعم.. أى عقل ناضج يفكر لا يثبت على حقيقة واحدة. ولكنه يتساءل ويستفسر ويطرح أسئلته فى كل وقت، ويجدد نشاطه باستمرار، ولهذا، فأنا فى الفترة الحالية أعيش مرحلة القرب من الله تعالى، والتخلى عن كل ما كتبت من قبل من آراء تتصادم مع العقيدة والشريعة، ومع الأدب الملتزم بالحق والخير والجمال، فأنا الآن.. هضمت تراثنا الإسلامى قراءة وتذوقًا وتحليلًا وشرحًا وبدا لى أنه لم يتأت لأمة من الأمم مثل هذا الكم الزاخر النفيس من العلم والأدب والفكر والفلسفة لأمة الضاد!! كما أنى قرأت الآداب والفلسفات الغربية فى لغاتها الأم، مثل الإنجليزية والفرنسية واللاتينية والألمانية والإيطالية، وأستطيع أن أقول إن العقل الأوروبى لم ينتج شيئًا يستحق الإشادة والحفاوة مثلما فعل العقل العربى!!. وتبين لى فى النهاية ـ الغى من الرشاد، والحق من الضلال.

ـ وماذا تنوى أن تقدم من مشاريع فكرية فى المستقبل؟ وهل ستعود إلى باريس ثانية؟

ـ مشاريعى الفكرية القادمة إن شاء الله تتجه وجهة فكرية أخرى تميل إلى الأصالة بعد أن افتضحت «المعاصرة» وغزاها الجحود والتخلف والتعقيد.

وأنا من الباحثين عن أسس مرجعية للحضارة الإسلامية، وبصدد تأليف كتاب يكون مرجعًا لمعالم الحضارة فى الإسلام، سماتها، أسماؤها، معالمها، اتجاهاتها، شخصياتها، أبرز علمائها.. إلخ.. وهناك كتاب آخر عن الأدب والعقيدة دراسة فى نماذج مختلفة وغير ذلك من الموضوعات التى تمتاح من الأصالة وتتعمقها وتتشربها أصلًا ونبراسًا وطريقًا لا مناص ولا محيد عنه. وربما أعود إلى باريس ثانية.

ـ خلافك مع كبار المفكرين كالدكتور طه حسين، وقولك إنه لم يقدم ما يستحق عليه لقب «عميد الأدب العربى»، هل ما زلت مصرًا عليه؟!

ـ نعم.. وليقارن القارئ والباحث بين إنتاج طه حسين وإنتاج معاصريه، كالرافعى مثلًا، ذلك الأديب الكبير المظلوم، الذى يمتلك قدرات ومؤهلات أدبية وفكرية خارقة وصاحب قلم رشيق، وخيال خصب، وعبارات مبتكرة، وكتابات توزن بميزان الذهب، بينما نجد على النقيض أعمال طه حسين الضاربة فى اتجاه معاداة الإسلام واللغة العربية والدعوة إلى الفكر الغربى، ثقافة وأدبًا[1]!!

ـ وما رأيك فى الحداثة بعد أن افتضح أمرها، وثارت حولها القصص والحكايات بشأن التمويل والعلاقات المشبوهة مع المخابرات الغربية؟!

ـ الحداثة ماتت فى الغرب فى السبعينيات، لكننا أحييناها على ترابنا، وفى جامعاتنا ومعاهدنا، وفى منتدياتنا الفكرية والثقافية والأدبية. وعادينا من أجلها تراثنا العظيم، وشعرنا العمودى، وفكرنا القويم، وخضنا بسببها حروبًا طاحنة، واشتباكات فكرية لا طائل من ورائها! ولم يفطن أدباؤنا ولا مفكرونا إلى حقيقتها وإلى أوزارها ومساوئها إلا بعد صدور هذا الكتاب [الحرب الباردة الثقافية.. دور المخابرات المركزية الأمريكية فى الثقافة والفن] الذى أحدث صدمة قوية بالنسبة لهؤلاء المتغربين، فاقتنعوا أخيرًا بما كنا نقوله من قبل!

(١) لقد كان لطه حسين ـ هو الآخر ـ إياب إلى الإسلام ـ لم يتابعه الدكتور بدوى انظر كتابنا [طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام] ملحق مجلة [الأزهر] عدد ذى القعدة سنة ١٤٣٥هـ ـ وطبعة دار الفكر العربى القاهرة سنة ٢٠١٥م.

ـ يهاجم الجميع العولمة، لما يكتنفها من هيمنة وغزو وسيطرة ومحق لثقافات وتوجهات وهويات الآخرين الحضارية.. فما رأيك فى ذلك؟!

ـ العولمة.. شبح يريد الفتك بنا جميعًا، فهى وحش كاسر يتربص بالعالم كله، لكى يستحوذ عليه ثقافيًّا وفكريًّا وحضاريًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا، وهى استعمار جديد، وهيمنة غربية على مقدرات العالم، ولعقوله وأفكاره وأمواله!. ويجب أن نتصدى لها، وأن نفيق لمخططاتها الجهنمية!

ـ وهل تقدرون مغبة عودتك الحميمة للإسلام، بالنسبة للحداثيين والعلمانيين الذين سيشنون حربًا شرسة ضدكم؟!

ـ ما دمت قد هاجمت الأصلاء وعرضت بهم وبإنتاجهم لسنين وسنين، فما المانع أن أذوق من نفس الكأس، وأن أشرب منه، بعد أن تسببت فى تجرع الكبار من هذه الكأس من قبل؟!. وأنا سعيد أن يهاجمنى الوجوديون والعلمانيون والشيوعيون، لأن معنى ذلك أنى أسير على الحق، وأننى على صواب. ولا أكترث بما يكتبون، لأن القافلة تسير، والكلاب تنبح!!

ـ وماذا تتمنى فى هذه اللحظة؟!

ـ أتمنى أن يمد الله فى عمرى، لأخدم الإسلام، وأرد عنه كيد الكائدين، وحقد الحاقدين»[1].

* رحم الله الدكتور عبد الرحمن بدوى.. الذى مثل ـ فى عالم الفكر ـ مؤسسة فكرية كبرى.. والذى مثل ـ فى عالم الشجاعة الأدبية والإياب الفكرى ـ نموذجًا فى الانتصار للحق جديرًا بالاحتذاء.

* والذى ترك وراءه ـ غير مئات المقالات وآلاف المحاضرات والعديد من التلاميذ ـ مؤلفات ومترجمات وتحقيقات زاد عددها على المائة والخمسين.. ومنها[2]:

(١) مجلة [الحرس الوطني] ـ السعودية ـ العدد ٢٤٤ ـ فى ١/ ١٠/ ٢٠٠٢م.
(٢) انظر فى ترجمة الدكتور بدوى:

قائمة بأعمال د. عبد الرحمن

أعماله الأجنبية

	السنة	
1. Autobo biorafia De Ibn Arabi	١٩٥٥	
2. Le Probleme de la dans la Philosophie Existencielle	١٩٦٤	رسالة الماجستير والتى نشرت بالفرنسية أصلًا، ولم يتم ترجمتها إلى العربية
3. La trausmission de la philosophie greequeau monde arabe	١٩٦٨	
4. Philosophie et Theologie de I'Islam a I'epoqae classique-in Philosophie	١٩٧٢	
5. Histori de la Philosophie en Islam-2Tomes	١٩٧٢	
6. Storia Deila Filosofia_La Filosofia Medievale (with Anouar Abdel Malek, Benedykt Grynas, Pairrick Hodhart, Jean Pepin)	١٩٧٦	ميلانو نشر في
7. Quelques figures et thémes de la [hilosophie islamique]	١٩٧٩	
8. Milenario de Avicena	١٩٨١	
9. Ghazali, La raison et Le miracle	١٩٨٧	
10. Aristotle Aujourdhui	١٩٨٨	
11. Dèfense du Cornan Contre ses critiques	١٩٨٩	

(أ) [موسوعة الفلسفة] للدكتور بدوى جـ ١، جـ ٢ طبعة بيروت سنة ١٩٨٤م.

(ب) [موسوعة المستشرقين] للدكتور بدوى طبعة بيروت سنة ١٩٨٤م.

(ج) د. سعيد اللاوندى [عبد الرحمن بدوى: فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام] ـ مركز الحضارة العربية ـ القاهرة سنة ٢٠٠١م.

ـ [وفى المرجع الأخير ـ تفاصيل حياة الدكتور بدوى إبان سنوات إقامته بباريس.. وكان الدكتور اللاوندى شاهدًا عليها].

12. Dèfense du la via du Prophète Muhammad contre ses Dètracteurs	١٩٩٠	
13. Averroes-Ibn Rushd	١٩٩٩	
14. Muhammad	٢٠٠١	

أعماله العربية (مؤلفات ومترجمات)

	السنة	
١ ـ ابن رشد: تلخيص القياس لأرسطو (السلسة التراثية ١٧)	١٩٨٨	
٢ ـ ابن عربى: حياته ومذهبه: اسين بلاتيوس	١٩٦٥	
٣ ـ أجزاء الحيوان لأرسطو	١٩٧٨	
٤ ـ آداب الفلاسفة: حنين بن إسحق	١٩٨٥	
٥ ـ أرسطو	١٩٤٤	
٦ ـ أرسطو عند العرب: دراسة ونصوص غير منشورة	١٩٤٧	
٧ ـ أرسطوطاليس: فى السماء والآثار العلوية (الجزء الأول)	١٩٦١	
٨ ـ أسفار اتشيلد هارولد: بيرن	١٩٤٤	
٩ ـ اشبلنجر	١٩٤٥	
١٠ ـ أفلاطون	١٩٤٣	
١١ ـ أفلاطون فى الإسلام	١٩٧٣	طائفة من نصوص أفلاطون، الصحيحة والمحولة، التى ترجمت إلى العربية فى القرنين الثالث والرابع للهجرة (التاسع والعاشر للميلاد)

١٢ ـ أفلوطين عند العرب	١٩٥٥	
١٣ ـ الأخلاق النظرية	١٩٧٥	
١٤ ـ الأخلاق	١٩٧٧	
١٥ ـ الأخلاق عند كنت	١٩٧٩	
١٦ ـ الأدب الألمانى فى نصف قرن	١٩٩٤	
١٧ ـ الإشارات الإلهية لأبى حيان التوحيدي	١٩٥٠	
١٨ ـ الأصول اليونانية للنظريات السياسية فى الإسلام	١٩٥٤	
١٩ ـ الأفلاطونية المحدثة عند العرب	١٩٥٥	
٢٠ ـ الأنساب المختارة: جيته	١٩٤٥	
٢١ ـ الإنسان الكامل فى الإسلام	١٩٥٠	
٢٢ ـ الإنسانية والوجودية فى الفكر العربي	١٩٤٧	
٢٣ ـ البرهان من كتاب الشفاء لابن سينا	١٩٥٤	
٢٤ ـ التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية: دراسات لكبار المستشرقين	١٩٤٠	
٢٥ ـ التعليقات لابن سينا	١٩٧٢	
٢٦ ـ الحكمة الخالدة: مسكويه	١٩٥٢	أدب الأمثال والحكم والمواعظ، فيه من النفع بقدر ما فيه من الضرر
٢٧ ـ الحور والنور	١٩٥١	
٢٨ ـ الخطابة: أرسطوطاليس	١٩٥٩	
٢٩ ـ الخوارج والشيعة (أحزاب المعارضة الدينية السياسية فى صدر الإسلام): فلهوزن	١٩٥٨	
٣٠ ـ الديوان الشرقى للمؤلف الغربى (جيته)	١٩٤٤	
٣١ ـ الزمان الوجودي	١٩٤٥	

٣٢ ـ الطبيعة لأرسطو (جزآن)	١٩٦٥	
٣٣ ـ الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى من الفتح العربى حتى اليوم لألفرد بل	١٩٦٩	الواقع الاجتماعى، والدينى والتعليمى للشمال الأفريقى، مع ذكر أهم التيارات والمذاهب الموجودة قبل الفتح الإسلامى.
٣٤ ـ أوبرا القروش الثلاثة ـ لوكلوس ـ بعل	١٩٧٧	
٣٥ ـ الفلسفة القورنثائية أو مذهب اللذة.	١٩٦٩	
٣٦ ـ الفلسفة والفلاسفة فى الحضارة العربية	١٩٩٣	
٣٧ ـ اللصوص: فريدريش شيلر	١٩٨١	
٣٨ ـ المؤامرة والحب	١٩٩٤	
٣٩ ـ المثالية الألمانية (جزء ١) شلنج	١٩٦٥	
٤٠ ـ المثل العقلية الأفلاطونية	١٩٤٧	
٤١ ـ المدرسة القورنيائية	١٩٦٩	
٤٢ ـ المنطق الصورى والرياضي	١٩٦٢	
٤٣ ـ الموت والعبقرية	١٩٤٥	
٤٤ ـ النقد التاريخي	١٩٦٣	
٤٥ ـ الوجود والعدم ـ سارتر	١٩٦٦	
٤٦ ـ إلى طه حسين فى ميلاده السبعين دراسات مهداة من أصدقائه وتلاميذه بإشراف عبد الرحمن بدوي	١٩٦٢	
٤٧ ـ أمانويل كنت	١٩٧٦	
٤٨ ـ اندين فوكية	١٩٤٤	
٤٩ ـ تاريخ التصوف الإسلامى من البداية حتى نهاية القرن الثاني	١٩٧٥	
٥٠ ـ تاريخ الفلسفة فى ليبيا (الجزء الأول) كرنيادس القورنيائي	١٩٧١	

٥١ ـ تاريخ الفلسفة فى ليبيا (الجزء الثانى) سونسيوس القورنيائي	١٩٧١	
٥٢ ـ تاريخ العالم (أوروسيوس): الترجمة العربية القديمة	١٩٨٢	
٥٣ ـ تراجيديات اسخولوس	١٩٩٦	
٥٤ ـ تراجيديات سوفقليس	١٩٩٦	
٥٥ ـ تلخيص الخطابة لابن رشد	١٩٦٠	
٥٦ ـ توركواتو تاسو: جيته	١٩٨٠	
٥٧ ـ جون لوك: رسالة فى التسامح	١٩٨٨	التسامح والتعايش بين فئات المجتمع، وفرقه الدينية، وتحديد سلطة الكنيسة والحكومة
٥٨ ـ جيتس فون برلشنجن: جيته	١٩٧٩	
٥٩ ـ حازم القرطاجنى ونظريات أرسطو فى البلاغة والشعر	١٩٦١	
٦٠ ـ حياة لثريو دى تورمس	١٩٧٩	
٦١ ـ حياة هيجل	١٩٨٠	
٦٢ ـ خريف الفكر اليونانى	١٩٤٦	
٦٣ ـ دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي	١٩٧٩	
٦٤ ـ دراسات فى الفلسفة الوجودية	١٩٦١	
٦٥ ـ دراسات ونصوص فى الفلسفة والعلوم عند العرب	١٩٨١	

٦٦ ـ دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى	١٩٦٥	قصة الوجود نفسه بقطبيه المتنافرين المتصارعين، ومن نزاعهما يتألف ديالكتيك الوجود
٦٧ ـ دون كيخوتة (جزآن)	١٩٦٥	
٦٨ ـ ربيع الفكر اليونانى	١٩٤٣	
٦٩ ـ رسائل ابن سبعين	١٩٦٥	
٧٠ ـ رسائل فلسفية للكندى والفارابى وابن باجه وابن عدي	١٩٧٣	رسائل فلاسفة العرب
٧١ ـ روح الحضارة العربية	١٩٤٩	
٧٢ ـ رينيه ويج: الفن والنور واللوحات ومصر ملتقى الشرق والغرب	١٩٦٥	
٧٣ ـ سيرة حياتي	٢٠٠٠	مذكراته الشخصية فى جزئين
٧٤ ـ شخصيات قلقة فى الإسلام	١٩٤٦	
٧٥ ـ شروح على أرسطو مفقودة فى اليونانية	١٩٧٢	
٧٦ ـ شطحات الصوفية (أبو يزيد البسطامى)	١٩٤٩	
٧٧ ـ شهيدة العشق الإلهى: رابعة العدوية	١٩٤٨	
٧٨ ـ شوبنهاور	١٩٤٢	
٧٩ ـ صوان الحكمة لأبى سليمان السجستاني	١٩٧٤	
٨٠ ـ طباع الحيوان لأرسطو	١٩٧٧	
٨١ ـ طبول فى الليل، حياة جاليليو: بريخت	١٩٧٧	
٨٢ ـ عيون الحكمة ابن سينا	١٩٥٤	
٨٣ ـ فاوست (٣ أجزاء)	١٩٧٤	
٨٤ ـ فضائح الباطنية لأبى حامد الغزالي	١٩٦٤	
٨٥ ـ فلسفة الحضارة: ألبرت أشفيتسر	١٩٦٣	
٨٦ ـ فلسفة الدين والتربية عند كنت	١٩٨٠	

٨٧ ـ فلسفة العصور الوسطى	١٩٦٢	
٨٨ ـ فلسفة الجمال والفن عند هيجل	١٩٩٦	
٨٩ ـ فلسفة القانون والسياسة عند هيجل	١٩٧٩	
٩٠ ـ فلهلم تل: فريدريش شيلر	١٩٨٢	
٩١ ـ أرسطوطاليس: فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابى وابن سينا وابن رشد	١٩٥٣	
٩٢ ـ فن الشعر من الشفاء لابن سينا	١٩٦٦	
٩٣ ـ فى الشعر الأوروبى المعاصر	١٩٦٣	
٩٤ ـ فى النفس لأرسطوطاليس	١٩٥٤	
٩٥ ـ مؤلفات ابن خلدون	١٩٧٩	
٩٦ ـ مؤلفات الغزالي	١٩٦١	
٩٧ ـ الأم شجاعة ـ السيد بنتلا وخادمه ماتى: برتولد برشت	١٩٧٨	
٩٨ ـ مختار الحكم ومحاسن الكلم لأبى الوفا المبشر بن فاتك	١٩٥٨	
٩٩ ـ مخطوطات أرسطو فى العربية	١٩٥٩	
١٠٠ ـ مدخل جديد إلى الفلسفة	١٩٧٩	
١٠١ ـ مذاهب الإسلاميين (جزآن)	١٩٧١	
١٠٢ ـ مرآة نفسى (شعر)	١٩٤٦	
١٠٣ ـ مسرحيات أيونسكو: الدرس فتاة للزواج		
١٠٤ ـ مسرحيات برشت (الأم شجاعة ـ الإنسان الطيب فى ستسوان)	١٩٦٥	
١٠٥ ـ مسرحيات لوركا (عرس الدم ـ يرما ـ الإسكافيه العجيبة)	١٩٦٤	

١٠٦ ـ مسرحية دائرة الطباشير القوقازية (سلسلة روائع المسرح العالمى ٣٠)	١٩٦١	
١٠٧ ـ مسرحية علماء الطبيعة (فردريش دورنمات) (سلسلة روائع المسرح العالمى ٣٨)	١٩٦١	
١٠٨ ـ مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة فى فرنسا	١٩٦٤	
١٠٩ ـ مصطلحات الفلسفة باللغات الفرنسية والإنجليزية والعربية ـ بالاشتراك مع د. أبو العلا عفيفى ود. زكى نجيب محمود ود. محمد ثابت الفندي	١٩٦٤	
١١٠ ـ من تاريخ الإلحاد فى الإسلام	١٩٤٥	
١١١ ـ من حياة حائر بائر: أيشندروف	١٩٤٤	
١١٢ ـ مناهج البحث العلمي	١٩٦٣	
١١٣ ـ منطق أرسطو (٣ أجزاء)	١٩٤٨	
١١٤ ـ موسوعة الحضارة العربية الإسلامية (٣ أجزاء) بالاشتراك مع آخرين	١٩٨٧	
١١٥ ـ موسوعة الفلسفة (٣ أجزاء)	١٩٨٤	
١١٦ ـ موسوعة المستشرقين	١٩٨٣	
١١٧ ـ ابن رشد شرح البرهان لأرسطو وتلخيص البرهان	١٩٨٤	
١١٨ ـ نيتشة	١٩٣٩	أول كتاب كتبه بدوى
١١٩ ـ هل يمكن قيام أخلاق وجودية	١٩٥٣	
١٢٠ ـ هموم الشباب	١٩٤٦	
١٢١ ـ فلسفة القانون والسياسة: أمانويل كنت	١٩٧٩	

١٢٢ ـ مسرحية عذراء أورليان (جان دارك) مأساة رومانتيكية: فريدرش شيللر	٢٠٠٤	
١٢٣ ـ دفاع عن القرآن ضد منتقديه	١٩٨٩	
١٢٤ ـ دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره	١٩٩٠	
١٢٥ ـ ترجمة سيرة ابن هشام إلى الفرنسية		

بالإضافة إلى (أعمال لم تنشر)، وهى:

١ ـ ترجمة مسرحيات يوريفيدس (من اليونانية إلى العربية)، فى ٣٤ بلوك نوت.

٢ ـ لوركا: قصيدة الغناء الغجرى فى ٢ بلوك نوت.

٣ ـ لوركا: حكايات الغجر، فى ٢ بلوك نوت.

٤ ـ شلر: عروس مينا، فى ٢ بلوك نوت.

٥ ـ خماسيات فى الشعر: أشعار الدكتور عبد الرحمن بدوى نفسه.

٦ ـ مسودة كتاب من تأليف بدوى بعنوان: La Bibliathque DÁlexandriea

قام فيه بالرجوع إلى المؤرخين اليونان والرومان والعرب الذين كتبوا عن مكتبة الإسكندرية يقع فى ٥٥ صفحة.

٧ ـ مسودة كتاب من تأليف بدوى بعنوان Le Mussee dÁlexandrie

عن متحف الإسكندرية القديم، وتقع فى ٩٣ صفحة.

٨ ـ مجموعة مقالات، عناوينها كالآتى:

* «أيبونيم» وهو اسم يطلق على فرقة تجمع بين اليهودية والمسيحية.

* «الجدل بين اليهود والنصارى».

* مطاعن المسيحيين فى الديانة اليهودية (مقالات غير مكتملة)

* «ابن دحية».

* الترجمات العبرية للقرآن (مقالات بالإنجليزية).

* «ابن أبى شيبة».

* «اقتراحات حول مكتبة الإسكندرية الجديدة»[1].

(١) مصدر هذه المعلومات المتعلقة بـ (الأعمال التى لم تنشر فى موقع جريدة «اليوم السابع» على شبكة الإنترنت الاثنين ٤/ ٢/ ٢٠١٣م.
خبر بعنوان: «اكتشاف أعمال جديدة لم تنشر للدكتور عبد الرحمن بدوى» ناقلين فيه عن البيان الصحفى الرسمى الذى أصدره (مركز عبد الرحمن بدوى للإبداع) والذى يترأسه أ. محسن بدوى.

دفاع عن القرآن ضد منتقديه

للدكتور عبد الرحمن بدوى

[١٣٣٥ ـ ١٤٢٣هـ ـ ١٩١٧ ـ ٢٠٠٢م]

لقد كان الدكتور عبد الرحمن بدوى [١٣٣٥ ـ ١٤٢٣هـ ـ ١٩١٧ ـ ٢٠٠٢م] ـ بشهادة مؤلفاته ومترجماته وتحقيقاته ـ من أكثر العلماء والمفكرين العرب المعاصرين خبرة بالفكر الغربى.. ومن أكثر هؤلاء العلماء والمفكرين إحاطة بما كتبه المستشرقون عن الإسلام.. ولقد توج معارفه وخبراته بالاستشراق والمستشرقين بالموسوعة التى نشرها عنهم ـ (موسوعة المستشرقين) ـ .. بل لقد مثلت حياته الفكرية «مؤسسة» قامت على تعريف العقل العربى والمسلم بتراث الاستشراق والفلسفة الغربية.. وذلك فضلًا عن علاقاته الوثيقة بكثير من رموز الاستشراق، الذين درس على أيديهم، وتتلمذ على كتاباتهم، وبادلهم الأفكار والآراء..

لذلك، كان الرجل شاهدًا خبيرًا على ما كتبه هؤلاء المستشرقون عن الإسلام وأصوله ومقدساته..

وفى السنوات الأخيرة من حياته ـ والتى قضاها فى الغرب ـ وباريس خاصة ـ وعندما رأى تصاعد ظاهرة «الإسلاموفوبيا»، وتزايد حملات الكراهية للإسلام، والافتراء على رموزه ومقدساته، استدعى ـ بخبرته العلمية والفكرية والثقافية ـ الجذور الغربية القديمة لهذه الظاهرة.. ولم ير فيها ـ كغيره من أصحاب النظرة السطحية ـ ظاهرة إعلامية طارئة، وإنما رآها امتدادًا متطورًا وحديثًا لافتراءات كثير من المستشرقين والمنصرين ـ وخاصة اليهود منهم ـ على الإسلام ومقدساته ورموزه.. فكان تصديه المتميز لهذه الظاهرة بتفنيد مقولاتها التاريخية ضد القرآن الكريم، وضد رسول الإسلام ﷺ وهو الإسهام الذى ختم به حياته الفكرية ـ عندما نشر ـ بالفرنسية

ـ كتبه: (دفاع عن القرآن ضد منتقديه) و(دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره) وترجمته الفرنسية للسيرة النبوية ـ سيرة ابن هشام.

وفى الكتاب الأول ـ الذى نقدم بين يديه ـ يعلل أسباب أخطاء ـ بل وخطايا ـ الاستشراق إزاء القرآن الكريم، بتسليط الأضواء على جذور هذه الأخطاء والخطايا، وأسباب هذه الافتراءات، المتمثلة فى أن هؤلاء المستشرقين لم يقرءوا القرآن بعيون علمية موضوعية، وإنما قرأوه بعيون يهودية أو مسيحية، توجهها تحيزات ونوايا سيئة.. وفى ذلك قال:

«لقد قرأ المستشرقون اليهود ـ من أمثال «هيرشفيلد» [١٨٥٤ ـ ١٩٣٤م] و«جولدتسيهر» [١٨٥٠ ـ ١٩٢٠م] و«هورفيتز» [١٨٧٤ ـ ١٩٣١م] و«تورى» ـ القرآن قراءة يهودية.. وآخرون ـ من أمثال «موير» [١٨١٩ ـ ١٩٠٥م] و«بيل» و«آرتر» ـ قراءة مسيحية، أو يهودية مسيحية».

ولقد جاء كتاب الدكتور بدوى هذا «وثيقة ـ موثقة»، تثبت هذه الحقيقة، وتفند الزيف الذى افتراه هؤلاء المستشرقون من الهالات التى أحاطتها بأسمائهم وكتاباتهم آلة «العلاقات العامة التغريبية»!.

* فهؤلاء المستشرقون ـ على سبيل المثال ـ قد ذهب بهم الكذب «فأكدوا أن محمدًا ﷺ باعتباره مؤلفًا للقرآن، قد اقتبس أغلب القصص وعددًا كبيرًا من الصور البيانية، وكذلك الحِكَم والأمثال من الكتب المقدسة، أو شبه المقدسة لدى اليهود والنصارى» ويعلق الدكتور بدوى على هذه الفرية فيقول:

«ولكى نفترض صحة هذا الزعم، فلا بد أن محمدًا كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولا بد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل نصوص التلمود والأناجيل المسيحية ومختلف كتب الصلوات وقرارات المجامع الكنسية، وكذلك بعض أعمال الأدباء اليونانيين وكتب مختلف الكنائس والمذاهب المسيحية..

واعتراض ساقط آخر مما قاله هؤلاء الكتاب، وهو يعتمد على الصياح بالقول إن فى القرآن انتحالًا. ويحدث ذلك عندما يذكر القرآن حقيقة عامة ذكرت فى الكتب

المقدسة اليهودية والنصرانية قبل ذلك.. وكأنه يجب على القرآن الكريم حتى يكون بريئًا من أى انتحال أن يقول أشياء مخالفة للعلم العام أو الرشاد»!

* ولقد تتبع الدكتور بدوى جذور هذه الافتراءات الاستشراقية على القرآن الكريم، متناولًا أشدها وأشهرها بالنقد والتفنيد.. فقال ـ على سبيل المثال:

«إن أشد الكتب هجومًا على القرآن والإسلام هو كتاب (عالم النص القرآنى) الذى كتبه «وود ڤيجو مراش» [١٦١٢ ـ ١٧٠٠م].. وهو عمل حافل بالأخطاء والمجادلات الساذجة اللامعقولة. وللأسف تكررت نفس هذه الأخطاء وهذه التجاوزات فى كل الدراسات المتصلة بالقرآن والتى قام بها المستشرقون الأوروبيون خلال القرنين التاليين لظهور كتاب «مراش»..

حقًّا، فإنه بداية من منتصف القرن التاسع عشر يبذل هؤلاء المستشرقون ما فى وسعهم ليبدوا موضوعيين فى كتاباتهم، وفى جعل كتاباتهم أكثر دلالة وأكثر جدية وموضوعية، وأكثر تدقيقًا فى المنهج اللغوى، لكن دون فائدة، ذلك لأن الدوافع الداخلية التى تضطرم بالحقد فى قلوبهم ضد الإسلام وكتاب الإسلام المقدس ونبى الإسلام ظلت كما هى، بل ازدادت تأججًا.

وبرغم أن هؤلاء الكتاب قد توفرت لهم أدوات فهم اللغات منذ بداية القرن الأخير حتى يومنا هذا، إضافة إلى توافر نشر المخطوطات، إلا أنهم أصروا على تقديم نظرياتهم الخاطئة، من خلال تصوراتهم الزائفة للقضايا الوهمية التى طرحوها حول القرآن، وطرحوا نتائج زائفة توصلوا إليها..

* إن معرفة هؤلاء المستشرقين للغة العربية من الناحية الأدبية أو الفنية يشوبها الضعف، ويمكن القول إن هذه الملاحظة تخصهم جميعًا تقريبًا..

* وإن معلوماتهم جميعها المستقاة من مصادر عربية جزئية ناقصة وضحلة وغير كافية، وهم يرمون بأنفسهم فى مغامرة طرح فرضيات خطيرة وخاطئة يعتقدون أنهم أول من توصلوا إليها، دون تكليف أنفسهم عناء التقصى لدى تلك المصادر عن نفس المعضلات التى يثيرونها، إذ تطرق الكتاب المسلمون فى حقيقة الأمر لهذه الفرضيات واعترضوا عليها.

* إن ما يحرك بعض المستشرقين دافع الضغينة، والحقد على الإسلام، مما يفقدهم الموضوعية ويعمى بصيرتهم بطريقة أو بأخرى..

* لقد كان بعض من هؤلاء المستشرقين مدفوعًا بالتبشير والتعصب المتحفز.. مثل «وليم موير» [١٨١٩ ـ ١٩٠٥م] و«زويمر» [١٨٦٧ ـ ١٩٥٢م].. كما وقع بعضهم ضحية ـ لهوس مرضى سببه ذلك التعصب الأعمى المختلط بالزهو والغرور.. ومنهم من يختلق أكذوبة ويصبح ضحية لتلك الأكذوبة، وهو مجبر أن يوضح بكل الوسائل حقيقة أكذوبته المزعومة..

* وهدفنا هو كشف القناع عن العلماء المزعومين الذين قدموا الضلال والخداع لشعب أوروبا ولغيره من الشعوب الأخرى»..

* ثم عرج الدكتور بدوى على مزاعم المستشرق اليهودى الأشهر «جولد تسيهر» [١٨٥٠ ـ ١٩٢٠م] الذى زعم أن القرآن قد نقل عن أسفار العهد القديم الكثير من عقائد الإسلام وأركان الإسلام.. فلقد زعم هذا المستشرق أن إله الإسلام هو إله إسرائيل.. وأن الصوم الإسلامى هو الصوم اليهودى، وأن اتخاذ الرسول ﷺ بيت المقدس قبلة أولى ما كان إلا تقربًا إلى اليهود، وأن رسول الإسلام ليس إلا ناقلًا عن العهد القديم.. وفى ذلك قال:

١ ـ «إن المفهوم التوحيدى للإله الذى عارض به محمد الوثنية العربية يتفق فى مادته مع مفهوم التوحيد فى العهد القديم».

ويفند الدكتور بدوى هذا الزعم فيقول:

(أ) هذا الزعم خاطئ، لأن إله العهد القديم هو فقط إله إسرائيل، وإسرائيل اختارها الرب.. بينما إله الإسلام على عكس ذلك هو ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ـ [الفاتحة: ٢] دون تفرقة شعب عن شعب، ولم يصطف شعبًا بوجه خاص.

(ب) وإله إسرائيل هو الأب.. بينما إله الإسلام ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ـ [الإخلاص: ٣].

فالتوحيد اليهودى هو توحيد قومى، أما التوحيد الإسلامى فعالمى.

٢ ـ الصوم اليهودى والصوم الإسلامى:

ويزعم جولد تسيهر، ومن بعده فنسنك [١٨٨١ ـ ١٩٣٩م] أن محمدًا قد أخذ الصوم عن اليهودية. وهذا قول خاطئ لما يلى:

(أ) الصوم الإسلامى يستغرق شهرًا كاملًا هو شهر رمضان، وليس يومًا واحدًا، أو يومًا وليلة، كما هو الحال عند اليهود.

(ب) الصوم الإسلامى ليس مرتبطًا بأية أحداث فى التاريخ الإسلامى ولا أية نكبات قد حلت بالمسلمين، ولكنه ركن أساسى من أركان الإسلام الخمسة، وشعيرة أصلية، وعلى عكس ذلك فإن الصوم اليهودى صوم اتفاقى وليس مفروضًا إلا حين تتعرض الأمة اليهودية للاضطهاد، وليس عندما تعيش فى سلام. ثم إن الصوم كشعيرة دينية كان موجودًا فى كثير من الأديان التى سبقت اليهودية. وما دام الصوم كان يمارس قبل ظهور اليهودية بآلاف السنين، فبأى حق يدعى جولد تسيهر أن محمدًا أخذه عن اليهودية كما لو كانت اليهودية هى أول من اخترع الصوم. ولكنه دومًا نفس الابتسار ونفس الفكرة المتسلطة هى التى جعلته يرى ذلك هو ومن على شاكلته من اليهود.

٣ ـ القبلة:

ويزعم جولد تسيهر أن محمدًا جعل بيت المقدس قبلة فى الصلاة أولًا ليكسب مودة اليهود.. ولما لم يحصل على تأييد اليهود غير القبلة متجهًا إلى البيت الحرام فى مكة.

وهذا الرأى شائع عند كثير من المستشرقين، أمثال «فيل» و«موير» [١٨١٩ ـ ١٩٠٥م] و«جريم» [١٨٦٤ ـ ١٩٤٢م] و«ليون كيتانى» [١٨٦٩ ـ ١٩٢٦م] و«فربوهى». وهو رأى يفتقر إلى الأسس السليمة. فالسبب الذى من أجله توجه محمد ﷺ إلى المسجد الأقصى خلال العهد المكى، هو أن الكعبة لم تكن قد طهرت من الأصنام، أو كادت، ولذلك كان المسجد الأقصى هو أنسب قبلة».

* وبعد كشف هذا الزيف، وتجريد «جولد تسيهر» من الهالة العلمية التى أحاطوه بها.. عرج الدكتور بدوى على زعم آخر شارك فيه عدد كبير من المستشرقين.. وهو

الادعاء بأن القرآن قد خلط بين مريم ـ أم عيسى ـ عليهما السلام ـ وبين مريم أخرى ـ هى أخت موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ جاهلًا ومتجاهلًا ما بينهما من قرون!

«فلقد زعم «جريم» [١٨٦٤ ـ ١٩٤٢م] و«هورفيتز» [١٨٧٤ ـ ١٩٣١م] و«فنسنك» [١٨٨١ ـ ١٩٣٩م] و«بلاشير» [١٩٠٠ ـ ١٩٧٣م] و«جود فروا ديمومبين» [١٨٦٢ ـ ١٩٥٦م] و«باريت» أن القرآن قد خلط بين مريم ـ أم عيسى ـ وبين أخت هارون وموسى ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨].

بينما هذه العبارة القرآنية ـ لا تعنى سوى «يا سليلة هارون» فالاتهام بالزنا، الذى رمى به اليهود مريم أم المسيح أصبح أكثر شناعة قياسًا إلى أنها من عائلة مقدسة. ويؤكد «لوقا» هذا النسب، لأن مريم قريبة الياصابات أم يوحنا المعمدان كما يؤكد «هيوليت» أن الياصابات بنت خالة مريم، كما تؤكد المصادر المسيحية هذه القرابة.

وبهذه الطريقة فهمه يهود ونصارى المدينة فى الجزيرة العربية.

ومن وجهة النظر اللغوية، فإن استعمال أخ أو أخت أو يا أخا أو يا أخت وبعدها اسم عشيرة أو قبيلة أو بلد يكون بمعنى يا سليل هذه العشيرة أو هذه القبيلة ـ أو البلد، وهو استعمال كان ولا يزال شائعًا فى تاريخ اللغة العربية، وقد أشار إليه الطبرى [٢٢٤ ـ ٣١٠هـ ـ ٨٣٩ ـ ٩٢٣م]، وتبعه كثير من المفسرين المسلمين، وقد ذكر لذلك أمثلة عديدة.

وهذه الحجة القاطعة تبعها «جورج سال» [١٦٩٧ ـ ١٧٣٦م] فى الترجمة الإنجليزية للقرآن ١٧٣٤م فأكد أن من المستحيل أن يقع القرآن فى هذا الخلط بين مريم أم عيسى ومريم أخت موسى وهارون، لأن هذه الفارقة تكون، حسب هذه الألفاظ، متعارضة مع كثير من المواضع القرآنية، ويبدو فيها محمد على دراية تامة بأن موسى يسبق عيسى بعصور عديدة.

لذلك كان من الغريب أن نجد أصحاب هذا الزعم يكررون نفس الاتهام دون أى دليل ودون أن يتحملوا عناء مناقشة الحلول التى اقترحها المفسرون المسلمون وأيدها بعض الكتاب الأوروبيين، أمثال «رولاند»، و«جورج سال». وعندهم أن هذا الاتهام حكم مسبق لا دليل عليه.

ويمكن أن نفهم مثل هذا الموقف من قساوسة ورجال دين ومبشرين، مثل يوحنا الدمشقى، ونيكولاى كوزى، وجود نيولو وغيرهم، لكننا لا نفهمه عندما يتعلق الأمر بعلماء يفترض فيهم الموضوعية وعدم الانحياز..».

* وذهب الدكتور بدوى فضرب الأمثلة على بلوغ مزاعم بعض المستشرقين درجة «العبث».. فقال:

«لقد بلغت بعض مزاعم المستشرقين حد العبث.. ومن ذلك دعوى «ريتشارد بيل»:

(أ) أن كلمة نبى كلمة مدنية.

(ب) وأن إبراهيم أصبح نبيًّا فى المدينة فقط.

(جـ) وأن كلمات: إسلام، مسلم، والاستعمال الدينى لكلمة ـ أسلم تنتمى إلى العهد المدنى.

ولكن هذه القضايا كاذبة، لأن كلمة نبى موجودة فى السور المكية: الأنعام، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر، النحل، مريم، الأنبياء، الشعراء، العنكبوت، ص، الشورى، الزخرف، الذاريات، النجم، الأعلى.

وكلمات إسلام، مسلم، «والجمع مسلمون» موجودة فى ٢١ سورة مكية. ولو طبقت هذه القاعدة ـ هذا الزعم ـ لكان معناها إضافة ٤٤ سورة من العهد المكى إلى العهد المدنى. وهذا هو العبث بعينه عند كل الباحثين»!

* وأمام محاولات بعض المستشرقين إعادة ترتيب سور القرآن وآياته.. قطع الدكتور بدوى بأن الترتيب القرآنى صاحب السياق المعجز ـ إنما هو صنع إلهى.. فقال:

«لقد رتب القرآن فى كتاب واحد فى حياة النبى.. والجمع الذى تم فى عهد أبى بكر يشبه جمع الوثائق الخاصة بنص معين حتى لا تندثر، وهذا مشابه لما نفعله اليوم بعمل طبعة محققة على مخطوطات كاملة، فنجمعها مع الاستشهادات والأوراق المبعثرة».

* وضرب الدكتور بدوى الأمثال على بلوغ بعض المستشرقين حد التعصب الأعمى إزاء القرآن الكريم.. وذلك من مثل ما كتبه المستشرق «مارتينيو ألفونسو فيفالد»، الذى قال: «إن كتاب محمد لا ينبغى أن يُقرأ، بل على العكس ينبغى أن يُهان ويُسخر منه ويُلقى فى النيران حتى لا نجده فى أى مكان»!!

* * *

وبعد أن فند الدكتور بدوى ـ عبر فصول كتابه وصفحاته ـ الزيف الذى ادعاه المستشرقون اليهود والمسيحيون على القرآن الكريم.. مبرزًا أخطاءهم وخطاياهم، عندما قرأوا القرآن بعيون يهودية ونصرانية، وبسوء نية مسبقة.. لم ينس ـ وهو العالم الذى تخلق بأخلاق الإسلام.. وفقه منهاج القرآن ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ [آل عمران: ١١٣] أن يشير إلى جهود فريق آخر من المستشرقين، لم يحرمهم رفضهم للقرآن والإسلام من الموضوعية التى جعلتهم ـ وهم على دياناتهم ـ يشهدون للقرآن والإسلام..

وفى هذا المقام ضرب الدكتور بدوى بعض الأمثلة:

* فالمستشرق «رولاند ـ أدريان» (ت ١٧١٨م) قد تعجب من الافتراءات الاستشراقية الكثيرة على القرآن، فكتب يقول:

«إنه لو كان الإسلام كما وصفه هؤلاء المهاجمون المسيحيون الأوروبيون، فليس من المعقول أن كثيرًا من الناس يمكن أن يعتنقوا دينًا عبثيًا، ولا يمكن أن يفهم أن أتباع محمد كلهم أغبياء وحمقى، كما أنه ليس مسموحًا لنا أن نشك ونحن نرجع إلى آثار وكتابات هذه الملة، والتى أخرجت عبقريات وعظماء لم ير العالم مثيلًا لها فى أى شعب آخر، إن لم نقل إن العرب والذين ولدوا بفضل هذا الدين امتلكوا ناصية العلم والفنون الجميلة لقرون عديدة، لا سيما القرن العاشر؛ بينما ترك المسيحيون كل شىء يذبل ويموت ويتبلد فى غربنا.

يجب أن أعترف بكامل اليقين، بعد دراسة عقلانية للديانة المحمدية، أننى وجدت لمحمد وجهًا مختلفًا تمامًا عن الذى قالوه عنه، مما ولّد عندى الرغبة فى تعريف العالم به وبالألوان التى تناسبه..

لنتكلم بصراحة، فإننا ليس لدينا عن الدين المحمدى إلا أكاذيب، وهذا ما دفعنى لاتخاذ قرار، ليس فقط لقول الحقيقة باختصار فيما يخص (العقيدة)، ولكن أيضًا لتصحيح بعض ما قيل من خطأ فى هذا الصدد..».

* والمستشرق «مراكشى» [١٦١٢ ـ ١٧٠٠م] ـ الذى قام بترجمة القرآن الكريم ـ قد كتب فى مقدمته لترجمته هذه مقارنًا بين القرآن والإنجيل، ومفضلًا ـ رغم أنه لاهوتى مسيحى ـ القرآن على الإنجيل، والإسلام على المسيحية.. فقال:

«إن الإسلام قد احتفظ بكل ما هو أكثر عقلانية ـ واحتمالًا فى المسيحية، وبكل ما يبدو فى نظرنا موافقًا لقانون وسنة الطبيعة، وقد استبعد من عقيدته جميع ألوان الغموض الموجودة فى الإنجيل، والتى تبدو لنا غير معقولة وغير مفهومة، كما أنه استبعد من الأخلاق كل المبادئ المتزمتة والتى يصعب على الناس تطبيقها، مما يجعل الوثنيين اليوم يشعرون أنهم أكثر ميلًا إلى التنكر لوثنيتهم واعتناق الإسلام بصدر رحب، واعتناق الشريعة المحمدية أكثر من الشريعة الإنجيلية.

لقد اعتقدت دائمًا أن القرآن والإنجيل حين يعرضان على غير المؤمنين فإنهم يفضلون القرآن على الإنجيل، ويجب أن لا نشك فى أن كتاب محمد لا يقدم للعقل أفكارًا يصعب على العقل فهمها.. فمثلًا لا يوجد إلا إله واحد حكيم قدير، خالق الأشياء كلها ومدبرها، ومخالف للحوادث، ويجب أن يُصلَّى له بخشوع، وأن يكون الإنسان متسامحًا مع الفقراء، ويؤدى مناسك الحج، ويطهر بدنه بالصيام، ويحافظ على العدل والوسطية وطيبة القلب والشفقة، وكذلك كل الفضائل السهلة الأخرى، فلا يجوز أن يُؤذَى إنسان، بل يجب أن يُحمى من السرقة والقتل والزنا وأى جريمة أخرى أيًّا كانت، ويجب أن يحتقر كل ما فى الدنيا باعتباره عابرًا وغير ثابت، ويستمسك فقط بالأعمال الصالحة التى لا يضيع أجرها، وسيكون لنا فى النهاية يوم نعود فيه إلى الله لنجزى على ما فعلنا. فالطيبون سيجدون فى السماء نعيمًا مقيمًا وما يشتهون، وسيذوق الأشرار فى جهنم عذابًا لا نهاية له.

كل هذه المبادئ، وكثير غيرها، تنتشر فى القرآن بطريقة مفهومة وواضحة أكثر من المبادئ الإنجيلية.

ومن ناحية أخرى، إذا سمع أحد الوثنيين كلام أحد المبشرين أن الإله الحق الواحد الذى يتكلم عنه هو واحد وثلاثة، وأن الإله حل فى رجل، وأنه فقير، وأنه عانى وصلب ومات ودفن، وكان هو نفسه معجزة، وفى سر القربان المقدس أن سر التوبة ضرورى مطلقًا، وأن الزواج الآحادى لا بد منه، وأن الرباط المقدس لا ينفصم، وأن الحياة يجب أن تكون صليبًا متصلًا، وأنه يجب أن يحسن الإنسان حتى إلى أعدائه، وأن السعادة الحقة تكمن فى أشياء لا تراها العين، ولم تسمعها الأذن، ولم تخطر على قلب الإنسان، وحِكَم أخرى مشابهة لا تكون فى متناول السمع الإنسانى أو تكون صعبة جدًّا، إن لم تكن مستحيلة بالنسبة لحياتنا وحماقتنا الطبيعية، فأى وثنى سيسمع هذه الأشياء ويقارنها بمذهب القرآن، انظر إلى أى جهة سيتجه؟.. إنه سيتوجه حتمًا ناحية الإسلام.. إن غير المؤمنين يفضلون محمدًا، ويعتنقون دينه من كل قلوبهم».

تلك إشارات ـ مجرد إشارات ـ لبعض ما حواه هذا الكتاب الفذ (دفاع عن القرآن ضد منتقديه) الذى كتبه الدكتور عبد الرحمن بدوى ـ بالفرنسية ـ عام ١٩٨٩م.. والذى ترجم للعربية عام ١٩٩٩.. والذى تتزايد أهميته مع تصاعد ظاهرة «الإسلاموفوبيا» فى الغرب، تلك التى تتسرب دعاواها ومزاعمها إلى دوائر الغلو العلمانى فى عالم الإسلام[1]!..

رحم الله الدكتور عبد الرحمن بدوى.. وجعل هذا العلم النافع فى ميزان حسناته إن شاء الله.

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب ـ هدية مجلة [الأزهر] عدد رجب سنة ١٤٣٦هـ ـ مايو سنة ٢٠١٥م وطبعة نيو بوك سنة ٢٠١٧م.

دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره

للدكتور عبد الرحمن بدوى

[١٣٣٥ ـ ١٤٢٣هـ ـ ١٩١٧ ـ ٢٠٠٢م]

فى واقعنا المعاصر، برزت ظاهرة «الإسلاموفوبيا»، التى غذتها واحتضنتها أحزاب سياسية ومؤسسات إعلامية ودينية فى كثير من البلاد الغربية.. وهذه الظاهرة تعنى:

١. تزييف صورة الإسلام ـ قرآنه، ونبيه، وعقائده، وشريعته، وقيمه.

٢. تكثيف الكراهية للإسلام.

٣. والتخويف منه، ومن انتشاره الملحوظ فى مجتمعات همشت فيها العلمانية والمادية المسيحية الغربية، فخلقت فراغًا يتمدد فيه الإسلام.

ولم يقف أمر هذه الظاهرة عند العامة من ضحايا غوغائية الإعلام، وعوام الأحزاب اليمينية والفاشيين الجدد، وإنما قادها ويقودها قطاع كبير من النخبة والصفوة فى العديد من المجتمعات الغربية.

* ففى الفاتيكان، يصرح الكاردينال «بول بوبار» ـ مساعد البابا، ومسئول المجلس الفاتيكانى الثقافى ١٩٩٦م فيقول: «إن التحدى الذى يشكله الإسلام يكمن فى أنه دين وثقافة ـ ومجتمع وأسلوب حياة وتصرف، فى حين أن المسيحيين فى أوروبا يميلون إلى تهميش الكنيسة. إن الإسلام يمثل تحديًّا لأوروبا وللغرب عمومًا»[١].

(١) صحيفة «الشرق الأوسط» ـ لندن ـ فى ١/ ١٠/ ١٩٩٩م.

ويصرح الكاردينال «المونسنيور جوزيبى برناردينى» فيقول مخوفًا أوروبا من الإسلام.. «إن العالم الإسلامى سبق أن بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط. وهو يبنى المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين فى الدول المسيحية، بما فى ذلك روما عاصمة المسيحية، فكيف لنا ألا نرى فى ذلك برنامجًا للتوسع وفتحًا جديدًا»[١]!

أما البابا «بنديكتيوس السادس عشر»، فإنه يمارس ازدراء الإسلام، عندما يعلن: «إن الإسلام ليس دين توحيد على نمط اليهودية والمسيحية، ولا ينتمى إلى الوحى الذى تنتمى إليه اليهودية والمسيحية»[٢]! «وأن محمدًا لم يأت بجديد، وإنما أتى بأشياء شريرة وغير إنسانية، مثل أمره بنشر عقيدته التى دعا إليها بحد السيف»[٣]!

كما يمارس ـ البابا بنديكتوس ـ التخويف من الإسلام، بإعلانه عن مخاوفه من:

١. تراجع معدلات المواليد فى أوروبا المسيحية، إلى الحد الذى يهدد عدة شعوب أوروبية بالانقراض قبل نهاية القرن الحالى.

٢. أن الذين سيحلون محل هذه الشعوب المسيحية الأوروبية المنقرضة ـ هم المهاجرون المسلمون من إفريقيا والعالم العربى، الأمر الذى يبعث على القلق من احتمال أن تصبح أوروبا جزءًا من دار الإسلام فى القرن الواحد والعشرين»[٤]!

* وعلى مستوى النخبة ـ والصفوة المدنية، صدر ـ فى إنجلترا ـ فى نوفمبر ٢٠٠٧م ـ تقرير أعدته لجنة ـ من كبار المفكرين وأساتذة الجامعات والخبراء فى الإعلام، جاء فيه: «إن الصورة عن الإسلام فى الغرب هو أنه يماثل النازية والفاشية والشيوعية.. وإن ازدراء الإسلام، وتشبيهه بالشيطان ليس مقصورًا على الصحافة الصغيرة والشعبية، بل إن صورته هذه هى السائدة فى الصحف الكبرى والكتب والمحاضرات الجامعية»[٥].

* * *

(١) المرجع السابق. فى ٣٠/ ١٠/ ١٩٩٩م.
(٢) «البصائر» ـ الجزائرية ـ فى ١٠/ ٧/ ٢٠٠٦م.
(٣) محاضرة البابا ـ بجامعة ريجنسبورج ـ الألمانية ـ فى ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦م.
(٤) البابا بنديكتوس السادس عشر [بلا جذور: الغرب، النسبية، المسيحية، الإسلام] نيويورك ٢٠٠٦م.
(٥) [الأهرام] فى ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٨م.

لكن.. هل هذه الظاهرة ـ ظاهرة «الإسلاموفوبيا»: تزييف صورة الإسلام، وصناعة الكراهية له، والتخويف منه، وازدرائه ـ ظاهرة حديثة أو معاصرة، مثلت رد فعل غربى لتمدد الإسلام فى أوروبا؟.. أم أن لهذه الظاهرة المعاصرة جذورًا فى تراث الغرب ـ الدينى.. والاستشراقى ـ إزاء الإسلام؟!

إن الإجابة عن هذا السؤال حاضرة فى هذا الكتاب للدكتور عبد الرحمن بدوى كتاب [دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره] ـ الذى كتبه.. بالفرنسية ـ عندما عاش فى فرنسا يواجه ظاهرة الإسلاموفوبيا المعاصرة، فغاص فى تراث الاستشراق الغربى، ليكشف لنا عن الجذور التاريخية لهذه الظاهرة[1].

ولأن الدكتور بدوى قد عاش عقودًا طويلة من حياته الفكرية يقدم للعقل العربى والمسلم تراث الاستشراق، الأمر الذى جعله من أكثر أساتذتنا خبرة بهذا الاستشراق، فلقد جاء كتابه هذا شهادة خبير على ما حفل به تراث الاستشراق من افتراء وعداء وكراهية وازدراء للإسلام..

وإذا كان الوعى بالتاريخ هو المقصد الأعظم من وراء قراءة التاريخ.. فإن الوعى بتاريخ الأفكار هو العامل الأول فى التمييز بين الحق والباطل فى عالم الأفكار.. وتلك هى الثمرة التى يقدمها هذا الكتاب إلى الباحثين والقراء..

* * *

يوجز الدكتور عبد الرحمن بدوى موقف الاستشراق الغربى عبر قرون عشرة ـ من الافتراء على رسول الإسلام، فيقول:

«خلال تتبعى للمفاهيم التى تبناها الأوروبيون حول نبى الإسلام محمد، انتابنى الذهول من جهلهم المطبق، وعدوانيتهم الواضحة، وأحكامهم المسبقة المتأصلة، وتحزبهم الطاغى ضد خصومهم. وهذا لا ينطبق فحسب على الشعب الجاهل والساذج، ولكنه ينطبق أيضًا على أكبر علمائهم وفلاسفتهم ورجال الدين والمفكرين

(١) ولقد كان كتابه [دفاع عن القرآن ضد منتقديه] إسهامًا رائعًا فى الكشف عن الجذور التاريخية لهذه الظاهرة.

والمؤرخين، حتى أنه خلال القرون التى شهدت انطلاق الفكر الأوروبى، من القرن الثانى عشر وحتى القرن السابع عشر، لم يكن لدى أى من هؤلاء المفكرين الشجاعة فى تحرى المعرفة الحقة والموضوعية عن الإسلام ومؤسسه، فلا «البرت الكبير» [١١٩٣ ـ ١٢٨٠م] ولا «توماس الأكوينى» [١٢٢٥ ـ ١٢٧٤م] ولا «روجر بيكون» [١٢١٤ ـ ١٢٩٤م] ـ فى القرن الثالث عشر، ولا «فرنسيس بيكون [١٥٦١ ـ ١٦٢٦م] ولا «بسكال» [١٦٢٣ ـ ١٦٦٢م] ولا «سبينوزا» [١٦٣٢ ـ ١٦٧٧م] ـ فى القرن السابع عشر ـ لم يحاول أى من هؤلاء أن يبذل جهدًا لفهم الإسلام، مع أنهم كانوا يعرفون بشكل أو بآخر، الفلاسفة والعلماء العرب، ولم يدخروا وسعًا فى مهاجمة آرائهم ودينهم.

وقد شهد «رينان» [١٨٢٥ ـ ١٨٩٢م] على تحامل أبناء جنسه وملته من المستشرقين على محمد، فقال:

«لقد كتب المسيحيون تاريخًا غريبًا عن محمد.. إنه تاريخ يمتلئ بالحقد والكراهية له، لقد ادعوا بأن محمدًا كان يسجد لتمثال من الذهب كانت تخبئه الشياطين له. ولقد وصمه «دانتى» [١٢٦٥ ـ ١٣٢١م] بالإلحاد فى رواية الجحيم ـ [الكوميديا الإلهية] ـ، وأصبح اسم محمد عنده، وعند غيره، مرادفًا لكلمة كافر، وزنديق. ولقد كان محمد فى نظر كتاب العصور الوسطى تارة ساحرًا، وتارة أخرى فاجرًا شنيعًا، ولصًا يسرق الإبل، وكاردينالا لم يفلح فى أن يصبح بابا فاخترع دينًا جديدًا أسماه الإسلام لينتقم به من أعدائه، وصارت سيرته رمزًا لكل الموبقات، وموضوعًا لكل الخطايا الفظيعة». وحتى فى أيامنا هذه، لاحظت أنه لا تزال عند القساوسة فى بلاد الإسلام نفس آراء «بيير باسكاسيو» [١٢٢٨ ـ ١٣٠٠م] إبان القرن الثالث عشر.

لقد زعم الراهب الدمانيكى «ريكالدو مونتكروس» [١٢٤٣ ـ ١٣٢٠م] أن الملهم لمحمد هو الشيطان.. وحرف الحديث الوارد عن النبى ﷺ ـ والذى يقول: «إن القرآن نزل على سبعة أحرف» إلى «نزل القرآن من سبعة رجال، وأن هؤلا الرجال هم: «نفل» و«يمن» و«عمره» و«اليسار» و«أسيرين» و«سبثير» و«ابن عمر».. وهذا تحريف لحديث القراءات السبعة.

ولقد لخص «داكونا» هذا الخلط الكبير الذى وقع فيه الأوروبيون لمدة أكثر من أربعة قرون، فقال:

«فى الواقع، إن السيد محمد ومستشاره يأخذ أحيانًا شخصية «بحيرة»، ومرة أخرى شخصية «ورقة بن نوفل»، ومرة يبدو مؤمنًا مدافعًا عن المسيحية، ومرة أخرى هرطقى أريانى أو يعقوبى أو نسطورى، حسب الرواية. وهو يعمل ليستجدى عطف أتباعه الذين أبعدوه. وحسب رواية أخرى يعمل على الثأر لنفسه، كما أنه دائمًا راهب، أو بطريرك، أوكاردينال. أما اسمه فهو «بحيرى» أو «سير جيوس». كما أن محمد نفسه يقدم لنا مرة على أنه وثنى، ومرة أخرى على أنه مسيحى يدعى «أوكين»، أو «بلاجيوس» أو «نيقولا». وهو ساحر، وأمى، وعالم من بولونيا. وقد جاء من القسطنطينية، أو من أنطاكية، أو من أزمير، أو من مناطق وثنية أخرى، أو من مناطق مسيحية. وهو مرة عربى، ومرة إسبانى، ومرة أخرى رومانى من عائلة كولونا، ومرة يختلط اسمه باسم معلمه، ومرة يكون هو الراهب أو المطران الذى كان على وشك أن يصبح بابا.

ولقد استخلصت ضد محمد وأصحابه ترسانة من الشتائم فقدت معناها، مع سخريتها اللاذعة.

وحتى «فرنسيس بيكون» [١٥٦١ ـ ١٦٢٦م]، وهو داعية المذهب التجريبى الشهير، يقول ـ فى مقاله ـ «الخديعة» ـ:

إن محمدًا قال للعرب ذات يوم: إنه يستطيع أن ينادى الجبل ليأتى إليه، وقد كان الجبل بعيدًا، ولكن لما لم يتحرك الجبل ليأتى إليه، قال محمد لهم: «إذا كان الجبل لم يأت إلى محمد فإن محمدًا سيذهب إلى الجبل».

والسؤال: هو كيف لرجل يدعى أنه يقيم أسس المنهج التجريبى، وقواعده أن يعتقد فى حقيقة تلك الفرية المختلقة؟!».

«وللأسف، فإن بعض السفهاء يرددون تلك الأسطورة حتى يومنا هذا»!!.

* ويعلن الكاتب الهولندى «أدريان رولاند» [١٦٧٦ ـ ١٧١٨م] ـ الذى كان عاقلًا فى عداوته للإسلام ـ: «إنه لم توجه إهانات إلى أى دين بقدر ما وجهت إلى الإسلام.

* وإن أغلب هؤلاء الكتاب ـ الذين نمدحهم بحماس ـ قد هاجموا دين محمد بأقل مما هاجموا أوهامهم.. وقد وقعوا فيما نسميه السفسطة العادية، وهى الجهل بالقضية المطروحة، أى إثبات ما ليس من المفيد إثباته ومهاجمة الآخرين بشعور من الوهم عن عقلياتهم..

ولقد رأيتنى مضطرًا للدفاع عن هذا الدين، خاصة فى الأشياء التى نسبت زورًا وبهتانًا إليه، والتى تخجل وجه الحقيقة حين تعتمد على الأكاذيب التى لا تستند إلى أى شىء من الشرعية، وقد ألحقت بالمسلمين أوصافًا كثيرة، مثل:

«خرقاء»، «أفظاظ»، «حمر وحشية»، «مجانين»، «مغفلين»، وحتى «شياطين»..

وذلك حتى نكون فى حالة جيدة ووضع سليم، نحن المسيحيين، فى حوارنا مع المسلمين بطريقة منطقية ومقنعة، وحتى نهاجم من الآن فصاعدًا بشكل أكثر وضوحًا وثقلًا بعدد من الحجج والأدلة..» وهكذا، فإن «رولاند» يضع نفسه فى عداوة مع الإسلام، ولكنها عداوة عالم ذكى، بدلًا من المنتقصين من قدر الإسلام وهم كاذبون وحمقى.

* ويعترف الأوروبيون ـ الذين يعادون الإسلام ـ بالحرية الدينية ـ التى ضمنها الإسلام لأصحاب الديانات الأخرى فى المجتمعات الإسلامية، فيقول الأب «رينودو» ـ صاحب كتاب [بطارقة الإسكندرية) ـ بذلك فيقول:

«قديمًا كان مسموحًا للنصارى الشرقيين بعرض دينهم بطريقة عامة، شفويًّا أو كتابة، ولهذا ظهرت كثير من المساجلات مدونة فى المكتبات، ومنها:

١ ـ مساجلة أبراهام الترهانى مع عبد الرحمن.

٢ ـ مساجلة بين رجلى دين ويهودى اسمه غنريم.

٣ ـ مساجلة إيلى، رئيس أساقفة نزيب، فى ديار بكر بآسيا، مع الوزير أبى القاسم بن حسين المغربى.

٤ ـ مساجلة عيسى بن زرعة مع أبى بكر البلخى.

٥ ـ مساجلة أخرى لأبى قرة، وهى نوع من المؤتمر الدعوى للدين المسيحى جرت فى حضرة الخليفة المأمون.

٦ ـ مساجلة أخرى عن التثليث والتجسيد عقدت فى القاهرة ٦٣٩هـ ـ ١٢٧٩م قام بها رجل يسمى ابن العسال.

٧ ـ مساجلة أخرى مع راهب ووزير أحد أمراء إفريقيا، وقد كتبها رجل نسطورى.

٨ ـ مساجلة أخرى مع راهب آخر يسمى «أجشنا»، من مدينة مرو، عاصمة خراسان.

٩ ـ وأخيرًا محاورة بين راهب جديد ورئيسه، متعلقة بعبثية نبوة محمد، مع دحض للقرآن»..

* لقد اعترف الأعداء العقلاء ـ من المستشرقين ـ بهذه الحرية الدينية، التى سجلتها هذه الوثائق، فى المجتمعات الإسلامية.. وما كان لهم أن ينكروا هذه الوثائق ودلالاتها.. لكنهم لم يقارنوا بين ذلك وبين ما عاشوه فى حضارتهم من حروب دينية داخل النصرانية الأوروبية، بين الكاثوليك والبروتستانت، تلك التى أبيد فيها ـ باسم الحرب المقدسة ـ ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا!!

* * *

وبعد حقائق هذا الزيف الذى صنعه الاستشراق الغربى لصورة الإسلام، وصورة نبيه، والتى بلغت حد السفه العبثى، والعبث السفيه.. يرصد الدكتور عبد الرحمن بدوى العناوين الكبرى لافتراءات الغرب على رسول الإسلام، والتى بلغت أقصى درجات المبالغة الساقطة، والسفه العلمى، والحقارة والدناءة.. يرصد هذه الافتراءات، ويصنفها فى موضوعات ثمان:

(١)

أولها: زعم عدد من المستشرقين ـ مثل «شبرنجر» [١٨١٣ ـ ١٨٩٣م]:

[أن محمدًا كان مصابًا بالهيستريا، وحتى الصرع]

وفى الرد على هذا الافتراء ـ من الأعداء العقلاء ـ يقول «تور أندريا» [١٨٨٥ ـ ١٩٤٧م]:

«إن الحالة التى كان عليها محمد إبان نزول الوحى لا يمكن أن توصف بأنها حالة مرضية، إن لم توصف بأنها إلهام لكثير من العبقريات الأدبية والدينية، بدعوى أنها تظهر فى أشكال واضحة وتنبع من مكان واحد.

* ويقول «فرانتس بول» [١٨٥٠ ـ ١٩٣٢م]: «إننا لا بد أن نصل إلى فهم كامل لشخصية محمد عندما ندقق فيما كانت عليه حالته فى الفترة الأولى من ظهوره فى مكة، وقد كان على خلق عظيم وشخصية مستقيمة ونموذجية بشكل يسترعى الانتباه.

إن محمدًا كان صادقًا عندما قال إنه يتلقى الوحى، لأنه كان مقتنعًا تمامًا برسالته حيث اعتقد اعتقادًا جازمًا أنه يسمع صوتًا من أعلى يتلو عليه القرآن.

* وقال «موريس جود فروديمو مبين» [١٨٦٢ ـ ١٩٥٦م]: «لقد رأى آخرون فى محمد إنسانًا مصروعًا، وعرفوه بأنه كاذب وغير مسئول.

لكن الصرع يسلب ذاكرة المريض، بينما القرآن كتاب معتبر، ويدل على انتباه وفصاحة».

* وهكذا نرى أن قضية إصابة محمد بالهيستريا والصرع قد تخلى عنها المستشرقون منذ بداية القرن العشرين، ولم يعودوا يتكلمون عنها إلا كذكرى تاريخية.

* ونحن إذا عرضنا هذه الفرية ـ فرية الهيستريا والصرع ـ على العلم، فإننا نجد:

١ ـ أن المصاب بالهيستريا قابل للتأثير مع اتجاه للتشبه بالأمراض العضوية، بينما يتفق كل كتاب السيرة المسلمون على التأكيد على صلابة وقوة احتمال واستقرار نفسية محمد أمام كل العوامل الخارجية، وقد كان ذا سلوك حازم بما لا يدع مجالًا للشك.

٢ ـ إن المصاب بالهيستريا يخاف من الانزعاج، ويسير فى سلوكه تبعًا لسلوك الآخرين. بينما لم يكن لدى محمد أى خوف من أن يزعجه أعداؤه.. ولقد كانت حياته منذ نزول الوحى كفاحًا مستمرًا لم تخل من الاهتمامات. وأى محارب مثابر لا يمكن أن يوصف بأنه يخاف من الانزعاج.

٣ ـ إن شخصية المصاب بالهيستريا شخصية متقلبة وفجة، مع أنانية مفرطة، وحاجة إلى الحماية تظهر بوضوح.. وكل هذا أبعد ما يكون عن شخصية محمد حسبما تورد شهادات معاصريه. فقلد كان لمحمد شخصية قوية فى صلابة الصخر، وكان دائمًا ثابتًا، كما تشهد علاقته بأصحابه على إيثار لا ينقطع فى أشد حالات حياته خصاصة، وحتى صار كرمه ورحمته تجاه أعدائه الذين اضطهدوه كثيرًا مضرب الأمثال.

٤ ـ إن المصاب بالهيستريا يؤلف عن نفسه قصة، ويضخم تفاصيل حياته اليومية، ويبتكر بسهولة بعض الذكريات، ويعطى من حوله إحساسًا بعدم صدقه فى حديثه أو حركاته.. وهذه الأشياء متناقضة تمامًا مع سلوك محمد، فلقد كان يسمى دائمًا «الصادق الأمين». ولم يتحدث عن تفاصيل حياته اليومية، ولم يؤلف أو يتظاهر بشىء غير حقيقى أمام الناس..

ومن باب أولى فإنه لم يكن مصابًا بالصرع، حيث أعراض الصرع تظهر بقوة وبعنف وبوضوح. وفى الواقع لم يرو عن محمد حدوث أى أزمة من أزمات الصرع، حيث لم يحدث له أن فقد التركيز، أو حدثت له تشنجات شاملة، أو أى أزمة استمرت لساعة أو ساعتين، ولم تحدث له أزمة كان يمكن أن يفقد فيها السيطرة على بوله، وأخيرًا لم يحدث له أن فقد الذاكرة».

* وبحلول النصف الثانى للقرن التاسع عشر كان التحليل النفسى هو الموضة السائدة، وكانوا يفسرون العبقريات العظيمة بالجنون.. وكان يكفى أن يكون الإنسان أعلى من سواد البشر ليوصف بالجنون.. وقد وصل هذا الاتجاه إلى منتهاه مع «فرويد» [١٨٥٦ ـ ١٩٣٩م] وتلامذته.. ولقد كتب «ماكس نوردو» [١٨٤٩ ـ ١٩٢٣م] كتابه:

[الانحطاط] ١٨٩٢م مضفيًا صفة الجنون على كل العبقريات العظيمة.. وبنفس الروح كتب «شبرنجر» هذا الذى كتبه عن النبى محمد».

* * *

(٢)

والفرية الاستشراقية الثانية على رسول الإسلام، هى دعوى:

[أنه صوفي]

* وبشكل عبثى، وحتى يتخلى هؤلاء المستشرقون عن تلك الدعوى القائمة على غير أساس من أن محمدًا كان مصابًا بالهيستريا أو بالصرع، بحثوا عن تفسير آخر لحالات النبى قبل وأثناء نزول الوحى.. وهذا التفسير الآخر يستند إلى اعتبار محمد صوفيًا..

وكان أول مستشرق يعتمد ذلك التفسير هو «لويس ماسينيون» [١٨٨٣ ـ ١٩٦٢م] فى رسالته «مقال عن أصل المعجم الفنى للتصوف الإسلامى» ١٩٢٢م..

* ولكن محمدًا لم يكن صوفيًا على طريقة «الحلاج» [٣٠٩هـ ـ ٩٢٢م] و«البسطامى» [١٨٨ ـ ٢٦١هـ ـ ٨٠٤ ـ ٨٧٥م] أو «ابن عربى» [٥٦٠ ـ ٦٣٨هـ ـ ١١٦٥ ـ ١٢٤٠م]، ولا حتى على طريقة «الغزالى» [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م] أو «الجنيد» [٢٩٨هـ ـ ٩١١م]. ولكن تصوفه كان عبارة عن زيادة فى تقوى الله، مع الاحتفاظ بالشعور دائمًا، وإلا بما كان من الممكن أن يكون هذا المنظم العظيم لدولة كبيرة، ولا هذا المخطط الكبير للحروب، ولا هذا السياسى العظيم فى تصريف شئون الدولة، ولذلك فمن المستحيل أيضًا أن نقارن تصوفه بأى تصوف آخر عبر التاريخ.

إن التصوف عند محمد كان محدودًا فى نطاق الزهد والنسك المعتدل، والخلو الروحى فى غار حراء، والصلوات التهجدية طوال الليل، والصيام».

(٣)

والفرية الاستشراقية الثالثة هى دعوى:

[حسية الرسول وشهوانيته]

وفى ذلك كان حديث المستشرقين عن تعدد زوجاته ـ ﷺ ـ .

وفى تفنيد هذه الدعوة يأتى الحديث عن تعدد الزوجات فى التاريخ..

فلقد سمحت شريعة موسى بالتعدد.. وكان لإبراهيم زوجتان على الأقل ـ سارة وهاجر ـ.. وقد تزوج يعقوب بأختين فى وقت واحد، كما كان له كثيرات ملك اليمين، هن إماء زوجاته.. كما كان ضمن القضاة كثير من المعددين.. وقد اتخذ داود نساء وسرارى بأورشليم، وولدن له بنين وبنات.. وكان لسليمان عدد كبير من النساء الأجنبيات، وكان له سبعمائة زوجة، وثلثمائة أمة.. وكان اتخاذ عدد كبير من الزوجات والسرارى عادة عند كل الملوك السابقين على «جودة» و«إسرائيل».. وخلال العصور الوسطى كان التعدد مباحًا عند اليهود.. ولم يترك اليهود التعدد حتى بعد تحريم السريين فى مؤتمر الإصلاح الذى عقد فى فلادليفيا ١٨٦٩م.

* وبالنسبة للرسول ـ ﷺ ـ :

فقد استمر زواجه بخديجة ـ التى كانت تكبره فى العمر بخمس عشرة سنة ـ ٢٤ عامًا.. أى حتى تجاوز الخمسين من عمره، وحمل هموم الدين والدنيا..

ولقد تزوج سودة بنت زمعة، بعد موت خديجة بشهرين، وهى أرملة عجوز متقدمة فى السن، لا أرب لها فيما تريده النساء من الدنيا، وذلك لترعى بناته السبعة..

ثم تزوج بعائشة، وهو فى الثالثة والخمسين من عمره ـ أى قبل وفاته بتسع سنين.

* وكان الهدف من زيجاته المتعددة:

أ ـ إما تقوية أواصر المحبة بينه وبين كبار الصحابة ـ عائشة بنت أبى بكر.. وحفصة بنت عمر ـ.

ب ـ وإما للارتباط بكبرى القبائل العربية ـ مثل جويرية بنت الحارث، رئيس قبيلة بنى المصطلق.. وميمونة بنت الحارث، من قبيلة بنى هلال ـ وكان هذا الزواج سببًا فى إسلام خالد بن الوليد ـ وكانت ميمونة خالته..

جـ ـ أو ليحمى الأسيرات اللاتى كن يتمتعن بمكانة عالية فى قومهن ـ مثل ريحانة بنت زيد بن عمر.. وصفية بنت حيى بن أخطب.. وأم حبيبة بنت أبى سفيان..

د ـ وأخيرًا ليحفظ مركزًا اجتماعيًّا لامرأة، وتلك حالة زينب بنت جحش بنت أمامة بنت عبد المطلب عمة النبى..

وهى بواعث لا تدخل فى نطاق الشهوانية الجنسية.. فلقد كان محمد نبيًّا متفردًا وغير عادى كان نبيًّا ومؤسس دولة سياسية..

ولهذه الأسباب لم يطلّق أيًّا من زوجاته، لأن الطلاق كان لا بد أن ينتج عنه فصم رابطته بالقبيلة أو الشخص القوى الذى تنتمى إليه المرأة المطلقة..

ولذلك كان هذا الحد من التعدد خصوصية له دون المؤمنين.. لقد تفرد بين الأنبياء كمؤسس دولة، كما كان آخر الأنبياء.. يقوم الليل إلا قليلًا، وفيه يرتل القرآن ترتيلًا لأن الله قد ألقى عليه حملًا ثقيلًا..».

* * *

(٤)

والفرية الرابعة، التى احتشد المستشرقون حولها يذرفون الدموع، هى موقف النبى ﷺ ـ من اليهود بالمدينة المنورة.. أى:

[محمد واليهود]

فلقد احتشد المستشرقون فأقاموا مناحة ذرفوا فيها الدموع على يهود المدينة، متهمين النبى بظلمهم والعدوان عليهم..

وركزوا افتراءاتهم، بالخصوص، على موقف الرسول من:

أ ـ يهود بنى قريظة.

ب ـ وغزوة خيبر.

جـ ـ وقتل كعب بن الأشرف.

د ـ وقتل أبى رافع بن أبى الحقيق..

ولقد تناسى هؤلاء المستشرقون ـ وأغلبهم يهود أو متهودون ـ أن كل الإجراءات التى اتخذها النبى ضد اليهود، سواء كانت فردية أو جماعية، كانت تمليها اعتبارات حربية. فيهود المدينة ـ منذ وطئتها قدم النبى حاربوه حرب تخريب، وحربًا دينية وعقائدية، وحرب أعصاب، وأخيرًا حربًا مسلحة قصيرة..

فقد حاولوا أن يؤلبوا القبائل العربية المحاربة على محمد والإسلام وعاصمته المدينة، بالمؤامرات والمال والسلاح، وعرّضوا الأمة الإسلامية الناشئة للمخاطر المتواصلة. وحتى يحافظ النبى على نفسه ودينه لم يكن من الممكن أن يظل مكتوف الأيدى أمام الخطر اليهودى.. وبالتعاسة من يرى مثل هذا الخطر ولا يسرع لاستئصاله بشتى الطرق!.

والدموع التى يذرفها المستشرقون على مصير اليهود فى مختلف حلقات صراعهم مع النبى لا تنم إلا عن نفاق بواح، لأنهم عندما يتعلق الأمر ببلادهم لا يذرف أى منهم دمعًا فى الظروف المشابهة لتلك الظروف.

إن أيًّا من الإجراءات التى اتخذها محمد لم يكن بدافع دينى أو عنصرى، ولا حتى بدافع اقتصادى كما يحلو لبعض المستشرقين أن يذكروه.. ومما يدل على ذلك أن القيمة التى حصلها المسلمون من وراء ذلك كانت تافهة، وفى بعض الأحيان لم تكن توجد غنيمة.

* وفيما يتعلق بالصراع مع بنى قريظة:

ففى شهر شوال ٥ هـ ـ مارس ٦٢٧م ـ ذهبت جماعة من اليهود ـ من بنى النضير وبنى وائل ـ إلى القرشيين بمكة، وأغروهم بحرب رسول الله، قائلين: «نحن معكم عليه حتى نستأصل شافته».

فقال لهم أهل مكة: «يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، وأنتهم أهل للحكم بيننا وبين محمد، فمن على الحق، ديننا أم دين محمد؟». فرد عليهم اليهود: «دينكم خيرمن دينه، وأنتم على الحق دونه».

وعندماسمع القرشيون ذلك تهللت أساريرهم، وتحفزوا لقبول ما عرضوه عليهم من حرب رسول الله ـ ﷺ ـ وأبرموا اتفاقًا فيما بينهم، وتواعدوا على الحرب.

ثم رحل هؤلاء اليهود، وذهبوا إلى قبيلة ـ غطفان ـ وهى من بطون قيس بن عيلان ـ وأغروهم بحرب الرسول، قائلين لهم: «سنكون معكم نحن وقريش».

ثم إن حيى بن أخطب اليهودى ذهب إلى كعب بن أسد، زعيم بنى قريظة، ودعاه إلى نقض حلفه مع النبى، ومساعدة قريش وبنى غطفان عندما يأتون ويهاجمون المدينة، فنقض كعب بن أسد، باسم يهود بنى قريظة، عهده مع النبى.

ولقد حكم «مكسيم رو دنسون» [١٩١٥ ـ ٢٠٠٤م] ـ وهو مستشرق يهودى بعدالة المصير الذى أصاب يهود بنى قريظة وقال: «لقد كانت مذبحة بنى قريظة من ناحية أخرى ومن وجهة نظر سياسية أمرًا مفروضًا، فقد كان بنو قريظة يمثلون خطرًا دائمًا على المدينة، وكان تركهم يرحلون يقوى مركز المؤامرات المضادة للمسلمين فى خيبر، والموتى فقط هم الذين لا يعودون وقتلهم من الممكن أن يساهم فى إضعاف الروح المعنوية لدى الأعداء، وقد كان الحل الذى اختاره محمد هو الأمثل من الناحية السياسية، ونعلم جيدًا أن السياسيين لا يقبلون الاعتبارات إلا عندما تصبح لديهم عوامل سياسية مفيدة، أو عندما لا يستطيعون أن يفعلوا غير ذلك».

* وفيما يتعلق بغزوة خيبر:

فقد كان غزو النبى لها ولفدك ووادى القرى مبَّررًا تمامًا من الناحية السياسية والدينية، وحتى الاقتصادية. ولذلك فإنه لم يجرؤ أحد من المستشرقين، حتى الحاقدين على الإسلام، أن يرفع صوته بالاحتجاج على هذه الغزوة. وما أحسن ما قاله، بإنصاف، مونتجمرى وات [١٩٠٩ ـ ٢٠٠٦م]: «إذا كان يهود المدينة بعد تصفية بنى قريظة، ظهروا بمظهر الموادعة، فإن يهود خيبر، ومن بينهم زعماء بنى النضير، قد كانوا مثيرين للقلاقل، ومعبئين ضد محمد دائمًا بدافع الثأر، وكانوا يوظفون ثرواتهم فى جزء كبير منها لتحريض العرب المحاربين، ولا سيما القبائل القوية مثل غطفان على التحالف معهم ضد المسلمين، ولقد كان محمد على حق فى مهاجمة خيبر».

* وفيما يتعلق بقتل كعب بن الأشرف:

فإن المستشرق كايتانى [١٨٦٩ ـ ١٩٢٦م] يقول: «من بين اليهود يتميز على الخصوص الشاعر كعب بن الأشرف ـ وهو من بنى النضير ـ بالعنف، وعداوته اللدود التى كان يبديها فى كل موقف باتجاه محمد والإسلام، وكان أحد الذين أبدو قمة الحقد لنصرة المسلمين فى بدر، ولم يستطع أن يعزى نفسه للهزيمة الساحقة للقرشين، الذين كان يسميهم «ملوك البشرية»، وبدافع من كراهيته للمسلمين رحل كعب إلى مكة، وأقام عند المطلب بن أبى وداعة بن دبيرة السهمى، زوج عائكة بنت أبى العاص بن أمية، فاستقبله هذان الزوجان استقبالًا حارًا، وقد نظم كعب قصيدة يحيى بها الأمل فى نفوس القرشيين ويلهب عواطفهم للثأر، وقد بكى القرشيين القتلى، وحرض أهل قريش بعنف ضد محمد. وقد ذاعت أشعار كعب فى مكة وأحدثت أثرًا عظيمًا وأثارت القرشيين، وأعادت إليهم ما كانوا نسوه من المشاعر بعد هزيمة بدر، ولم يترددوا فى إظهار ألمهم الفاجع، وقد استمر ذرف الدموع والشجن العام لمدة شهر فى مكة.

ولا تزال قصائد كعب ترد حتى وصلت إلى مسامع محمد، الذى تألم للمساوئ التى يسوقها الشاعر، وقد أمر محمد، بدافع أهمية قصائد هذا الشاعر، أمر شاعره حسان بن ثابت أن يرد على جميع هذه القصائد الساخرة التى نظمها أعداؤه شعرًا.

وقد حاول كعب أن يتهم النساء المسلمات فى شرفهن.

وباختصار، لقد حاول هذا الشاعر أن يبدو الأكثر جرأة، والذى لا يمكن احتماله أمام أعين الناس.

لقد ذهب إلى مكة يحرض القرشيين على الأخذ بثأرهم من هزيمة بدر، ورجع إلى المدينة، ولم يكف عن مهاجمة النبى ودينه بأفظع قصائد السباب، ونظم قصائد فاضحة تهدف إلى التشهير بالنساء المسلمات، مما ألحق بهن الأذى».

* وفيما يتعلق بقتل أبى رافع بن أبى الحقيق:

فلقد كانت جريمته أشنع من جريمة كعب بن الأشرف ، لأنه كان يحرض غطفان والقبائل العربية الأخرى لمحاربة محمد والمسلمين، وقد وعدهم بالمال والسلاح».

(٥)

والفرية الاستشراقية الخامسة هى ادعاؤهم حول علاقة النبى ﷺ ـ بالمسيحية:

[محمد والمسيحية]

وفيما يتعلق بالموقف القرآنى من المسيح، فإن الآيات القرآنية يمكن أن نستخلص منها:

١ ـ أن عيسى ما هو إلا رسول من رسل الله، مثله فى ذلك مثل بقية الرسل.

٢ ـ أن عيسى بشر لا أكثر ولا أقل، مثله فى ذلك مثل أى بشر آخر خلقه الله.

٣ ـ إذا فهو ليس ابنًا الله، لأن الله لم يلد ولم يولد.

٤ ـ إذا فعيسى ليس أحد أقانيم التثليث، والتى هى الأب والابن والروح القدس.

٥ ـ لقد خلق الله عيسى كما خلق الناس جميعًا، أى بقوله: كن، وكن هذه هى فعل الله وعلمه كذلك، فعندما يقول القرآن إن عيسى خلق بكلمة الله، فهذا يعنى فقط بأمر الله، أى بالنفخة الإلهية التى لا علاقة لها بالكلمة ـ المذكورة فى إنجيل القديس يوحنا، والتى تطورت فيما بعد بشكل كبير فى اللاهوت المسيحى.

٦ ـ لقد قام عيسى بمعجزاته، ليس بقوته الذاتية، ولا بإرادته الذاتية، ولكن بقدرة الله، وتلك هى حالة بقية الأنبياء الآخرين فى معجزاتهم، وهدف هذه المعجزة فى القرآن ـ وحسبما يقول الإسلام ـ هو أن تثبت أن الأنبياء الذين قاموا بها مرسلين من قبل الله ليؤدوا رسالة عهد بها إلى أناس أرسلهم الله إليهم.

وهذا مناقض تمامًا لما فهمه آباء الكنيسة من دور المعجزات التى قام بها يسوع المسيح فى الواقع. لقد أكد آباء الكنيسة أن معجزات المسيح تثبت ألوهيته.

٧ ـ وفيما يتعلق بموت يسوع المسيح، فإن القرآن صريح، فلم يقتل اليهود عيسى ولم يصلبوه، إذا فقد مات موتًا طبيعيًّا.

وهذا المفهوم القرآنى ليسوع له سوابق عند بعض ممثلى الكنيسة المسيحية فى بدايتها، أى حين كانت قريبة من منابعها الأولى قبل أن تُحرف على نطاق واسع من قبل البيزنطيين وتدخل فى تفسيرات عقيمة.

ولقد ظلت هذه الأفكار موضع تقدير من جانب أكبر وجهاء المسيحية فى عهدها الأول، ولذلك فهى تمثل العقائد المسيحية فى صفائها.

إذن، فمن الخطأ اتهام القرآن بأنه أساء التصور عن المسيحية ومؤسسها، وهو اتهام ردده المستشرقون.

* وبالنسبة لتأليه مريم.

فليس بالقرآن ما يؤكد أن مريم جزء من الثالوث، أو أقنوم من هذا الثالوث.

وهناك شهادات تؤكد أن عبادة مريم، باعتبارها إلهة، انتشرت فى الشرق المسيحى بداية من القرن الرابع، وكان لها أتباع من مسيحى الجزيرة العربية.

ومن هنا نستخلص:

١ ـ أن القرآن قد ذكر الحقيقة حين نعى على المسيحيين (أو على بعض الطوائف المسيحية) أن يعبدوا مريم أم عيسى على أنها إلهة.

٢ ـ والقول بأن القرآن قال إن مريم أحد أقانيم التثليث الثلاثة هو أكذوبة كبرى اخترعها المبشرون والمستشرقون الذين هم فى نفس الوقت مبشرون ومسيحيون شرقيون سيئو النية، ـ مثل «قنواتى» [١٩٠٥ ـ ١٩٩٤م].

وفى المواضع الثلاثة التى تحدث فيها القرآن عن الروح القدس فإنه يعنى الوحى الإلهى، أو دعم من الله لنبى من الأنبياء، أو لرجل عبقرى.. فروح القدس فى القرآن ليست لها علاقة بروح القدس ثالث أقانيم الألوهية، ولا يمكن أن يقول القرآن غير ذلك، لأن القرآن يدين مذهب التثليث مطلقًا عند المسيحيين.

ونحن يمكننا أن نعتبر تأليه مريم هو نتيجة حتمية لعبادة مريم التى بدأت منذ القرن الثانى.. وقد اعتبرت مريم منذ ذلك الوقت مشاركة فى الخلاص، أى أنها تشارك مع

ابنها فى خلاص العالم، ويعتقد أغلب علماء اللاهوت الكاثوليك أنها تتعاون مع ابنها يسوع مباشرة وبشكل دائم فى عملية خلاص البشرية.

وكان تيو دونس البيزنطى، الذى أقام فى روما، يدرس فيها، يقول: «إن يسوع لم يكن إلا بشرًا ولد من عذراء، وقد عاش حياة دينية أكثر من قرنائه، ومنذ تعميده فى الأردن دخل المسيح فى شكل يمامة، ومنحه القوى التى كان يحتاجها لينجز مهمته».

وهذا التيار فى المسيحية، فى القرن الثانى والثالث والرابع، فى المسيحية يسمى الملكانيين، أو الوسيط.

والقرآن لم يسند إلى عيسى دور المخلص، لأن الخلاص لا يكون إلا من الواحد الأحد، فهو وحده مخلص البشر.

ومذهب بولس الساموسى [٢٦٠ ـ ٢٧٢م] يتلخص فى تقرير أن هناك إلهًا واحدًا، من ضمن ما يتصف به الحكمة، أو العقل، ومسيح هو يسوع رجل بشر مثل كل البشر تلقى الحكمة الإلهية.

ومن بين البراهين التورانية التى يستند عليها بوليس الساموسى نذكر الأمثلة الآتية:

أ ـ فيما يخص الله وحده، نقرأ فى العهد القديم: «الرب إله واحد». وكذلك نقرأ فى رسالة بولس إلى الرومانيين: «حتى لا يكون سوى إله واحد فوق الجميع».

ب ـ وفيما يخص بشرية عيسى، فهذه آية من إنجيل القديس لوقا (إصحاح ٣ ـ آية ٢٣): «وبدأ عيسى يبلغ حوالى الثلاثين من عمره». إن كلمة بدأ تعنى بالضرورة أنه بشر وليس إله. وهذه آية أخرى من إنجيل يوحنا:

«وقد منحه القدرة على الحكم لأنه ابن البشر» ـ (إنجيل يوحنا. إصحاح ٥ ـ آية ٢٧).

والكنيسة المسيحية حين أدانت مذهب بولس الساموسى، قد ضيعت على نفسها فرصة جيدة لتصحيح مذهبها عن طبيعة المسيح، ذلك المذهب الذى يضاد العقل والمنطق.

وحتى نحافظ على وحدة الإله فإن الكنيسة كان يجب عليها أن تعتمد مذهب بولس الساموسى.

كذلك فإن مفهوم القرآن عن عيسى هو المفهوم الوحيد الذى يتطابق مع مذهب وحدة الإله».

* * *

(٦)

والفرية الاستشراقية السادسة، هى الزعم بأن النبى لم يكن يفى بالعهود والعقود.. أى التشكيك فى:

وفاء محمد بالعهود المعقودة

«فعن صلح الحديبية يقول «فرانتس بول»: «إن الذى يعرف موقف محمد من عهوده واتفاقياته لا يشك أن نيته منذ البداية سوف تكون التحلل من هذا الالتزام حالما تسنح الفرصة».

لكن الواقع التاريخى يقول إن القرشيين كانوا هم الذين نقضوا صلح الحديبية، وذلك بمساعدتهم قبيلة بكر ـ حليفتهم ـ فى العدوان على قبيلة خزاعة ـ حليفة النبى .

فبأى حق إذن يتهم «فرانتس بول» النبى بعدم الوفاء بتلك المعاهدة؟.. ولكن كراهيته الشديدة وحقده على محمد والإسلام قد أعمياه تمامًا. والأغرب من ذلك أن «فرانتس بول» ومن على شاكلته لم يوردوا أى حالة حدث فيها الخرق المزعوم من جانب النبى.

ولقد اعترف «ليون كايتانى» أن القرشيين هم الذين نقضوا صلح الحديبية.

ولقد سجل الشعر هذه الحقيقة.. فعمرو بن سالم الخزاعى، ذهب إلى المدينة طالبًا النصرة من النبى ﷺ ـ بعد أن نقضت قريش عهدها معه، وشاركت بكرًا فى قتل حلفاء النبى غدرًا، وهم راكعون وساجدون.. وأنشد الرسول ـ ﷺ ـ :

لاهــم إنــى نـاشـد محمدًا حلف أبينا وأبـيـه الأتلدا
إن قريشًا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هـم بيتونا بالوتير هجدًا وقـتـلـونـا ركـعًـا سـجـدًا
فانصر هدك الله نصرًا أبدًا وادع عباد الله يأتوا مـددًا

* رحمة النبى حتى بمن نقضوا العهود:

ويشك المستشرقون فى رحمة النبى وفى دوافع هذه الرحمة.. على الرغم من أن النبى قد أبدى مثالًا نادرًا فى الرحمة ونبل النفس فى أبهى صورة حينما قهر أعداءه الذين طالما أزعجوه وآذوه وتآمروا عليه..

فلقد عفى ـ يوم فتح مكة ـ عن كل أعدائه القرشيين الذين شنوا عليه حربًا شعواء لمدة عشرين سنة، ولما وصل إلى باب الكعبة، وتوجه إلى أعدائه القرشيين قائلًا: «يا معشر قريش، ما تظنون أنى فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». ومع ذلك يفسر «مكسيم رودنسون» ـ الماركسى ـ هذا العفو تفسيرًا اقتصاديًّا ماديًّا، فيزعم أن محمدًا استفاد من عفوه هذا بأن اقترض من أغنياء قريش مبالغ كبيرة!. فيا لها من سفالة مادية تاريخية!

ولم يتحدث «رودنسون» ـ بالمنطق المادى الاقتصادى عن أموال المسلمين المكيين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، التى اغتصبها أغنياء قريش.

كما لم يشر لنا أى من هؤلاء المستشرقين إلى نموذج واحد من الشهامة المماثلة ـ فى تاريخ أوربا حتى وقتنا هذا!

* * *

(٧)

والفرية الاستشراقية السابعة هى:

الطعن فى أصالة العبادات الإسلامية

* ففى الصلاة:

يزعم «فرانتس بول»: أن محمد قد حذا حذو اليهود فى ممارستهم الصلاة اليهودية.. مع أن صلوات اليهود ثلاثة، وليست خمسة كما هى فى الإسلام.

ويزعم «جود فروا ديموبين» ـ فى تأكيد وقح ـ أن الصلوات الإسلامية الخمس وممارستها التقليدية إنما شرعت بعد وفاة النبى!

ولم يسألوا أنفسهم: ماذا سوف يستفيد المسلمون من زيادة عدد الصلوات من ثلاثة إلى خمسة؟

هل كانوا يخافون أن يتهموا بتقليد اليهود؟ ولكن أى يهود؟ ألم يطرد هؤلاء اليهود نهائيًّا من الجزيرة العربية بأمر الخليفة عمر حوالى ٢٠هـ.

ثم.. إن علينا أن نلاحظ أولًا أنه من الخطأ التأكيد على أن هناك فريضة عند اليهود تفرض عليهم أن يؤدوا ثلاث صلوات فى اليوم.. ولم نجد فى العهد القديم أى شعيرة تأمر بالصلاة ثلاث مرات فى اليوم عند اليهود.. ومن المؤكد أنه حتى الأيام الأخيرة من المعبد الأول لم تكن أى صلاة قد فرضت، ولا حتى أمر عام للصلاة عند اليهود، فهؤلاء المستشرقون الذين ادعوا أن محمدًا اقتبس من يهود المدينة عدد وشكل الصلاة الإسلامية، لا يعرفون شيئًا عن الصلاة عند اليهود.

* ولقد زعموا أن سورة الفاتحة هى صورة لما يسمى فى المسيحية بالقداس الأبوى، بينما المقارنة بين الفاتحة وهذا القداس تبرز العديد من الفروق:

أ ـ ففى الفاتحة، الله هو المتعالى مطلقًا. أما فى القداس فإن الله متعالى عن الكون، ومحددة إقامته فى السماء.

ب ـ وفى الفاتحة، الله هو الرحمن الرحيم، بينما لا يوجد شىء من ذلك فى القداس.

جـ ـ فى الفاتحة، يدعو المسلمون الله بكل خضوع وانكسار أن يساعدهم، أما فى القداس فإنهم يأمرون الله أن يعطيهم خبزهم اليومى.

هـ ـ فى الفاتحة، ندعو الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم، أما فى القداس فيطلبون من الله أن يحط عنهم خطاياهم، وأن يفعل مثل ما يفعلون من حط الخطايا عن المخطئين، كما يأمرون الله ألا يتركهم فى الغواية، وأن يخلصهم من الشرور. إذا، فإننا فى القداس نحن الذين نأمر الله وهو الذى يعطينا.

ومن هذه المقارنات يتضح أن روح الفاتحة ـ متناقضة تمامًا مع روح القداس المسيحى، وبرغم هذا الاختلاف التام بين الاثنين فإننا نجد أن من المستشرقين أغبياء أكدوا أن الفاتحة مقتبسة من القداسة الأبوى.

* كما أن صلوات المسلمين تعتمد على ثلاثة أفعال: قيام، وركوع، وسجود، مع تلاوة آيات قرآنية فى القيام، وتسبيح فى الركوع والسجود.

ولقد عجز المستشرقون عن العثور على أى من هذه الأركان الثلاثة مجتمعة فى صلوات الجاهليين، أو فى القصص التورانية، أو فى النسك المسيحية، أو فى أى صلاة فى الأديان الأخرى، وكانت محاولتهم عبثية ومثيرة للسخرية.

* وفى الصيام:

لقد روى أن النبى أمر المسلمين بصيام يوم عاشوراء ـ وهو العاشر من المحرم.

ولقد زعم «كاتانى» ومستشرقون آخرون «أن فى هذا تشبهًا بصيام اليهود»..

أ ـ ولكن هذا يقتضى أن الصيام لم يمارسه المسلمون أبدًا خلال إقامة النبى فى مكة.. مع أن هناك حديثًا مسندًا إلى عائشة يقول: إن محمد أمر أتباعه خلال إقامته فى مكة بصوم العاشر من المحرم ـ [البخاري].. وهناك عدد من الأحاديث غير هذا الحديث.

ب ـ والعاشر من تشرين ـ السنة اليهودية، والذى يقابل السنة الثانية للهجرة لا يتفق مع العاشر من المحرم من السنة الثانية للهجرة ـ [العاشر من المحرم يوافق ١٥ يوليو ٦٢٣م، و١٠ تشرين يقع بين يوم ٢٠ سبتمبر و١٠ أكتوبر ٦٢٣م]ـ. إذا كيف أمكن لمحمد، إن كان قد أراد أن يقلد اليهود، أن يختار يومًا غير يوم اليهود؟!.

ومن المعروف أن العاشر من تشرين (وهو الشهر السابع من السنة اليهودية) هو يوم الغفران، ويجب صيامه عند اليهود.

ثم إن صيام رمضان كان موجودًا عند العرب قبل الإسلام، ومحمد خلال إقامته بمكة كان يحافظ على هذه الشعيرة العربية قبل الإسلام.

ولكن بعد الهجرة إلى المدينة، وفى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة، أُمر بصيام شهر رمضان.

والحقيقة أنه ليس هناك أية علاقة بين الصيام اليهودى والصيام الإسلامى، وهذه هى الفروق بينهما:

أ ـ الصيام اليهودى محدد بخمسة أيام بعيدة جدًّا عن بعضها البعض.. ويستمر الصيام أربعًا وعشرين ساعة، وعلى العكس من ذلك يستمر صيام المسلمين شهرًا كاملًا.

ب ـ وفى يوم صوم اليهود يمزقون ملابسهم، ويلبسون ملابس من الخيش.. ويضعون الرماد والطين على رءوسهم.. ويزورون المقابر، كما أنه من المحرم عليهم أن ينتقلوا، وليس فى الصيام الإسلامى أى من هذا.

جـ ـ وفى أثناء صيام اليهود يمتنع القيام بأى عمل.

وعلى العكس من ذلك، فى أثناء الصيام الإسلامى لا يسمح فقط بالعمل، بل يحث عليه بشدة.

* أما الصوم عند المسيحيين، فليس له علاقة ـ لا بالصوم اليهودى، ولا بالصوم الإسلامى.. فالصوم المسيحى لا يعد صومًا بالمعنى الحقيقى (أى الامتناع عن كل طعام وشراب)، وليس له من الصوم إلا الاسم.

إذا، فمن العبث أن نقول ـ مع «جريم» [١٨٦٤ ـ ١٩٤٢م] و«شبرنجر» ـ أن فكرة صوم رمضان جاءت إلى محمد من الصوم الكبير عند المسيحيين.

* وفيما يتعلق بالحج:

لقد أطلق المستشرقون العنان لخيالهم السقيم فى الحديث عن الحج ويمكن أن نقسمهم فى هذا الصدد إلى طائفتين:

الأولى: الذين أرجعوا الحج إلى مصدر يهودى.

والثانية: الذين وجدوا فيه إحياء لشعائر وثنية قبل الإسلام.

وعلى رأس الطائفة الأولى «راين هرديت دو دى» ـ فى كتابه «الإسرائيليون فى مكة» ـ حيث زعم أن الحج يعود إلى مصدر يهودى.. وقد أتى «هوتسما» [١٨٥١ ـ ١٩٤٣م] الذى قرن بين الحج الإسلامى والأفعال اليهودية، وقارن بين الوقوف بعرفة ووقوف اليهود عند طور سيناء.

وهذه مقارنة عبثية، لأن وقوف الإسرائيليين بجبل سيناء هدفه تذكر صعود موسى على جبل سيناء ولقاءه مع يهوا، واستقباله لألواح الشريعة، ولا ينطبق أى من هذه على الوقوف بجبل عرفة ـ ومن ناحية أخرى فإن الامتناع عن العلاقات الجنسية فى كل الشعائر الدينية ـ لكل الأديان وليس خاصًّا باليهود، ومن ناحية ثالثة، فإن الإحرام المطلوب من الحاج المسلم هو ملابس مخصصة للحج، وليست ملابس لكل الأيام تغسل فى مناسبة واحدة، كما هو الحال عند اليهود خلال وقوفهم بجبل سيناء. واليهود لا يأكلون لحم الجمل.. والجمل أفضل ما يضحى به الحاج المسلم. وليس هناك أى وجه شبه بين رجم إبليس فى الحج ورمى كبش الفداء. والقرابين اليهودية تحرق أو يحرق جزء منها، بينما الأضحية فى الإسلام يأكل منها صاحبها وعائلته والفقراء. والقول بأن إضاءة المساجد فى عرفات والمزدلفة هو تشبيه بإضاءة المعبد فى عيد التكفير هو السفاهة بعينها، فمعنى هذا أن إضاءة أى كنيسة أو معبد أو مسجد هى تشبه بإضاءة معبد اليهود، كما لو كان يجب أن تمنع أى إضاءة فى أى دار من دور العبادة خلال الليل حتى لا تفهم بالتشبه إلى اليهود. وحينما نرى «فينسنك» [١٨٨١ ـ ١٩٣٩م] يفكر هكذا نعتقد أنه يحلم!

* أما الطائفة الثانية: الذين وجدوا فى شعائر الحج الإسلامى إحياء لتقاليد وثنية من قبل الإسلام.. فلقد أدخل الإسلام على هذه التقاليد تعديلات مهمة:

ـ فقبل الإسلام، كانت الإفاضة من عرفات عند غروب الشمس. وفى الإسلام يجب أن تكون بعد غروب الشمس بوقت قصير.

ـ كذلك فإن الإفاضة من مزدلفة كانت تبدأ قبل الإسلام من طلوع الشمس، وفى الإسلام يجب أن تكون قبل طلوع الشمس، وهو وقت الوقوف بعرفة. ومن خلال هذا الفرق يتضح أن الإسلام حرص على أن يتحاشى لحظة غروب الشمس وشروقها، بما يستبعد أى شك فى عبادة الشمس.

ـ قبل فتح مكة ٨ هـ ٦٣٠م كان هناك كثير من الأماكن المقدسة فى الجزيرة العربية، وربما كان لكل منها عيدها السنوى الخاص بها، مع حج كبير إليه، وتهليل له.. ولقد وضع محمد نهاية لكل هذه الأماكن المقدسة فى الجزيرة العربية، فيما عدا البيت الحرام بمكة، وهنا، فالكل يجب أن يتوجهوا إليه. ومن هنا تتحقق وحدة العالم الإسلامى، والأمة الإسلامية جمعاء بشكل رمزى.

ـ وقبل الإسلام لم يكن الحج إلى عرفة شعيرة محددة، وإنما كان محمد هو الذى حدد الشعائر بعد فتح مكة فى رمضان ٨هـ».

ـ وقبل الإسلام كان العرب يضحون بالبشر.. فجاء الإسلام فحرم كل تضحية بشرية.

ـ والشَّعر الذى يقصه الحاج المسلم لا يقدم قربانًا إلى أحد، بينما فى الأديان الأخرى يقدمون شعورهم قربانًا للآلهة، لأنهم يعتقدون أن الشَّعر يحتل أهمية كبيرة فى حياة الرجل، ولذلك فعندما يقدم شعره إلى إله يكون كمن قدم دمه.

ـ ولقد غير الإسلام مضمون الحج عما كان عليه قبل الإسلام، وذلك بما أضفاه عليه من معنى روحى خالص».

* * *

(٨)

والفرية الاستشراقية الثامنة، تتعلق بنقد.

الصحة التاريخية لرسائل الرسول وخطبه وأحاديثه

ففرانتس بول يشكك فى رسائل النبى إلى الملوك والرؤساء، بدعوى «أنه يشك كثيرًا فى أن محمدًا يمكن أن يكون قد فكر أن يصبح دينه عالميًّا».

مع أن آيات السور المكية ـ التى ذكرها بول نفسه ـ هى براهين واضحة ـ تهدم قضيته المعاندة للحقيقة.

كما أن الغزوات التى كانت فى حياة النبى وبعد موته بعام واحد تثبت بما لا يمكن دحضه أن الإسلام فى فكر مؤسسة محمد دين عالمى، يخاطب العالم أجمع، وفى كل مكان كانت فتوح وغزوات النبى هدفها إدخال شعوب أخرى من الأرض فى الإسلام، وكان قواد هذه الغزوات يعرضون على هذه الشعوب الدخول فى الإسلام قبل كل شىء.

ومن أجل هذا يجب أن نصف رأى «بول» بالغباء الشديد. وهو أن فكرة القيام بمشروع تبشير إسلامى عظيم نشأت من تأثير التقاليد المسيحية.

فكل الحجج التى يسوقها «فرانتس بول» ليثبت أن كتب النبى إلى إمبراطور بيزنطة هرقل، وإمبراطور فارس كسرى، والمقوقس حاكم الإسكندرية، والنجاشى حاكم الحبشة، مزيفة وملفقة، لا تساوى شيئًا، وتنم عن غباء نادر عند «بول».

* ويزعم «جاستون وايت» [١٧٤٦ ـ ١٨١٤م] أن مكاتبات النبى مع المقوقس ملفقة.. مع أن هدايا المقوقس إلى النبى ومنها مارية القبطية ـ ثابتة بكل براهين الثبوت.. ولكنه دأب المنطق المتعجرف الذى لا يقوم على شىء، والذى يميز كتابات أغلب المستشرقين فى مجال الدراسات المتعلقة بمحمد والقرآن والإسلام.

* أما دعوى «جولد تسيهر» [١٨٥٠ ـ ١٩٢١م] أن عددًا من الأحاديث النبوية مقتبس من الأناجيل.. فهى مردودة لأن الأحاديث محل الطعن غير موجودة فى الكتب الست الصحاح، ولكنها موجودة فى واحد أو اثنين منها..

كما أن الأحاديث تدعو إلى مبادئ عامة يمكن أن تدخل فى باب حكمة الأمم، وليس بالضرورة مقتبسة من أصل مسيحى.

وهكذا تصبح ملاحظات «جولد تسيهر» سطحية وقليلة القيمة ـ من الناحية النقدية ـ بل لقد أصبحت مثيرة للسخرية عندما يزعم أن سيرة محمد قد كتبت على نموذج الأناجيل»!!

* هكذا غاص الدكتور عبد الرحمن بدوى فى محيط الاستشراق والمستشرقين.. وكشف ـ وهو الخبير ـ عن الزيف والكذب والغباء والتهافت الذى ساقهم إليه حقدهم الشديد والدفين على رسول الإسلام ـ ﷺ ـ..

وبذلك ألقى الأضواء الكاشفة على الجذور التاريخية ـ لظاهرة «الإسلاموفوبيا»، التى تتصاعد موجاتها فى الكثير من دول الغرب هذه الأيام.. كما كشف، فى هذا الكتاب، عن باع طويل فى علم مقارنة الأديان..

إن كتاب الدكتور بدوى [دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره] ليس مجرد عمل فكرى فذ فى علم تاريخ الأفكار.. وإنما هو ـ مع ذلك وعلاوة على ذلك ـ كتاب فذ فى الوعى بتاريخ الأفكار[1]..

رحمه الله.. وجعل هذا العلم النافع الذى قدمه فى ميزان حسناته، إن شاء الله.

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب ـ هدية مجلة [الأزهر] عدد ربيع الآخر سنة ١٤٣٨هـ يناير سنة ٢٠١٧م وعدد جماد أول سنة ١٤٣٨هـ فبراير سنة ٢٠١٧م.

الدكتور طه حسين

بطاقة حياة الدكتور طه حسين

[١٣٠٧ ـ ١٣٩٣هـ ـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م]

* ولد طه حسين [١٣٠٧ ـ ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م] فى عزبة الكيلو ـ مركز مغاغة ـ محافظة المنيا ـ بصعيد مصر ـ فى ٢٠ ربيع أول سنة ١٣٠٧ هـ ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٩م.. ولقد فقد بصره فى سن مبكرة.

* حفظ القرآن الكريم بكتاب القرية.. ثم التحق بالأزهر ـ فى القاهرة ـ سنة ١٩٠٢م.. وفيه تتلمذ على عدد من شيوخ الأزهر، من أبرزهم الشيخ سيد المرصفى، والشيخ الشنقيطى، والشيخ عبد العزيز جاويش.. وحضر درسين للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ـ كانا آخر دروس الإمام قبل وفاته سنة ١٩٠٥م ـ وكان طه حسين يومئذ فى الرابعة عشرة من عمره.

* كان متمردًا على الدراسة بالأزهر، فحرمه شيوخه من نيل شهادة العالمية ـ فالتحق بالجامعة المصرية ـ الأهلية ـ سنة ١٩٠٨م.. وفى الجامعة تأثر بمناهج النقد التى درسها على المستشرقين «نللينو» [١٨٧٢ ـ ١٩٣٨م] و«ليتمان» [١٨٧٥ ـ ١٩٥٨م] و«جاستون فييت» [١٨٨٧ ـ ١٩٧١م].. ومن الجامعة نال أول دكتوراة منحتها الجامعة عن رسالته [تجديد ذكرى أبى العلاء] سنة ١٩١٤م.

* بدأ تعلم اللغة الفرنسية سنة ١٩٠٩م بمدرسة ليلية أنشأها الشيخ عبد العزيز جاويش.

* ارتبط بـ «حزب الأمة» ـ حزب أحمد لطفى السيد.. وكتب شعرً ونثرًا فى صحيفته [الجريدة]. وكانت أولى قصائده المنشورة ـ بالجريدة ـ فى ١ ـ ١ـ ١٩٠٨م ـ فى رثاء حسن باشا عبد الرازق ـ رئيس حزب الأمة ـ وفيها هجاء للحزب الوطنى

حزب مصطفى كامل باشا ـ وعندما توفى مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ لم ينعه طه حسين، رغم أن مصر كلها قد اهتزت لوفاته.

* ثم قادته علاقاته بالشيخ عبد العزيز جاويش إلى صحافة الحزب الوطنى ـ بعد تراجع دور حزب الأمة ـ واستمرت هذه العلاقة حتى سفره إلى فرنسا سنة ١٩١٤م.

* فى هذه المرحلة نشر مقالات فى النقد الأدبى والفكر الدينى فى صحف [الجريدة] و[مصر الفتاة] و[الشعب] و[الهداية] و[الوطن] و[العلم].. فكتب عن الوطنية المصرية، والدستور، والحكم النيابى، وتحرير المرأة، والتدين، وتحكيم القرآن والشريعة، والفضيلة.. وفى النقد الأدبى هاجم ـ بضراوة ـ أعلام العصر ـ المنفلوطى، والرافعى، وحافظ إبراهيم، وكتاب [المؤيد] ـ فضلًا عن شيوخ الأزهر ـ.. وكانت له آراء ـ فى هذه الفترة ـ خالفها هو بعد سفره إلى فرنسا ـ منها:

التزين بالأزياء الإفرنجية.. وتحريمه زواج المسلم من الكتابية الأوروبية!.

* كانت أولى محاضراته بنادى الموظفين ـ فى أكتوبر سنة ١٩١١م ـ عن تاريخ اللغة العربية.

* سافر إلى فرنسا ـ مبعوثًا من الجامعة المصرية إلى جامعة السوربون ـ ١٩١٤م ـ وعاد إلى مصر ثانية شتاء سنة ١٩١٥م بسبب الحرب العالمية الأولى.. ثم استأنف السفر ثانية إلى فرنسا سنة ١٩١٥م. ومن السوربون نال الدكتوراة سنة ١٩١٧م عن رسالته [فلسفة ابن خلدون الاجتماعية]. كما نال إجازة الآداب سنة ١٩١٧م.. والدبلوم العالى فى التاريخ القديم واللغتين اليونانية واللاتينية.

* وفى فرنسا تزوج سنة ١٩١٧ من زوجته «سوزان برسّو».

* ولقد عاد من فرنسا سنة ١٩١٩م، فدرّس بالجامعة المصرية دروس التاريخ اليونانى والرومانى.. وشغل كرسى التاريخ القديم.. ونشر سنة ١٩٢٠م كتابه [صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان].. فى سنة ١٩٢١م نشر كتابه [نظام الأثينيين ـ لأرسطو].

* وعندما أصبحت الجامعة حكومية سنة ١٩٢٥ تولى فيها كرسى الأدب العربى.

* وفى سنة ١٩٢٥م نشر كتابه [قادة الفكر] ـ الذى عبر فيه عن الإعجاب الشديد بكل ما هو غربى.. كما أسهم سنة ١٩٢٥ فى تأليف كتاب [الإسلام وأصول الحكم].. وفى الدفاع عنه بصحيفة [السياسة].. وفى العام التالى سنة ١٩٢٦م ـ نشر كتابه [فى الشعر الجاهلي] ـ الذى أثار ضجة فكرية وسياسية كبرى.

* فى حقبة العشرينيات ـ وبعد انقسام زعماء ثورة سنة ١٩١٩م إلى «سعديين» ـ مع سعد زغلول ـ و«عدليين» ـ مع عدلى يكن ـ انحاز طه حسين إلى العدليين، وهاجم [الوفد] وسعد زغلول.. وأصبح من أهم كتاب [الأحرار الدستوريين] وصحيفة [السياسة] ـ التى كان يكتب لها منذ أواخر سنة ١٩٢٢م مقالين فى الأسبوع ـ الأحد والأربعاء.. وأشرف على صفحتها الأدبية منذ خريف سنة ١٩٢٣م.. وكان يرأس تحريرها فى غيبة رئيس تحريرها د. محمد حسين هيكل.

كما نشر مقالات ثقافية وسياسية فى [الأهرام] عامى سنة ١٩٢١وسنة ١٩٢٢م.

* ولانحيازه ـ فى العشرينيات ـ لأحزاب الأقلية، لم يكتب أى نقد لحكومة «اليد الحديدية» التى رأسها محمد محمود باشا [يونيو سنة ١٩٢٨ ـ أكتوبر سنة ١٩٢٩م] ـ والتى عطلت الدستور والبرلمان.

* انتخب عميدًا لكلية الآداب فى بداية سنة ١٩٢٨م، وذلك ليوم واحد.. ثم استقال تحت ضغوط أجنبية تريد بقاء العمادة فى الأساتذة الأجانب.. فتولاها الفرنسى «جوستاف ميشو».. ثم عاد فانتخب عميدًا فى نوفمبر سنة ١٩٣٠م.

* فى سنة ١٩٣٢م تجدد الجدل حول كتابه [فى الأدب الجاهلي] ـ الذى هو امتداد متطور لكتابه [فى الشعر الجاهلي] ـ .. ووقف الأزهر ومجلس النواب ـ ومعهما حكومة إسماعيل صدقى ضد الكتاب.. وفى ٢٠ مارس سنة ١٩٣٢م قرر مجلس الوزراء فصل طه حسين من وظيفته الجامعية.. فانتقل إلى صحافة حزب الوفد، وأصبح من كبار كتاب صحف [كوكب الشرق] و[الـوادي].. ومع الكتابات السياسية، بدأ يتوجه ـ مع كوكبة من الكتاب والمفكرين ـ إلى الكتابة فى الإسلاميات.. وإلى جانب صحافة الوفد بدأ ـ فى تلك الحقبة ـ الكتابة فى مجلات [الرسالة] و[الهلال] و[الجهاد] و[الحديث] وغيرها.

* عاد إلى الجامعة أواخر سنة ١٩٣٤م أستاذًا.. ثم انتخب عميدًا للآداب أواخر مايو سنة ١٩٣٦م وحتى سنة ١٩٣٩م.

* تولى منصب المراقب العام للثقافة ـ بوزارة المعارف ـ ١٩٣٩ ـ ١٩٤٢م.. وشغل منصب المستشار الفنى لوزارة المعارف ١٩٤٢ ـ ١٩٤٤م.. وأشرف على إنشاء جامعة الإسكندرية ١٩٤٢ ـ ١٩٤٤م.. وأسس لإنشاء جامعة عين شمس.. ولنواة جامعة أسيوط.. وأسس المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد.. وأنشأ كرسيًّا للغة العربية وآدابها بجامعة أثينا. وتولى وزارة المعارف بحكومة الوفد ـ يناير سنة ١٩٥٠ ـ يناير سنة ١٩٥٢م.. وهو صاحب قرار مجانية التعليم الثانوى والفنى.

* شغل منصب المستشار لدار الكاتب المصرى ـ مؤسسة أسرة هرارى ـ اليهودية المصرية ـ ما بين أكتوبر سنة ١٩٤٥ وحتى مايو سنة ١٩٤٨م.

* انتخب عضوًا بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٤٠.. ورأس المجمع منذ سنة ١٩٦٣م وحتى وفاته.. وكان عضوًا ـ منذ سنة ١٩٦٤م ـ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.. كما تولى رئاسة اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية، ورأس تحرير صحيفة الجمهورية سنة ١٩٦٠م.

*أيد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ـ التى نظرت إليه كمفكر، ونصير للعدالة الاجتماعية ـ وليس كحزبى وأصبح من كبار كتابها المدافعين عن توجهاتها الوطنية.. والعربية.. وفى عدم الانحياز.. ومناصرة حركات التحرر الوطنى.. وضد الأحلاف العسكرية الاستعمارية.. ـ مع نقد خفيف، بالصمت أو التلميح، لعسكرة الدولة، وللموقف من دور المفكرين والمثقفين..

* كان أول كاتب ينال جائزة الدولة التقديرية للآداب سنة ١٩٥٨م.. كما نال وسام قلادة النيل سنة ١٩٦٥م.. وحصل على العديد من الألقاب والأوسمة وشهادات الدكتوراه الفخرية من عدد من الجامعات ـ من جامعة ماليزيا سنة ١٩٦٦م ـ ومن جامعة مدريد ـ ومن جامعة غرناطة سنة ١٩٧٠م ـ .. وتسلم جائزة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان قبل وفاته بيومين.

* قام برحلات وزيارات خارجية كثيرة.. وشارك فى العديد من المؤتمرات الفكرية والثقافية.. وكانت رحلته إلى الحجاز ـ سنة ١٩٥٥م ـ ذات تأثير عميق فى تطوره الفكرى ومراجعاته الفكرية.

* كان حريصًا طوال حياته الفكرية على أن تكون أفكاره لافتة للأنظار ـ بل ومثيرة للجدل.. وخاض الكثير من المعارك والمساجلات الفكرية والأدبية مع كثير من أعلام عصره ـ المنفلوطى.. والرافعى.. وحافظ.. وشوقى.. والعقاد.. والمازنى.. وزكى مبارك.. ومنصور فهمى.. ومحمد حسين هيكل.. وساطع الحصرى.. ورئيف خورى.. ومحمود أمين العالم.. وعبد العظيم أنيس.. إلخ.. إلخ..

* ولقد نشر فى حياته نحو من ألف وخمسمائة مقالة، وأربعة وخمسين كتابًا فى الفكر والأدب والنقد، وست روايات، ورواية لم تكتمل ـ هى [ما وراء النهر] ـ التى بدأها سنة ١٩٤٦م ونشرت بعد وفاته سنة ١٩٧٥م.. وخمسة كتب فى القصص القصيرة.. وله اثنتى عشرة قصة لم تجمع، وأحد عشر كتابًا مترجمًا، وثلاثين مقالة مترجمة، وسبعة عشر كتابًا مؤلفًا بالاشتراك مع آخرين، وثمانية كتب محررة بالاشتراك مع آخرين، ومقدمات لثلاثة وأربعين كتابًا، وثلاثًا وعشرين قصيدة شعر ـ لم تجمع ولم تنشر فى حياته.. ونصوص فرنسية ترجمت ـ بعد وفاته ـ ونشرت تحت عنوان [من الشاطئ الآخر].. ولقد ترجمت العديد من كتبه إلى العديد من اللغات الغربية والشرقية.. كما أشرف على نشر العديد من المصادر والمراجع الفكرية ـ ومنها موسوعة قاضى القضاة عبد الجبارين أحمد الهمدانى [المغنى فى أبواب التوحيد والعدل] ـ فى الفكر الاعتزالى.

* وله شعر جيد، منه ما ضاع، ومنه ما نشر فى الصحف.. ولقد ذكر فى الجزء الأول من [الأيام] عن وفاة أخيه بالكوليرا ـ صيف ١٩٠٢م ـ أنه كان ينفق وقتًا طويلًا فى نظم قصائد يرثى بها أخاه، ويختم كل قصيدة بالصلاة على النبى ﷺ ـ واهبًا ثواب هذه الصلات إلى أخيه.

* ولقد أنجب ابنته «أمينة» ـ التى أطلقت عليها زوجته اسمًا فرنسيًّا ـ «مارجريت» ـ وابنًا هو «مؤنس» ـ الذى أطلقت عليه زوجته اسمًا فرنسيًّا ـ «كلود».. ولقد أهدته

ابنته مصحفًا صغيرًا، فقال لها: «لك العهد يا ابنتى: لا يفارقنى مصحفك الدقيق حيًّا أو ميتًا».. أما ابنه، فلقد نال الدكتوراه من فرنسا عن [تأثير الآداب الإسلامية فى الأدب الفرنسى].. ولقد نصح ابنته أمينة بإدخال أولادها مدارس عربية.. أما ابنه فيقال إنه تنصر، ومات نصرانيًّا فى فرنسا».

* ولقد اعتلت صحته منذ سنة ١٩٦٤م.. فكان حتى وفاته ـ قارئًا أكثر منه كاتبًا.

* ولقد تحدث ـ قبيل وفاته ـ إلى د. غالى شكرى [١٩٣٥ ـ ١٩٩٨م] فقال:

«إن البلد لا يزال متخلفًا وفقيرًا ومريضًا وجاهلًا. نسبة الأمية كما هى، ونسبة المثقفين تتناقص بسرعة تدعو للانزعاج. يخيل إلى أن ما كافحنا من أجله هو نفسه ما زال يحتاج إلى كفاحكم وكفاح الأجيال المقبلة بعدكم.. أودعكم بكثير من الألم وقليل من الأمل»!..

فكأنما عبر ـ بهذه الكلمات ـ عن رؤيته لما صنع «نظام يوليو» بمصر ـ التى عاش يحلم ويعمل على تقدمها ونهوضها!!

* ولقد توفى طه حسين ـ ومصر مشغولة بأحداث حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م ـ توفى أول شوال ـ يوم عيد الفطر ـ سنة ١٣٩٣هـ ـ ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٧٣م.. ودفن فى القبر الذى أوصى أن يحفر عليه هذا الدعاء النبوى الذى كان أثيرًا إلى قلبه، قريبًا من لسانه:

«اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض، لك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض، ولك الحمد، أنت رب السموات والأرض ومن فيهن. أنت الحق، ووعدك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك أمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت. أنت إلهى لا إله إلا أنت».

* رحمه الله.

* * *

* ومن بين الآثار الفكرية التى خلفها طه حسين، تبرز هذه الآثار، التى نشرت فى هذه التواريخ:

١ ـ [تجديد ذكرى أبى العلاء] سنة ١٩١٥م.

٢ ـ [آلهة اليونان] سنة ١٩٢٠م.

٣ ـ [حديث الأربعاء] جـ١ سنة ١٩٢٥م.

٤ ـ [فلسفة ابن خلدون الاجتماعية] سنة ١٩٢٥م.

٥ ـ [قادة الفكر] سنة ١٩٢٥م.

٦ ـ [حديث الأربعاء] جـ ٢ سنة ١٩٢٦م.

٧ ـ [فى الشعر الجاهلي] سنة ١٩٢٦م.

٨ ـ [فى الأدب الجاهلي] سنة ١٩٢٧م.

٩ ـ [الأيام] جـ١ سنة ١٩٢٩م.

١٠ ـ [حافظ وشوقى] سنة ١٩٣٣م.

١١ ـ [على هامش السيرة] جـ١ سنة ١٩٣٣م.

١٢ ـ [فى الصيف] سنة ١٩٣٣م.

١٣ ـ [أديب] سنة ١٩٣٥م.

١٤ ـ [من بعيد] سنة ١٩٣٥م.

١٥ ـ [القصر المسحور] سنة ١٩٣٦م.

١٦ ـ [مع المتنبي] سنة ١٩٣٦م.

١٧ ـ [من حديث الشعر والنثر] سنة ١٩٣٦م.

١٨ ـ [على هامش السيرة] جـ٢ سنة ١٩٣٧م.

١٩ ـ [على هامش السيرة] جـ٣ ١٩٣٨م.

٢٠ ـ [مستقبل الثقافة فى مصر] سنة ١٩٣٨م.

٢١ ـ [مع أبى العلاء فى سجنه] سنة ١٩٣٩م.

٢٢ ـ [الأيام] جـ٢ ١٩٤٠م.

٢٣ ـ [دعاء الكروان] سنة ١٩٤١م.

٢٤ ـ [الحب الضائع] سنة ١٩٤٢م.

٢٥ ـ [لحظات] سنة ١٩٤٢م.

٢٦ ـ [أحلام شهر زاد] سنة ١٩٤٣م.

٢٧ ـ [شجرة البؤس] سنة ١٩٤٤م.

٢٨ ـ [صوت باريس] جـ١، جـ٢ سنة ١٩٤٣م.

٢٩ ـ [صوت أبى العلاء] سنة ١٩٤٤م.

٣٠ ـ [جنة الشوك] سنة ١٩٤٥م.

٣١ ـ [حديث الأربعاء] جـ٣ سنة ١٩٤٥م.

٣٢ ـ [فصول فى الأدب والنقد] سنة ١٩٤٥م.

٣٣ ـ [الفتنة الكبرى] جـ١ سنة ١٩٤٧م.

٣٤ ـ [ما وراء النهر] سنة ١٩٤٧م.

٣٥ ـ [رحلة الربيع] سنة ١٩٤٨م.

٣٦ ـ [مرآة الضمير الحديث] سنة ١٩٤٨م.

٣٧ ـ [المعذبون فى الأرض] سنة ١٩٤٩م.

٣٨ ـ [الوعد الحق] سنة ١٩٤٩.

٣٩ ـ [جنة الحيوان] سنة ١٩٥٠م.

٤٠ ـ [بين بين] سنة ١٩٥٢م.

٤١ ـ [ألوان] سنة ١٩٥٢م.

٤٢ ـ [الفتنة الكبرى] جـ٢ سنة ١٩٥٣.

٤٣ ـ [خصام ونقد] سنة ١٩٥٥م.

٤٤ ـ [من هناك] سنة ١٩٥٥م.

٤٥ ـ نقد وإصلاح] سنة ١٩٥٦م.

٤٦ ـ [أحاديث] سنة ١٩٥٧م.

٤٧ ـ [رحلة الربيع والصيف] سنة ١٩٥٧م.

٤٨ ـ [من أدبنا المعاصر] سنة ١٩٥٨م.

٤٩ ـ [مرآة الإسلام] سنة ١٩٥٩م.

٥٠ ـ [من أدب التمثيل الغربي] سنة ١٩٥٩م.

٥١ ـ [من لغو الصيف إلى جد الشتاء] سنة ١٩٥٩م.

٥٢ ـ [الشيخان] سنة ١٩٦٠م.

٥٣ ـ [خواطر] سنة ١٩٦٧م.

٥٤ ـ [الأيام] جـ٣ سنة ١٩٦٧م.

هذا إلى مقالات صحفية ـ فى ستة مجلدات ـ جمعتها وطبعتها دار الكتب والوثائق القومية.. ومجلدان فيهما أوراقه ومراسلاته ـ جمعتهما ونشرتهما دار الكتب والوثائق القومية ـ.. ومجلد ضخم عن الوثائق السرية لطه حسين ـ حققه وقدم له الدكتور عبد الحميد إبراهيم.. وكتاب [من الشاطئ الآخر] ـ الذى ترجمه عن الفرنسية عبد الرشيد الصادق محمودى. والذى نشر سنة ١٩٩٠م.. وكتاب [طه

حسين الشاعر الكاتب] لمحمد سيد كيلانى والذى يضم عددًا من أشعاره ومقالاته المبكرة.. وكتاب [الكتابات الأولى] لطه حسين ـ التى حققها وقدم لها د. عبد الرشيد الصادق محمودى ـ والذى نشر سنة ٢٠٠٢م[١].

(١) انظر فى هذه الترجمة: المقدمات والدراسات التى كتبها عن طه حسين. د. سعيد إسماعيل على، إبراهيم عبد العزيز، د. أحمد زكريا الشلق، د. رؤوف عباس ـ فى [تراث طه حسين ـ طبعة دار الكتب والوثائق القومية ـ جـ١ ـ جـ٦ سنة ١٤٢٣هـ سنة ٢٠٠٢م، سنة ١٤٢٨هـ سنة ٢٠٠٧م، سنة ١٤٢٤هـ سنة ٢٠٠٤م، سنة ١٤٢٤هـ سنة ٢٠٠٣م، سنة ١٤٢٥هـ سنة ٢٠٠٥م، سنة ١٤٢٧هـ سنة ٢٠٠٦م. و[أوراق طه حسين ومراسلاته] جـ١، جـ٢ ـ إشراف ودراسة أحمد زكريا الشلق، د. محمد صابر عرب ـ طبعة دار الكتب والوثائق القومية سنة ١٤٢٨هـ سنة ٢٠٠٧م. و[الوثائق السرية لطه حسين] تحقيق وتقديم: د. عبد الحميد إبراهيم ـ طبعة دار الشروق سنة ١٤٢٧ سنة ٢٠٠٦م. ومحمد سيد كيلانى [طه حسين الشاعر الكاتب] طبعة دارالقومية العربية ـ القاهرة سنة ١٩٦٣م. وحسين محمد بافقيه [طه حسين والمثقفون السعوديون] طبعة بيروت سنة ١٤٣٠هـ سنة ٢٠٠٩م. و[الموسوعة العربية] طبعة دمشق سنة ٢٠٠٣م. ود. غالى شكرى [ماذا يبقى من طه حسين] طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م. وسوزان طه حسين [معك] ترجمة: بدر الدين عرودكى ـ مراجعة: محمود أمين العالم. طبعة المركز القومى للترجمة ـ القاهرة سنة ٢٠٠٩م. وجمال أحمد عبد الحليم العسكرى [الاتجاهات الدينية فى أدب طه حسين] جـ١، جـ٢ طبعة الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة سنة ٢٠٠٨م.

مرآة الإسلام

للدكتور طه حسين

[١٣٠٧ ـ ١٣٩٣هـ ـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م]

المراجعات الفكرية، فى تاريخ الفكر الإنسانى، حقيقة بارزة، يشهد عليها تاريخ الأفكار دينية كانت أو بشرية هذه الأفكار..

فسحرة فرعون قد راجعوا إيمانهم بألوهية فرعون، وأمنوا برب موسى وهارون ـ عليهما السلام.

والحواريون، الذين نصروا المسيح ـ عليه السلام ـ قد راجعوا مقولات الكهنة والكتبة والفرنسيين الذين جعلوا بيت الرب مغارة لصوص! والوثنيون العرب؛ الذين طالما عبدوا الأحجار، هم الذين حملوا رايات التوحيد والتنزيه إلى العالمين فى مشارق الأرض ومغاربها.

وإمام الأشعرية ـ أبو الحسن الأشعرى [٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ ـ ٨٧٤ ـ ٩٣٦م] كان معتزليا، ثم راجع الأصول الخمسة للاعتزال.

وقاضى القضاة عبد الجبارين أحمد الهمدانى [٤١٥هـ ١٠٢٤م] أصبح فيلسوف المعتزلة، بعد أن كان من خصوم الاعتزال.

وفى جيل طه حسين ـ النصف الأول من القرن العشرين ـ راجعت كوكبة من كبار المفكرين مذاهب التغريب والعلمانية والفرعونية، وأصبحوا أعلامًا وطلائع لليقظة الإسلامية والإحياء الحضارى للأمة بالإسلام.. ومن هؤلاء الأعلام: منصور فهمى باشا [١٣٠٣ ـ ١٣٧٩هـ ـ ١٨٨٦ ـ ١٩٥٩م] والأستاذ العقاد [١٣٠٦ ـ ١٣٨٤هـ ـ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٤م] والدكتور محمد حسين هيكل باشا [١٣٠٥ ـ ١٣٧٥هـ ـ ١٨٨٨

ـ ١٩٥٦م] والأستاذ خالد محمد خالد [١٣٣٩ ـ ١٤١٦هـ ـ ١٩٢٠ ـ ١٩٩٧م].. وغيرهم كثيرون.

وفيما يتعلق بالدكتور طه حسين، فلقد أفردنا لإيابه الفكرى ـ من التغريب إلى الإسلام ـ كتابنا [طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام].. وفيه تتبعنا تفاصيل رحلته ـ المتعرجة.. والشاقة.. والطويلة.. والعريضة.. والعميقة ـ التى انتهت به إلى إعلان الإياب الروحى إلى الإسلام ـ فى رحلته الحجازية سنة ١٩٥٥م ـ عندما تحدث فى الحرم المكى ـ عن هذه الرحلة، فوصفها «بأنها تلبية لدعوة آمرة من خارج النفس!.. عادت فيها النفس الغريبة إلى وطنها بعد غربة غريبة طويلة جدًّا، وهى مدركة لما بين الله وبينها من حساب عسير، وراجية ـ من الله ـ أن يجعل من عسره يسرًا»!

* وبعد أربع سنوات من هذا الإياب الروحى ـ فى الرحلة الحجازية ـ أصدر طه حسين كتاب «مراجعاته الفكرية» ـ كتاب [مرآة الإسلام] الذى راجع فيه كل كتاباته التى أثارت الجدل وفجرت المعارك الفكرية الكبرى فى النصف الأول من القرن العشرين.. ففى هذا الكتاب:

* يكشف طه حسين عن ألوان من إعجاز النظم القرآنى، لعله لم يُسبق إليها..

* وفيه رفض قاطع للغرور العقلانى، الذى طغى على فكره فى مرحلة الانبهار بالغرب ومناهج الشك الغربية.

* وفيه رفض للتأويل الباطنى، وتأويلات التصوف الإشراقى لآيات القرآن الكريم.. فلقد رفض ـ فى هذا الكتاب ـ تأويل الآيات المتشابهات حتى من قبل الراسخين فى العلم.. إذ لا يعلم تأويله إلا الله..

* وهو ـ فى هذا الكتاب ـ ناقد للفلسفة والفلاسفة، ولإقحام الفلسفة فى الدين، هذا الإقحام الذى قاد «المعتزلة إلى مذهبهم فى نفى الصفات، وظنهم أن العقل يستطيع معرفة كل شىء وحتى معرفة الذات والصفات».

* وهو، في هذا الكتاب، يكثر من الصلاة والسلام على رسول الله ـ ﷺ ـ قرابة الثمانين مرة.

* وفيه تتميز وتمتاز نظرات طه حسين فى القرآن الكريم ـ فعندما يسوق شواهده فى المشركين واليهود والنصارى، يتمنى القارئ لو أن الفرصة قد سنحت لطه حسين كى يفسر القرآن الكريم، إذا لأضيف إلى المكتبة القرآنية تفسير متميز وممتاز.

* وفيه تجلت العلاقة الحميمة بين طه حسين والإسلام مؤسسة على العقل والنقل والوجدان.

* وفيه نقد لأبى العلاء المعرى وغروره العقلانى و«شكه السخيف».

* وذلك علاوة على ما فيه من نقد ذاتى لما سبق وأورده طه حسين فى كتاب [مستقبل الثقافة فى مصر].

* وفى هذا الكتاب تخلص أسلوب طه حسين من التكرار ـ الذى كان يعيبه عليه كثيرون.

وإذا أردنا ـ فى إشارات موجزة أن نضرب بعض الأمثال على ما فى هذا الكتاب [مرآة الإسلام] من مراجعات فكرية، فإننا نشير ـ على سبيل المثال ـ إلى:

(أ) ما جاء فيه من نقص لما سبق وذكره طه حسين [فى الشعر الجاهلى]، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨، ١٢٩]. ففى هذا التفسير يقول طه حسين:

«.. فالله يثبت فى هذه الآيات دعاء إبراهيم وإسماعيل، أثناء رفعهما القواعد من البيت، أن يجعلهما الله مسلمين له، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له، وأن يبعث

فى هذه الأمة رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة.. فإبراهيم إذن هو الذى سمى المؤمنين مسلمين، وهو أبوهم، وقد كان مسلمًا»[1].

ففى كتاب [فى الشعر الجاهلى] كان طه حسين يعتبر هذه العقائد ألوانًا من الحيل والأساطير!

(ب) وبعد الانبهار بالفلسفة اليونانية ـ فى [قادة الفكر] ـ واعتبارها «أشد من الدهر قدرة على البقاء»!.. نقرأ نقده فلاسفة المسلمين الذين ساروا فى الغلو العقلانى سيرة الفلسفة اليونانية.. فيقول:

«.. ولم يلبث المسلمون أن عرفوا ألوانًا من الثقافات الأجنبية، والثقافة اليونانية خاصة، والفلسفة اليونانية على وجه أخص، فتأثروا بهذا كله واتخذوه وسيلة إلى الدفاع عن دينهم، كما فعل النصارى واليهود. ثم مضوا إلى أبعد من ذلك فآمنوا بالعقل وحكموه فى كل شىء، وزعموا أنه وحده مصدر المعرفة، وأنه هو الذى يحسّن ويقبّح من أعمال الناس حسنها وقبيحها، وأنه يستطيع أن يعرف الله، وأن يعرفه بقوته، سواء جاءته الأنبياء الهداة إلى الله أو لم يجيئوا. **وقد غرهم إيمانهم بالعقل فدفعهم إلى شطط بعيد. ولم يخطر لهم أن العقل الإنسانى ملكة من ملكات الإنسان، وأن هذه الملكة كغيرها من ملكات الإنسان محدودة القوة، تستطيع أن تعرف أشياء وتقصر عن معرفة أشياء لم تهيأ لمعرفتها، وهذا هو الذى فتح عليهم أبواب هذا الاختلاف الذى لا ينقضى، وجعلهم فرقًا نيفت على السبعين.. لقد تورطوا فى أشياء أساغتها عقولهم ولا تستطيع عقولنا نحن أن نسيغها، ولسنا فى حاجة إليها لنحسن الإيمان بالله والعلم بقدرته، وبما وصف نفسه به من الصفات، لأننا قد عرفنا أن العقل الإنسانى ليس من القوة والنفوذ بحيث ظن فلاسفة اليونان ومن تبعهم من متفلسفى النصارى واليهود والمسلمين**»[2].

(١) [مرآة الإسلام] ص ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣. طبعة دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٥٩م.
(٢) المصدر السابق. ص ٢٧٨، ٢٨٠.

(جـ) وبعد أن كان يقول ـ [فى الشعر الجاهلى] ـ «إنه من أنصار الجديد الذين خلق الله لهم عقولًا تجد من الشك لذة، وفى القلق والاضطراب رضا»[1].. أصبح ناقدًا للغلو العقلانى عند المعتزلة «فلقد تجاوزت المعتزلة ما ألف الصالحون من القصد، فأغرقوا فى تحكيم العقل فيما لا يستطيع العقل أن يحكم فيه»[2].

(د) وبعد أن عرض سنة ١٩١٤م ـ: [فى تجديد ذكرى أبى العلاء] ـ مذهب المعرى، الذى لا يؤمن إلا بالعقل.. وإن تردد فيه فتردده إنما يكون بين «العقل» وبين «الشك» ـ فقال:

«والواقع أن أبا العلاء لم يتخذ لنظره الفلسفى مذهب أهل السنة، ولا مذهب السوفسطائية وأصحاب الشك، ولا مذهب المعتزلة أيضًا. ذلك أنه لا يؤمن إلا بالعقل وحده، فخالف بهذا أهل السنة، لأنهم يقدمون الشرع على العقل، وإن آمنوا به. وخالف مذهب المعتزلة، لأنهم على تقديمهم للعقل يتخذون الشرع لنظرهم أصلًا ودليلًا ويعتزون به ويلجأون إليه وخالف مذهب السوفسطائية، لأنهم يتهمون العقل فلا يؤمنون به، ولا يعتمدون عليه.

وإذا فهو يرى رأى الفلاسفة النظريين من اليونان والمسلمين فى الاعتماد على العقل خاصة.. لقد قال فى الرد على الباطنية:

يرتجى الناس أن يقوم إمام ... ناطق فى الكتيبة الخرساء

كذب الظن لا إمام سوى العقـ ... ـل مشيرًا فى صبحه والمساء

فإذا ما أطعته جلب الر ... حمة عند المسير والإرساء

وقال:

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهدًا ... وارحل عنها ما إمامى سوى العقل

فهذا الحصر تصريح بأن الرجل لا يأتم إلا بعقله.. على أنه لم يستطع أن ينتحل للعقل العصمة، ولا أن يزعم قدرته على الإيصال إلى اليقين المطلق، **بل حفظ للشك**

(١) [فى الشعر الجاهلى] ص ٥.
(٢) [مرآة الإسلام] ص ٢٧٧.

حقه فى الدخول على ما أثبته العقل.. على أنه لا يعمم الشك إلا فى مسائل الغيب، فأما عالم الشهادة فلا يبسط أبو العلاء الشك عليه «فلم يكن من أهل الشك، ولا من الذين يتخذون الشرع لهم إمامًا، وإنما هو من الذين لا يثقون إلا بالعقل، فإذا وثقوا به فلا يستسلمون إليه»[1].

بعد هذا الذى عرضه سنة ١٩١٤م، رأيناه ـ فى [مرآة الإسلام] ـ ينتقد هذا الغلو العقلانى عند أبى العلاء، فيقول:

«**انظر إلى رجل حكيم كأبى العلاء، كيف غره الإيمان بالعقل فظن أنه الإمام ولا إمام غيره، وأنه وحده يهدى الناس فى المسيرة والإرساء.. وكيف انتهى به إيمانه بالعقل إلى مقاله لا يسيغها الدين ولا يقرها الإسلام فى قوله:**

قلتم لنا خالق حكيم ... قلنا صدقتم كذا نقول

زعمتموه بلا مكان ... ولا زمان ألا فقولوا

هذا كلام له خبىء ... معناه ليست لنا عقول

فعلقه لم يستطع أن يتصور الخالق الحكيم فى غير زمان ولا مكان، فاضطره ذلك إلى أن يصف الخالق الحكيم بما يصف به سائر المخلوقات من الخضوع للزمان والمكان، **وهذا سخف لا يقول به مؤمن**..

وكل هذا وأمثاله عند أبى العلاء وغيره من الذين غرهم العقل فأسرفوا فى الإيمان به، وحكموه فيما لا يستطيع أن يحكم فيه، لا يدل إلا على الحيرة والعجز والقصور عن بلوغ الحقيقة التى حاولوا أن يبلغوها»[2].

(هـ) ورأيناه، بعد أن كان يقول إن الناس مندفعون إلى العلم والمعارف الحديثة، دون أن يعبئوا بالتوفيق بينها وبين العقائد.. يرفض التأويل.. والغلو العقلانى.. ويرى أن الدين مطلق، بينما العلم محدود.. ويسفه الغلو الباطنى القائم على الإغراق والإغراب فى التأويل.. فيقول:

(١) [تجديد ذكرى أبى العلاء] ص ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢.
(٢) [مرآة الإسلام] ص ٢٨٠، ٢٨١.

«.. وما أحب أن أعرض لتأويل هذه الطير الأبابيل التى رمت الحبشة بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول، **لأنى أوثر دائمًا أن أقبل النص وأفهمه كما فهمه المسلمون الأولون حين تلاه عليهم النبى** ﷺ.. فهؤلاء الذين يزعمون أن الطير الأبابيل إنما كانت وباءً من الأوبئة، وكانت الحجارة ضربًا من الميكروبات، إنما يقولون هذا من عند أنفسهم، وهم يعلمون حق العلم أن النبى وأصحابه لم يفهموا هذه السورة على هذا النحو، وما كان لهم أن يفهموها على هذا النحو، فهم لم يكونوا يعرفون الميكروب، وما كان لهم أن يعرفوه.

وكذلك الذين يقولون إن السموات السبع التى تُذكر فى القرآن هى الكواكب السيارة، إنما يرجمون بالغيب ويقولون ما لم يقله النبى وأصحابه. ومصدر هذا أنهم يريدون أن يلائموا بين القرآن ومستكشفات العلم الحديث، فيضطرهم ذلك إلى تكليف النصوص من التأويل ما لا تحتمل. **وليس على الدين بأس أن يلائم العلم الحديث أو لا يلائمه، فالدين من علم الله الذى لا حد له، والعلم الحديث كالعلم القديم محدود بطاقة العقل الإنسانى، وبهذا العالم الذى يعيش الإنسان فيه.**

ومن أسخف السخف أن نحاول الملائمة بين ما لا حد له وما هو محدود بطبعه. وصدق الله حين أنبأ بأن الراسخين فى العلم يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

إن كل الذين حاولوا أن يعرفوا الله بعقولهم معرفة دقيقة، لم يكتفوا بما اكتفى النبى ـ ﷺ ـ وأصحابه ـ رحمهم الله ـ من قبول نص القرآن وفهمه فى يسروا وإسماح، وفى غير تكلف ولا إسراف فى التأويل، والله عز وجل ينبئنا فى القرآن أنه أنزل الكتاب فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات، وبأن الذين فى قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، مع أن العلم بتأويله موقوف على الله عز وجل، وبأن الراسخين فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وذلك فى قوله عز وجل فى سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٥ ـ ٨].

وهذه هى المقالة التى يجب على كل مؤمن أن يقول بها ويتخذها دينًا. ولست أدرى أيصل العقل إلى أن يبلغ ما لم يبلغه الآن من القوة أم لا، **ولكن الشىء المحقق هو أن عقل القدماء وعقل المحدثين من أصحاب الفلسفة والعلم لا يزال أضعف وأقصر باعًا من أن يصلا إلى استكشاف حقيقة الله، أو البحث عن صفاته وإصدار هذه الأحكام التى أصدرها الفلاسفة والمتكلمون، اغترارًا بالعقل واستجابة لما لا تنبغى الاستجابة له.**

ومن أجل هذا أقول: إن المؤولين من المحدثين كالمؤولين من القدماء قد استجابوا لعقولهم القاصرة واغتروا بها، وقالوا فيما ليس لهم أن يقولوا فيه، وطمعوا فيما ليس لهم أن يطمعوا فيه. ولقد تواضع أولئك وهؤلاء، ووقفوا أنفسهم حيث تنتهى بهم قوتهم، لكان خيرًا لهم وللذين افتتنوا بهم من الناس.

وشر آخر.. ملأ حياة المسلمين فسادًا أى فساد، وهو الغلو فى التأويل إلى أبعد ما يتصور العقل، وإلى غير ما يفهم صراحة من نصوص القرآن.. كهؤلاء الباطنية الذين زعموا أن العلم بالدين علمان: علم ظاهر وهو ما عليه الناس فى كثرتهم، وعلم باطن وهو ما هم عليه. وجعلوا يتركون ظاهر النص لأنه لا يليق إلا بعام الناس ولا يلائم خاصتهم، ثم يلتمسون للنص تأويلًا يخالف كل المخالفة ما يفهم منه لغة، وما فهمته جماعة المسلمين حين سمعوا النبى يتلو عليهم القرآن ويبين لهم ما أنزل عليه. وغلوا فى ذلك كل الغلو **حتى أحدثوا لأنفسهم دينًا لا يدين به غيرهم من المسلمين فأفسدوا الدين والعقل معًا**»[1].

هكذا اتخذ طه حسين ـ من التأويل ـ هذا الموقف المحافظ، الذي يستغربه أولئك الذين لم يدركوا هذا التطور الفكرى الذى أحرزه الرجل فى العديد من الميادين.

(١) المصدر السابق. ص ٣٢، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤.

(و) وغير النقد الشديد للتأويل الباطنى للنصوص القرآنية ـ الذى اخرج أصحابه عن الدين، والذى أفسد الدين والعقل معًا ـ رأينا طه حسين ينتقد التصوف الباطنى، ومذاهب الإشراق، ووحدة الوجود.. فيقول:

«.. ولم يلبث التصوف أن تأثر بما عرف المسلمون من ثقافة الهند والفرس، ومن ثقافة اليونان خاصة. وتحول الزهد من تفرغ للعبادة وإمعان فيها إلى محاولة الاتحاد بالله أو الاتصال به، أو معرفة من طريق الإشراق. ثم اختلط التصوف بمذاهب الباطنية فازداد تعقيدًا إلى تعقيد»[1].

(ز) وبعد أن كان يقول: إن الحكم إنما يقوم على «المنافع» لا على «الدين ولا على اللغة».. وأننا يجب أن نسير فى هذا الحكم سيرة الأوربيين ـ الأجانب ـ.. رأيناه يرفض «هذا الشر العظيم» ـ الذى جاء به الأجانب ـ ويدعوا إلى إقامة الحكم على ما جاء به الدين واللغة العربية.. ويفضل النموذج الإسلامى فى الفقه على نظيره الرومانى، فيقول:

«ولم يلبث الأمر أن صار إلى شر عظيم حين غلبت العناصر الأجنبية على شئون الحكم، فاقامت هذه الشئون على المنافع، غير حافلة بما يأمر به الله من العدل والإنصاف والمساواة، والشعور المتصل بهذه الرقابة الرهيبة التى فرضها الله على الناس..

ثم لم يكتف الحكام الأجانب بهذا كله، ولكنهم جهلوا اللغة العربية، فلم يقدروها قدرها، ولم يلتفتوا إلى أنها لغة القرآن والسنة والثقافة..

ومن أجل هذا كله غاضت تلك الينابيع الغزيرة التى كانت تمد عقول الفقهاء بهذا الإنتاج الخصب الرائع، الذى لا نعرف أنه أتيح لأمة قديمة قبل الأمة الإسلامية، حتى الأمة الرومانية التى برعت فى الفقه وتعمقته»[2].

(١) المصدر السابق. ص ٢٨٦.
(٢) المصدر السابق. ص ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩.

(ح) وبعد أن كان مع الوطنية المصرية المجردة من العروبة والإسلام.. ثم مع الفرعونية الرافضة للعروبة والوحدة ـ أو حتى الاتحاد ـ مع العرب ـ رأيناه يتحدث عن الوحدة الإسلامية ـ وليس فقط الوحدة العربية.. وعن أن القرآن الكريم هو صانع الوحدة الإسلامية والعربية ـ قديمًا.. وحديثًا.. ومستقبلًا ـ فيقول:

«.. **وإذا كان هناك الآن وحدة إسلامية عامة، أو شيء يشبه هذه الوحدة، فبفضل القرآن وجدت، وبفضل القرآن ستبقى مهما تختلف الظروف وتدلهم الخطوب. وإذا كانت هناك وحدة يحاول العرب أن يعودوا إليها ويقيموا عليها أمرهم فى الحياة الحديثة كما قامت عليها حياتهم القديمة، فالقرآن هو أساس هذه الوحدة الجديدة كما كان للوحدة القديمة**»[1].

(ط) وبعد الإعراض عن التجديد الإسلامى، ونقد مذهب الأفغانى ومحمد عبده فى الإحياء والإصلاح.. والدعوة ـ بدلًا من ذلك ـ للسير وراء النموذج الغربى.. رأيناه يشيد بالمجددين المسلمين ـ ابن تيمية.. والأفغانى.. ومحمد عبده.. وعلماء التنوير الإسلامى ـ فيقول:

«ولقد أتيح للمسلمين، لحسن حظهم، أفراد من العلماء فى عصور مختلفة لم يجحدوا التقليد جملة، وإنما حاولا أن يعملوا عقولهم ويثبتوا شخصيتهم وينشروا النور من حولهم، وينظروا من علم القدماء فيما أعرض الناس عن النظر فيه.

وكان هؤلاء العلماء يجدون نفورًا منهم وإعراضًا عنهم، وربما وجدوا تشهيرًا بهم ومقاومة لهم، وربما أصابهم أذى يكثر أو يقل باعتبار الظروف التى تحيط بهم وتحيط بالناس من حولهم.

وانظر إن شئت سيرة ابن تيمية وما أصابه من إنكار العلماء الجامدين عليه، وبطش الحكام المستبدين به.. وما أظن المصريين نسوا جهاد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ـ رحمهما الله ـ فى هذا السبيل، وما لقيا من السخط عليهما والمكر بهما، والتنكر لمن ذهب مذهبهما أو اختلف إلى دروسهما»[2].

(١) المصدر السابق. ص ١٦١.

(٢) المصدر السابق. ص ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٦.

هكذا تحدث طه حسين عن ابن تيمية، كأحد الذين جاهدوا «فنشروا النور من حولهم».. بينما نرى الذين يتمسحون بطه حسين، دون أن يفقهوا تطوره الفكرى، يتحدثون عن ابن تيمية فيرونه رأس الجمود والتقليد.. بل والإرهاب!

(ى) وبعد كتاب [مستقبل الثقافة فى مصر] والدعوة إلى أن نسير سيرة الأوربيين فى الإدارة والحكم والتشريع.

أعلن طه حسين أن القرآن دين وشرع.. وأن مصادر التشريع هى: القرآن والسنة والإجماع والاجتهاد..

فقال: «**إن القرآن يشرع للمسلمين ما ينفعهم فى الدنيا ويعصمهم من عذاب الآخرة إن استمسكوا به وأنفذوه على وجهه، فيشرع لهم من أمر الزواج والطلاق والميراث والوصية والبيع والشراء وغير ذلك ما تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وحياتهم الفردية أيضًا.. فكل ما يعرض للمسلمين من الأمر فى حياتهم من المشكلات يجب عليهم أن يردوه إلى الله ورسوله، يلتمسون له الحل فى القرآن، فإن وجدوا هذا الحل فهو حسبهم، وإن لم يجدوه فعليهم أن يلتمسوه فى سنة النبى، فيما صحت به الرواية عنه من قول أو عمل.. فإذا التمس حل المشكلات فى القرآن فلم يوجد والتمس فى السنة فلم يوجد، فالمسلمون يرجعون إلى أصل ثالث من أصول الأحكام فى الدين، وهو إجماع أصحاب النبى.. فإن لم يجد المسلمون فى القرآن ولا فى السنة ولا فيما اجمع عليه أصحاب النبى حلًا لبعض مشكلاتهم فعليهم أن يجتهدوا رأيهم، ناصحين لله ورسول وللمسلمين**»[1].

هكذا تحدث طه حسين عن مصادر التشريع والحكم والسياسة فى الدولة الإسلامية.. ففصل سنة ١٩٥٩م، ما سبق أن أجمله سنة ١٩٥٣م ـ فى لجنة وضع الدستور ـ عندما دعا إلى حاكمية القرآن الكريم على القوانين والدستور.. ولم تكن صدفة أن ذلك العام سنة ١٩٥٣م ـ كان العام الذى حن فيه طه حسين لزيارة مكة والمدينة، تلك الزيارة التى آب فيها الغريب إلى الوطن الذى صنع عقله وقلبه ووجدانه وعواطفه كلها.. فولد ـ فى هذه الرحلة الحجازية ـ ميلادًا جديدًا!

(١) المصدر السابق. ص ١٤٦، ٢٣٤، ٢٣٥.

* هكذا حدث التحول الحاسم لطه حسين ـ مائة وثمانين درجة!

ـ فبعد أن كانت طريق النهضة هى وحدها طريق النموذج الغربى ـ لا تعدد فيها.. ولا عدول عنها ـ أصبحت الطريق:

ـ أن يثوب المسلمون إلى أنفسهم، ويحيو تراثهم القديم، مضيفين إليه العلم الحديث.. مع التحذير من «العلم الاستعمارى» الذى يقطع ما بين المسلمين وتاريخهم، والذى يفنيهم فى الأمم المستعمرة إفناء.. أى أصبحت «الإسلامية، هى طريق اليقظة والنهوض.. وفى ذلك قال طه حسين:

«إننى ألح على أن يثوب المسلمون إلى أنفسهم.. ليصبحوا أكفاءً لقدمائهم من جهة، وأندادًا للذين يحاولون أن يستذلوهم من جهة أخرى.. فالمستعمرون فى العصر الحديث يوشكون أن يفرضوا على المسلمين ضروبًا من العلم قد تخرجهم من الجهل، ولكنها ستقطع الأسباب حتمًا بينهم وبين تاريخهم، وتفنيهم فى الأمم المستعمرة إفناء.. **وسبيل المسلمين إلى هذه اليقظة الخصبة واحدة لا ثانية لها، وهى أن يذكروا ما نسوا من تراثهم القديم، لا ليقولوا إنهم يذكرونه بل ليعرفوه حق معرفته، ويفقهوه جد الفقه، ويحسن المتخصصون منهم العلم بدقائقه وتيسيره لغير المتخصصين، هذه واحدة، والثانية، أن يستدركوا ما فاتهم من العلم الحديث، ويبتغوا إليه الوسائل التى تتيح لهم أن يتحققوه كما تحققه أصحابه، وأن يوطنوه فى بلادهم، ويجعلوه ملكًا لهم، وأن يبذلوا من الجهد ما يمكنهم فى يوم قريب من ألا يكونوا عيالا على المستأثرين به، بل من يشاركوا فيه مشاركة الأنداد الأكفاء.. وهذا الرقى متصل بالإسلام وحده.. فالقرآن.. وسنة النبى ﷺ.. وسيرة الخلفاء الصالحين من المسلمين ـ وعلم العلماء المسلمين المسجل فى الكتب، والذى لم ينشر إلا قليله.. كل هذا مطلوب العلم بحقائقه، وأن يتجاوز هذا العلم العقول والأفهام إلى القلوب والأمزجة، ويؤثر فى الضمائر أعمق التأثير، ويؤثر فى السيرة الظاهرة للمسلمين أعمق التأثير أيضًا»**[1].

دكتور محمد عمارة

(١) المصدر السابق. ص ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠.

الأدلة المادية على وجود الله

للشيخ محمد متولى الشعراوى

[١٣٢٩ـ١٤١٩هـ ـ ١٩١١ـ١٩٩٨م]

فى هذا الكتاب سيرى القارئ الشيخ الشعراوى كما لم يره فى كثير من آثاره الفكرية.. فأغلب تراث الشيخ الشعراوى هى أحاديث وأمالى تبهر السامع والمشاهد أكثر منها لدى القارئ..

لكن هذا الكتاب قد كتبه الشيخ الشعراوى كما يكتب الكتّاب كتبهم التى يتوجهون بها إلى القراء.

* وفى هذا الكتاب يتجلى الشيخ الشعراوى فيلسوف الفطرة الإيمانية، الذى اتخذ من العلم الطبيعى سبيلًا للكشف عن إعجاز العلم الإلهى.. فكان فيلسوفًا فى قراءة كتاب الله المسطور وفيلسوفًا فى قراءة كتاب الله المنظور.

* وفى هذا الكتاب آيات على آيات الله فى النفس والكون، أتمنى أن يقرأها المؤمنون ليزدادوا إيمانًا.. وأن يقرأها غير المؤمنين ليعرفوا معنى قول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

* ونحن إذا شئنا أن نتخير من صفحات هذا الكتاب فقرات تمثل إشارات إلى ما فيه من كنوز وإشراقات.. فإننا نقف بالقارئ عند هذه الإشارات والتنبيهات:

١ ـ يحدد الشيخ الشعراوى لمن كتب هذا الكتاب.. فيقول: «إن الكون ملئ بآيات العلم التى تدل على وجود الله، وليس معنى ذلك أننا نستدل على صحة القرآن بالعلم، بل إن القرآن هو المهيمن والمسيطر وهو الحق، وما العلم إلا كاشف لقدرة

الله فى الكون، فما جاء به القرآن نحن نؤمن به إيمانًا غيبيًا لا يرقى إليه أى شك، ولا نريد عليه دليلًا، لأن دليلنا ويقيننا أن الله هو الذى قال. ولكننا نكتب هذا الكتاب لنرد على غير المؤمنين. ولذلك فنحن نرد بالحجة والدليل المادى ما لا يستطيعون أن يردوا عليه».

* ومع ذلك، فسيجد القارئ المؤمن فى كل صفحة من صفحات هذا الكتاب ما يزيد المؤمنين إيمانًا، وما يثبت أفئدة المؤمنين..

٢ ـ ويلفت الشيخ الشعراوى الأنظار إلى ديمومة العطاء الإعجازى لمعجزة القرآن الكريم.. «فلقد قيل إن عصر المعجزات انتهى.. ولكن معجزات القرآن لا تنتهى حتى تقوم الساعة.. لقد بقيت لتعطى كل جيل معنى إعجازيًا لم يصل إليه الجيل الذى قبله».

٣ ـ وفى الحديث عن علاقة الدين بالعلم، ينبه الشيخ الشعراوى على حقيقة اختلاف هذه العلاقة فى حال الإسلام عنها فى حال المواريث الدينية السابقة.. «ففى التوراة أن شجرة التفاح التى أكل منها آدم هى شجرة المعرفة.. وهذه الخرافة المحرفة هى التى أدت إلى المعركة بين الكنيسة والعلم.

ولكن موقف الإسلام مختلف، ذلك أن التفاحة التى أكل منها آدم هى منهج الشيطان الذى أظهر عوراته وكشفها، كما يظهر تزيين الشيطان للناس فى الدنيا عوراتهم فيكشفها فيصيبهم الخزى والعار.. إن أى تصادم بين القرآن والعلم لا يمكن إلا أن تكون النظرية العلمية خاطئة، أو أن يكون فهمنا للقرآن غير سليم».

٤ ـ وفى ألوان العلم ودرجاته يشير الشيخ الشعراوى إلى «أن هناك علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.. فعلم اليقين هو الذى يأتيك من إنسان تثق فيه وفى أنه صادق.. وعين اليقين هو رؤيتك لما أخبرك به من تثق فيه.. وحق اليقين هو لمسك وتحسسك وتأكدك من أوصاف هذا الذى رأيته».

٥ ـ وفى الموقف من العقل، ومقامه، وحدوده ـ التى يقررها الإِسلام ـ يقول الشيخ الشعراوى: «لقد جعل الله الأدلة الأولى لإِدراك وجوده هى العقل.. ولكن مهمة العقل بالنسبة لهذا الوجود محدودة.. ذلك أننا بالعقل ندرك أن هناك خالقًا

مبدعًا قادرًا.. ولكننا بالعقل لا نستطيع أن ندرك ما يريد الخالق منا.. وكيف نعبده.. وكيف نشكره.. وماذا أعد لنا من جزاء.. فهذا كله فوق قدرة العقل..

ولذلك كان لا بد أن يرسل الله الرسل ليبلغونا عن الله: لماذا خلق الله هذا الكون.. ولماذا خلقنا.. وما هو منهج الحياة الذى رسمه لنا لنتبعه؟.. وماذا أعد لنا من ثواب وعقاب.. فتلك مهمة فوق قدرات عقولنا.. وتلك مهمة لو استخدمنا فيها العقل لما وصلنا إلى شىء..

لقد وضع الله الدليل الإيمانى فى الكون كما وضع الدليل العقلى.. ولكننا سنحتكم للعقل وحده، ليرى الناس جميعًا أن الاحتكام للعقل يعطينا آلاف الأدلة من آيات الله التى تشهد أنه لا إله إلا الله».

٦ ـ ويسلط الشيخ الشعراوى الأضواء على حقيقة أن الإيمان بالله هو فطرة داخل الإنسان، وبذلك يقدم التفسير لمعنى الميثاق الذى أخذه الله على الناس، والذى أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم فقالوا بلى..

كما يكشف عن معجزة كون لفظ الجلالة ـ (الله) ـ قد قام دليلًا ـ عبر لغات الدنيا ـ على وجود الله.. فيقول: «إن الثابت لغويًا أن المعنى لا بد أن يوجد أولًا ثم يوجد اللفظ أو الاسم.. حتى أنك إذا حدّثت إنسانًا بلفظ لا يفهمه، فلا بد أن يعرف المعنى أولًا ثم بعد ذلك يفهم اللفظ.. ولكن الله سبحانه وتعالى غَيْب عنا، لم يره أحد، ومع ذلك فإن لفظ الجلالة موجود فى كل لغات العالم، والعقول كلها تفهمه، فكيف يمكن أن يحدث هذا؟ إلا إذ كان فى داخلنا الإيمان الفطرى الذى يعرفنا معنى لفظ الجلالة.

وهنا تأتى الآية الكريمة لتبين لنا هذا الإعجاز فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. إذن فلا بد أن الله قد أشهدنا على نفسه، فعندما ذكر لفظ الجلالة فهمناه، ولا بد أنه سبحانه وتعالى أشهد البشرية كلها؛ لأنه لا توجد لغة فى العالم ليس فيها لفظ الجلالة، بل إن التحدى والإعجاز الإلهى يمضى أكثر من ذلك، فيقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وهكذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى أن لفظ الجلالة لن يطلق على أحد غير ذاته الكريمة، وهكذا تحدى الله البشرية كلها فى أمر اختيارى، فالاسم هو شىء من اختيار الإنسان، ويوجد فى هذا الكون الكفرة والملحدون وشياطين الإنس وغيرهم، فهل سمعت عن واحد سمى نفسه الله؟ أو سمى ابنه الله؟ ـ لم يحدث.. ولن يحدث.. لأن الحق سبحانه وتعالى اختص بهذا الاسم ذاته الكريمة، فلا يمكن لبشر أن يتخطى مراد الله ليطلق لفظ الجلالة على نفسه أو أحد أولاده، بل إن الذين ادعوا الألوهية مثل فرعون وغيره، ونصبوا أنفسهم آلهة يعبدون من دون الله، لم يجرؤ واحد منهم ولم يخطر على باله أن يسمى نفسه الله».

٧ ـ ومع قيام الكون المادى والعالم الإنسانى على السببية والأسباب.. إلا أن طلاقة القدرة الإلهية ـ عندما يريد الله ـ تكون مفارقة للسببية والأسباب.. «وأول مظاهر طلاقة القدرة الإلهية هى المعجزات التى أيد الله بها رسله وأنبياءه..

ومن طلاقة القدرة فى الإيجاد: أن الأصل فى الإيجاد أن يكون من ذكر وأنثى، ولكن الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته خلق إنسانًا بدون ذكر أو أنثى، وهو آدم عليه السلام، وخلق من ذكر دون أنثى، وهى حواء.. وخلق إنسانًا من أنثى بدون ذكر، وهو عيسى عليه السلام.. فهو جل جلاله خالق الأسباب، وقدرته تبارك وتعالى فوق الأسباب».

٨ ـ وفى دحض المذاهب المادية ـ فى الخلق ـ: مذاهب: المصادفة.. والداروينية.. والتولد الذاتى.. وغيرها.. يقول الشيخ الشعراوى: «لقد خلق الله هذا الكون وأوجده ونظمه غير مستعين بأحد من خلقه، ولا محتاج لأحد من عباده.. وقدرة هذا الكون أكبر من قدراتنا بكثير.. فالشمس مثلًا أقوى من قدرة البشر جميعًا، وكذلك الأرض والبحار والجبال.. إذن فلا بد أن تكون هذه الأشياء قد أُخضعت لنا بقدرة من خلقها وليس بقدرتنا نحن.

وكذلك خلق الإنسان.. فلا يوجد من يستطيع أن يدعى أنه خلق إنسانًا، ولا من يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه.. فإذا جاء من يقول إن هذا الكون خلق بالمصادفة، نقول إن المصادفة لا تنشئ نظامًا دقيقًا كنظام الكون، لا يختل رغم مرور ملايين السنين.

وإذا جاء بعض العلماء ليدعى أنه كانت هناك ذرات ساكنة ثم تحركت وتكثفت واتحدت.. نقول من الذى أوجد هذه الذرات، ومن الذى حركها من السكون.

وإذا قيل إن الحياة بدأت بخلية واحدة فى الماء نتيجة تفاعلات كيماوية.. نقول من الذى أوجد هذه التفاعلات لتصنع هذه الخلية؟

وقد يقال إن هناك تهجينًا وتحسينًا، وخلطًا بين الأنواع لتنتج نوعًا أكثر جودة، نقول إن هذا كله لا ينفى أن الثمرة الأولى مخلوقة خلقًا مباشرًا من الله، وأنهم قد استخدموا ما خلق الله بالعلم المتاح من الله..فكل هذه الاكتشافات العلمية هى من موجود.. ولا يوجد اكتشاف علمى واحد من عدم.. فالعلم كاشف لقدرات الله فى الأرض، ولكنه ليس موجدًا لشيء..

وإذا كان كل شيء فى هذا الكون من خلق الله، فإن قوانين الكون أيضًا هى من وضع الله، إلا ما شاء الله أن يجعل للإنسان فيه اختيارًا.. فالشمس والقمر والنجوم والأرض لا تتبع قوانين البشر، بل تتبع القانون الإلهى، والذى خلقها وضع لها القانون الأمثل لتؤدى مهمتها فى الكون».

٩ـ وفى الكشف عن آيات الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ـ وهو بحر تلاطمت أمواجه فى هذا الكتاب ـ نقف عند نماذج من إشراقات الشيخ الشعراوى فى هذا الميدان.. فالله قد خلق الإنسان من طين.. وجاء العلم ليكشف عن أن العناصر التى يتكون منها جسم الإنسان هى ذات العناصر التى يتكون منها الطين: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢].

«فهذه الآية تذكر أن الإنسان قد خلق من طين.. والطين موجود فى كل مكان فى الأرض، والعلماء أخذوا الطين وحللوه، فوجدوه يتكون من ثمانية عشر عنصرًا، منها الحديد والبوتاسيوم والمغنسيوم وغير ذلك من المواد، ثم درسوا جسم الإنسان فوجدوه يتكون من نفس هذه المواد، وهى الثمانية عشر عنصرًا التى يتكون منها الطين».

١٠ـ ولقد تحدث القرآن ـ قبل أربعة عشر قرنًا ـ عن أطوار تكون الجنين فى رحم الأم.. وجاء العلم الحديث فكشف عن الدقة العظمى لما جاء به القرآن الكريم

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

ولقد عرض العالم الكندى «كيث ل. مور» ـ وهو من أشهر علماء العالم فى علم الأجنة ـ كل أطوار الجنين فى بطن أمه، والتى التقطت بأحدث الأجهزة العلمية، فإذا هى تنطبق تمامًا على كل ما ذكر فى القرآن الكريم..

ولما قيل له: هل كان من الممكن أن يعرف رسول الله ﷺ هذه التفصيلات عن أطوار الجنين؟ قال: يستحيل، إن العالم كله فى ذلك الوقت لم يكن يعرف أن الجنين يخلق أطوارًا، فما بالكم بتحديد مراحل هذه الأطوار التى لم يستطع العلم حتى الآن أن يحددها بهذه السهولة والدقة. بل إن العلم لم يستطع حتى الآن تسمية أطوار الجنين، بل أعطاها أرقامًا بشكل معقد غير مفهوم، فى حين جاءت فى القرآن بأسماء محددة وبسيطة وغاية فى الدقة».

١١ ـ وإشراقة أخرى تكشف عن أن آية النهار هى المبصرة.. وليست العين! فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٢].

هكذا وصف الله النهار بأنه المبصر.. ولكن، هل النهار هو الذى يبصر؟ أم العين هى التى تبصر؟

الذى نفهمه من تلقائية الإبصار أن العين هى التى تبصر.. ولكن الحقيقة العلمية تختلف..فلقد ثبت علميًا أن ضوء الشمس ينعكس على الأشياء ثم تدخل أشعة النور إلى العين فتبصر.. فالإبصار نسبه الله سبحانه وتعالى لضوء النهار ولم ينسبه إلى العين.. ولقد نزلت هذه الآية والبشر كلهم لا يعلمون كيف يتم الإبصار..

ولو أن هذا القرآن ليس من عند الله، ولكنه من عند محمد ﷺ، فما الذى كان يجعله يغامر بذكر قضية علمية كهذه القضية قد يثبت عدم صحتها فيضيع الدين كله، ومن أين له هذه المعلومات حتى يعرف أن الإبصار يحدث بضوء النهار؟.. أليس هذا

دليلًا ماديًا كافيًا للإيمان بالله، وللإيمان بأن القرآن منزل من عند الله الخالق لهذا الكون والعالم بأسراره؟».

١٢ـ وفى الإعجاز العلمى القرآنى الذى سبق العلم الحديث فى إثبات كروية الأرض، جاءت العديد من الآيات: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥].

«وهو دليل على أن نصف الكرة الأرضية يكون ليلًا والنصف الآخر نهارًا، وعندما تقدم العلم وصعد الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض وصورها، وجدنا فعلًا أن نصفها مضىء ونصفها مظلم كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى».

وفى حديث القرآن عن مد الأرض وبسطها دليل على كرويتها.. ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر: ١٩].

«أى بسطناها.. هل قال: أى أرض؟.. لا ـ لم يحدد أرضًا بعينها، بل قال الأرض على إطلاقها.. ومعنى ذلك أنك إذا وصلت إلى أى مكان يسمى أرضًا تراها أمامك ممدودة أى منبسطة.. ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية.. فلو كانت الأرض مربعة أو مثلثة أو مسدسة، أو على شكل هندسى آخر، فإنك تصل إلى حافة، لا ترى أمامك الأرض منبسطة، ولكنك ترى حافة الأرض ثم الفضاء، ولكن الشكل الهندسى الوحيد الذى يمكن أن تكون فيه الأرض ممدودة، فى كل بقعة تصل إليها هى أن تكون الأرض كروية. وهذا هو الإعجاز فى القرآن الكريم، يأتى باللفظ الواحد ليناسب الأشياء ويدل على حقيقتها الكونية».

وفى حديث القرآن الكريم عن تزامن الليل والنهار، وعدم سبق أى منهما للآخر، دليل ـ كذلك ـ على كروية الأرض:

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ «أى أنكم تعتقدون أن النهار لا يسبق الليل.. ولكن الله يقول لكم إن الليل أيضًا لا يسبق النهار.. ومعنى أن النهار لا يسبق الليل وأن الليل

لا يسبق النهار، أنهما موجودان معًا فى وقت واحد على سطح الكرة الأرضية.. ولا يمكن أن يوجد الليل والنهار معًا فى وقت واحد على سطح الكرة الأرضية، إلا إذا كانت الأرض كروية، فيكون نصف الكرة مضيئًا والنصف الآخر مظلمًا».

١٣ـ وكذلك الإعجاز فى حديث القرآن عن دوران الأرض حول نفسها ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [النمل: ٨٨].

«هكذا تبدو الجبال أمامنا ثابتة لأنها لا تغير مكانها، ولكنها فى نفس الوقت تتحرك لأن الأرض تدور حول نفسها، والجبال جزء من الأرض، فهى تدور معها تمامًا كما تحرك الريح السحاب، ونحن لا نحس بدوران الأرض حول نفسها، ولذلك لا نحس أيضًا بحركة الجبال».

وكذلك الحال مع حديث القرآن عن أن الليل والنهار كلاهما يخلف الآخر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢].

«فلكى يأتى الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر، فلا بد أن يكون هناك دوران للأرض حول نفسها، لتحدث حركة تعاقب الليل والنهار».

١٤ ـ ولقد أثبت القرآن ـ قبل أربعة عشر قرنًا من العلم الحديث ـ أن الغلاف الجوى المحيط بالأرض ـ والذى يحمى هذه الأرض ـ هو جزء من الأرض.. ولذلك تحدث القرآن عن المشى فى الأرض.. وليس على الأرض!.. ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١، النمل: ٦٩، والعنكبوت: ٢٠، والروم: ٤٢] «فلماذا لم يقل سيروا على الأرض؟».. لقد أتت الحقيقة العلمية لتثبت أننا فعلًا نسير فى الأرض، وليس على الأرض، لأن هناك غلافًا جويًا يحيط بالأرض، وهو جزء منها، ونحن لا نخرج من الأرض إلا إذا خرجنا من هذا الغلاف الجوى.

فالطائرات التى تطير على ارتفاعات مختلفة تطير فى الأرض وليس خارج الأرض، ولكن الذى يخرج من الأرض هى سفن الفضاء التى تتجاوز الغلاف الجوى للأرض».

١٥ ـ كذلك أشار الشيخ الشعراوى إلى آية الله «فى تلك الشجيرة الصغيرة التى

تراها تنبت فى سطح الجبل، ساقها هشة لينة، ربما لا تحتمل قبضة يدك، ومع هذا فقد فتتت الصخر ونبتت فيه.. واستطاعت الرقيقة الرفيعة أن تمتد وتضرب فى باطن الجبل وتحصل على الغذاء..

وتتعجب أنت كيف يمكن أن يحدث ذلك، مع أنك لو أردت أن تصنع ثقبًا فى سطح الجبل لاحتجت إلى آلات حادة وقوى كثيرة.. فتعرف أن الله سبحانه وتعالى الذى خلقها ألان لها الصخر فتنبت فيه، وألان لجذورها صخور الجبل فامتدت حتى وصلت إلى المصدر الذى يعطيها الغذاء».

١٦ـ وبالمنطق العقلى.. وبالدليل المادى.. يتوجه الشيخ الشعراوى بالحديث إلى الذين ينكرون الغيب الإلهى، بدعوى أنهم لا يؤمنون بغير المحسوس.. فيثبت لهم أن حياتهم مليئة بالغيب غير المحسوس ـ الذى لا ينكرونه ـ «فغير المؤمن يقول إن الله غيب، وأنا لا أصدق إلا ما أرى.. ونحن نقول له: فى جسدك روح تهبك الحياة، وإذا خرجت الروح من جسدك سكنت الحركة وانتهت الحياة.. من منا رأى الروح، بل من منا يعرف أين موقعها من الجسد؟».

إذن الروح ـ وهى موجودة فى جسدك ـ غيب عنك .. ولكنك مستدل على وجود الروح ـ مع أنها غيب عنك ـ بآثارها فى أنها تعطى الحياة والحركة لجسدك.. إذن فوجود الروح علم يقين واستدل عليه بآثارها.. ألا يدل هذا الكون كله بما فيه من إعجاز الخلق على الله يقينًا؟.. وانظر إلى جسدك والروح فيه، ثم انظر إلى الكون لتستخدم هذا القانون.. أم أنك فى جسدك لا تستطيع أن تجادل، وفى الكون بعظمته تجادل؟!..

إن وجود الشيء مختلف تمامًا عن إدراك هذا الوجود.. فقد يوجد الشيء وأنت لا تدركه.. ومع ذلك فهو يؤدى مهمته فى الحياة.. ثم تأتى نفحة من رحمة الله تجعلنا ندرك بعقولنا أن ما حسبنا أنه ليس موجودًا إنما هو موجود وقائم ويؤدى مهمته.. مثلًا الجراثيم: عالم كبير لم نكن نعرف عنه شيئًا، بل كان غيبًا عنا منذ مائة سنة، ومع ذلك، فهل لم يكن موجودًا؟ لا، بل كان موجودًا يؤدى مهمته فى الحياة..

وإذا نظرنا إلى قطرة الماء الذى نشربه تحت الميكروسكوب لوجدنا فيها أشياء عجيبة.. أشياء فيها حياة ولها حركة.. ولها كيان ولها دور فى الحياة.. ولكننا لم نكن

نعرف منذ فترة قصيرة أن هذه الأشياء موجودة.. فهل كان هذا شهادة بعدم وجودها؟ أم أنها كانت فى الحقيقة موجودة، ولكننا لا ندرك هذا الموجود؟..

وإذا نظرنا إلى ما فى السماوات، نجد أننا كلما استطعنا أن نصنع ميكروسكوبًا أضخم وأقوى، استطعنا أن نكتشف أجرامًا سماوية جديدة، ونراها لأول مرة.. هل كانت هذه الأجرام التى لم نكن نعرف عنها شيئًا غير موجودة؟.. أم لم تكن تؤدى مهمتها فى الكون؟.. كانت موجودة، وكانت تؤدى مهمتها فى الكون، ولكن الله سبحانه وتعالى أخفى وجودها عنا إلى أجل حدده، فلما جاء الأجل كشف لنا هذا الوجود فعرفناه حتى نعلم أن ما هو غيب عنا موجود يؤدى مهمته فى الكون ولو لم ندرك وجوده.. فإذا حدثنا الله عن الملائكة وعن الجن وعن النار وعن الشياطين فلا بد أن نصدق، ليس بالدليل الإيمانى فقط، لأن القائل هو الله، ولكنه سبحانه وتعالى فى تحدّ أعطى الدليل المادى لغير المؤمن به على أن الغيب موجود وإن لم نكن ندرك وجوده، وأعطاه لنا من أحداث هذا الكون وما يقع فيه من ماديات..

إن الله سبحانه وتعالى أعطانا من الأدلة المادية والعقلية ما يؤكد لنا أن ما هو غيب عنا موجود وإن لم نكن ندرك وجوده.

فإذا حدثنا الله سبحانه وتعالى عما هو غيب عنا كالآخرة والحساب والجنة والنار، لا نقول إن الله يخاطبنا بما لا تستطيع أن تدركه عقولنا، وأننا لا نستطيع تصديق ذلك، بل نعود إلى واقع الكون، ونتأمل ما فيه من آيات، وما وضعه الله لنا فيه من دلائل.. ولو أننا تدبرنا لقلنا يا رب لقد أعطيتنا مع الدليل الإيمانى الدليل الفعلى الذى يقرب الصورة إلى أذهاننا حتى ندركها، وليس لنا عذر يا رب يوم الحساب فى أن نقول إن عقولنا لم تدرك، لأنك وضعت فى كونك الأدلة المادية التى تثبت أن الغيب واقع وموجود، وكان يجب أن تكون هذه الأدلة هى طريقنا إلى الإيمان، لا طريقنا إلى الكفر والإلحاد».

١٧ ـ ويتحدث الشيخ الشعراوى إلى الذين يدعون السيادة المطلقة على أنفسهم، فيقول: «إن غير المؤمن يقول أنا سيد نفسى، أنا حاكم نفسى أفعل بها ما أشاء.. ونحن نقول: هذا افتراء على الله.. فجسمك هو ملك لله، وهو يفعل فيه ما يشاء إلا ما شاء أن يجعلك فيه مختارًا.. وإذا لم تصدق ذلك فانظر إلى جسدك..

القلب ينبض، فهل أنت الذى تجعله ينبض؟ وهل تستطيع أن توقفه قليلًا ليستريح؟.. أو تجعله إذا توقف أن يعود إلى الحركة مرة أخرى؟.. وكيف يمكن أن يتبع القلب لإرادتك، وهو ينبض وأنت نائم مسلوب الإرادة؟.. ومن الذى يعطى الأمر للقلب كى يقلل نبضاته وأنت نائم، لأنك متوقف عن الحركة؟.. ويجعله يسرع فى النبض وأنت تقوم بأى مجهود محتاج إلى سرعة حركة الدم فى الجسم؟..

وأمعاؤك وحركة الطعام فيها وامتصاص ما يفيد الجسم وطرد ما لا يفيده.. أيحدث هذا بإرادتك؟ أم أنها تتم دون أن تدرى؟..

لو أن قلبك يخضع لإرادتك كيف يمكن أن تنام؟.. إنك ستظل يقظًا ليستمر القلب فى النبض.. فإذا كنا نبصر بأعيننا، فنحن نبصر بقدرة الله التى أعطت العين قوة الإبصار.. ونمشى بقدرة الله التى أعطت القدمين قوة الحركة.. ونسمع ونتكلم بقدرة الله التى أعطت اللسان قدرة الكلام والأذن خاصية السمع.. ولو كان هذا بذاتية منا، ما استطاع أحد أن يسلبنا النظر أو السمع أو الحركة أو الكلام..

بل إن الله سبحانه وتعالى وضع فينا العدل بالنسبة لأبنائنا رغمًا عنا. فتجد الأب يحب أصغر أبنائه أكثر من الكبار.. لماذا؟.. لأن الابن الصغير مهما امتد العمر بالأب سيقضى فى رعاية أبيه سنوات أقل من الكبار.. ولذلك أعطاه الله حنانًا أكبر ليعوضه عن هذه السنوات، حتى يكون خير الأب وعطفه قد وزعا على أبنائه بالعدل.. فمنهم من أخذ عطفًا أقل وسنوات أكثر، ومنهم من أخذ سنوات أقل وعطفًا أكثر»..

هكذا تحدث إمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى فى هذا الكتاب الفريد[1]..

وبهذه الإشارات إلى بعض إشراقاته قدمنا بين يدى هذا الكتاب.

* والذى يجب أن يدرّس فى كل الكليات الشرعية والدعوية والتربوية وفى جميع معاهد إعداد الدعاة..

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب ـ هدية مجلة (الأزهر) عدد محرم سنة ١٤٣٦هـ نوفمبر سنة ٢٠١٤. وطبعة دار الفكر العربى القاهرة.

* والذى هو نموذج ممتاز للخطاب الدينى الملائم لعصر العلم والمعرفة الذى نعيش فيه..

* والذى هو شاهد ـ مع تراث الشيخ الشعراوى على أن الذين أخلصوا دينهم لله، واستخلصهم الله لخدمة دينه، ستظل آثارهم تملأ العقول والقلوب حتى بعد أن تنتقل أجسامهم عن هذه الدنيا.. بينما رأينا الكثير من المشاريع الفكرية، التى فرضتها أجهزة الثقافة والإعلام على جماهير الأمة قد دخلت القبور مع أصحابها.. وكثير من أصحاب هذه المشاريع الفكرية كانوا خصومًا لشيخنا الشعراوى عليه رحمه الله!..

إنها سنة الله التى لا تتخلف أبدًا ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

صدق الله العظيم

٧ ذو القعدة سنة ١٤٣٥هـ/ ٢ سبتمبر سنة ٢٠١٤م

السنة والشيعة
الانقسام الأكبر فى تاريخ الإسلام

فى بداية عقد السبعينيات من القرن الماضى العشرين الميلادى وأثناء جمعى للمادة العلمية لرسالة الدكتوراة فى موضوع [نظرية الإمامة وفلسفة الحكم عند المعتزلة] ـ وهى دراسة مقارنة بين المعتزلة والشيعة بالدرجة الأولى، افتقدت فى مكتبتى عددًا من المصادر الأساسية فى الفكر الشيعى من مثل [الأصول من الكافى] ـ للكلينى [٣٢٨هـ/ ٩٤١م] ـ وغيره من المصادر الأساسية التى جمعت الرؤية الشيعية للإمامة ومعالم المذهب وعقائده عند الإمامية الإثنى عشرية.

ولقد نبهنى بعض الأصدقاء إلى مكتبة شيعية «خاصة» فى حى الدقى، بالقاهرة الكبرى يُيسِّر صاحبها للراغبين من الباحثين والقراء الاطلاع على المصادر والمؤلفات فى الفكر الشيعى.. فذهبت إليها، وتعرفت على صاحبها، ووجدت فيها أغلب ما أريد.

ولأنى فى ذلك التاريخ ـ كنت قد نشرت عددًا وافرًا من المؤلفات والتحقيقات، فلقد وجدتنى معروفًا لدى صاحب المكتبة، الذى احتفى بى، ويسر لى الحصول على ما أريد من المصادر والمراجع.. بل وتوطدت بيننا علاقة مودة تبادلنا فيها الزيارات لعدة سنوات.

كانت هذه المكتبة تشغل قاعة كبيرة فى منزل صاحبها «حجة الإسلام السيد طالب رفاعى» وهو شيعى عراقى، يعيش فى مصر ـ كما يقول ـ لإنجاز دراساته العليا ـ فى النحو ـ بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة.

* وأثناء جلوسى الطويل للإطلاع فى مكتبته لفت انتباهى من أحاديثه مع بعض المترددين عليه ـ أن الرجل إنما يقوم بنشر فكر التشيع فى مصر، ويعمل على «تجنيد»

الأنصار، و«زرع» الخلايا الشيعية بين المصريين السنة، ولقد أعاننى على فهم معالم هذه المهمة وتفسير العبارات التى كنت أسمعها، خبرة طويلة ـ سابقة ـ لى فى التنظيمات السياسية ـ والسرية منها على وجه الخصوص؟

وكانت السنين تمر دون أن ينجز السيد طالب رفاعى أى شىء فى دراساته العليا.. الأمر الذى أكد لدىّ أن هذه «الدراسات العليا» ليست أكثر من «الستار» الذى يمارس تحته «حجة الإسلام» نشر التشيع فى مصر، بتمويل من«الخمس» الذى تنفق منه المراجع الشيعية و«الحوزات العلمية» على مثل هذه النشاطات.

* وكنا فى جلساتنا الفكرية والعلمية نتطارح الأفكار حول المذاهب الإسلامية.. فالرجل شيعى، وأنا سنى، أبحث فى الاعتزال.. ولقد صارحنى فى إحدى هذه الجلسات بمنزلى ـ فقال:

إن التشيع ـ من الناحية الفكرية ـ ليست له قوة المقومات التى قام عليها الاعتزال ـ كالنظرية المتكاملة فى «الأصول الخمسة» ـ لكن الاعتزال ـ مع ذلك ـ قد طويت صفحته كفرقة، بينما استمرت الشيعة والتشيع لأنه قد حول عقائده ـ وخاصة فى الإمامة والأئمة ـ إلى منهاج تربوى يلازم الإنسان الشيعى من لحظة الولادة وحتى الوفاة والدفن والعزاء. مرورًا بالأفراح والمناسبات والأدعية والزيارات التى تملأ الزمان والمكان والعقل والوجدان بالنسبة للإنسان الشيعى ـ فردًا وأسرة ومجتمعًا».

* وإبان سنوات هذه العلاقة التى ربطت مودتها بينى وبين السيد طالب رفاعى كنت أتساءل بينى وبين نفسى ـ متعجبًا:

ـ لماذا يبذل إخواننا الشيعة الجهود والأموال والسنين لنشر التشيع وزرع الخلايا الشيعية فى المجتمعات السنية؟! ألسنا جميعًا مسلمين؟!».

إن المجتمع المصرى تتعايش فيه المذاهب السنية الأربعة ـ الشافعى ـ والمالكى والحنفى ـ والحنبلى ـ ولم يشغل أحد نفسه ـ فى هذا المجتمع بتحويل إنسان من مذهب إلى مذهب آخر ولم ينفق أحد جهدًا ولا مالًا فى نشر المذاهب السنية فى المجتمعات الشيعية لسبب بسيط هو أننا جميعًا مسلمون.

وتذكرت كيف أنى عندما تقدمت للالتحاق بمعهد دسوق الدينى ـ فى الأزهر الشريف سنة ١٩٤٥م «اقترح علىّ من كتب لى طلب الالتحاق أن أدرس الفقه على المذهب الحنفى ـ لأكون قاضيًا شرعيًا ـ فوافقت.. ثم لما التحقت بالمعهد غيرت المذهب من الحنفى إلى المالكى ـ لانتشار المذهب المالكى فى قريتى وحولها ـ ولقد تم ذلك دون عناء«فكلنا مسلمون» وسماحة مصر تحتضن كل تراث الأمة.. حتى أنك لا تجد ـ فى مساجدها ـ من يسأل عن مذهب الإمام أو المأموم.

بل وتساءلت أيضًا:

ـ لماذا هذا الحرص الشيعى على نشر التشيع وزرع خلاياه وتنظيماته فى مصر على وجه الخصوص؟!

ولقد أدركت ـ من الحوارات ـ أنهم يحنون إلى إعادة مصر إلى التشيع، لا لمركزها وثقلها وتأثيرها الإسلامى والقومى والحضارى فقط، وإنما لأنها قد سبق وحكمها الشيعة الإسماعيلية الفاطميون [٣٥٨هـ ـ ٩٦٩م/ ٥٦٧هـ ـ ١١٧١م].. وسبق للأزهر أن كان الجامعة الشيعية التى أقامها الفاطميون.. والتى قام على التدريس فيها دعاة الشيعة الإسماعيلية وفقهاؤها.. فكان «الحوزة الشيعية الإسماعيلية» لنحو قرنين من الزمان.

إذن فنحن أمام حنين شيعى يحلم أصحابه بتغيير «الخريطة المذهبية» فى العالم الإسلامى وفى مصر على وجه الخصوص:

* ولقد امتدت الإقامة بالسيد طالب رفاعى فى مصر.. ودام نشاطه فى زرع التشيع إلى ما بعد قيام الثورة الشيعية الإسلامية بإيران [١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م] .

وعندما استضاف الرئيس الراحل أنور السادات [١٣٣٦ـ ١٤٠٢هـ/ ١٩١٨ـ ١٩٨١م] الشاه الإيرانى الذى أسقطته الثورة ـ محمد رضا بهلوى [١٣٣٧ـ ١٤٠٠هـ/ ١٩١٩ـ ١٩٨٠م] فى مصر.. ومات بها استدعت الحكومة المصرية «حجة الإسلام الشيعى السيد طالب رفاعى» ليصلى على جثمان الشاه فى الجنازة الشهيرة التى أقامها له السادات، ويومئذ غضب قادة الثورة الإسلامية بإيران على السيد طالب.. وهاجموه، لأنه كرم الشاه! وأرضى السادات.

* ثم ما لبثت قصة السيد طالب رفاعى أن انتهت بمفارقة ذات دلالات.

فالرجل قد اشترى ـ من أموال «الخمس» مسكنًا فسيحًا ونقل إليه المكتبة الكبيرة وتزوج مصرية ـ ثم اكتشف ـ فى النهاية ـ أن كل ذلك ـ بما فيه نشاطه الدعوى المذهبى والتنظيمى وحتى زواجه ـ إنما كان يتم تحت أعين الأجهزة الأمنية! فغادر مصر، خاسرًا زوجته ومكتبته.. ودون حصاد ذى قيمة للنشاط الذى بذل فيه الجهد والمال على امتداد السنوات الطوال!

* ولقد تولى المهمة بعد السيد طالب رفاعى شاب عراقى نابه.. عاش بمصر لسنوات، ينجز دراساته العليا فى الفلسفة الإسلامية.. ولقد جمعت بينى وبينه علاقات مودة حتى كان يعد نفسه ـ ونعده واحدًا من أبنائنا.. وما زالت تربطنا وبأسرته علاقات المودة والمحبة والتقدير ـ بعد مغادرته مصر ـ حتى هذه اللحظات.

ورغم أنى كنت أدرك رعايته لنشر التشيع فى مصر، إلا أنى لم أفاتحه فى الأمر.. وذلك إيمانًا منى بأن حصاده هو الآخر ـ لن يتفوق على حصاد السيد طالب رفاعى كثيرًا.. ذلك أن مصر التى مثلت ـ عبر تاريخ الإسلام ـ القلب والعقل والضمير للعالم السنى والفكر السنى والوسطية الإسلامية، لم تعرف الغلو الذى يجعلها تتعصب لآل البيت.. أو تتعصب ضدهم.

لقد رفضت مصر الغلو الشيعى فى آل البيت.. ذلك الغلو الذى ألّههم عندما قال «بالإمامة الإلهية وتأليه الأئمة» رفضت مصر ذلك الغلو حتى عندما حكمها الشيعة الإسماعيلية الفاطميون، فكانت السلطة شيعية تكفر الصحابة وأصل السنة والجماعة وتكتب لعْن أبى بكر [٥١ ق هـ ـ ١٣هـ/ ٥٣٣ ـ ٦٣٤م] وعمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ ـ ٢٣هـ/ ٥٨٤ ـ ٦٤٤م] على جدران المساجد بماء الذهب! وكان الشعب المصرى سنيًا، يحب آل البيت وجميع الصحابة ـ عليهم رضوان الله ـ بل وكان هذا الشعب ـ فى معارضاته للفاطميين ومظاهراته ضد الدولة والسلطة ـ «يغيظ» الشيعة فيهتف: «معاوية خال المؤمنين»! «مذكرًا إياهم أن معاوية بن أبى سفيان» [٢٠ ق هـ ـ ٦٠هـ/ ٦٠٣ ـ ٦٨٠م] ـ الذى يكرهونه ويكفرونه ـ هو خال المؤمنين، لأن أخته «أم حبيبة» هى واحدة من زوجات رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين، أى أن أخت معاوية ـ

بنت أبى سفيان ـ هى من آل البيت!! ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

وعندما كان الفاطميون يقيمون الأحزان ـ فى عاشوراء ـ العاشر من محرم ـ ذكرى استشهاد الحسين ـ كان المصريون ـ الذين يحبون الحسين ـ يصنعون «حلوى عاشوراء» نكاية فى الفاطميين الشيعة الغلاة! ولقد ظلوا يصنعون ذلك حتى الآن.

وعندما انقضى عمر الدولة الفاطمية وعادت الدولة السنية إلى مصر بقيادة صلاح الدين الأيوبى [٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ/ ١١٣٧ـ ١١٩٣] مؤسس الدولة الأيوبية ـ لم تجد بقايا السلطة الفاطمية بين الشعب المصرى نصيرًا.. حتى لقد سعت هذه البقايا للتحالف مع الصليبيين ـ الكفار الأعداء ـ ضد الدولة السنية التى قادها صلاح الدين!

* ومع هذا الرفض المصرى للغلو الشيعى فى «الإمامة الإلهية» و«تأليه الأئمة» ـ كان الحب المصرى لآل بيت رسول الله ﷺ:

لقد أقامت مصر للإمام الحسين [٤ ـ ٦١هـ/ ٦٢٥ـ ٦٨٠م] مسجدًا ومقامًا ومزارًا ومولدًا وميدانًا وحيًا يسمى باسمه.. رغم أن قدمه لم تطأ أرض مصر.. ولا برهان من التاريخ على أن رأسه قد دفن فيها.

وأقامت مصر للإمام زين العابدين [٣٨ـ ٩٤هـ/ ٦٦٨ـ ٧١٢م] مقامًا ومزارًا ومسجدًا ومولدًا وميدانًا وحيًا وميدانًا.. رغم أنه ـ هو الآخر ـ لم تطأ قدمه أرض مصر.

وصنعت مصر ذلك الحب والولاء والمودة والاحتضان مع العديد من رموز آل بيت رسول الله ﷺ رجالًا ونساء.

وفوق ذلك وقبله كان الشعب المصرى لا يزال يخص الراشد الرابع علىّ بن أبى طالب [٢٣ ق هـ ـ ٤٠هـ/ ٦٠٠ـ ٦٦١م] بلقب «الإمام» وبدعاء: «كرم الله وجهه»،

فى الوقت الذى يحتضن فيه المصريون ويحبون كل أصحاب رسول الله ﷺ ـ رضى الله عنهم أجمعين.

بل لقد عّبرت الأسماء الأكثر شيوعًا فى مصر ـ وللأسماء فى المجتمعات دلالات دينية وسياسية واجتماعية ـ عن هذه الوسطية وهذا الاعتدال فى الحب لآل البيت ـ أى لبيت النبوة ـ فأكثر الأسماء شيوعًا بمصر هى أسماء آل البيت ـ سواء منهم الذين يقدسهم الشيعة أو الذين يكفرونهم ويلعنونهم! فأسماء محمد وعليّ.. وحسن.. وحسين.. وإبراهيم.. وخديجة.. وعائشة.. وفاطمة.. وزينب.. ورقية هى أكثر الأسماء شيوعًا بمصر.. ومعها أسماء: أبو بكر.. وعمر.. وعثمان.. بينما لن تجد بمصر من اسمه معاوية ولا يزيد! ولقد ولدتُ بأسرة ريفية ونشأت، فإذا بأسمائنا جميعًا هى من أسماء آل البيت.. بعفوية ليس وراءها تدبير.

وهكذا لن تجد مجتمعًا شيعيًا تشيع به أسماء آل بيت كما هو الحال فى مصر، التى لم تتعصب لهم فى يوم من الأيام!

* والأزهر الشريف ـ الذى بناه الفاطميون.. والذى ظل لقرنين «حوزة» باطنية إسماعيلية عندما حوله صلاح الدين الأيوبى إلى جامعة لمذهب الأمة ـ لا مذهب الدولة الباطنية ـ سرعان ما سلك ـ فى مناهجه ومقرراته ـ المنهاج الوسطى.. يدرّس مذاهب الإسلام قاطبة ـ السنية منها والشيعية وتحتضن آراء الخلف والسلف.. دونما غلو أو تعصب أو انغلاق على مذهب دون المذاهب الأخرى.

* * *

كان هذا هو تاريخ مصر وشعبها مع المذاهب وتيارات الفكر الإسلامى وهو التاريخ الذى جعلنى دائم التساؤل:

ـ لماذا هذا الحرص الشيعى على زرع الخلايا الشيعية فى أوساط الشعب المصرى؟! ألسنا جميعًا مسلمين؟!

* ثم إن الاستعمار الغربى، الطامع تاريخيًا فى إعادة اختطاف الشرق من التحرير الإسلامى، الذى أنقذ هذا الشرق من القهر الدينى والثقافى والسياسى والحضارى،

الذى دام ـ قبل الإسلام ـ عشرة قرون ـ من «الإسكندر الأكبر» [٣٥٦ـ ٣٢٣ ق م] ـ فى القرن الرابع قبل الميلاد ـ إلى «هرقل» [٦١٠ـ ٦٤١م] ـ فى القرن السابع للميلاد.. إن هذا الاستعمار الغربى كان على مر تاريخه مع الشرق الإسلامى دائب الحرص على زرع الفرقة الدينية والمذهبية والعرقية بين مكونات هذا الشرق، وذلك للنفاذ من هذه الثغرات لاحتواء الشرق وإعادة اختطافه من جديد.

صنع ذلك إبان الغزوة الصليبية [٤٨٩ـ ٦٩٠هـ/ ١٠٩٦ـ ١٢٩١م] مع بعض الطوائف المسيحية وخاصة ذات المذاهب التابعة للكنيسة الغربية ـ وصنع ذلك أيضًا مع بقايا السلطة الفاطمية بمصر.

ولقد جعل هذا الاستعمار الغربى من هذه التفرقة ومن الاختراق من خلال ثغراتها سياسة معلنة منذ غزوته الحديثة، التى قادها بونابرت [١٧٦٩ـ ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م]. فلقد أعلن بونابرت ـ وهو فى الطريق من «مرسيليا» إلى الإسكندرية ـ إنه سيجند ٢٠,٠٠٠ من أبناء الأقليات المسيحية فى مصر ليكونوا ركيزة لمشروعه الاستعمارى الغربى.. ونفذ هذا الإعلان، بتكوين «الفيلق القبطى» الذى قاده المعلم يعقوب حنا [١٧٤٥ـ ١٨٠٠م] الذى سماه الجبرتى [١١٦٧ـ ١٢٧٧هـ/ ١٧٥٤ـ ١٧٢٢م] «يعقوب اللعين».. ذلك الذى عهد إليه الجنرال الفرنسى «كليبر» [١٧٥٣ـ ١٨٠٠م] ـ الذى قاد الغزوة بعد بونابرت «أن يفعل بالمسلمين ما يشاء فأعلن انقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين»[1].

ومن على أسوار «عكا» وأثناء حصار بونابرت لها [١٢١٣هـ/ ١٨٩٩م] أصدر نداءه إلى يهود العالم، كى يكونوا ركيزة ثانية من ركائز مشروعه لاستعمار الشرق، ملوحًا لهم بإقامة الكيان الصهيونى على أرض فلسطين.

ولقد مارس الاستعمار الفرنسى فى المشرق هذا الدور مع الموارنة الكاثوليك.. وفى المغرب مع الأمازيع المسلمين!

(١) الجبرتى [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] جـ٥ ص ١٣٦ تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقى، سيد إبراهيم سالم. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

ولوضوح هذه المخططات الغربية فى نشر الفوضى الدينية والمذهبية والعرقية فى صفوف الأمة العربية الإسلامية لتحقيق «الهشاشة» التى تسهل للاستعمار اختراق الوحدة الإسلامية كان التساؤل الدائم:

ـ لماذا يصنع إخواننا الشيعة ـ بنشر التشيع فى المجتمعات السنية ـ هذا التخلخل الاجتماعى، والتمزق المذهبى، والتناصر الطائفى، فيحققون هذه المقاصد الاستعمارية وهم المسلمون الذين سيضارون ـ مع سائر أبناء الأمة ـ من هذه الطائفية التى تخلخل وحدة المجتمعات؟! وإذا كنا جميعًا مسلمين، فما المكسب الإسلامى من وراء تحويل المجتمعات ذات النسيج الاجتماعى والمذهبى الموحد والقوى كمصر مثلًا إلى مجتمعات طائفية هشة وقلقة وسهلة الاختراق ـ مثل العراق ولبنان على سبيل المثال؟!

* ومع أن حصيلة التبشير الشيعى فى المجتمعات السنية كانت ولا تزال هزيلة ـ فهى فى أحسن الحالات تخلق مجموعات متناقضة مع محيطها الاجتماعى والمذهبى تستنفد أغلب طاقاتها فى صراعات عبثية مع محيطها ـ فلقد استمر إخواننا الشيعة فى بذل هذه الجهود والأموال والأعمار فى هذا الميدان حتى هذه اللحظات.

إن مصر قد احتضنت كل المذاهب الفقهية الإسلامية فى إصلاحاتها التشريعية منذ العقود الأولى للقرن العشرين.

واحتضنت حركة التقريب بين الشيعة والسنة منذ أربعينيات القرن العشرين. وأصدرت موسوعة الفقه على المذاهب الإسلامية الثمانية المعتمدة الأصول ـ الشافعى، والحنفى، والمالكى، والحنبلى، والجعفرى، والزيدى، والإباضى، والظاهرى ـ مع بقائها فى الفلسفة وعلم الكلام ـ سنية أشعرية ما تريدية ـ أى أنها قد التزمت الوسطية الجامعة فى الفقة وفى علم الكلام جميعًا.. ورفضت غلو التعصب لمذهب فقهى واحد أو التعصب الكلامى ضد المذاهب غير السنية.

وهى التى أحيت منذ خمسينات القرن العشرين تراث الاعتزال، فحققته ونشرته، بعد أن صورت مخطوطاته من مكتبات اليمن سنة ١٩٥١م.

* * *

ولأننى ابن هذه الوسطية الإسلامية الجامعة، فلقد احتضنت فى مشروعى الفكرى كل مذاهب الإسلام وجميع أعلام الإسلام ـ باحثًا عن الأرض المشتركة التى توحد الأمة ـ وهى واسعة والحمد لله ـ وداعيًا إلى رفض الغلو الذى يمزق الصفوف ويخلخل وحدة المجتمعات.

ففى آواخر ستينيات القرن الماضى، جمعت وحققت ونشرت [رسائل العدل والتوحيد] وفيها حرصت على أن تضم إبداعات أعلام أهل السنة والجماعة، والشيعة الزيدية، والشيعة الإثنى عشرية، والمعتزلة وقدمت لها بدراسة مستفيضة تكشف اتساع مساحة الوفاق والاتفاق والأرض المشتركة بين هذه المذاهب والتيارات وذلك فى دعوة صريحة لاجتماع الأمة على ما يوحدها.. والابتعاد عن ما يفتح بين صفوفها الثغرات التى ينفذ منها الأعداء المتربصون.

وفى أوائل السبعينيات ـ من القرن الماضى ـ نشرت دراسات عن أعلام الفكر والتاريخ الإسلامى فى كتابى [مسلمون ثوار] ـ وفيه حرصت على أن تتجاور الدراسات التى كتبتها عن الأعلام والأئمة الذين يمثلون مذاهب الأمة وتياراتها الفكرية المتعددة.

وحتى عندما كتبت عن الدولة الفاطمية ـ إبان احتفال مصر بألفية القاهرة [١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م] ـ الدراسة التى نشرتها بكتابى [عندما أصبحت مصر عربية إسلامية] حرصت على إنصاف الإنجازات الحضارية التى أبدعتها الدولة الفاطمية بمصر.. وانتقدت التعصب المذهبى الذى غض من شأن هذه الصفحة من صفحات التاريخ المصرى.. وذلك رغم أن العقيدة الباطنية الغنوصية لهذه الدولة قد مثلت ـ برأى جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ـ ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ـ ١٨٩٧م] السبب والبداية فى الانحطاط الذى أصاب الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامى.. فلقد قال الأفغانى فى ذلك:

«إنه لما كان القرن الرابع الهجرى، ظهر النيشريون ـ[الطبيعيون الدهريون]ـ بمصر تحت اسم الباطنية وخزنة الأسرار الإلهية، وانبث دعاتهم فى سائر البلاد الإسلامية، خصوصًا بلاد إيران وكان إذا سقط الساقط من المغرورين فى حبالة مرشدهم الكامل

فأول ما يلقيه المرشد قوله: إن الأعمال الشرعية الظاهرة (كالصلاة والصيام ونحوها) إنما فرضت على المحجوبين دون الوصول إلى الحق، والحق هو المرشد الكامل، فحيث إنك وصلت إلى الحق فإليك أن تلقى عن عاتقك ثقل الأعمال البدنية! فإذا قرر المرشد أصول الإباحة فى نفوس أتباعه التمس لهم سبيلًا لإنكار الألوهية وتقرير مذهب النيشرية (الدهرية)..»[1].

ولقد اعتبر الأفغانى هذه العقائد الباطنية المادية للفاطميين بداية الانحطاط ـ وسببه ـ فى التاريخ الإسلامى، فقال:

«لقد ذهب المؤرخون إلى أن بداية الانحطاط فى سلطة المسلمين كان من يوم ظهور حرب الصليب، والأليق أن يقال إن ابتداء ضعف المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد النيشرية (الدهرية) فى صورة الدين وسريان هذه السموم القاتلة فى نفوس أهل الدين الإسلامى..»[2].

فهو يجعل الهزيمة أمام الصليبيين نتيجة لشيوع العقائد الباطنية التى أشاعها الإسماعيليون الباطنية فى عالم الإسلام!

* وبسبب من هذا التوجه الفكرى الوسطى والجامع، الذى دعوت فيه إلى التمييز بين الدائرة الإسلامية بكل مكوناتها المذهبية، لنكون رفقاء على مذاهبها ومكوناتها، وبين دائرة العداء للإسلام لنكون أشداء فى مواجهة هؤلاء الأعداء، وذلك عملًا بالمنهاج القرآنى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

بسبب هذا التوجه الفكرى قامت علاقات المودة الفكرية والتعاون العلمى بينى وبين العديد من علماء الأمة، على اختلاف مذاهبهم ومنهم الشيعة الزيدية، والإثنى عشرية على وجه الخصوص.. وكنت دائم الحرص على الإفضاء بآرائى هذه فى الحوارات مع هؤلاء العلماء.

(١) الأفغانى [الأعمال الكاملة]، ص ١٥٨، ١٥٩، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

(٢) المصدر السابق ص ١٦١.

لقد جمعت بينى وبين الإمام الشيعى العظيم الراحل محمد مهدى شمس الدين [١٣٥٥ـ١٤٢٢هـ/ ١٩٣٦ـ٢٠٠١م] مودة فكرية عميقة، سجلها فى مراسلات كتبها إلىَّ، ومنها رسالته النفيسة والمطولة عن كتابى عن الدكتور/ عبد الرزاق السنهورى باشا [١٣١٣ـ ١٣٩١هـ/ ١٨٩٥ـ ١٩٧١م] ـ [الدكتور عبد الرزاق السنهورى: إسلامية الدولة والمدنية والعمران].

وقامت هذه المودة ـ مع الإمام العظيم آية الله محمد حسين فضل الله.. ومع العالم الفاضل آية الله سيد هادى خسرو شاهى ـ الذى جمعنى وإياه الاهتمام بتراث جمال الدين الأفغانى منذ ستينيات القرن العشرين ـ وكذلك كانت المودة ـ الفكرية والإنسانية ـ مع الدكتور السيد محمد خاتمى.

* وفى زيارتى الثانية لإيران سنة ٢٠٠١م، ضمن وفد مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ـ للمساهمة فى الاحتفال بإمامى التقريب بين الشيعة والسنة ـ الإمام البروجردى والإمام الشيخ محمود شلتوت [١٣١٠ـ ١٣٨٣هـ/ ١٨٩٣ـ ١٩٦٣م] ـ كانت لى محاورات مع العديد من علماء الشيعة حول مخاطر خلخلة وحدة النسيج المذهبى والثقافى فى المجتمعات السنية، بزرع الخلايا الشيعية، وكيف أن العقل والحكمة يقضيان بالامتناع عن خلخلة وحدة المجتمعات الإسلامية ـ السنية والشيعية منها على السواء.. فلولا الوحدة الشيعية للشارع الإيرانى لما نجحت الثورة الخمينية فى إيران [١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م] ولولا الوحدة المذهبية للمجتمعات السنية لما تصدت هذه المجتمعات لأعداء الأمة الصليبيين والتتار والاستعمار الغربى على مر تاريخ الإسلام.

* كذلك دارت حوارات حول الإقصاء الشيعى لأهل السنة فى إيران، فالزرادشت المجوس، واليهود، والنصارى لهم ممثلون فى مجلس الشورى الإيرانى.. بينما أهل السنة الإيرانيون ـ بملا بينهم العديدة محرومون وحدهم من هذا الحق!

ولقد قلت لبعض علماء الشيعة فى طهران ـ فى هذه المحاورات: أليس غريبًا ـ بل وشاذًا أن يكون للمسلمين السنة مسجد ومركز إسلامى فى روما ـ حيث الفاتيكان ـ بينما هم محرومون من أن يكون لهم مسجد يقيمون فيه صلاة الجمعة فى طهران؟!

وفى المؤتمر، صارحت علماء الشيعة بأن جهود التقريب ـ التى انطلقت من القاهرة فى أربعينيات القرن العشرين على أهميتها وعظمة العلماء الذين نهضوا بها ـ إنما كان حصادها دون المطلوب، فهى قد ركزت على التقريب بين المذاهب الفقهية، التى لا تمثل أى إشكال فى علاقة الشيعة بالسنة.. وحتى فى هذا الميدان كان الشيعة «يأخذون» دون أن «يعطوا» بينما أغفلت دعوة التقريب هذا الخلاف الجوهرى، وهو «نظرية الإمامة» وما أفرزه الخلاف حولها من تكفير الشيعة للصحابة وأهل السنة والجماعة ـ وتكفير الوهابية ـ أو بعضهم ـ للشيعة.. وللصوفية. بل وللأشعرية أحيانًا!

* والأمر الغريب ـ والمؤسف ـ أن هذه المحاولات والمكاشفات الموضوعية والمخلصة قد أثمرت ـ أحيانًا ـ ثمرات سلبية!

فمجلة «التوحيد» التى تصدر فى طهران ـ والتى كانت تصلنى بالبريد ـ قد انقطع وصولها بعد هذه المحاورات!

ومجلة «نزاثنا» ـ التى تصدر فى «قم» والتى كانت تصلنى بالبريد ـ قد انقطع وصولها بعد أن أعلنت استغرابى واستنكارى من سلسلة المقالات الافتتاحية التى نشرتها عن أعداء السنة النبوية، والتى جعلت من أبى بكر الصديق العدو الأول للسنة النبوية.. ومن عمر بن الخطاب عدوها الثانى!

* ورغم ذلك.. استمرت علاقات المودة الفكرية والعلمية مع العديد من علماء الشيعة ومفكريهم ومناضليهم، واستمر الحوار الموضوعى حول السبل الحقيقية للتقريب الحقيقى بين الشيعة والسنة حتى هذه اللحظات.

* * *

لكن الحلم الشيعى بتحويل السنة إلى التشيع ـ وكأنه الهداية من الكفر إلى الإيمان قد ظل قائمًا ودائبًا رغم تفاهة الحصاد حتى هذه اللحظات!

لقد نجحوا ـ بمصر ـ فى استقطاب «خطيب زاوية» احترف سب الصحابة وأمهات المؤمنين على منبر «الزاوية» سبًا مقذعًا! ثم انتهى به المطاف إلى «قم» يزيف فيها

على إخواننا الشيعة القصص الخرافى عن تحول علماء السنة إلى المذهب الإثنى عشرى! وهم ينشرون له هذه «الحكايات» فى مجلدات!

ونجحوا ـ أخيرًا ـ فى استقطاب طبيب ـ سموه «المتحدث الرسمى باسم الشيعة فى مصر» احترف الكتابة فى سب الصحابة والهجوم على الذين حرروا مصر ـ بالفتوحات الإسلامية ـ من الروم البيزنطيين، وأنقذوا النصرانية المصرية من الإبادة وفتحوا أبواب مصر أمام دين الإسلام.. وفى محاضرة له، لمح فيها إلى هذا السباب ـ أفلت يومئذ بأعجوبة من تأديب الجمهور!

ولقد كتب هذا «المتحدث الرسمى باسم الشيعة فى مصر» عن البطل التاريخى للإسلام صلاح الدين الأيوبى فوصفه بأنه «هولاكو الدين الأيوبى» بينما دافع بحرارة عن الدولة الفاطمية الإسماعيلية ـ التى يكفرها الإثنى عشرية ـ الذين ينطق باسمهم على ضفاف النيل[1] الأمر الذى يسيء إلى الشيعة والتشيع أبلغ الإساءات!

* * *

لذلك كله، كانت سعادتى الغامرة عندما قرأت الكتاب الفذ والعمدة للعَالِم الفاضل الدكتور أحمد الكاتب عن «تطور الفكر السياسى الشيعى من الشورى إلى ولاية الفقيه» ـ فى طبعته اللندنية الأولى سنة ١٩٩٧م.

وكانت سعادتى عندما زارنى وطلب منى أن أقدم لطبعة مصرية لهذا الكتاب.. فرحبت وقدمت لطبعته التى صدرت بالقاهرة سنة ٢٠٠٧م.

وكانت سعادتى أيضًا ـ عندما طلب منى أن أكتب وجهة نظر سنية لكتابه الجديد «السنة والشيعة: وحدة الدين واختلاف السياسة والتاريخ».

لقد وجدت فى كتابات هذا العالم الجليل الدكتور أحمد الكاتب الموقف الشيعى المخلص لوحدة الأمة الإسلامية: تلك الوحدة التى تسع التعددية المذهبية، التى هى تنوع فى إطار وحدة جوامع الإسلام الخمسة:

(١) انظر صحيفة [القاهرة] عدد ٣٦٨ فى ١ـ ٥ـ ٢٠٠٧م.

١ ـ وحدة العقيدة.

٢ ـ وحدة الشريعة.

٣ ـ وحدة الحضارة.

٤ ـ وحدة الأمة.

٥ ـ وحدة دار الإسلام.

وجدت فيه وفى كتاباته شجاعة العَالِم ـ الذى ينتمى إلى مذهبه الشيعى، ويحتل بين علمائه مكانة مرموقة. ومع ذلك يبحث عن الأرض المشتركة الجامعة بين السنة والشيعة لإعادة الوحدة لأمة الإسلام.

وعندما يقارن المرء بين هذا المشروع الفكرى الذى يتبناه الدكتور أحمد الكاتب وبين مشروع المراجع والأحزاب التى تحالفت مع اليمين الدينى للمسيحية الصهيونية والمحافظين الجدد فى الأمبريالية الأمريكية والغربية والصهيونية لغزو العراق وتأجيج نيران الصراع المذهبى والطائفى بين الشيعة والسنة، ندرك الفارق الجوهرى والبون الشاسع بين «طوق النجاة» الذى يقدمه الدكتور أحمد الكاتب، وبين «العار.. والدمار» الذى تصنعه الطائفية ـ سواء السلفية منها أو الشيعية ـ على أرض العراق.

إن علينا أن نتحلى بالأمانة العلمية والشجاعة الفكرية التى تجعلنا نعلن:

إن المأساة العراقية قد مثلت أكبر الزلازل التى أصابت العلاقات الشيعية السنية منذ قرون، فهناك أحزاب شيعية تكونت وتدربت وتسلحت فى ظل ولاية الفقيه الشيعية الإيرانية.. ثم تواطأت وتحالفت مع الصليبية الأمريكية، المدفوعة بالصهيونية اليهودية فى القضاء على قوة العراق ووحدته.. ثم عادت هذه الأحزاب مع الغزو الأمريكى للعراق سنة ٢٠٠٣م ودخلت عمائم كبيرة ـ ومعها الميليشيات التابعة لها ـ إلى بغداد على ظهور دبابات الأمريكان وطائراتهم!

وهناك مراجع شيعية كبرى يقلدها الملايين من عامة الشيعة، صمتت صمت الرضا عن الغزو الأمريكى.. وأفتت بعدم المقاومة فأفسح أنصارها الطريق وفتحوا

أبواب الجنوب العراقى أمام جحافل الغزو الزاحفة من الكويت ـ بينما أغلق البرلمان التركى فى تركيا العلمانية، أبواب شمال العراق أمام الغزاة الأمريكان.

ومنذ اليوم الأول لاحتلال العراق ـ فى إبريل سنة ٢٠٠٣م ولقيام المقاومة السنية للغزو والاحتلال، قام التنسيق الكامل والتعاون الدائم بين هذه المراجع الشيعية الكبرى ومعها الأحزاب الشيعية وبين سلطات الاحتلال.. لا ضد المقاومة السنية وحدها، وإنما أيضًا ضد المقاومة الشيعية التى أبداها ـ فى النجف ـ تيار التشيع العربى التيار الصدرى ضد جيوش الاحتلال حتى لقد ظهر التمايز فى داخل الصف الشيعى بين ما يسمى بـ«التشيع الصفوى» وبين «التشيع العربى».

ولقد شهدت مذكرات «بول بريمر» أول حاكم أمريكى للعراق المحتل على هذه العلاقات بين هذه المراجع الشيعية وبين الغزاة الأمريكان، والتى كما قلنا مثلث أكبر زلزال أصاب العلاقات الشيعية السنية فى الصميم.

* لقد مثل «بول بريمر» الذى حكم العراق المحتل ما بين ١٢ مايو سنة ٢٠٠٣ و ٢٨ يونيو ٢٠٠٤م «المندوب السامى الأمريكى فى العراق المحتل» أو «ماكارثر بغداد» كما سماه البعض.

ولقد أنجز ـ خلال هذه الشهور الأربعة عشرة ـ تدمير كل مقومات العراق المادية والبشرية.

* وفى مذكرته التى نشرها بعنوان «عام قضيته فى العراق» والبالغة صفحاتها بالترجمة العربية التى قام بها عمر الأيوبى ونشرتها دار الكتاب العربى بيروت سنة ٢٠٠٦م ـ ٤٩٦ صفحة.. فى هذه المذكرات نقف أمام العديد من الوقائع ذات الدلالات الخطيرة فى موقف آية الله العظمى السيد على السيستانى من الاحتلال الأمريكى للعراق.

١ ـ فالسيستانى وهو أكبر المراجع الشيعية المعاصرين ـ لم يصدر فتوى بمقاومة الاحتلال للعراق المسلم ـ كما صنع أسلافه مراجع الشيعة مع الإنجليز سنة ١٩٢٠م وإنما ـ على العكس من ذلك ـ رفض إصدار مثل هذه الفتوى حتى عندما طلبها منه الرئيس السورى بشار الأسد.

ولقد كتب بريمر ـ فى مذكراته ص ٢٥٤:

«لقد أذهلنى موفق الربيعى بمعلومة أخرى، فقد أخبره السيستانى بأن الرئيس السورى بشار الأسد بعث برسالة سرية تقترح أن يصدر آية الله فتوى تدعو إلى الجهاد ضد الائتلاف» [أى الاحتلال]».

فالرجل لم يمتنع ـ فقط ـ عن الإفتاء بمقاومة الاحتلال وإنما «بلَّغ» بريمر بفحوى الرسالة السرية للرئيس السورى بشار الأسد!!

٢ـ ولقد كتب بريمر ـ ص ٧٥:

«إن القادة الشيعة بمن فيهم آية الله العظمى السيستانى، قد شجعوا أتباعهم على التعاون مع الائتلاف منذ التحرير»!!

٣ـ وعندما شذ موقف التيار الصدرى المعبر عن التشيع العربى عن هذا الموقف ـ موقف التشيع الصفوى المتحالف مع الغزو والاحتلال.. تعاونت المرجعية الشيعية ومجلس الحكم ـ الذى أقامه بريمر بالاتفاق مع المرجعية ضد التيار الصدرى..

وكتب بريمر ـ فى مذكراته ص ٤٠ يقول:

«تلقيت تحذيرًا من مجلس الحكم بأن مقتدى الصدر يستعد لإصدار فتوى أثناء صلاة الجمعة يدعو فيها إلى الجهاد ضد قوات التحالف.. وأن أنصاره يحاولون إثارة الفوضى فى كركوك».

ثم يعود بريمر للتحدث عن موقف السيستانى من التيار الصدرى إبان انتفاضة الصدر بكربلاء، واعتزامه إنشاء حكومة فى ١٠ أكتوبر سنة ٢٠٠٣م ـ فيقول ص ٢٤٥، ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٣:

«إن آية الله يخشى التهديد الذى يشكله مقتدى، وإن الخيار المفضل للسيستانى هو أن لا يبقى مقتدى، وافترضت بذلك أنه يريد أن يقتل الشاب..» وعلمنا أن السيستانى أرسل ٢٠٠ مسلح إلى كربلاء لمواجهة قوات مقتدى، وأفيد عن أن بعض مقاتلى السيستانى أعضاء فى ميليشيات المجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق ـ فيلق بدر. وعبر الوسطاء سألت آية الله السيستانى عن رأيه فى إجراء محادثات مباشرة مع

مقتدى؟ فجاء رده سريعًا وواضحًا: نحن لا نعرف سبب التفاوض مع مقتدى أو فائدة ذلك».

ولقد انتهى الأمر بترك مقتدى الصدر وتياره لقوات الاحتلال وميليشيات بدر، فتم «تأديب» مقتدى وأنصاره، بينما السيستانى يقوم برحلة علاج فى لندن!

٤ ـ وفى البرهنة على موقف السيستانى من الاحتلال وتعاونه مع بريمر لتحقيق «الأهداف المشتركة» نطالع فى مذكرات بريمر:

أ ـ فى ص ٢٧٩ مكالمة هاتفية من وزير الخارجية الأمريكى «كولن باول» مع بريمر يقول فيها:

«عليك أن تحصل على مباركة السيستانى، أرسل أحدهم إلى النجف أو توجه إليه بنفسك إذا دعت الضرورة، لا يمكن أن أطلب من حكومتى المصادقة على مسار بدون بعض الضمانات بأن النجف (السيستانى) موافق عليه!».

ب ـ وحتى يتم التعاون بين السيستانى وسلطات الاحتلال دون إخلال بهيبة المرجعية أمام الجمهور ـ وخاصة التيار الصدرى تم الاتفاق، الذى كتب عنه بريمر ص٥٢ ـ فقال:

«ولقد أبلغنا السيستانى بعد التحرير مباشرة، ومن خلال قنواته الخاصة، أنه لن يقابل أحدًا من التحالف ـ ولذلك لم أطالب بعقد اجتماع شخصى معه».

وقال لى «هيوم» الذى يفهم العالم العربى جيدًا ـ «إن السيستانى لا يمكن أن يقبل بأن يُظهر علانية بأنه متعاون مع قوة احتلال، كما أنه يريد أن يحمى جماعته من آخرين من أمثال مقتدى الصدر. ولكنه سيعمل معنا، فنحن نشترك معه فى الأهداف ذاتها».

ج ـ ولقد استعمل بريمر ثلاث قنوات للاتصالات المنتظمة مع آية الله السيستانى:

الأولى: عبر موفق الربيعى مستشار الأمن القومى فى مجلس الحكم.

الثانية: عبر آية الله حسين إسماعيل الصدر ـ المقرب من السيستانى.

والثالثة: عبر عماد ضياء الخرسا ـ وهو أمريكى الجنسية، عراقى الأصل، شيعى

المذهب كان مسئولًا عن لجنة إعادة الإعمار الأمريكى للعراق وهو الذى قال لبريمر ـ قبل إحدى زياراته للسيستانى: «إن آية الله العظمى معجب بك، ويحترمك، وهو يقدر الفرصة للعمل معك من أجل مستقبل العراق».

د ـ ولقد تحدث بريمر ـ فى مذكراته ص ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٨ـ عن مراسلاته مع السيستانى فقال:

«وبينما كانت وسائل الإعلام العربية والأجنبية تتحدث عن الصلات المقطوعة بيننا وبين السيستانى، فإننى كنت على اتصال مستمر معه حول القضايا الحيوية، من خلال الوسطاء».

وكان هيوم ـ [هوران السفير والخبير فى الثقافة واللغة العربية] محقًا فى تحليله، فقد أرسل لى السيستانى ذات يوم يقول:

«إن عدم لقائه بنا ليس ناتجًا عن عداء للتحالف، وإنما لأنه يعتقد أنه بذلك الموقف يمكن أن يكون أكثر فائدة لتحقيق أهدافنا المشتركة وبأنه سيفقد بعض مصداقيته لدى أنصاره لو تعاون بشكل علنى مع مسئولى التحالف، كما فعل بعض العلمانيين من الشيعة والسنة أو رجال دين شيعة ذوى مرتبة منخفضة».

لقد تبادلت مع السيستانى الرسائل بشكل منتظم حول الوضع الأمنى فى النجف، ولا سيما فى أغسطس سنة ٢٠٠٣م حين أصبح مقتدى «الصدر» يمثل تهديدًا لنا.

وخلال الفترة من يوليو إلى منتصف سبتمبر فقط، تبادلت أكثر من عشر رسائل مع السيستانى الذى عبر، غير مرة، عن امتنانه لقوات التحالف لما فعلته للشيعة والعراق.

ولقد بعثت رسالة تحذير إلى السيستانى، كما أرسلت بعض مساعدى للقاء كبير المسئولين الأمنيين فى النجف لتقديم المساعدة لحمايته خلال احتفالات عاشوراء، حيث تزدحم المدينة بحوالى مليونى زائر [عندما قدم مسئول محطة الاستخبارات فى وقت متأخر من يوم ٢٨ فبراير سنة ٢٠٠٣م ما وصفه بأدلة ذات مصداقية تقول أن الزرقاوى يخطط لاغتيال السيد السيستانى].

وفى يوم ٨ يونيو سنة ٢٠٠٤م اعتمد قرار مجلس الأمن ١٤٥٦ بالإجماع، وتضمن ترحيبًا بالحكومة الانتقالية فى العراق، باعتبارها تمثل مرحلة جديدة لانتقال العراق إلى حكومة منتخبة بشكل ديمقراطى، بالإضافة إلى تأييد صريح للجدول الزمنى المنصوص عليه فى قانون الإدارة المؤقت ولتنظيم الانتخابات فى ٣١ يناير سنة ٢٠٠٥م وأرفق القرار برسائل من «إياد علاوى» والوزير «كولن باول» تحدد دور قوات التحالف متعددة الجنسيات [وهو القرار الذى قنن الاحتلال الأمريكى للعراق].

وبعد ظهر ذات اليوم أتى ضياء [عماد ضياء الخرسا] برسالة أكثر تعبيرًا عن الرضا من آية الله السيستانى وبدا أنه كان «مسرورًا» بما آلت إليه الأمور فى العتبات المقدسة، وبالحكومة الجديدة، ورئيس الوزراء ولكون قرار الأمم المتحدة لم يذكر صراحة قانون الإدارة المؤقت، وأيد موعد تنظيم الانتخابات فى يناير سنة ٢٠٠٥م وختم رسالته بقوله: «إن حوارى مع السفير بريمر خلال العام الماضى كان مفيدًا للغاية وآمل أن يستمر هذا».

«ورغم أن آية الله كان رافضًا للالتقاء بسلطات الاحتلال فإننى تبادلت معه طيلة الشهور الأربعة عشر الماضية ما يزيد على ٣٠ رسالة عبر وسطاء عديدين، وهى رسائل اعتبرها من ناحيتى أيضًا «مفيدة جدًّا».

* * *

هكذا تحدث «بريمر» المندوب السامى الأمريكى فى العراق المحتل ـ الذى قاد تدمير العراق ـ الدولة بجميع مؤسساتها من الجيش إلى شرطى المرور ـ وتدمير كل مقومات الحياة بالنسبة للشعب العراقى هكذا تحدث عن «التحالف» و«التعاون» مع أكبر المراجع الشيعية ومع الأحزاب الشيعية ذات التوجه الإيرانى.

ولقد علق مكتب آية الله السيستانى على ما أورده بريمر فى مذكراته هذه عن العلاقات والمراسلات بينه وبين السيستانى، فلم ينكر ما ذكره بريمر من وجود قنوات الاتصال وإن كان قد نفى وجود رسائل «مكتوبة» ـ وعلى وجه الدقة تساءل لماذا لم ينشرها بريمر إذا كانت فى حوزته؟!

لقد جاء فى «تعقيب» مكتب السيستانى المنشور على موقع سماحته «منتدى الفكر العراقى فى ١٤ شوال سنة ١٤٢٧هـ/ ٧ نوفمبر سنة ٢٠٠٦م».

«وإن سماحة السيد دام ظله بحكم موقعه ومسئوليته فى رعاية الأمة كان ولا يزال يستقبل كافة الشخصيات العراقية ـ السياسية والدينية والثقافية والعشائرية وغيرهم يستمع إلى وجهات أنظارهم واستفساراتهم ويستمعون إلى رؤاه وتوجيهاته.

وكان فى عداد زواره خلال المدة التى حكم العراق فيها السفير بريمر أعضاء من مجلس الحكم ومجلس الإعمار وسائر المسئولين فى الحكومة العراقية، ومن هؤلاء من كان ينقل إلى سماحته موقف وآراء وتصورات سلطة الاحتلال وممثلها بريمر، بتكليف منه أو من تلقاء نفسه، وكان سماحته يعلق على ما يسمعه منهم فى كل القضايا التى لها مساس بالمصالح العليا للشعب العراقى.

كقضية الدستور والانتخابات وقانون إدارة الدولة وتشكيل الحكومة المؤقتة وغيرها.

ولم تكن هناك (رسائل متبادلة) بين المرجعية الدينية وبين بريمر. ولو كان قد تلقى من سماحة السيد دام ظله رسالة واحدة لكان ينبغى له أن يثبتها بنصها فى كتابه توثيقًا لما ادعاه».

* * *

تلك هى وقائع العلاقة بين المرجعية الدينية العظمى وبين بريمر ـ ممثل هولاكو القرن الواحد والعشرين فى بغداد ـ كما ذكرها بريمر فى مذكراته [عام قضيته فى العراق].

إن آية الله السيستانى لم يكن ـ ولا يمكن أن يكون ـ عميلًا لأمريكا وإنما استعان الرجل بالاحتلال الأمريكى لتحكم الشيعة العراق.. أو تحكم معظمه، بعد تفتيته بالفيدرالية.

وإن أمريكا لم تكن فى خدمة السيستانى وإنما استعانت به ـ وبالأحزاب الشيعية الموالية لمرجعيته ـ على احتلال العراق.

لقد جمعت «المصالح التكتيكية» بين الطرفين ـ فكان الزلزال الذى أصاب العلاقات الشيعية السنية فى الصميم وإن بقيت التمايزات والاختلافات حول «المصالح الاستراتيجية» لدى كل طرف من الأطراف.

لقد اعتبرت المرجعية الشيعية العظمى السيستانى الاحتلال الأمريكى للعراق تحريرًا لبلاد الرافدين.. وذلك على الرغم من أن العراق ـ قبل الاحتلال:

ـ كان أكثر من ثلث سكانه ٢,٠٠,٠٠ (مليونى أسرة) متزوجين زواجًا مختلطًا يجمع بين السنة والشيعة.

ـ كان أكثر من نصف الجيش العراقى الذى سرحه بريمر ـ من الشيعة.

ـ وكان ثلثا رؤساء الفروع الحزبية بحزب البعث الحاكم ـ من الشيعة.

ـ حتى أن نسبة كبيرة من القيادات البعثية التى اختفت عند الاحتلال والتى رصدت أمريكا المبالغ الطائلة لمن يرشد عنها، كانت من الشيعة أيضًا.

* لكن الاحتلال الأمريكى قد استعان بالأحزاب الشيعية التى تكونت فى إيران.. والتى تدربت ميليشياتها وتسلحت فى إيران.. بل والتى حاربت لحساب إيران ضد العراق لثمانى سنوات [١٩٨٠ـ ١٩٨٨م]، أى ضد الجيش العراقى ذى الأغلبية الشيعية!! استعان الاحتلال «بالتشيع الصفوى» ومرجعيته العظمى ـ ضد أهل السنة وضد «التشيع العربى» ـ التيار الصدرى ـ لتدمير العراق وتفتيته باعتبار هذا القصد هو المحقق لمخططات الفرقاء المختلفين: أمريكا والصهيونية وإيران!!

فكان الزلزال الأشد الذى أصاب العلاقات الشيعية السنية على أرض العراق ـ وخارج أرض العراق.

* * *

* لكن الذى لم يستطيع هذا المخطط تحقيقه هو قمع المقاومة العراقية لجيوش الاحتلال.. ولقد كتب بريمر فى مذكراته ص ٥٧:

«وعبرت ـ فى كتابى للرئيس«بوش» عن عجزنا عن خلق بيئة آمنة، فقد أثبتت

المجموعات المتمردة أنها أكثر تنظيمًا، وأن اختراقها أصعب مما كنا نتوقع.. لقد استطاع الإرهابيون [هكذا يسمى المقاومة] ـ أن يحولوا العراق إلى الخط الإمامى لحربهم الشيطانية!».

وصدق الله العظيم ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

* كذلك سعت هذه المراجع إلى تمزيق النسيج الوطنى للشعب العراقى، وذلك بإحلال «الفصل المذهبى» محل الوحدة الوطنية، فجمهور غفير من أبناء الشعب العراقى شيعة وسنة ـ قد تجاوز «الفصل المذهبى» إما بالاستنارة والتسامح أو للعلاقات القبلية والعشائرية، فقامت المصاهرات والزيجات المشتركة ـ الشيعية والسنية ـ بين ثلث أبناء الشعب العراقى وبناته ـ مليونى أسرة فإذا بهذه المراجع تفتى بأن هذا الزواج المختلط إنما «يغضب الله!»، الأمر الذى هدد أكثر من مليونى أسرة عراقية قائمة على الزواج المختلط بين السنة والشيعة ـ وهو ما يمثل نحو ثلث عدد أسر المجتمع العراقى» بالدمار، الأمر الذى أسهم فى زيادة التوتر الطائفى، والفصل المذهبى، والقتل والتهجير على أسس مذهبية وطائفية، وأحدث ما يشبه «غسيل الدماغ» عند البعض، بل ودفع العديد من الأطفال ـ فى هذه الأسر المشتركة والمختلطة ـ إلى محاولات الانتحار للحيلولة دون الانهيارات الأسرية التى دعت إليها فتاوى هذه المراجع المتعاونة مع الأمريكان»[1].

فالاحتلال بواسطة ما يسمى «بالعملية السياسية» يقنن فى الدستور الذى أشرف «بول بريمر» على وضعه لتمزيق وحدة الأرض العراقية بما يسمى «بالفيدرالية» والمراجع الشيعية المتعاونة مع الاحتلال تبارك ذلك وتفعله على أرض الواقع بإقامة «الفصل المذهبى» بين أبناء الشعب العراقى.

(١) انظر ما نشرته صحيفة [الأهرام] المصرية ١٠٤ـ ١١ـ ٢٠٠٦م فى صفحتها الأولى تحت عنوان «طلاق ثلث العراقيين تحاشيًا لغضب الله»، وذلك نقلًا عن «الشبكة الاتحادية الإقليمية للأبناء (إيرين) ـ التابعة للأمم المتحدة ـ والتى نقلت ذلك عن (جمعية السلام للعراقيين) ـ وهى إحدى الجمعيات الأهلية بالعراق.

* كذلك علينا أن ندرك ـ ونعلن ـ أن ما يشهده العراق اليوم ـ بمباركة هذه المراجع ـ هو التنفيذ لمخطط «إمبريالى صهيونى» قديم، رسمه ـ لكل العالم الإسلامى وأعلن عنه المستشرق الصهيونى «برنارد لويس BERNARD LEWIS ونشرته مجلة وزارة الدفاع الأمريكية ـ البنتاجون INTELLIGENCE RESEARCH PROJECT عند قيام إسرائيل فى أربعينات القرن العشرين ـ وفى هذا المخطط التفتيتى للعالم الإسلامى دعا «برنارد لويس» إلى إعادة رسم الخريطة السياسية لعالم الإسلام ـ من باكستان إلى المغرب ـ وإنشاء اثنين وثلاثين «كيانًا سياسيًا» جديدًا على أسس دينية ومذهبية وعرقية وقال:

«إن الصورة الجغرافية الحالية للمنطقة لا تعكس حقيقة الصراع، وإن ما هو على السطح يتناقض مع ما هو فى العمق:

على السطح كيانات سياسية لدول مستقلة، ولكن فى العمق هناك أقليات لا تعتبر نفسها ممثلة فى هذه الدول، بل ولا تعتبر أن هذه الدول تعبر عن الحد الأدنى من تطلعاتها الخاصة.

ويرى الإسرائيليون أن جميع هذه الكيانات لن تكون فقط غير قادرة على أن تتحد، بل سوف تشلها خلافات لا انتهاء لها على مسائل حدود وطرقات ومياه ونفط وزواج ووراثه... إلخ.

ونظرًا لأن كل كيان من هذه الكيانات سيكون أضعف من إسرائيل، فإن هذه ستضمن تفوقها لمدة نصف قرن على الأقل».

وفى تطبيق هذا المخطط على العراق..قالت المنظمة الصهيونية العالمية فى [استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات] التى نشرتها مجلتها [الاتجاهات] «كيفونيم» KIVUNIM فى عدد ١٤ نوفمبر سنة ١٩٨٢م.

«إن العراق الغنى بالنفط.. هو المرشح المضمون لتحقيق أهداف إسرائيل. إن تفتيت العراق هو أكثر أهمية من تفتيت سوريا.. فالعراق أقوى من سوريا وقوته تشكل فى المدى القصير خطرًا على إسرائيل أكثر من أى خطر آخر.. وهكذا تقوم دول «أو أكثر» حول المدن العراقية الرئيسية: البصرة وبغداد والموصل، إذ تنفصل

مناطق شيعية فى الجنوب عن الوسط السنى، والشمال الكردى، وأنه فى العصر النووى لا يمكن ضمان بقاء إسرائيل إلا بمثل هذا التفكيك، ويجب من الآن فصاعدًا بعثرة السكان، وهذا دافع استراتيجى وإذا لم يحدث ذلك فليس باستطاعتنا البقاء مهما كانت الحدود»[1].

هذا هو المخطط الصهيونى المرسوم والمنشور ـ قبل سبعين عامًا: والذى ينفذه الغزاة الأمريكان ـ اليوم ـ على أرض العراق.. بالتعاون مع الأحزاب الشيعية ذات الولاءات الإيرانية وبمباركة عدد من كبار المرجعيات الشيعية!

* * *

وإذا كان البعض من السلفية الوهابية ـ يتخذ من هذه المأساة منطلقًا للتأكيد على مذهبه فى تكفير الشيعة واستحلال دمائهم.. فإننا نرفض هذا الغلو التكفيرى.. وذلك التعميم والإطلاق ونرى أن هذه المأساة يجب أن تكون دافعًا يضاعف الجهود الفكرية والعلمية والسياسية لحوار شيعى سنى، يبحث عن جوهر الخلاف.. وعن سبل التقريب بين الشيعة والسنة ففى ذلك طوق النجاة من هذه المأساة.. والتحصين الحقيقى لجدار الأمة ضد الاختراق والضمان كى لا تتكرر هذه المأساة فى أى مكان آخر من عالم الإسلام.. وأيضًا السبيل الحقيقى لإخراج العراق من «العار.. والدمار الذى صنعته به هذه المأساة».

إن الأزهار كثيرًا ما تنبت فى أرض المجازر!

وإن الشروق الساطع لا يأتى إلا بعد ظلام الليل البهيم.

وإن الأمم العظيمة هى التى تبحث عن معدنها النفيس فى مواجهة أشرس التحديات.

وعلينا أن نلح دائمًا وأبدًا على الالتزام بالمنهاج القرآنى.. منهاج ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ [آل عمران: ١١٣].

(١) انظر: محمد السماك [الأقليات بين العروبة والإسلام] ص ١٣١ـ ١٣٣، ١٤٠، ١٤٤ طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م، وانظر كتابنا [الإسلام والتعددية] ص ٢٥٧ـ ٢٧٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م.

فالشيعة ليسوا سواء..

والسنة ليسوا سواء..

وكذلك حال غير المسلمين مع المسلمين فهم ليسوا سواء..

وفى مواجهة المراجع والأحزاب الذين تواطئوا مع «الصليبية ـ الصهيونية» وتعاونوا مع «بول بريمر» علينا أن نبنى، وخاصة فى المجال العلمى والفكرى، جبهة الوحدة الإسلامية ضد أعداء الإسلام والمسلمين.. تلك الجبهة التى لن تقوم لها قائمة إلا بتحقيق التقارب الحقيقى بين الشيعة والسنة.. الأمر الذى نذر له الدكتور أحمد الكاتب جهوده الفكرية والعلمية فاستحق منا التقدير والتأييد.. والترحيب بأعماله الفكرية الساعية إلى بناء التقارب بين الشيعة والسنة على أسس فكرية صلبة وموضوعية.. تستبعد الغلو من كلا الطرفين.. وتدعو المخلصين، من الشيعة والسنة، إلى كلمة سواء.

* * *

قضايا الخلاف

فى الحديث عن العلاقة بين الشيعة والسنة.. علينا أن نتحلى بالموضوعية والشجاعة والصراحة التى تجعلنا نعلن:

أن الخلاف بينهما قد مثل ـ ولا يزال يمثل «أعمق وأعقد وأخطر الخلافات التى حدثت بين المسلمين على امتداد تاريخ الإسلام».

وإذا كان التاريخ الإسلامى قد شهد خلافات فكرية وسياسية عميقة ومعقدة بين عدد من الفرق الإسلامية ـ كالخلاف بين الخوارج وبين أهل السنة، والاختلاف بين المعتزلة وبين الأشعرية والماتريدية ـ ثم تجاوز التطور هذه الاختلافات.. فإن الخلاف بين الشيعة والسنة قد تميز بأمرين جعلاه أعقد وأعمق من سائر تلك الاختلافات التى مايزت بين سائر فرق المسلمين.

الأمر الأول: هو ذهاب الشيعة إلى وضع أساس الخلاف ـ نظرية الإمامة ـ بين العقائد الدينية ومبادئ الاعتقاد وأصوله وثوابته.. أى جعلها ثابتًا من ثوابت الاعتقاد الدينى وليست مجرد «فكر» و«اجتهاد» إنسانى تجرى عليه سنن التجديد والتطوير والتغيير.

والأمر الثانى: هو تميز الحياة الدينية والاجتماعية الشيعية، بتحويل مفردات هذا الخلاف ومروياته وتراثه وتاريخه وأدبياته إلى «منهاج تربوى» تصاغ به العقول والوجدانات وتشحن به الذكريات منذ الولادة وحتى مراسم الدفن والعزاء على النحو الذى يجعل الإنسان الشيعى مشحونًا بكم من نقاط الافتراق وأسباب العداء لمن تصورهم أعداء آل البيت «النواصب» المغتصبين لحقهم الإلهى فى الإمامة.. تجددها الذكريات والمناسبات والزيارات التى لا يخلو منها وقت من الأوقات.. هذه الشحنات الدينية والنفسية والعاطفية ضد أهل السنة، الذين يضعهم هذا المنهاج

التربوى فى سلة واحدة، منذ أبى بكر الصديق [٥١ ق هـ ـ ١٣هـ/ ٥٧٣ ـ ٦٣٤م] وجمهور الصحابة. وحتى كاتب هذه الصفحات!

نعم «إننا أمام أعقد خلاف حدث فى تاريخ الأمة الإسلامية».

وفى التقريب الحقيقى بين الشيعة والسنة، نجد أنفسنا أمام مهمة كبرى، إن لم تكن مستحيلة فإنها من أصعب المهام التى تواجه العقل المسلم ـ الشيعى والسنى ـ وذلك إذا التزمنا أمانة العلم والعلماء ولم تجرفنا أساليب الساسة والإعلاميين!

* * *

* ولأن الأخ الكريم الدكتور أحمد الكاتب هو من أكثر علماء الشيعة غيرة على وحدة الأمة الإسلامية وموضوعية فى نقد المواريث الفكرية ـ الشيعية والسنية ـ «وفى مقدمة الذين حددوا نقاط الخلاف بين الفريقين.. وقدموا الحلول الموضوعية لتجاوز هذا الخلاف المزمن وتأسيس التقريب على أسس موضوعية.

لذلك كله، كانت سعادتى دائمة وغامرة عندما أقرأ له.. وعندما أقدم لعمل فكرى من أعماله المتميزة، التى يكرسها لنقد الموروث الفكرى.. والدفع بالعقل المسلم ـ عند الشيعة ـ والسنة إلى ساحة الإخاء والتقريب.

* لقد رصد الدكتور أحمد الكاتب ـ فى هذا الكتاب [السنة والشيعة: وحدة الدين ـ خلاف السياسة والتاريخ] ـ ست قضايا خلافية، رآها ـ وأنا معه تمامًا ـ هى التى باعدت بين الشيعة والسنة منذ تبلور الشيعة كفرقة ـ أو كفرق ـ وحتى الآن.. وهذه القضايا الخلافية هى:

١ ـ الخلاف فى الإمامة:

عندما جعلها أهل السنة من السياسات والفقهيات والفروع تختارها الأمة التى هى مصدر السلطات السياسية ـ بالشورى والاختيار والبيعة.. ثم تراقب الأمة الإمام.. وتحاسبه.. وتعزله عند الاقتضاء.. بينما رأتها الشيعة «إمامة إلهية» وشأنًا سماويًا يعين الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيها الأئمة بالنص والوصية.. فهو الذى اصطفاهم كما اصطفى الأنبياء والمرسلين، وجعل لهم من «العصمة» والمكانة والسلطان ما يعلو على مكانة

الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين.. ومن ثم فإن الإيمان بهذه «الإمامة الإلهية» هو عقيدة دينية، ودعامة من الدعائم الثوابت للدين.. وليست اجتهادًا بشريًا يتطرق إليه التجديد والاجتهاد والتغيير.

٢ـ والخلاف الثانى حول القرآن الكريم:

وهو خلاف ابتدعه علماء الشيعة الإخباريون.. عندما لم يجدوا فى المصحف المعتمد لدى الأمة الإسلامية ـ منذ عصر النبوة ـ ما يشهد لنظريتهم فى «الإمامة الإلهية» المنحصرة فى أئمتهم من آل البيت.. فلم يكتفوا «بالتأويل» لبعض الآيات وإنما قالوا بتحريف «التنزيل» القرآنى تحريفًا أسقط ـ فى رأى بعضهم ـ ثلثى القرآن الكريم!

لكن المدرسة الأصولية الشيعية ـ عند الإثنى عشرية ـ قد جاءت ـ فى القرن التاسع عشر الميلادى فنفت حدوث تحريف فى «التنزيل» ووقفت فى تأييد نظرية الإمامة الإلهية عند «التأويل».

ولقد نشر ـ بطهران كتاب [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] سنة ١٩٨٥م.. للشيخ رسول جعفر يان ـ يحمل هذه المراجعة لدعاوى تحريف القرآن الكريم ولقد رحبنا بهذه المراجعة، وقمنا بإعادة طبع الكتاب مع التقديم له بالقاهرة سنة ٢٠٠٦م.

٣ـ والخلاف الثالث حول الحديث النبوى الشريف:

الذى أخذه أهل السنة والجماعة عن رسول الله ﷺ عبر الرواة بينما أخذه الشيعة عن الأئمة لأنهم ـ فى رأيهم ـ هم وحدهم المعصومون، المؤتمنون على الشريعة، والقيمون حتى على القرآن.. أما الأمة ـ بمن فى ذلك الرواة فيجوز عليهم الضلال والكفر والردة والفسوق.

٤ـ والخلاف الرابع حول التقية:

أى إظهار الإنسان غير ما يبطن ـ ولقد جعلها الشيعة دينًا يتدينون به ورووا عن أحد أئمتهم: «أن التقية دينى ودين آبائى.. ولا دين لمن لا تقية له».

ولقد استشهدوا على جواز التقية بالآية القرآنية: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٨، ٢٩].

بينما قال أهل السنة والجماعة ـ إنطلاقًا من منطوق الآية القرآنية ـ: إنها لا تجوز إلا عند ضرورة حفظ النفس فى الصراع مع الكافرين ـ وليس فى العلاقات بين المؤمنين ـ ويشهد لذلك ـ أيضًا تطبيقاتها فى حال عمار بن ياسر [٥٧ ق هـ ـ ٣٧ هـ/ ٥٦٧ـ ٦٥٧م] عندما نطق بكلمة الكفر إنقاذ النفسه من الهلاك أثناء تعذيبهم له: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٥ـ ١٠٧].

أما التقية خارج هذا الإطار، فإنها ـ بنظر أهل السنة والجماعة ـ استحلال للكذب، تزداد بشاعته عندما يعدها أهلها دينًا يتدينون به.. وعندما تمارس فى التعامل بين المؤمنين بدين واحد.

٥ـ والخلاف الخامس فى الفقه:

ولأن الفقه ـ عند الشيعة والسنة ـ هو علم الفروع، كان هذا الميدان من ميادين الخلاف هينًا، لأن باب الاجتهاد فيه مفتوح لمناقشة القضايا الخلافية ـ مثل نكاح المتعة وزيادة الشيعة فى الأذان «حى على خير العمل» و«أشهد أن عليًا ولى الله» والجمع الدائم لصلاة العصر مع الظهر ولصلاة العشاء مع المغرب.. والحديث عن أن «العتبات المقدسة» الشيعية هى «الأشرف» بأفعل التفضيل ـ على حين أن الحرمين ـ المكى والمدنى كل منهما «شريف» فقط لا غير! وتسمية المساجد «حسينيات» بدلًا من اسمها القرآنى المساجد ـ ووضع أعداد من الأدعية والقنوت فى الصلوات لتغاير صلوات أهل السنة والجماعة.. واستخدام عبارة مثل «باسمه تعالى» بدلًا من

«بسم الله الرحمن الرحيم» و«صدق الله العلى العظيم» بدلًا من «صدق الله العظيم» إلى آخر هذه الاختلافات الفقهية، التى هى فى معظمها ثانوية وهينة وإن لعبت دورًا سلبيًا فى تصوير الإسلام الشيعى لدى العامة ـ وكأنه «إسلام موازى» لإسلام أهل السنة والجماعة! الأمر الذى جعل فقهاء الشيعة لا يأخذون شيئًا عن فقه المذاهب السنية بينما فتح فقهاء السنة الأبواب لاحتضان كل تراث المذاهب الفقهية الإسلامية وأجاز عدد من كبار علمائهم التعبد على أى من المذاهب الفقهية المعتبرة والمدونة أصولها ضمن تراث الفقه الإسلامى العام..

لقد أصدرت مصر موسوعتها الفقهية على المذاهب الثمانية: المالكى.. والحنفى.. والشافعى.. والحنبلى.. والجعفرى.. والزيدى.. والإباضى.. والظاهرى.. بينما نص دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية على أن المذهب الجعفرى وحده هو مذهب إيران كلها ـ بمن فيها من السنة!.. بل ونص هذا الدستور على أن جميع مواده قابلة للتعديل باستثناء هذه المادة التى تحدد مذهب الدولة!

٦ ـ والخلاف السادس بين الشيعة والسنة هو الذى دار حول صحابة رسول الله ﷺ:

فلقد انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وعدد الذين دخلوا فى دين الإسلام ١٢٤,٠٠٠ (مائة وأربعون وعشرين ألفًا) ـ فى جزيرة العرب التى كان عدد سكان يومئذ مليون نسمة.

وعندما رصد علماء أهل السنة والجماعة أسماء «أعلام الصحابة» الذين تربوا فى مدرسة النبوة، والذين أقاموا الدين وأسسوا الدولة، ووضعوا أسس الحضارة. والذين فتحوا فى ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون، فأزالوا بهذه الفتوحات التحريرية قوى الهيمنة والقهر الحضارى الروم ـ والفرس ـ ثم حرروا ضمائر شعوب الشرق ـ فتركوهم وما يدينون ـ بعد أن حرروا بلادهم من القهر الاستعمارى والدينى والحضارى ومن النهب الاقتصادى الذى دام عشرة قرون من «الإسكندر الأكبر» [٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق. م] فى القرن الرابع قبل الميلاد ـ وحتى «هرقل» [٦١٠ ـ ٦٤١م] فى القرن السابع للميلاد.

عندما رصد علماء أهل السنة والجماعة أسماء أعلام الصحابة ـ الذين أقاموا

الدين وحملوا الشريعة ورووا السنة ـ وغيروا وجه الدنيا واتجاه التاريخ.. رصدوا أسماء نحو ثمانية آلاف صحابى منهم أكثر من ألف امرأة.

لكن الشيعة ذهبوا فحكموا على جمهور هؤلاء بالكفر.. والردة.. والنفاق.. والمروق من دين الإسلام.. ولم يستثنوا من هذه الأحكام الجائرة والغريبة والعجيبة سوى أربعة أو خمسة أو أكثر قليلًا! ثم ذهبوا فعمموا هذه الأحكام على كل من والى أو أحب أحدًا من هؤلاء الصحابة.. أى أنهم قد سحبوا هذه الأحكام على سائر أهل السنة والجماعة الذين يمثلون ٩٠٪ من تعداد أمة الإسلام.

* * *

تلك هى القضايا الخلافية الست التى رصدها الدكتور أحمد الكاتب فى كتابه والتى باعدت بين الشيعة والسنة.. والتى جعلت الخلاف بينهما أخطر وأعقد وأعمق خلاف ظهر فى تاريخ الإسلام والمسلمين.

* * *

منهاج النظر فى الخلافات

ولأن المنهاج العلمى فى النظر إلى القضايا الخلافية بهدف محاصرتها.. ومعالجتها.. والتقريب بين فرقائها، يدعو إلى تحديد «الحلقة الرئيسية» من بين «حلقات» الاختلافات، والتركيز على سبل حل هذا الخلاف الرئيسى لأنه هو الذى سيؤثر ـ بدرجات متفاوتة ـ فى حل بقية الخلافات، لأن هذا هو المنهج العلمى فى معالجة مجمل هذه الخلافات الستة.. فإننا ندعو إلى التركيز على «الخلاف الأساسى» و«القضية الأم» التى أثمرت سائر الاختلافات الأخرى، والتى سيفضى حل الخلاف حولها ـ أو حتى تقريب وجهات النظر ـ إلى حل سائر الاختلافات الستة التى رصدها الدكتور أحمد الكاتب فى هذا الكتاب.

وهذه القضية الأم التى مثلت ـ ولا تزال تمثل «الخلاف الأم» والأساسى، الأول والجوهرى و«المحورى» بين الشيعة والسنة، هى قضية الخلاف حول «نظرية الإمامة».

الإمامة عند أهل السنة

لقد أجمع أهل السنة واجتمعوا على أن الإمامة من السياسات والفقهيات والفروع.. وعلى أنها ليست من العقائد ولا من أمهات العقائد، وأنها شأن من شئون الاجتهاد الفقهى، يتولاها من تختاره الأمة ـ بواسطة أولى الأمر فيها ـ بالشورى والاختيار.. تبايعه الأمة.. ثم تراقبه وتحاسبه.. وتعزله عند الاقتضاء ومن ثم ـ وهذا مهم وجوهرى ومعيار فاصل ـ فإن الاختلاف فى الإمامة وحولها وبسببها إنما يدخل جميعه فى الفقه والفروع.. ومعايير هذا الاختلاف هى «الصواب والخطأ» و«النفع والضرر» وليس «الكفر والإيمان» ـ الذى هو معيار الاختلاف فى عقائد الدين.

على هذا أجمع أهل السنة والجماعة، واجتمعت مذاهب فقهائهم وعلمائهم وفلاسفتهم على مر تاريخهم الفكرى.

فقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١١١م]:

«إن نظرية الإمامة ليست من المهمات وليست من فن المعقولات فيها، بل من الفقهيات [الفروع][1]».

وقال إمام الحرمين الجوينى [٤١٩ ـ ٤٧٨هـ/ ١٠٢٨ ـ ١٠٨٥م]:

«إن الكلام فى الإمامة ليس من أصول الاعتقاد»[2].

وقال عضد الدين الإيجى [٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م] والجرجانى [٧٤٠ ـ ٨١٦هـ/ ١٣٤٠ ـ ١٤١٣م]:

(١) الغزالى «الاقتصاد فى الاعتقاد»، ص ١٣٤ طبعة مكتبة صبيح ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.
(٢) الجوينى [الإرشاد]، ٤١٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠م.

«إن الإمامة ليست من أصول الديانات والعقائد، بل هى من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين»[1].

وقال الشهر ستانى [٤٧٩ـ٥٤٨هـ/ ١٠٨٦ـ١١٥٣م]:

«إن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد»[2].

وقال ابن خلدون [٧٣٢ـ٨٠٨هـ/ ١٣٣٢ـ١٤٠٦م]:

«وشبهة الشيعة الإمامية فى ذلك إنما هى كون الإمامة من أركان الدين.. وليس كذلك، وإنما هى من المصالح المفوضة إلى نظر الخلق»[3].

وهذا الإجماع السنى على أن الإمامة من السياسات والفقهيات والفروع، وليست من العقائد وأمهات الاعتقاد وأركان الدين، قد أثمر الثمرة الطبيعية والمنطقية التى تقول: إن الخلاف حول الإمامة وما يتعلق بها معاييره: «الصواب والخطأ» و«النفع والضرر» وليست «الإيمان» و«الكفر» وبعبارة أبو حامد الغزالى:

«فإن النظريات قسمان: قسم يتعلق بأصول القواعد، وقسم يتعلق بالفروع. والخطأ فى أصل الإمامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها، لا يوجب شىء منه التكفير»[4].

ولذلك ـ وهذا مهم جدًّا ـ فإن أهل السنة والجماعة، مع نقدهم الشديد لمذهب الشيعة فى الإمامة، فإنهم لا يكفرونهم بمذهبهم هذا.. إنهم يعتبرون مذهب الشيعة فى الإمامة قولًا شنيعًا وظاهر البطلان، لكن لأن هذه الإمامة هى من الفروع والسياسات والفقهيات وليست من عقائد الدين، فإن الخلاف حولها «لا يعظم ضرره فى الدين» ومن ثم فلا يجوز بسببه التكفير، وبعبارة حجة الإسلام الغزالى:

« فإن ما لا يعظم ضرره فى الدين فالأمر فيه أسهل وإن كان القول فيه شنيعًا ظاهر البطلان، كقول الإمامية المنتظرة: إن الإمام مختف فى سرداب وإنه ينتظر خروجه،

(١) «شرح المواقف»، جـ١ ص٢٦١ طبعة القاهرة ١٣١١هـ.

(٢) الشهر ستانى [نهاية الإقدام فى علم الكلام]، ص ٤٧٨ تحقيق: الفريد جيوم. طبعة مصورة ـ بدون تاريخ ولا مكان الطبع.

(٣) ابن خلدون [المقدمة]، ص ١٦٨ طبعة القاهرة ١٣٢٢هـ.

(٤) الغزالى [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة]، ص ١٥ طبعة القاهرة ١٩٠٧م.

فإنه قول كاذب، ظاهر البطلان، شنيع جدًّا، ولكن لا ضرر فيه على الدين، وإنما الضرر على الأحمق المعتقد لذلك، إذ يخرج كل يوم من بلده لاستقبال الإمام حتى يدخل «الليل» فيرجع إلى بيته خاسئا، وهذا مثال ـ والمقصود: أنه لا ينبغى أن يكفر بكل هذيان وإن كان ظاهر البطلان..»[1].

وهذا الموقف السنى الشديد الوضوح والحسم، فى أن الإمامة من السياسات والفروع والفقهيات وليست من العقائد الدينية، ومن ثم فإنه لا يجوز ولا يصح التكفير لأى من المختلفين فيها وحولها، هذا الموقف السنى مؤسس على ما اجتمع عليه أهل السنة والجماعة فى مذاهبهم المعتبرة من الامتناع عن تكفير من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، المصدق لما جاء به الرسول ﷺ:

وفى تقعيد هذا المذهب يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى:

«إعلم إن شرح ما يكفر به وما لا يكفر به يستدعى تفصيلًا طويلًا.. ولكن اقنع [الآن] بوصية وقانون:

أما الوصية: فأن تكفّ لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ما داموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، غير مناقضين لها. والمناقضة تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ بعذر أو غير عذر، فإن التكفير فيه خطر والسكوت لا خطر فيه.

وأما القانون: فهو أن تعلم أن النظريات قسمان: قسم يتعلق بأصول القواعد، وقسم يتعلق بالفروع، وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله، وبرسوله واليوم الآخر وما عداه فروع.

وأعلم أن لا تكفير فى الفروع أصلًا، إلا فى مسألة واحدة وهى أن ينكر أصلًا دينيًا علم من الرسول ﷺ بالتواتر، لكن فى بعضها تخطئه، كما فى الفقهيات وفى بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة.

وأعلم أن الخطأ فى أصل الإمامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شىء منه تكفير فقد أنكر ابن كيسان [١٤٠هـ/ ٧٥٧م] أصل وجوب الإمامة، ولا يلزم

(١) المصدر السابق، ص ١٩.

تكفيره، ولا تلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة ويجعلون الإيمان بالإمام مقرونًا بالإيمان بالله ورسوله ولا إلى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم فى الإمامة، فكل ذلك إسراف، إذ ليس فى واحد من القولين تكذيب للرسول ﷺ أصلًا، ومتى وجد التكذيب وجب التكفير وإن كان من الفروع»[1].

وهنا قد يقول قائل: إن الغزالى يشير إلى أن من «خصوم الشيعة الإمامية» من يكفرهم ـ أى يبادلهم تكفيرًا بتكفير ـ بسبب مذهبهم فى الإمامة، الذى جعلوه مقرونًا بالإيمان بالله ورسوله، ومن ثم كفروا من يخالفهم فيه».

ونحن نقول: نعم.. هناك قلة من أهل السنة والجماعة لا يمثلون المذاهب السنية المعتبرة والمنتشرة فى الفضاء السنى بادلوا الشيعة الإمامية تكفيرًا بتكفير. «وإن كنا نلمح أن سبب هذا التكفير لهؤلاء الشيعة ليس الغلو الشيعى فى تأليه الأئمة وإنما هى التقية، التى تجيز الكذب، بل توجبه أحيانًا وتجعله دينًا «لأن من يجيز الكذب فى أمور الدين، إنما يلقى ظلالًا سلبية على حقيقة إعلانه التصديق بما جاء به الرسول ﷺ ويشهد على هذا الذى ذهبنا إليه قوله شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ ـ ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ـ ١٣٢٨م]:

«والذى نختاره أن لا نكفر أحدًا من أهل القبلة والدليل عليه أن نقول:

المسائل التى اختلف أهل القبلة فيها، مثل: أن الله تعالى هل هو عالم بالعلم أو بالذات؟ وأنه تعالى هل هو موجد لأفعال العباد أو لا؟ وأنه هو متحيز؟ وهل هو فى مكان وجهة؟ وهل هو مرئى أم لا؟ لا تخلو إما أن تتوقف صحة الدين على معرفة الحق فيها أو لا تتوقف والأول باطل، إذ لو كانت معرفة هذه الأصول من الدين لكان الواجب على النبى ﷺ أن يطالبهم بهذه المسائل، بل ما جرى حديث من هذه المسائل فى زمانه عليه السلام ولا فى زمان الصحابة والتابعين رضى الله عنهم، علمنا أنه لا تتوقف صحة الإسلام على معرفة هذه الأصول، وإذا كانت كذلك لم يكن الخطأ فى هذه المسائل قادحًا فى حقيقة الإسلام، وذلك يقتضى الامتناع عن تكفير أهل القبلة».

(١) المصدر السابق. ص ١٥، ١٦.

فابن تيمية الذى يؤمن بأن الإمامة من الفروع والفقهيات وليست من الأصول ـ يذهب إلى تفصيل ما أشار إليه كثيرون من أئمة أهل السنة والجماعة من أن هناك «أصولًا» دينية «لا تتوقف صحة الإسلام على معرفتها» ومن ثم فإن «الخطأ فى مثل هذه الأصول لا يقدح فى حقيقة الإسلام، وذلك يقتضى الامتناع عن التكفير» لأطراف الخلاف فى هذه «الأصول».

ثم يمضى ابن تيمية إلى تأصيل وتقعيد هذا المعيار فيقول:

«إن الكفر حكم شرعى، متلقى عن صاحب الشريعة، والعقل قد يعلم به صواب القول وخطؤه وليس كل ما كان خطأ فى العقل يكون كفرًا فى الشرع، كما أنه ليس كل ما كان صوابًا فى العقل يجب فى الشرع معرفته.. وإنما الكفر يكون بتكذيب الرسول فيما أخبر به أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه.. وقد نقل عن الشافعى [١٥٠ـ ٢٠٤هـ/ ٧٦٧ـ ٨٢٠م] رضى الله عنه أنه قال: لا أرد شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية فإنهم يعتقدون حل الكذب.

أما أبو حنيفة [٨٠ ـ ١٥٠هـ/ ٦٩٩ـ ٧٦٧م] ـ رضى الله تعالى عنه ـ فقد حكى الحاكم [٣٣٤هـ/ ٩٤٥م] صاحب [المختصر] فى كتاب [المنتقى] عن أبى حنيفة أنه لا يكفر أحدًا من أهل القبلة، «وحكى أبو بكر الرازى [٢٥١ـ ٣١١هـ/ ٨٦٥ ـ ٩٢٣م] عن الكرخى [٢٦٠ـ ٣٤٠هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٥٢م] وغيره مثل ذلك»[١].

فابن تيمية يحكى عن أئمة المذاهب الفقهية السنية اجتماعهم على عدم تكفير أحد من أهل القبلة باستثناء من يعتقد استحلال الكذب ـ مثل الخطابية ـ من الشيعة الإمامية ـ الذين غلوا فى الأئمة إلى حد التأليه.. ومع ذلك فإن تكفير الشافعى لهم قد جاء بسبب استحلالهم الكذب ـ التقية ـ لأن هذا هو الذى يقدح فى حقيقة إسلامهم، وليس بسبب مذهبهم فى الإمامة، لأنه ـ رغم شناعته وظهور بطلانه ـ لا ضرر فيه على الدين، على حد قول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى.

(١) ابن تيمية [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول]، جـ١ ص ٥٠، ١٤٤، ١٤٥ طبعة القاهرة سنة ١٣٢١هـ.

ذلك هو مذهب أهل السنة والجماعة فى نظرية الإمامة، أولى المسائل.. وأعقد المسائل.. وأخطر المسائل التى اختلف فيها المسلمون.. والتى بسببها انقسمت الأمة الإسلامية إلى شيعة وسنة «فكان الخلاف الذى أثمر وأفرز الاختلافات الأخرى حول: القرآن والسنة، والتقية والفقه والصحابة.

فالذين ذهبوا من الشيعة إلى أن القرآن الكريم قد أصابه التحريف إنما ذهبوا إلى ذلك لدعم مذهبهم فى الإمامة الإلهية لأئمتهم من آل البيت.

وهم قد ذهبوا إلى إقامة سنة خاصة بهم، نسبوها إلى أئمتهم لتشهد على صحة مذهبهم فى الإمامة، وعلى فساد مذهب أهل السنة، والجماعة فيها.

وذهبوا إلى استحلال التقية، وجعلها دينًا، ليستحلوا الكذب على خصومهم فى نظرية الإمامة وليحافظوا على كيانهم فى مواجهة من اعتبروهم كفارًا ومشركين بسبب مخالفتهم لهم فى هذه الإمامة».

وهم قد ذهبوا إلى تكفير جمهور الصحابة، وكل من والاهم ورضى بخلافتهم، لا لشيء إلا لأن هؤلاء الصحابة ـ برأيهم ـ قد خالفوا مذهبهم فى الإمامة، عندما جعلوها شورى، تتم بالاختيار والبيعة، وقالوا بأنها سلطة مدنية ملتزمة بالمرجعية الدينية والأمة فيها هى مصدر السلطات، لأنها هى المستخلفة لله.. ولم يجعلوها إمامة إلهية، يتولى الأئمة فيها سلطان الله، حتى لتكون لهم المكانة التى لا يبلغها ملك مقرب ولا نبى مرسل.. والتى تجعل لهم سلطة تكوينية على كل ذرات الكون، هى كل سلطات الله وسلطانه!!

فهى إذن ـ هذه «الإمامة الإلهية» هى موطن الخلاف الأول، والأعمق، والأعقد.. والذى يجب أن يدور حوله الحوار الموضوعى والجاد والصبور.. والذى بدون حدوث نوع من التوافق حوله سيظل الحديث عن التقريب بين الشيعة والسنة لونًا من «الحرث فى البحر» وضربًا من الأوهام التى لا تجوز على العلماء ولا تليق بالعقلاء.

* * *

الإمامة عند الشيعة الإمامية

وإذا كانت هذه هى وجهة نظر أهل السنة والجماعة فى القضايا الخلافية بين الشيعة والسنة وفى ترتيب هذه القضايا وتحديد «الحلقة الرئيسية» التى يفضى حلها أو تقريب وجهات النظر فيها ـ إلى التأثير فى بقية «الحلقات».

فما هو رأى الشيعة الإمامية ـ وخاصة الإثنى عشرية ـ فى هذا الموضوع؟ لقد ذهبت الشيعة الإمامية ـ بمن فى ذلك الإثنى عشرية ـ إلى جعل الإمامة شأنًا إلهيًا، لا علاقة له بالبشر والأمة فهى اصطفاء إلهى ونص وتعيين من السماء، لا علاقة لها بالشورى والاختيار والبيعة.

وذهبوا إلى إعطاء الأئمة ـ من آل البيت من نسل على وفاطمة ـ سلطانًا إلهيًا، يجعل إمامتهم فوق النبوة والرسالة والأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين».

وجعلوا هذه الإمامة «لطفًا عامًا» وممتدًا بينما النبوة والرسالة «لطف خاص» طوى التاريخ صفحته.

وذهبوا فأضفوا على أئمتهم ليس فقط (العصمة) وإنما الأساطير التى يحار العقل أمام قبولها من قبل العلماء والفلاسفة والفقهاء الذين امتلأ بهم ويمتلئ الفضاء الشيعى!

ذهب الشيعة إلى ذلك التأليه للإمامة والتأليه للأئمة.. وإلى ذلك الغلو الذى لا يقف عند «الإخباريين القدماء» الذين سبقوا المدرسة «الأصولية الاجتهادية» وإنما الذى بعثته ـ ويا للغرابة ـ المدرسة الشيعية الحديثة والمعاصرة التى تبلورت فى القرن التاسع عشر الميلادى، والتى لا تزال سائدة وحاكمة ومتحكمة فى الفضاء الشيعى ولدى المرجعيات الشيعية الكبرى حتى هذه اللحظات!

* لقد ابتدع الشيعة فى الفكر الإسلامى نظرية «الحكم بالحق الإلهى» ـ التى سادت فى الكسروية الفارسية و«الفرعونية المصرية» والقيصرية الرومانية.. والكنيسة الكاثوليكية، فالإمام معين من الله، لا مختارًا من الناس.. بل لقد ادعوا لعرقه وسلالته امتيازًا ليس لأحد من الناس فنسبوا إلى علىّ بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ قوله:

«إننى وأهل بيتى كنا نورًا يسعى بين يدى الله تعالى قبل أن يخلق الله آدم بأربعة عشر ألف سنة، فلما خلق الله آدم وضع ذلك النور فى صلبه وأهبطه إلى الأرض، ثم جعله فى السفينة فى صلب نوح، ثم قذف به فى النار فى صلب إبراهيم، ثم لم يزل الله ينقلها فى الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة من الآباء والأمهات لم يلق منهم على سفاح قط»[1].

* ثم يقولون: إن التعيين والنص كانا من الله ـ سبحانه وتعالى ـ على علّى، وليس من الرسول ﷺ، ويرون أن رجلًا سأل الإمام أبا جعفر محمد بن علىّ زين العابدين [٣٨ـ ٩٤هـ/ ٦٥٨ـ ٧١٢م]:

«حدثنى عن ولاية علىّ، آمن الله؟ أو من الرسول؟.. فغضب، ثم قال: ويحك: كان رسول الله أخوف لله من أن يقول ما لم يأمره به الله، بل افترضه كما افترض الصلاة والزكاة والصوم والحج، فرض الله على العباد خمسًا، فأخذوا أربعًا وتركوا واحدًا الصلاة.. ثم نزلت الزكاة.. ثم نزل الصوم.. ثم نزل الحج.. ثم نزلت الولاية..»[2].

* وهذا النص الإلهى والتعيين الربانى قد سجلهما الله ـ سبحانه وتعالى ـ كما يقولون ـ فى لوح أخضر، يشبه الزمرد، بحروف بيضاء «شبه لون الشمس» رآه أبو جابر عبد الله الأنصارى فى يد فاطمة عليها السلام، فلما سألها عنه قالت:

«هذا لوح أهداه الله ورسوله، فيه اسم أبى، واسم بعلى، واسم بنى، واسم الأوصياء من ولدى»[3] ولم ينزل من الله كتاب مختوم إلا الوصية..»[4].

(١) عبد الحسين أحمد الأمينى [الغدير فى الكتاب والسنة والأدب]، جـ١ ص ١٦٤. طبعة بيروت ـ الثالثة.
(٢) الكلينى [الأصول من الكافى]، جـ١ ص ٣٩٠ تحقيق: على أكبر العفارى. طبعة طهران سنة ١٣٨٨هـ.
(٣) المصدر السابق، جـ١ ص٨.
(٤) المصدر السابق، جـ١ ص٢٧٩.

* ولما كانت الصلة التى ميزت عليا والحسن والحسين من غيرهم من آل أبى طالب، بل وعن غير الحسن والحسين من ولد علىّ، هى الارتباط بفاطمة بنت الرسول ﷺ قالت الشيعة الإمامية: إن الله هو الذى عين هذا الزواج، زواج علىّ من فاطمة، وقالوا:

«أنه لا خلاف بين أهل النقل أن الله تعالى هو الذى اختار أمير المؤمنين لنكاح سيدة النساء.. وأن النبى قال: إنى لم أزوج فاطمة حتى زوجها الله تعالى من سمائه»[١].

* وقالوا: إن سلطان الإمام السياسى مترتب على سلطانه الإلهى، إذ الأصل فيه أن يكون إمامًا حتى لو لم يتمكن من تولى السلطة الزمنية، ومن ثم فإن إمامته نابعة من كونه حافظًا للشريعة والدين، حجة لله على عباده، فالأمة ليست الحجة، والروايات المتواترة لا تضمن للشرع أن يكون بها حجة، بل والقرآن ذاته ليس هو الحجة، وإنما الحجة هو الإمام، وهم يفسرون القول الذى نسبوه إلى علىّ بن أبى طالب:

«اللهم إنك لا تخلى أرضك من حجة لك على خلقك»[٢].

يفسرون الحجة بالإمام وحده فينسبون إلى الإمام جعفر الصادق [٨٠ـ ١٤٨هـ/ ٦٩٩ـ ٧٦٥م] قوله:

«إن الحجة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام حى يعرف»[٣] وأنه لا بد من إمام حتى «لو كان الناس رجلين لكان أحدهما الإمام.. وأن آخر من يموت الإمام لئلا يحتج أحد على الله عز وجل أنه تركه بغير حجة لله عليه..»[٤].

* وهم ـ لذلك ـ يرفضون أن تكون الأمة، فى نقلها عن الرسول ـ الذى هو حجة ـ حجة فى هذا النقل، لأنهم يجوزون على الأمة جميعها الخطأ والزلل، بل والكفر والردة ـ ما عدا الإمام ـ فضلًا عن السهو والنسيان ـ ويقولون:

(١) الطوسى (أبو جعفر) [تلخيص الشافى]، جـ١ ق٢، ص ٢٧٩، تحقيق: السيد حسين بحر العلوم. طبعة النجف سنة ١٣٨٣ـ سنة ١٣٨٤م.
(٢) [الكافى]، جـ١ ص ١٧٨.
(٣) المصدر السابق، جـ١ ص ١٧٧.
(٤) المصدر السابق، جـ١ ص ١٨٠.

إن نقل الأمة لبيان الرسول «ليس بضرورى»، وأنه غير مأمون منهم العدول عنه[1]» لأنه لا فرق عندهم بين الآحاد وبين مجموع الأمة وجماعتها.

بل ورفضوا ان يكون القرآن هو الحجة، وقالوا: لا بد من قيم على القرآن، وأن الإمام علىّ بن أبى طالب هو ذلك القيم، ومن بعده الأوصياء والأئمة من بنيه، ونسبوا إلى جعفر الصادق ذلك الحوار الذى دار بينه وبين الناس.

«قلت للناس: تعلمون أن رسول الله كان هو الحجة من الله على خلقه؟

قالوا: بلى.

قلت: فحين توفى رسول الله من كان الحجة على خلقه؟

فقالوا: القرآن.

فنظرت فى القرآن فإذا هو يخاصم به المرجى، والقدرى، والزنديق الذى لا يؤمن به حتى يغلب الرجال بخصومته، فعرفت أن القرآن لا يكون حجة إلا بقيم، فما قال فيه من شىء كان حقًا.. فأشهد أن عليًا كان قيم القرآن. وكانت طاعته مفترضة، وكان الحجة على الناس بعد رسول الله، وأن ما قال فى القرآن فهو حق..»[2].

ولذلك كان الإمام، عند الشيعة الإمامية، هو مصدر الدين، بل هو مصدره الوحيد، فقالوا: «إننا نعتقد أن الأحكام الشرعية الإلهية لا تُستقى إلا من مائهم ـ [الأئمة] ولا يصح أخذها إلا منهم، ولا تفرغ ذمة المكلف بالرجوع إلى غيرهم، ولا يطمئن بينه وبين الله إلى أنه قد أدى ما عليه من التكاليف المفروضة إلا من طريقهم..»[3].

وهم فى قولهم: إن الإمام هو القيم على القرآن، قد قدموا الإمام على القرآن، وجعلوه هو الأساس، فاعتبروا الإمام هو «القائم بالفعل» بينما القرآن هو «القائم بالقوة»، وفى ذلك يقول الكرمانى:

«إن مثل الناطق فى كونه أصلًا للدين كمثل المبدع الأول فى كونه أصلًا

(١) [تلخيص الشافى] جـ ق ١ ص ١٨٦.
(٢) [الكافى] جـ١ ص ١٦٨، ١٦٩.
(٣) المظفر (محمد رضا) [عقائد الإمامية] ص ٧٠. طبعة دار النعمان ـ النجف.

للموجودات وعن الناطق، الذى هو أصل عالم الدين من جهة التركيب، وجد الإمام القائم بالفعل، وهو الأساس، وعن الناطق أيضًا وجد الإمام القائم بالقوة، وهو الكتاب..»[1].

* ولذلك، قدم الشيعة الإمامية الإمامة على النبوة، والإمام على النبى.. وقالوا:

إن عليا قد قال: «لقد أقرت لى جميع الملائكة والروح القدس والرسل بمثل ما اقروا به لمحمد، ولقد حملت مثل حمولته، وهى حمولة الرب[2] يعنى كلفنى الله ربى مثل ما كلف محمدًا من أعباء التبليغ والهداية.. التى وردت من الله»[3].

وهم ينسبون رواية هذه الأقوال ـ التى تؤله الأئمة ـ إلى الإمام جعفر الصادق. كما ينسبون له قوله:

«إن عليًا قد جرى له من الفضل ما جرى لرسول الله.. والمعيب عليه فى شىء من أحكامه كالمعيب على الله ورسوله، والراد عليه فى صغيرة أو كبيرة على حد الشرك بالله.. فهو باب الله الذى لا يؤتى إلا منه، وسبيله الذى من سلك بغيره هلك، وبذلك جرت الأئمة واحدًا بعد واحد، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بهم، والحجة البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى.»[4].

* وقالت الشيعة الإمامية:

«إن دفع الإمامة كفر، كما أن دفع النبوة كفر، لأن الجهل بهما على حد واحد.. لأن منطلق الإمامة هو منطلق النبوة، والهدف الذى لأجله وجبت النبوة هو نفس الهدف الذى من أجله تجب الإمامة، وكما أن النبوة لطف من الله كذلك الإمامة، واللحظة الحاسمة التى انبثقت بها النبوة.. وهى يوم الدار ـ [عندما جمع النبى عشيرته ودعاهم للإسلام] ـ هى نفسها اللحظة التى انبثقت بها الإمامة.. واستمرت

(١) الكرمانى (أحمد حميد الدين) [راحة العقل] ص ٣٩. تحقيق: د. محمد كامل حسين، د. محمد مصطفى حلمى. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢م.

(٢) [الكافى] جـ١ ص ١٩٦.

(٣) المصدر السابق ـ «هامش يفسر العبارة السابقة» نفس الصفحة.

(٤) المصدر السابق . جـ١ ص ٢٩٧.

الدعوة ذات لسانين النبوة والإمامة، فى خط واحد، وامتازت الإمامة على النبوة: أنها استمرت بأداء الرسالة بعد انتهاء دور النبوة.. إن النبوة لطف خاص، والإمامة لطف عام..»[1].

* كذلك يقول الشيعة الإمامية بجواز ظهور المعجزات على يد الإمام، كما هو حال الأنبياء لأن فى ذلك دليل تعينهم، كما هو الحال مع الأنبياء سواء بسواء[2].

* وإذا كان الشيعة الإمامية قد قاسوا عصمة الإمام على عصمة النبى، فإن مذهبهم فى علم الإمام قد بلغ فى الغلو مرتبة جعلتهم يرون الإمام أكثر علمًا من النبى، بل ومن كل الأنبياء مجتمعين، بل إن مذهبهم هذا يعنى فى الواقع والحقيقة أن النبوة، فى معناها الجوهرى، الذى هو صلة السماء الدائمة بالأرض، لم تختم بموت محمد ﷺ، بل لا تزال ـ هذه الصلة ـ قائمة فى شخص الإمام.

فالرسول يتلقى علم ما لم يعلم عن السماء بواسطة الوحى الذى يأتيه به ملك يراه حينا ولا يراه حينًا آخر.. والشيعة يرون أن الفارق بين «التحديث» وبين «الوحى» أن الإمام لا يرى الملك وإنما هو يسمع الصوت، وتحدث له السكينة التى تجعله يطمئن إلى أن ما سمعه هو صوت الملك. فكل من الإمام والنبى عندهم ـ يأتيه علم السماء بواسطة «روح القدس» التى بها حمل النبى النبوة، والتى تنتقل بعد النبى إلى الإمام.

«إن الإمام إذا أراد أن يعلم الشيء أعلمه الله ذلك[3] وهو يتلقى المعارف والأحكام الإلهية وجميع المعلومات عن طريق النبى أو الإمام قبله، وإذا استجد شىء لابد أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوة القدسية التى أودعها الله تعالى فيه، فإن توجه إلى شىء وشاء أن يعلمه على وجهه الحقيقى لا يخطأ فيه.. وإن قوة الإلهام عند الإمام، التى تسمى بالقوة القدسية، تبلغ الكمال فى أعلى درجاته، فيكون فى صفاء نفسه القدسية على استعداد لتلقى المعلومات فى كل وقت وفى كل حالة، فمتى توجه إلى شىء

(١) [تلخيص الشافى] جـ٤ ص ١٣١، ١٣٢. وانظر كذلك [مجموع من كلام السيد المرتضى] للسيد المرتضى علىّ بن الحسين ـ محظوظ مصور بدار الكتب المصرية ـ رقم ١٥٩ عقائد تيمور ـ اللوحة ٦٣.
(٢) [تلخيص الشافى] جـ١ ق١ ص ١٤١، ١٤٣ ـ [مجموع من كلام السيد المرتضى] اللوحة ٦٠.
(٣) [الكافى] جـ١ ص ٢٥٧.

من الأشياء وأراد معرفته استطاع علمه بتلك القوة القدسية الإلهية، بلا توقف ولا ترتيب مقدمات، ولا تلقين معلم، وتتجلى فى نفسه المعلومات كما تتجلى المرئيات فى المرآة الصافية، لا غطش فيها ولا إيهام.. ويبدو واضحًا هذا فى تاريخ الأئمة، لم يتربوا على أحد، ولم يتعلموا على يد معلم، من مبدأ طفولتهم إلى سن الرشد، حتى القراءة والكتابة، ولم يثبت عن أحدهم أنه دخل الكتاتيب أو تتلمذ على يد أستاذ فى شىء من الأشياء، مع ما لهم من منزلة علمية لا تجارى، وما سئلوا عن شىء إلا أجابوا عليه فى وقته، ولم تمر على ألسنتهم كلمة (لا أدرى) ولا تأجيل الجواب إلى المراجعة أو التأمل ونحو ذلك[1].

أى أن علم الإمام ـ برأى الشيعة ـ قد تفوق على علم النبى، الذى كان يسأل فيتوقف حتى يأتيه نبأ السماء فيما لم يعرف له جوابًا.

وهذه القوة القدسية التى يراها الشيعة مصدر العلم الإلهى الإلهامى للإمام، هى التى كانت مصدر علم النبوة للأنبياء.. وينسبون فى ذلك ـ إلى الإمام جعفر الصادق قوله:

«إن الله جعل فى النبى خمسة أرواح:

ـ روح الحياة، فبه دب ودرج.

ـ وروح القوة، فبه نهض وجاهد.

ـ وروح الشهوة، فبه أكل وشرب، وآتى النساء من الحلال.

ـ وروح الإيمان، فبه آمن وعدل.

ـ وروح القدس، فبه حمل النبوة. فإذا قبض النبى انتقل روح القدس فصار إلى الإمام، وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يذهو، والأربعة الأرواح تنام وتغفل وتزهو وتلهو، وروح القدس كان يرى به..»[2].

(١) [عقائد الإمامية]، ص ٧٦، ٦٩.

(٢) [الكافى]، جـ١ ص ٢٧٢.

بل لقد ذهبوا إلى أن علم الإمام يربو على علم النبى.. وعلى علم الأنبياء جميعًا مجتمعين.. ونسبوا إلى الإمام زين العابدين قوله:

«.. إن الله عز وجل جمع لمحمد سنن النبيين من آدم وهلم جرا إلى محمد.. وإن رسول الله صير ذلك كله عند أمير المؤمنين..»[1] الذى علم ما استجد بعد سنن جميع النبيين!

ولقد تحدثوا عن أن للإمام القدرة على معرفة المغيب والمحجوب، وذلك بواسطة ما أسموه «اسم الله الأعظم».. ويشيرون إلى أن العلم الذى أوتيه «آصف» الذى كان عنده علم من الكتاب أحضر به عرش بلقيس إلى سليمان ـ عليه السلام ـ هو ثمرة لحرف من حروف الاسم الأعظم.. بينما عند الإمام اثنان وسبعون حرفًا من حروف هذا الاسم الثلاثة والسبعين! وفى ذلك ينسبون إلى الإمام زين العابدين قوله:

«إن اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفًا، وإنما كان عند آصف منها حرف واحد، فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس حتى تناول السرير بيده، ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين. ونحن عندنا من الاسم الأعظم اثنان وسبعون حرفًا، وحرف واحد عند الله استأثر به فى علم الغيب عنده»[2].

هكذا بلغ «الغلو = الخرافى» و«الخرافة ـ المغالية» بالشيعة الإمامية ـ ومنهم الإثنى عشرية ـ فى علم الإمام.. وعصمته قبل الإمامة وبعدها ـ وفى السلطان الإلهى.

وهنا من الحق أن نسأل:

إن كان للإمام اثنان وسبعون حرفًا من ثلاثة وسبعين هى حروف اسم الله الأعظم.. فلم الحاجة إلى التقية التى جعلها الشيعة دينًا يتدينون به؟ ومم يخافون مع هذا العلم.. وهذه القوة.. وهذا السلطان؟! ثم.. ألا يتعارض هذا الذى قالوه عن علم الإمام.. واستمرار الوحى إليه بواسطة روح القدس.. مع ما نسبوه هم للإمام علىّ بن أبى طالب ـ فى [نهج البلاغة] من أنه عندما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى.. وتولى الإمام على أمر غسله وتجهيزه كى يوارى مثواه الأخير.. قد خاطبه ـ وهو يتولى غسله فقال:

(١) المصدر السابق. جـ١ ص ٢٢٢، ٢٢٣.
(٢) المصدر السابق. جـ١ ص ٢٣٠.

«بأبى أنت وأمى يا رسول الله! لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء»[1].

إن هذه الكلمات الجامعة للإمام على تنقض كل الذى قالت به الشيعة عن استمرار علاقة السماء بالأئمة، مما سبقت الإشارة إلى بعضه فيما تقدم من صفحات.

* * *

* ولقد رتبت الشيعة الإمامية على هذا السلطان الدينى المطلق للأئمة ـ الذين اختارهم الله منذ ما قبل خلق آدم.. وجعلهم الأوصياء المعيذين بالأمر الإلهى.. وزاد فى أقدارهم على أقدار الأنبياء والمرسلين.. وجعلهم الحجة الحافظة للدين.. رتب الشيعة على هذا السلطان الدينى المطلق للأئمة سلطانًا دنيويًا مطلقًا.

وإذا كان للأئمة ـ فى هذه النظرية الإلهية للإمامة ـ سلطة تكوينية على كل ذرات الكون.. وإذا كان الله فوض إليهم الخلق والرزق.. فإن لهم هذه الأرض التى يعيش عليها الناس بكل ما حوت من الأموال والثروات.

وفى ذلك، يروون عن بعض رجالاتهم ـ أيام جعفر الصادق ـ قوله «إن الدنيا كلها للإمام على جهة الملك، وأنه أولى بها من الذين هى فى أيديهم».

وينسبون إلى رسول الله ﷺ حديثًا يروونه عن أبى جعفر محمد بن علىّ زين العابدين ـ يقول فيه الر سول:

«خلق الله آدم وأقطعه الدنيا قطيعة، فما كان لآدم فلرسول الله، وما كان لرسول الله فهو للأئمة من آل محمد..».

ويروون عن جعفر الصادق قوله:

«إن جبريل كرى ـ [أى استحدث] خمسة أنهار: الفرات ودجلة، ونيل مصر، ومران، ونهر بلخ، فما سقت أو سقى منها فللإمام، والبحر المطيف بالدنيا للإمام..»[2].

(١) [نهج البلاغة] ص ٢٨٠ طبعة دار الشعب القاهرة.
(٢) [الكافى] جـ١ ص ٤٠٩.

كما ينسبون إليه رده على من قال: إن للأئمة خمس الأموال.. إذ قال الإمام جعفر:

«أو مالنا من الأرض وما أخرج الله منها إلا الخمس؟! إن الأرض كلها لنا، فما أخرج الله منها من شيء فهو لنا.. وكل ما فى أيدى شيعتنا من الأرض فهم فيه محللون حتى يقوم قائمنا فيجبهيم طسق [وظيفة من الخراج] ما كان فى أيديهم، وأما ما كان فى أيدى غيرهم فإن كسبهم من الأرض حرام عليهم حتى يقوم قائمنا فيأخذ الأرض من أيديهم ويخرجهم صفرة..»[1].

فليس للناس ـ من الأرض وما فيها ـ إلا ما أكلوا.. وما زاد على ذلك فللإمام.. وهم ينسبون فى تقرير ذلك كلامًا للإمام على، رووه عن الإمام زين العابدين يقول فيه:

«إن الأرض كلها لنا، فمن أحيا أرضًا من المسلمين فليعمرها، وليؤد خراجها إلى الإمام من أهل بيتى، وله ما أكل منها.. حتى يظهر القائم من أهل بيتى بالسيف، فيحويها ويمنعها، ويخرجهم منها.. إلا ما كان فى أيدى شيعتنا فإنه يقاطعهم على ما فى أيديهم ويترك الأرض فى أيديهم»[2].

فنحن أمام نظرية متكاملة فى الإلهية الإمامية.. وتأليه الأئمة، فالله هو الذى اختارهم وعينهم وأوصى بهم.. وهو الذى فوض إليهم سلطانه ـ بما فى ذلك الخلق والرزق ـ كما جعلهم القيمين على القرآن، بل والمقدمين عليه.. وجعل سلطانهم أدوم من سلطان النبوة والرسالة.. كما جعل لهم الأرض كلها.

وإذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد قال ـ فى قرآنه الكريم: [والأرض وضعها للأنام] الرحمن:

١٠ ـ فإن الشيعة الإمامية قد قالوا: «الأرض وضعها للإمام!».

* ولقد جعلت الشيعة الإمامية ـ بمن فى ذلك الإثنى عشرية ـ هذه النظرية فى «الإمامة الإلهية» وتأليه الأئمة عقيدة دينية، من أمهات الاعتقاد الدينى «لا يتم الإيمان

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٤٠٨ والصفرة ـ بفتح الصاد وسكون الفاء ـ من معانيها: المرة، والجوعة: أى أخرجهم مرة واحدة، أو جوعى.
(٢) المصدر السابق. جـ١ ص ٤٠٧، ٤٠٨.

إلا بالاعتقاد بها»[1]. بل جعلوها أدخل فى أصول الدين وأؤكد فى أركانه من معرفة الله، وعد له ونبوة أنبيائه، وذلك عندما جعلوا «قواعد الإيمان ـ بما فيه الإسلام خمسة:

ـ المعرفة: بما فيها الصفات الثبوتية والسلبية.

ـ التصديق: بالعدل والحكمة.

ـ التصديق: بنبوة محمد، وجميع ما جاء به.

ـ التصديق: بإمامة الأئمة الإثنى عشر، وما جاءوا به.

ـ التصديق: بالمعاد الجسمانى.

ثم جعلوا القواعد «الثلاثة الأولى خاصة بالإسلام، والأخيرين من امتياز الإيمان»[2]، هكذا بلغ الغلو بالشيعة الإمامية إلى هذا الحد. حد إلهية الإمامة.. وتأليه الأئمة. على هذا النحو الذى أشرنا إلى معالمه من مصادرهم الأصلية والمتعمدة ـ منذ نشأتهم وحتى هذه اللحظات.

* * *

وفى هذا الكتاب، الذى نقدم بين يديه، والذى كتبه العالم الشيعى الحجة الدكتور أحمد الكاتب.. اعتراف صريح بصدق هذا الذى عرضناه.

ففى المبحث الثانى من الفصل الأول ـ فى الباب الأول ـ حول [عقيدة الإمامة الإلهية] يتحدث الدكتور أحمد الكاتب عن أن هذه النظرية الشيعية فى الإمامة قد طرأت على الفكر الإسلامى عند الشيعة ـ ولم تكن موجودة فى القرون الإسلامية الأولى فيقول:

«وفى تلك الأيام الأولى لنشوء المذاهب، لم يكن موضوع الإمامة أو الخلافة

(١) [عقائد الإمامية] ص ٦٥.

(٢) [تلخيص الشافى] جـ١ ق١ ص٩١ ـ هامش ـ وكذلك ص ٥٩ ، ٦٠ انظر ـ كذلك أبو حنيفة المغربى النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد التميمى [دعائم الإسلام] جـ١ ص ٢، ١٣ تحقيق: آصف بن على أصغر فيضى. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

يعتبر أصلًا من أصول الدين، لأن القرآن الكريم لم يتحدث عنه بالتفصيل، ولكن مبادرة فريق من الشيعة، عُرف بالإمامية أو الرافضة، إلى القول ـ فى القرن الثانى الهجرى ـ بموضوع النص من النبى على الأمام علىّ بالخلافة، وانحصار الحق بها فى البيت العلوى الحسينى، والاستدلال بتأويلات معينة لبعض آيات القرآن الكريم أو الاستعانة على ذلك بأحاديث عامة أو ضعيفة.. كل ذلك رفع موضوع الإمامة إلى مصاف العقيدة وجعل الموضوع جزءًا ملحقًا بالنبوة وامتدادًا لها.. وبعد رفع الشيعة موضوع الإمامة إلى مصاف العقيدة، كان لا بد أن ينعكس ذلك على الموقف من غير المؤمنين بها تكفيرًا وتفسيقًا وتضليلًا..».

هكذا شخص الدكتور أحمد الكاتب ـ فى شجاعة وموضوعية وإخلاص ـ نشأة المشكلة، التى قسمت الأمة الإسلامية.. عندما رفع الشيعة مقالتهم فى الإمامة من الفروع والفقهيات إلى «مصاف العقيدة وجعلوا موضوعها ملحقًا بالنبوة وامتدادا لها» فغدت إمامة إلهية وليست خلافة سياسة وأصبح الأئمة ـ فى هذه الإمامة الإلهية ـ مفوضين عن الله فى القيام بكل سلطان الله ـ بما فى ذلك الخلق والرزق ـ بدلًا من أن يكونوا مستخلفين عن الأمة، المستخلفة لله ـ كما هو الحال فى فكر أهل السنة والجماعة.

ومن ثم ـ وبعد أن غدت هذه الإمامة هى العقيدة الأم من عقائد الدين ـ أصبح الإيمان وقفًا على المؤمنين بها. والكفر حكمًا على المخالفين فيها!

لقد انعكس موقف الشيعة الإمامية تجاه أهل السنة والجماعة بسبب هذا التحول المفصلى الذى حدث وطرأ فى القرن الهجرى الثانى فأصبح «تكفيرًا وتفسيقًا وتضليلًا» بسبب هذه النظرية الشيعية فى «الإمامة الإلهية».

أى أن موطن الخلل إنما جاء من رفع الشيعة موضوع الإمامة من «الفروع والسياسات والفقهيات» إلى مصاف «العقيدة الدينية»، الأمر الذى رفع معايير الخلاف حولها ـ بين الشيعة والسنة ـ من «الخطأ والصواب» فى الاجتهادات إلى «التكفير والتفسيق والتضليل لهؤلاء المخالفين»!

* ويعترف الدكتور أحمد الكاتب ـ فى حديثه عن [الغلو والغلاة] عند قدماء الشيعة ـ والذين اشتهر منهم:

١ـ عبد الله بن سبأ [٤٠هـ/ ٦٦٠م] ـ فى حياة الإمام علىّ بن أبى طالب [٢٣ ق هـ ـ ٤٠هـ/ ٦٠٠ـ ٦٦١م]

٢ـ وبيان بن سمعان الهندى فى زمن الإمام علىّ بن الحسين ـ زين العابدين [٣٨ـ ٩٤هـ/ ٦٥٨ـ ٧١٢م].

٣ـ والمغيرة بن سعيد فى زمن الإمام الباقر [٥٧ـ ١١٤هـ/ ٦٧٦ـ ٧٣٢م].

٤ـ وحمزة بن عمارة البربرى.

٥ـ والحارث الشامى.

٦ـ وعبد الله بن الحارث.

٧ـ وأبو الخطاب محمد بن أبى زينب الأسدى ـ الذى قال: إن جعفر الصادق [٨٠ـ ١٤٨هـ/ ٦٩٩ـ ٧٦٥م] هو إله زمانه.

يعترف الدكتور أحمد الكاتب بأن «بعضًا من أفكار هؤلاء الشيعة الغلاة مثل استمرار نزول الوحى بشكل أو بآخر، على الأئمة، ودعوى علمهم بالغيب، وإتيانهم بالمعاجز [المعجزات] كعلامة من علامات الإمامة الإلهية، ومهمة من مهماتها قد تسرب إلى الفكر الإمامى».

* وإذا كانت «المدرسة الأصولية الاجتهادية» الشيعية قد راجعت الكثير من المرويات التى قبلتها وروجتها «المدرسة الإخبارية الشيعية» فإن هذه المراجعة «التى ترعرعت فى النجف وكربلاء فى القرن التاسع عشر، لم تمتد ـ باعتراف الدكتور أحمد الكاتب ـ إلى حقل اعتقاد الغلاة والإخباريين فى الإمامة الإلهية وفى تأليه الأئمة والارتفاع بهم فوق مراتب الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين.

* نعم.. لقد راجعت المدرسة الأصولية الاجتهادية بعض القضايا التى تسهم مراجعتها فى التقريب بين الشيعة والسنة.. وفى مقدمة هذه القضايا دعاوى المدرسة الإخبارية الشيعية وقوع تحريف حدث للقرآن الكريم».

فكتاب [الأصول من الكافى] ـ للكلينى والذى يناظر صحيح البخارى عند أهل السنة والجماعة تبلغ روايات الأحاديث الشيعية التى تزعم تحريف القرآن الكريم فيه درجة

التواتر، لكن المدرسة الأصولية الاجتهادية الشيعية بدأت مراجعة درجات أحاديث الكافى.. فخلصت إلى أن فيه الضعيف والمرسل وما لا يوافق القرآن.. وإن أحاديثه البالغة ١٦١٩٩ حديثًا لم يصح منها سوى ٥٠٧٢ ـ أى أقل من الثلث.. والحسن فى أحاديث الكافى ١٤٤ حديثًا والموثق ١١٢٨ حديثًا والقوى ٣٠٢ حديث.. والضعيف ٩٤٨٠ حديثًا أى أن ثلثا أحاديث [الكافى] هى أحاديث ضعيفة»[١].

وبهذه المراجعة ـ من المدرسة الأصولية الاجتهادية ـ لأهم مصادر الحديث الشيعية التى مثلت ديوان الخلاف بين الشيعة والسنة، فتحت المدرسة الأصولية الاجتهادية بابًا مهمًا من أبواب التقريب بين الشيعة والسنة ـ لم يستثمر فتحه الاستثمار الأمثل حتى الآن: وإن كان قد أثمر مراجعة الموقف الشيعى الإخبارى فى دعاوى تحريف القرآن الكريم.

* * *

لقد سبق وانطلقت المدرسة الإخبارية الشيعية من مرويات [الكافى] حول دعاوى تحريف القرآن الكريم، فطفحت مجلدات علمائها ومراجعها بهذه الدعاوى.. وفى ذلك:

١ ـ قال الشيخ المفيد محمد بن النعمان [٣٣٨ـ ٤١٣هـ/ ٩٥٠ـ ١٠٢٢م]:

«إن الخبر قد صح عن أئمتنا عليهم السلام أنهم قد أمروا بقراءة الدفتين [أى القرآن الحالى] وأن لا نتعداه إلى زيادة فيه ولا إلى نقصان منه إلى أن يقوم القائم عليه السلام ـ [الإمام الغائب] فيقرئ الناس على ما أنزل الله تعالى وجمعه أمير المؤمنين عليه السلام»[٢].

«وإن الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمة الهدى من آل محمد باختلاف القرآن، وما أحدثه بعض الظالمين فيه من الزيادة والنقصان»[٣].

(١) الشيخ رسول جعفريان [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] ،ص٧٩، ٨٠ تقديم د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

(٢) الشيخ المفيد [المسائل السرورية] ص ٨٨، ٨٩.

(٣) الشيخ المفيد [أوائل المقالات] ص ٥٤. طبعة نبريز ـ إيران.

٢ ـ وقال الفيض الكاشانى [٤٨٤هـ/ ١٠٩١م]:

«والمستفاد من جميع هذه الأخبار وغيرها من الروايات، من طريق أهل البيت عليهم السلام، أن القرآن الذى بين أظهرنا ليس بتمامه كما أنزل على محمد ﷺ وآله ـ بل منه ما هو خلاف ما أنزل الله، ومنه ما هو مغير محرف، وأنه قد حذف منه أشياء كثيرة منها: اسم علىّ عليه السلام فى كثير من المواضع، ومنها: لفظة آل محمد غير مرة، ومنها: أسماء المنافقين فى مواضعها، وغير ذلك، وأنه ليس أيضًا على الترتيب المرضى عند الله وعند رسوله ﷺ وآله..»(١).

٣ ـ وقال نعمة الله الجزائرى [١٠٥٠ ـ ١١١٢هـ/ ١٦٤٠ ـ ١٧٠١م]:

«والأخبار المستفيضة، بل المتواترة دالة بصريحها على وقوع التحريف فى القرآن كلًاما وإعرابًا»(٢).

٤ ـ وقال المجلسى ـ محمد باقر [٤١٨ ـ ٥٠٤هـ/ ١٠٢٧ ـ ١١١١م]:

«لقد روى عن جعفر الصادق ـ عليه السلام ـ أنه قال: «إن القرآن الذى جاء به جبريل ـ عليه السلام ـ إلى محمد ـ ﷺ وآله ـ سبعة عشر ألف آية».. «ولا يخفى أن هذا الخبر وكثيرًا من الأخبار الصحيحة صريحة فى نقص القرآن وتغييره، وعندى أن الأخبار فى هذا الباب متواترة معنى..»(٣).

٥ ـ وقال أبو الحسن العاملى المولى ـ محمد طاهر ـ الفتونى:

«اعلم أن الذى يظهر من ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكلينى طاب ثراه ـ أنه كان يعتقد التحريف والنقصان فى القرآن، لأنه روى روايات كثيرة فى هذا المعنى فى كتابه [الكافى] الذى صرح فى أوله بأنه كان يثق فيما رواه فيه، ولم يتعرض لقدح فيها، ولا ذكر معارض لها»(٤).

(١) الفيض الكاشانى [تفسير الصافى] المقدمة السادسة جـ١ ص٤٤ طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.
(٢) نعمة الله الجزائرى [الأنوار النعمانية] ،جـ٢ ص ٣٥٧ـ طبعة تبريز ـ إيران.
(٣) المجلس [مرآة العقول]، جـ١٢ ص ٥٢٥، ٥٢٦ طبعة دار الكتب الإسلامية ـ طهران.
(٤) الفتونى [مرآة الأنوار]، ص ٤٩ طبعة طهران سنة ١٣٧٤هـ.

وقال المحدث الشيعى يوسف البحرائى:

«ولا يخفى ما فى هذه الأخبار من الدلالة الصريحة والمقالة الفصيحة على ما اخترناه ووضوح ما قلناه [من حدوث نقص وتحريف فى القرآن] ولو تطرق الطعن إلى هذه الأخبار، على كثرتها وانتشارها، لأمكن الطعن فى أخبار الشيعة كلها كما لا يخفى، إذ الأصول واحدة، وكذا الطرق والرواة والمشايخ والنقلة. ولعمرى إن القول بعدم التغيير والتبديل لا يخرج عن حسن الظن بأئمة الجور وأنهم لم يخونوا فى الأمانة الكبرى، مع ظهور خيانتهم فى الأمانة الأخرى التى هى أشد ضررًا على الدين»[1].

* * *

هكذا.. وبعد أن طفحت كتب المدرسة الإخبارية بهذه الدعاوى والروايات عن تحريف القرآن.. راجعت المدرسة الأصولية الاجتهادية هذه الدعاوى ودعت إلى تجاوزها.

ففى كتاب صدر ـ بطهران سنة ١٤٠٦هـ/ سنة ١٩٨٥م ـ للشيخ جعفر رسوليان عنوانه [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] نجد المراجعة الشيعية لدعاوى المدرسة الإخبارية تحريف القرآن الكريم واضحة وحاسمة ففيه:

تفنيد وإنكار لوجود ما سمى «مصحف علىّ» ولدعوى أنه ـ كرم الله وجهه ـ قد جمع مصحفه هذا فى ثلاثة أيام.

وفى هذا الكتاب نص على أن الإمام علىّ قد أيد جمع عثمان بن عفان [٤٧ ق هـ ـ ٣٥هـ/ ٥٧٧ ـ ٦٥٦م] الأمة على المصحف الموحد، وقال: «لو وليت لفعلت مثل الذى فعل» وأنه قد أحرق مصحفه، معلنًا اجتماع الأمة على المصحف الإمام.

وفيه إنكار لدعاوى الإخبار بين وجود ما سمى «بمصحف فاطمة» فلا وجود لهذا المصحف المزعوم.. والروايات إنما كانت تتحدث فى الغالب ـ عن «وصية» أو «علم» «ليس فيه قرآن».

(١) يوسف البحرانى [الدرر النجفية]، ص ٢٩٨ طبعة مؤسسة آل البيت.

وفى هذا الكتاب نصوص لعدد من أعلام علماء المدرسة الأصولية الاجتهادية تؤكد على الحفظ الإلهى للقرآن الكريم من التحريف.

فبعد الأحاديث التى جمعها الإخباريون حول دعاوى تحريف القرآن ـ والتى بلغت فى [الكافى] درجة التواتر.. وبعد أن كتب ميرزا حسين النورى [١٣٢٠] ـ الذى كان يوصف فى أدبيات الإخباريين ـ «بالشيخ الأجل، ثقة الإسلام، خِرّيت صناعة الحديث، وجامع أخبار الأئمة والعالم المتبحر، والمحدث الناقد البصير».. بعد أن كتب كتابه [فصل الخطاب فى تحريف كتاب رب الأرباب] جاء علماء المدرسة الأصولية الاجتهادية لينقدوا وينقضوا دعوى التحريف هذه.

* فالعلَّامة الطباطبائى يقول عن القرآن الكريم:

«إنه ذكر حى خالد مصون من أن يموت وينسى من أصله، مصون من الزيادة عليه بما يبطل كونه ذكرًا، مصون من النقص كذلك، مصون من التغيير فى صورته وسياقه بحيث تتغير به صفة كونه ذكرًا لله مبينًا لحقائق معارفه. فالآية ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] تدل على كون كتاب الله محفوظًا بجميع أقسامه.. فالقرآن محفوظ بعد إنزاله إلى الأبد».

* والسيد الخوئى [١٣١٧ـ ١٤١٢هـ/ ١٨٩٩ ـ ١٩٩٢م] يقول فى تفسير نفس الآية:

«إنها تدل على حفظ القرآن من التحريف، وأن الأيدى الجائرة لن تتمكن من التلاعب فيه»

* والفيض الكاشانى [١٠٩١هـ] يقول:

[وإنا له لحافظون] من التحريف والتغيير والزيادة والنقصان».

* والشيخ أبو على الطبرسى يقول فى تفسير نفس الآية:

«[وإنا له لحافظون] عن الزيادة والنقصان والتحريف والتغير».

ويروى عن الحسن:

«معناه: نتكفل بحفظه إلى آخر الدهر على ما هو عليه، فتنقله الأمة وتحفظه عصرًا بعد عصر إلى يوم القيامة، لقيام الحجة به على الجماعة من كل من لزمته دعوة النبى ﷺ».

* والسيد المرتضى على بن الحسين الموسوى [٤٣٦هـ] وهو طليعة المدرسة الأصولية الشيعية يقول:

«إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار، والوقائع العظام، والكتب المشهورة، وأشعار العرب المسطورة، فإن العناية اشتدت، والدواعى توفرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حد لم يبلغه فيما ذكرناه. لقد كان القرآن على عهد رسول الله ﷺ مجموعًا مؤلفًا على ما هو عليه فى ذلك الزمان حتى عيّن النبى على جماعة من الصحابة حفظهم له، وكان يُعرض على النبى عدة ختمات، وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموعًا مرتبًا غير مبتور ولا مبثوث ومن خالف فى ذلك لا يعتد بخلافه، لأن المخالفين نقلوا أخبارًا ضعيفة ظنوًا صحتها، ولا يرجع بمثلها على المعلوم المقطوع بصحته»[1].

هكذا راجعت المدرسة الأصولية الاجتهادية الشيعية تراث المدرسة الإخبارية حول دعاوى تحريف القرآن الكريم.. كما فتحت الباب لنقد المرويات الحديثية التى جمعتها المدرسة الإخبارية.. ومنها كتاب الكلينى [الأصول من الكافى].

* * *

لكن هذه المراجعة ـ مع الأسف والاستغراب ـ لم تقترب من تراث المدرسة الإخبارية فى «نظرية الإمامة الإلهية» و«تأليه الأئمة» ـ وهى جوهر الخلاف بين الشيعة والسنة.. فبقى الغلو الشيعى القديم فى هذه القضية قائمًا فى الفضاء الشيعى الحديث والمعاصر!

بل إن مراجعة الأصوليين المجتهدين لدعاوى الإخبار بين حول تحريف القرآن ـ وهى الدعاوى التى نشأت لدعم نظرية الإمامة الإلهية وتأليه الأئمة ـ لم تظهر لها

(١) المرجع السابق ص ٩١ـ ٩٧ ـ والكتاب يورد نصوصًا وأسماء لقرابة الثلاثين من علماء الشيعة ينكرون حدوث أى تحريف فى القرآن الكريم.

أية ثمرات فى فكر الأصوليين حول هذه النظرية فى الإمامة الإلهية فالأصوليون نفوا تحريف «التنزيل» واستمروا فى استخدام «التأويل» للحفاظ على الغلو الشيعى القديم فى فكرهم الحديث والمعاصر حول نظرية الإمامة.. فظل هذا الغلو الشيعى «ثابتًا» حتى هذه اللحظات!

ظاهرة الغلو الحديثة

تحت هذا العنوان، يقول الدكتور أحمد الكاتب:

«لقد شهد القرن التاسع عشر ظهور بعض من ينتمى إلى المدرسة الأصولية يميل إلى المنهج الإخبارى الحشوى فيما يتعلق بنظرته إلى أئمة أهل البيت.. حيث أخذ بعض رجال الدين، يتلقف الروايات الضعيفة دون تمحيص أو نقد أو تأكد من مصادرها وأسانيدها، أو دراسة رجالها، ولذلك وقع فى فتنة الغلو، وأخذ ينسب صفات الربوبية إلى أئمة أهل البيت، أو يدعى لهم مقامات عليا أو أدوارًا فوق مستوى البشر، ومهمات من أعمال الله تعالى كإدارة الكون أو الخلق والرزق وما إلى ذلك، تحت غطاء نظرية (الولاية التكوينية) التى كان يقول بها المفوضة من قبل».

هكذا شهد الدكتور أحمد الكاتب ـ وهو العالم الخبير بالفكر الشيعى «والمخلص للحقيقة الفكرية والعلمية ـ بأن تيار الغلو فى الفكر الشيعى، الذى ساد فى المدرسة الإخبارية القديمة، والذى أله الأئمة، قد عاد وساد فى الفكر الشيعى الحديث والمعاصر».

ثم أخذ يضرب الأمثال على المراجع الشيعية الذين ساد فكرهم، ومثل غلوهم فى نظرية الإمامة «ظاهرة الغلو الجديدة» هذه فقال:

«ويمكننا أن نأخذ أمثلة على ظاهرة الغلو الجديدة بعدد من المشايخ من أمثال:

* الشيخ محمد الوحيد الخراسانى [١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م] مدرس علم الأصول فى قم، والذى يقول بصراحة بتفويض الله تعالى للأئمة الخلق والرزق وما إلى ذلك من أعمال الله تعالى، وأن الأئمة هم وسائط فعاليات مخلوقاته، ويدعى أن هذا التفويض صحيح، لا ينافى الإيمان بالله تعالى.

ومما يقول الخراسانى:

«إن الأئمة هم فاعلون ما به الوجود، وإن الله منه الوجود، وإن إمام العصر صار عبدًا، وعندما صار عبدًا صار ربًا، فالعبودية جوهرة كنهها الربوبية، فمن ملك هذه الجوهرة تحققت ربوبيته بالله تعالى لا بالاستقلال بالنسبة إلى الأشياء الأخرى»[1].

هكذا نجد أنفسنا ـ أمام هذا النص الذى أورده الدكتور أحمد الكاتب ـ موثقًا ـ إزاء تأليه الأئمة، فى المدرسة الشيعية الحديثة والمعاصرة ـ يصل إلى حد «تغبيش» التوحيد الإسلامى، فإمام العصر قد صار ربًا، وربوبيته قد تحققت بالله، لا بالاستقلال عن الله ـ فهو شريك ـ والأئمة هم الفاعلون لما به الوجود! والمفوض إليهم أمر الخلق والرزق بالنسبة للعباد!

ثم يورد الدكتور أحمد الكاتب نموذجًا ثانيًا من نماذج ظاهرة الغلو الجديدة فى الفكر الشيعى الحديث والمعاصر، وهو:

السيد محمد الشيرازى [١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م]: الذى يعتقد «بتفويض الله للنبى وللأئمة من أهل البيت الولاية التشريعية والولاية التكوينية ، وذلك بمعنى أن زمام العالم بأيديهم، فلهم التصرف فيه إيجادًا وإعدامًا، كما أن زمام الإمامة بيد عزرائيل وأنهم الوسائط فى خلق العالم والعلة الغائية له، كما أنهم سبب لطف الله تعالى وإفاضته على العالم، واستمرار قيام العالم بهم»[2].

أما النموذج الثالث ـ الذى يورده الدكتور أحمد الكاتب ـ على عودة واستمرار ـ الغلو وتأليه الأئمة، والادعاء بأن لهم فى هذا الكون ولاية تكوينية على كل ذرات هذا الكون، فهو:

* الإمام آية الله العظمى الخمينى [١٣٢٠ـ١٤٠٩هـ/ ١٩٠٢ـ١٩٨٩م] ـ الذى يورد الدكتور أحمد الكاتب نصوص الغلو الشيعى موثقة ـ من كتبه فيقول:

(١) محاضرة بقم ـ فى ١٣ شعبان سنة ١٣١١هـ بعنوان «مقتطفات ولائية»، ص٣٩.

(٢) [من فقه الزهراء]، جـ١ ص ١٠، ١١، ١٧ نقلاً عن كتاب عوالم العلوم ومدركاتها ـ مجلد فاطمة جـ١.

«لقد نشر مؤخرًا كتاب نسب إلى الإمام الخمينى تحت عنوان [مصباح الهداية إلى الولاية والخلافة] ورد فيه ما يلى:

«إن للأئمة مراتب متعددة مثل:

مرتبة (إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبى مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان.

ومرتبة: (إن لنا حالات مع الله نكون فيها هو نحن ونحن هو إلا أنه هو هو ونحن نحن)، والتى أشارت إليها أدعية الناحية المقدسة فى رجب: (ولا فرق بينك وبينهم إلا أنهم عبادك)، وكما ورد فى الزيارة الجامعة الشريفة: (حساب الخلق عليكم وإيابهم إليكم)، أو قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه (أنا الذى يدخل أهل الجنة لجناتهم) فهو قسيم النار والجنة كما ورد متواترًا..».

«وبما علمناك من البيان وآتيناك من التبيان يمكن لك فهم قول مولى الموحدين وقدوة العارفين أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين:

كنت مع الأنبياء باطنًا مع رسول الله ظاهرًا، فإنه صلوات الله عليه صاحب الولاية المطلقة الكلية، والولاية باطن الخلافة، والولاية المطلقة الكلية باطن الخلافة الكذائية، فهو ـ عليه السلام ـ بمقام ولايته الكلية قائم على كل نفس بما كسبت، ومع كل الأشياء معية قيومية ظلية إلهية ظل المعية القيومية الحقة الإلهية»[1].

ثم يواصل الدكتور أحمد الكاتب حديثه قائلًا:

« وهذا ما ينسجم مع ما ورد فى كتاب [الحكومة الإسلامية] ـ للخمينى الذى يقول فيه: «إن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبى مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم ﷺ وآله وسلم والأئمة (عليهم السلام) كانوا قبل هذا العالم أنوارًا، فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله. وقد قال جبرائيل كما ورد فى رواية المعراج: لو دنوت أنملة لاحترقت.

(١) الخمينى [مصباح الهداية إلى الولاية والخلافة]، ص٨٤.

وقد ورد عنهم ـ عليهم السلام ـ : إن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبى مرسل»[1].

وقول الخمينى:

«إن حقيقة التوحيد لا تكون تامة من غير ولايتهم عليهم السلام.. وإن ثبوت الولاية والحاكمية للإمام لا تعنى تجرده من منزلته التى هى له عند الله، ولا تجعله مثل من عداه من الحكام، فإن للإمام مقامًا محمودًا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون»[2].

«وإن هولى مادة عالم الإمكان مسخرة تحت يدى الولى يقلبها كيف يشاء»[3].

كما يقول الخمينى فى [كتاب الأربعين حديثًا:

«إن الأحاديث المأثورة فى طينة أبدانهم [الأئمة] ـ وخلق أرواحهم ونفوسهم، وفيما منحوا من الاسم الأعظم والعلوم الغيبية الإلهية من علوم الأنبياء والملائكة ومما هو أعظم مما لا يخطر على بال أحد، وهكذا الأخبار المنقولة فى فضائلهم فى مختلف الأبواب من الكتب والمعتبرة وخاصة كتاب أصول الكافى، إن مثل هذه الأخبار الكثيرة بقدر تبعث على تحير العقول، ولم يقف أحد على حقائقهم وأسرارهم عليهم السلام إلا أنفسهم»[4].

* * *

أما النموذج الرابع فى مدرسة «الغلو الشيعى» الجديدة والذى أورده الدكتور أحمد الكاتب، فهو:

* الشيخ مرتضى المطهرى: الذى يقول فى كتابه [الإمامة]:

(١) الخمينى [الحكومة الإسلامية]، ص ٥٢، ٥٣.
(٢) المصدر السابق. ص٢٥.
(٣) [مصباح الهداية إلى الولاية والخلافة] ص ٥٣.
(٤) الخمينى [الأربعون حديثًا] ص٤٨٩ـ الحديث رقم ٣١ ـ طبعة مؤسسة دار الكتاب الإسلامى تعريب محمد الغروى.

«الأئمة هم أشخاص متخصصون فى الإسلام، بيد أن تخصصهم ومعرفتهم فى الإسلام لم تكن انطلاقًا من عقلهم واعتمادًا على فكرهم، لأن معرفة مثل هذه واختصاصًا من هذا القبيل يداخله الخطأ بالضرورة بل إن الأئمة أخذوا علوم الإسلام من النبى ﷺ وآله بطريق غيبى نجهله».

لقد تحولت المعرفة من النبى ﷺ وآله إلى على عليه السلام ومنه بلغت الأئمة من بعده، وفى جميع أدوار الأئمة كان هناك علم إسلامى معصوم لا يخطئ يتحول من إمام إلى الذى يليه»[1].

«وإن للإمامة درجة ومرتبة ثالثة (بالإضافة إلى القيادة السياسية والعلمية) هى ذروة مفهوم الإمامة. وكتب الشيعة مليئة بهذا المفهوم للإمامة، الذى يعد وجهًا مشتركًا بين التشيع والتصوف.

إن للولى الكامل، الذى ينطوى على (صفات) الإنسانية بشكل تام وكامل، مقامات بعيدة كل البعد عن أذهاننا، ومن بين المقامات التى تذكر له: تسلطه على الضمائر، أى القلوب، انطلاقًا من كونه روحًا كلية بجميع الأرواح»[2].

«إن مسألة الولاية تطرح عادة فى الاعتقاد الشيعى بهذا المعنى نفسه، ولكن على نحو مكثف جدًّا، فهى تطرح بمعنى أن يكون الولى حجة الزمان، بحيث لا يكون ثمة زمان خالى من الحجة أبدًا..ولولا الحجة لساخت الأرض بأهلها.

إننا نعتقد أن للإمام مثل هذه الروح الكلية ونحن نقول فى الزيارة التى نقرأها جميعًا باستمرار، وهى جزء من أصول التشيع «أشهد أنك تشهد مقامى، وتسمع كلامى وترد سلامى».

نحن نخاطبه بهذا الكلام وهو ميت، ولا فرق بالنسبة لنا فى تحَليه بهذا المقام ـ بين حياته ومماته»[3].

(١) المطهرى [الإمامة] ص٤٧.
(٢) المصدر السابق. ص٥٢.
(٣) المصدر السابق. ص٥٢.

«إننا حين نطرح الإمامة بمثل هذا التصور الساذج ونختزلها فى الحكم وحده بحيث نقول إن الإمامة تساوى الحكومة وحسب، فعندئذ نجد أن نظرية أهل السنة وما يذهبون إليه فى المسألة تتحلى بجاذبية أكبر من نظرية الشيعة وما يعتقدون به.. إن الحكومة من الفروع، وهى لا تعدو أن تكون شأنا صغيرًا جدًّا من شئون الإمامة»[١].. «إن الإمامة عند الشيعة مفهوم يناظر النبوة[٢] إن أهل السنة لم يتعدوا فى الإمامة أكثر من حد الحكومة، أما الإمامة عند الشيعة فهى تأتى تالى تلو النبوة، بل هى أرفع من بعض درجات النبوة[٣] إنها ظاهرة ومفهوم يناظر النبوة فى أعلى درجاتها.. إنها أمر شبيه بنبوة الأنبياء العظام»[٤].

* * *

ويسوق الدكتور أحمد الكاتب نموذجًا سادسًا من نماذج مراجع هذا الغلو الشيعى الحديث والمعاصر.. نموذج:

* السيد محمد تقى المدرسى: الذى يقول:

«إن الإنسان الذى يعتقد بالوحى لابد أن يؤمن أيضًا بامتداد هذا الوحى المتمثل فى الأئمة عليهم السلام، وأن هذا الامتداد يتجسد بل يرتفع وينمو حتى يصل إلى قمته، وإلى ذروة امتداد الرسالة المتمثلة فى الإمام الحجة المنتظر عجل الله تعالى فرجه»[٥].

* * *

هكذا عرض الدكتور أحمد الكاتب نصوص مراجع المدرسة الشيعية الحديثة والمعاصرة، «الغلاة الجدد» بتعبيره.. أولئك الذين بعثوا فى العصر الحديث ـ غلو الشيعة الإخباريين القدماء.

فألهوا الأئمة، وأشركوهم مع الله فى إيجاد هذا الوجود. وجعلوا خلقهم سابقًا على وجود هذا العالم.. وجعلوا لهم فى هذا العالم ولاية تكوينية على جميع ذرات الوجود.

(١) المصدر السابق. ص ٥٢، ٦٩، ٧٠.
(٢) المصدر السابق. ص ١٨٦.
(٣) المصدر السابق. ص ١٨٧.
(٤) المصدر السابق. ص ٢١٣.
(٥) السيد محمد تقى المدرسى [الإمام المهدى قدوة الصديقين] ص٩.

فهم الذين فوض الله إليهم إدارة الكون.. ولهم فيه الخلق والرزق. فإمام العصر هو رب العصر.. وزمام العالم بيد الأئمة، إيجادًا وإعدامًا.. وحساب الخلق عليهم، وإيابهم إليهم والإمام هو القائم على كل نفس بما كسبت.. وكل مادة هذا الوجود تحت يدى الإمام يقلبها كيف يشاء، وهم المتسلطون على الضمائر والقلوب.. ولولاهم لساخت الأرض بأهلها.

لقد رفعت الشيعة قديمًا وحديثًا ـ مقام أئمتهم على مقامات الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين، وقالوا بحياتهم بعد مماتهم.. وببلوغ الوحى الإلهى إليهم قمته.

لقد آلهوا الأئمة عندما أشركوهم مع الله فى إيجاد هذا العالم وفى إدارة هذا الوجود.

* * *

وهنا نسأل:

ـ إذا كان الأمر كذلك وإذا كان هذا هو جوهر الخلاف بين الشيعة والسنة وإذا كانت هذه هى درجة التعقيد والخطورة فى هذا الخلاف ـ كما عرضه الدكتور أحمد الكاتب.

فهل يجوز مع هذا التهوين من خطر هذا الخلاف وعمقه وتعقده؟! وأن نقول ـ كما قال الدكتور أحمد الكاتب:

«إن هذا الخلاف بين الشيعة والسنة ـ بالدرجة الأولى ـ خلاف سياسى تجاوزه الزمن، ولم تبق منه سوى بعض الرواسب والمخلفات البسيطة التى لا تشكل مادة جدية للخلاف.. فهو لا يدور حول القواعد الثابتة، وربما يتعلق بالقضايا الاجتهادية القائمة على أساس الأدلة الظنية، إنها خلافات «أسميه» وهمية تاريخية، وليست جوهرية ولا حيوية معاصرة».

إننا مع الدكتور أحمد الكاتب عندما يقول:

«لا يجوز دفن الرؤوس فى الرمال»

لكننا نسأله:

ـ من الذى يدفن الرؤوس فى الرمال؟!

لقد عرض الرجل ـ بأمانة العالم الناقد للغلو الشيعى فى الإمامة والأئمة ـ معالم هذا الغلو السائد الآن فى الفضاء الشيعى الإثنى عشرى، على النحو الذى سقناه من خلال النصوص التى نقلها ووثقها فوضعنا جميعًا ـ سنة وشيعة ـ أمام «المهمة الصعبة» وإن لم تكن مستحيلة، مهمة التقريب الحقيقى بين الفئتين اللتين مثل الخلاف بينهما أعمق وأعقد الخلافات التى ظهرت واستمرت فى تاريخ الإسلام..

بل إن الدكتور أحمد الكاتب هو القائل:

«إن موضوع الإمامة الإلهية لأهل البيت، والعصمة، والنص، وموضوع الإمام الثانى عشر المهدى المنتظر الغائب.. والتى تشكل أساس المذهب الإمامى الإثنى عشرى هى مادة الخلاف الرئيسية مع بقية المسلمين».

فالأمر ليس إذن «مجرد خلاف سياسى تجاوزه الزمن، ولم يبق منه سوى بعض الرواسب والمخلفات البسيطة التى تشكل مادة جدية للخلاف».

* * *

والسؤال هو:

هل هناك فى مراجع الشيعة الإثنى عشرية ـ غير الدكتور أحمد الكاتب ـ من لديه شجاعة المراجعة لهذا الاعتقاد فى ألوهية الإمامة وتأليه الأئمة؟!

أم أن هؤلاء المراجع قد أصبحوا سجناء هذا الموروث القديم الذى بعثه «الغلاة الجدد» فى واقعنا الحديث والمعاصر؟!

إننا فى واقع الأمر، أمام نظرية شيعية، جعلت من ألوهية الإمامة وتأليه الأئمة «كهنوتا» غريبًا عن حقيقة الإسلام، كما يعتقده أهل السنة والجماعة، وتلك هى «القضية المعضلة» التى يجب أن توضع على مائدة الحوار بين العلماء العقلاء ـ من الشيعة والسنة ـ إذا كنا نريد حقًا التقريب الحقيقى بين هاتين الفرقتين من فرق المسلمين.

* * *

الموقف الشيعى من صحابة رسول الله ﷺ

لقد أصاب الدكتور أحمد الكاتب كبد الحقيقة عندما قال:

«إن نشوء نظرية الإمامة الإلهية لأهل البيت، وتحولها إلى عقيدة دينية، أو أصل من أصول الدين، لدى الشيعة الإمامية، أوقعهم فى أزمة تاريخية وعداء نظرى مع الشيخين [أبى بكر وعمر] وانفصال واقعى عن ثقافة أهل البيت وتاريخ الشيعة الأوائل الذين كانوا يكنون حبًا واحترامًا كبيرين لأبى بكر وعمر.. فنشأة نظرية الإمامة الإلهية، التى تحصر الحق فى الحكم والخلافة فى أهل البيت.. والتى قالت بالنص والتعيين والحصر فى علىّ وذريته إلى يوم القيامة.. قد انعكس سلبًا على مبدأ الشورى والخلفاء الراشدين الذين اعتبرتهم هذه النظرية غاصبين للخلافة من الإمام علىّ.. ولقد ظهرت هذه النظرية أول ما ظهرت فى الكوفة أثناء ثورة الإمام زيد بن علىّ [٧٩ـ ١٢٢هـ/ ٦٩٨ـ ٧٤٠م] على هشام ابن عبد الملك [١٠٥ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ـ ٧٤٣م] فى سنة ١٢٢هـ».

* كذلك أحسن الدكتور أحمد الكاتب عندما قطع بزيف كل الروايات الشيعية التى تحدثت عن إكراه علىّ بن أبى طالب على مبايعة أبى بكر، وعن تهديد عمر ابن الخطاب [٤٠ق هـ ـ ٢٣هـ/ ٥٨٤ـ ٦٤٤م] له ولفاطمة إن لم تتم المبايعة.. وعزا اختلاق هذه الروايات إلى حاجة الشيعية لها كى تؤسس لنظريتهم فى الإمامة الإلهية.. وفى ذلك قال:

«لقد كان الإماميون بحاجة ماسة إلى رواية من ذلك القبيل، حتى يبنوا نظريتهم السياسية حول (الإمامة الإلهية لأهل البيت) فبالإضافة إلى النصوص التى جاءوا بها من أجل إثبات النص على الإمام على، والتأويلات التى قاموا بها لبعض الآيات القرآنية، كانوا بحاجة إلى أدلة تاريخية تؤكد نظريتهم».

* وبأمانة الناقد للتاريخ والواعى بحقائق هذا التاريخ، رفض الدكتور أحمد الكاتب هذه الروايات المصنوعة، واللاعقلانية.. وعلل أسباب اختلافها.. فقال:

«ولكن التاريخ الإسلامى، وتاريخ الإمام علىّ بالخصوص كان يكذب نظريتهم ويهدمها من الأساس، فكيف يصح النص على الإمام بالخلافة ويقوم هو بالتنازل عن «حقه الشرعى» طواعية ويبايع أبا بكر؟!

إذن لا بد أن يكون هناك عنف وإرهاب وقمع واستضعاف له ـ [للإمام علىّ] «يثبت» أنه بايع تحت الضغط ـ والإكراه وأن بيعة أبى بكر كانت باطلة، وكذلك مبدأ الشورى والاختيار.

ولعل المثير للسخرية أن تتم هذه العملية فى القرن الثالث، والقرن الرابع، بعد غياب أو فقدان أئمة أهل البيت، ووصول النظرية السياسية الإمامية إلى طريق مسدود..»

* * *

إذن فالعداء للصحابة وفى المقدمة منهم الخلفاء الراشدون ـ وما طفحت به مصادر الشيعة من أحكام غريبة على الصحابة بالكفر والردة والنفاق، إنما كان انعكاسًا لنشوء نظرية الإمامة الإلهية، لتبرير رفض الشورى والاختيار، وتثبيت القول بالنص والوصية والتعيين والخروج من مأزق بيعة على لأبى بكر وعمر وعثمان، وموالاته لهم، ونصرته للخلافة فى عهدهم..

فنظرية الإمامة الإلهية ـ التى طرأت بعد قرنين من تاريخ الإسلام ـ هى التى استدعت هذا الموقف الغريب والشاذ من الصحابة والخلافة الراشدة «فى القرن الثالث أو الرابع، بعد غياب أو فقدان أئمة أهل البيت، ووصول النظرية السياسية الإمامية إلى طريق مسدود».

* لذلك كان طبيعيًا أن يقود هذا التحليل العلمى، الذى قدمه الدكتور أحمد الكاتب، لموقف الشيعة من الصحابة.. أن يقوده إلى الحل الذى يخرج الشيعة من هذا النفق المظلم الذى حشروا أنفسهم فيه.

لقد كانت نظرية الإمامة الإلهية هى السبب الذى أفرز الموقف الشنيع من الصحابة.. ولذلك، فإن الخروج من هذا الموقف الشنيع إنما يبدأ بإعادة النظر فى هذه النظرية.. التى هى محور الخلاف وأساس الشقاق والانشقاق..

وفى الإشارة إلى طريق الخروج من هذا النفق المظلم.. يقول الدكتور أحمد الكاتب:

«إن الفهم الصحيح لنظرية الإمامة، وكونها نظرية «سياسية قديمة» وبائدة، بدل أن تكون «عقيدة دينية» يشكل المقدمة الضرورية أمام التخلى النهائى والحاسم عن تلك الاتهامات الباطلة [للصحابة] ووضعها على رف التاريخ».

هكذا وضع الدكتور أحمد الكاتب علماء الشيعة وحكماءها أمام الحقيقة، التى يجب أن توضع على مائدة الحوار.. حوار العلماء الحكماء»..

* * *

لقد زوج الإمام على بن أبى طالب ابنته أم كلثوم لعمر بن الخطاب.. وسمى ثلاثة من أبنائه بأسماء أبى بكر وعمر وعثمان.. وكان ركنًا ركينًا فى خلافة هؤلاء الراشدين الثلاثة.

ولذلك، فإن الانقلاب الشيعى على هؤلاء الخلفاء الثلاثة، وعلى جمهور الصحابة، والحكم عليهم بالكفر والردة والنفاق.. ولعنهم والدعاء عليهم فى الأعياد والمناسبات الشيعية، وعقب الصلوات إنما هو انقلاب على الإمام علىّ وعلى الأئمة من آل بيته.

هذا الانقلاب الذى طفحت مصادر الفكر الشيعى بشناعاته، والذى نسبوا فيه إلى جعفر الصادق ـ كما جاء فى [الأصول من الكافى] للكلينى [٣٢٩هـ/ ٩٤١م] ـ قوله:

«أن الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ ﴾ [آل عمران: ٩١] قد نزلت فى أبى بكر وعمر وعثمان.. وكذلك آية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ [محمد: ٢٥]، وأنهم (آمنوا بالنبى فى أول الأمر، وكفروا حين عرضت عليهم ولاية علىّ بن أبى طالب.. وأنهم ارتدوا عن الإيمان فى ولاية علىّ..»[1].

(١) [الكافى] جـ١ ص ٤٢٠.

* كما ينسب الكلينى ـ فى [الروضة من الكافى] ـ إلى جعفر الصادق ـ فى تفسير الآيـة ﴿أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩] أنهما أبو بكر وعمر..»[١].

* أما المجلسى ـ محمد باقر [١٠٣٧ـ ١١١٠هـ/ ١٦٢٨ـ ١٦٩٨م] ـ صاحب [مرآة العقول] ـ فإنه يقول فى شرحه للكافى:

«إن الجن المذكور فى الآية هو عمر بن الخطاب، سمى بذلك لأنه كان شيطانًا إما لأنه كان شرك شيطان لأنه ولد زنى، أو لأنه فى المكر والخديعة كالشيطان»[٢].

* وينسب الكلينى إلى جعفر الصادق: أن هؤلاء الخلفاء الثلاثة ـ أبو بكر وعمر وعثمان ـ [لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب عظيم][٣].

* ويقول المجلسى ـ فى [العقائد]:

«إن مما عُدَ من ضروريات دين الشيعة الإمامية: البراءة من أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية»[٤] كما يصفهم ـ فى كتابه [حق اليقين] ـ بأنهم الأصنام الأربعة وأنهم وأتباعهم وأشياعهم شر خلق الله على وجه الأرض. وأعلم أن إطلاق لفظ الشرك والكفر على من لم يعتقد إمامة أمير المؤمنين والأئمة من ولده يدل على أنهم مخلدون فى النار»[٥].

* كما يروى ـ فى كتابه [بحار الأنوار] ـ عن مولى لعلى بن الحسين قوله فى أبى بكر وعمر: أنهما كافران كافر من أحبهما.[٦].

* كما ذكر المرعشى فى كتابه [إحقاق الحق] ـ وصف أبى بكر وعمر «بصنمى قريش» وأثبت نص الدعاء عليهما[٧].

(١) [الروضة من الكافى] جـ٨ ص ٣٣٤.
(٢) [مرآة العقول]، جـ٢٦ ص٤٨٨.
(٣) [الكافى] جـ١ ص ٣٧٣.
(٤) [العقائد] ص ٥٨.
(٥) [حق اليقين] ص ٥١٩.
(٦) [بحار الأنوار] جـ٦٩ ص ١٣٧، جـ ٢٣ ص ٢٩.
(٧) [إحقاق الحق] جـ ١ ص ٩٧.

* ويذكر الشيخ المفيد [٣٣٨ـ ٤١٣هـ/ ٩٥٠ـ ١٠٢٢م] اتفاق الشيعة الإمامية على تكفير الذين قاتلوا عليا.. ويصفهم «بالناكثين والقاسطين والكفار والضلال الملعونين المخلدين فى النار»(١).

* أما شيخ الشيعة نعمة الله الجزائرى [١٠٥٠ـ ١١١٢هـ/ ١٦٤٠ـ ١٧٠١م] فإنه يعلن المفارقة فى الدين مع جمهور الصحابة وجميع أهل السنة والجماعة.. فيقول:

«إننا لم نجتمع معهم على إله، ولا نبى ولا على إمام، وذلك أنهم يقولون:

إن ربهم هو الذى كان محمد نبيه، وخليفته أبو بكر، ونحن لا نقول بهذا الرب، ولا بذلك النبى، بل نقول: إن الرب الذى خليقته أبو بكر ليس ربنا، ولا ذلك النبى نبينا»(٢).

* ويروى الكلينى هذا الحكم القاطع بكفر كل من عدا الشيعة الإثنى عشرية، عن الإمام الرضا، الذى يقول، كما زعم الكلينى:

«إن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم، وأسماء آبائهم، أخذ الله علينا وعليهم الميثاق يردون موردنا ويدخلون مدخلنا ليس على ملة الإسلام غيرنا وغيرهم إلى يوم القيامة»(٣).

* وبعبارة شيخ الشيعة ومرجعهم الكبير السيد محمد الشيرازى [١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م]:

* «فإن من جحد إمامًا من الأئمة الاثنى عشر ـ بمن فى ذلك أقسام الشيعة غير الإثنى عشريةـ هم كمن قال إن الله ثالث ثلاثة»(٤).

* وحتى الإمام أبو القاسم الخوئى [١٣١٧ـ ١٤١٢هـ/ ١٨٩٩ـ ١٩٩٢م] فإنه يقول:

(١) [أوائل المقالات] ص ٤٥.
(٢) [الأنوار النعمانية] جـ٢ ص ٢٧٩.
(٣) [الكافى] جـ١ ص ٢٢٣.
(٤) [الفقه] جـ٤ ص ٢٦٩.

«إنه ثبت بالروايات والأدعية والزيارات جواز لعن المخالفين، ووجوب البراءة منهم، وإكثار السب عليهم، واتهامهم، والوقيعة فيهم ـ أى غيبتهم ـ لأنهم من أهل البدع والريب، بل لا شبهة فى كفرهم، لأن إنكار الولاية والأئمة حتى الواحد منهم والاعتقاد بخلافة غيرهم، يوجب الكفر والزندقة، وتدل عليه الأخبار المتواترة الظاهرة فى كفر منكر الولاية»[1].

إن هذه الشناعات ـ التى ملأت المجلدات ـ والتى غدت شعائر وأدعية وعبادات تعبد بها جمهور الشيعة ـ هى فى حقيقتها ـ انقلاب على خُلق الإمام علىّ بن أبى طالب والأئمة من آل بيته.

ذلك أن الصحابة وإن اختلفوا فى السياسة، فإنهم لم يختلفوا فى الدين.. وحتى عندما بلغ الخلاف السياسى بينهم حد الاقتتال فإن ذلك لم يخرج أيامنهم من إطار الإيمان بثوابت الإسلام ـ لقد اجتهدوا فى السياسة ـ أى فى الفروع والفقهيات ـ فأصاب قوم، كتب لهم أجران وأخطأ آخرون، فكان لهم أجر واحد، هو أجر الاجتهاد.

ولقد كان الإمام علىّ فى مقدمة الذين أعلنوا هذا المنهاج الإسلامى فى النظر إلى فرقاء هذا الاختلاف ـ الذى اشتهر بالفتنة الكبرى ـ ففى موقعة «صفين» [٣٧هـ/ ٦٥٧م] التى مثلت ذروة الصراع بينه وبين معاوية بين أبى سفيان [٢٠ق هـ ـ ٦٠هـ/ ٦٠٣ـ ٦٨٠م] أعلن الإمام على عن الطبيعة السياسة ـ وليست الدينية ـ لهذا الصراع.. فقال ـ فى مواجهة «الغلو الخوارجى» الذى حكم بالكفر على أطراف هذا الصراع:

«والله لقد التقينا، وربنا واحد، ونبينا واحد، ودعوتنا فى الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم فى الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا، والأمر واحد، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحن منه براء»[2] «إننا والله، ما قاتلنا أهل الشام على ما توهم هؤلاء [الخوارج] ـ من التكفير والافتراق فى الدين، وما قاتلناهم إلا لنردهم إلى الجماعة، وإنهم لإخواننا فى الدين، قبلتنا واحدة ورأينا أننا على الحق دونهم»[3]

(١) [مصباح الفقاهة] جـ٢ ص ١١.

(٢) ابن أبى الحديد [شرح نهج البلاغة] جـ١٧ ص ١٤١. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩.

(٣) الباقلانى [التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة] ص ٢٣٧، ٢٣٨. تحقيق: محمد الخضيرى. د. محمد الخضيرى . د. محمد عبد الهادى أبو ريدة. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧.

«لقد أصبحنا نقاتل إخواننا فى الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل، فإذا طمعنا فى خصلة يلم الله بها شعثنا ونتدانى بها إلى البقية فيما بيننا رغبنا فيها، وأمسكنا عما سواها»[1].

وعندما سئل الإمام علىّ عن «آخرة» قتلى الفريقين ـ فى صفين ـ قال:

«إنى أرجو ألا يقتل أحد نقى قلبه، منا ومنهم، إلا أدخله الله الجنة»[2].

فالاختلاف كله ـ فى الفتنة الكبرى كلها ـ اختلاف فى السياسة ـ التى هى من الفروع والفقهيات ـ ولم يكن خلافًا فى الدين.. أى أنه فى مناطق الاجتهاد فى الفروع.

وإذا كان معيار الخلاف فى أمهات عقائد الدين وأركانه هو «الإيمان» و«الكفر» فإن معيار الاختلاف فى السياسة والفروع هو «الصواب والخطأ» وفرقاء هذا الاختلاف ـ حتى ولو بلغ حد الاقتتال ـ لا يخرجهم اختلافهم واقتتالهم من إطار الإيمان بدين الإسلام.

ويشهد على ذلك القرآن الكريم ـ الذى انطلق منه الإمام علىّ فى تحديد طبيعة هذه الاختلافات ـ فيقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

هكذا قال الإمام علىّ منطلقًا من القرآن الكريم ـ فى الذين بغوا عليه وقاتلوه.. بينما قالت الشيعة ـ بلسان الشيخ المفيد وغيره:

«باتفاق الإمامية على تكفير الذين قاتلوا عليّا.. ووصفهم بالناكثين والقاسطين والكفار والضلال الملعونين المخلدين فى النار»[3].

(١) الإمام على [نهج البلاغة] ص ١٤٧، ١٤٨. طبعة دار الشعب. القاهرة.
(٢) [التمهيد] للباقلانى ـ ص ٢٣٧.
(٣) الشيخ المفيد [أوائل المقالات] ص٤٥.

بل لقد بلغ الغلو بهذا الانقلاب الشيعى على منهاج الإمام علىّ والأئمة من أهل بيته إلى حد قول المجلسى:

«إعلم أن إطلاق لفظ الشرك والكفر على من لم يعتقد إمامة أمير المؤمنين والأئمة من ولده يدل على أنهم مخلدون فى النار»[١].

لقد ألجاهم الخطأ إلى المزيد والعديد من الأخطاء.. ألجاهم الخطأ فى تأليه الأئمة، وفى جعل الإمامة عقيدة دينية وركنًا من أركان الاعتقاد الدينى، إلى تكفير المخالفين وإخراجهم من الدين وإلى الحديث عن المذهب باعتباره دينًا مستقلًا وموازيًا ـ وهذا أمر بالغ الخطورة ـ حتى قال نعمة الله الجزائرى [١١١٢هـ/ ١٧٠١م] عن أهل السنة والجماعة:

«إننا لم نجتمع معهم على إله، ولا نبى ولا على إمام، وذلك أنهم يقولون: إن ربهم هو الذى كان محمد نبيه، وخليفته أبو بكر، ونحن لا نقول بهذا الرب ولا بذلك النبى بل نقول: إن الرب الذى خليفته أبو بكر ليس ربنًا، ولا ذلك النبى نبينًا»[٢].

ويقطع الكلينى بهذا الافتراق فى الدين مع كل من لا يؤمن بنظرية الإمامة الشيعية فينسب إلى الإمام الرضا [١٥٣ـ ٢٠٣هـ/ ٧٧٠ـ ٨١٨م] وهو الثامن فى سلسلة أئمة الإثنى عشرية ـ قوله:

«إن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم أخذ الله علينا وعليهم الميثاق يردون موردنا ويدخلون مدخلنا، ليس على ملة الإسلام غيرنا وغيرهم إلى يوم القيامة»[٣].

بل ويخرجون من الدين ـ مع أهل السنة والجماعة ـ حتى الشيعة غير الإثنى عشرية!.. فيقول السيد محمد الشيرازى [١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م]:

«إن من جحد إمامًا من الأئمة الإثنى عشر ـ بمن فى ذلك سائر أقسام الشيعة غير الإثنى عشرية ـ هم كمن قال إن الله ثالث ثلاثة»![٤]

(١) المجلسى [بحار الأنوار] جـ٢٣ ص ٣٩٠.
(٢) نعمة الله الجزائرى [الأنوار النعمانية] جـ٢ ص ٢٧٩. طبعة مؤسسة الأعلى. بيروت
(٣) [الكافى] جـ١ ص ٢٢٣.
(٤) السيد محمد الشيرازى [الفقه] جـ٤ ص ٢٦٩.

ويبلغ هذا التكفير والإقصاء من الدين حد العنصرية عند الشيخ المفيد [٤١٣هـ/ ١٠٢٢م]، الذى يقول:

«إنه ليس أحد طاهر المولد، وليس أحد على ملة الإسلام إلا الشيعة»(١).

ويظل هذا التراث التكفيرى لكل من عدا الشيعة الإثنى عشرية ـ والذى بينته المدرسة الأصولية الاجتهادية فى القرن التاسع عشر الميلادى ـ يظل قائمًا وسائدًا لدى المراجع الكبار فى الفضاء الشيعى المعاصر.. فيقول الإمام أبو القاسم الخوئى [١٣١٧ـ ١٤١٢هـ/ ١٨٩٩ـ ١٩٩٢م]:

«إنه ثبت بالروايات والأدعية والزيارات جواز لعن المخالفين، ووجوب البراءة منهم، وإكثار السب عليهم، واتهامهم، والوقيعة فيهم، لأنهم أهل البدع والريب، بل لا شبهة فى كفرهم، لأن إنكار الولاية والأئمة، حتى الواحد منهم، والاعتقاد بخلافة غيرهم يوجب الكفر والزندقة، وتدل عليه الأخبار المتواترة الظاهرة فى كفر منكر الولاية»(٢).

* * *

هكذا رأينا منهاج الإمام علىّ فى النظر إلى المخالفين ـ حتى الذين بغوا عليه وقاتلوه ـ.. وهو المنهاج الذى انطلق فيه من القرآن الكريم، الذى لم يخرج البغاة من حظيرة الإيمان بالإسلام، وذلك لأن بغيهم وقتالهم إنما كان فى الفروع والسياسات ـ ولم يكن فى الدين وعقائده وأركانه.

ورأينا كيف رفض الإمام علىّ موقف الخوارج، الذين كفروا المخالفين..

ثم رأينا الانقلاب الشيعى على منهاج الإمام علىّ.. حتى لقد تفوقوا فى هذا «الانقلاب التكفيرى» على الخوارج القدماء!!

وإزاء هذه «الحقيقة المرة» نجد أنفسنا ـ سنة وشيعة ـ أمام ضرورة إعادة النظر فى هذا «التراث التكفيرى»، الذى امتلأت وتمتلئ به مصادر الفكر الشيعى.. والذى

(١) الشيخ المفيد [الأمالى] ص ١٦٩.
(٢) الخوئى [مصباح الفقاهة] جـ٢ ص ١١.

يصوغ العقائد والعقول والوجدانات عند خريجى الحوزات العلمية ـ ومنهم المراجع الكبار ـ وتبعًا لهم عامة المقلدين.. وهو التراث القائم فى حقل الشيعة والتشيع منذ نشوء نظرية الإمامة الإلهية وتأليه الأئمة وحتى هذه اللحظات..

وإذا لم نمتلك الشجاعة الأدبية والفكرية التى تجعلنا نضع هذه القضية ـ قضية تكفير الآخر، الذى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ـ على مائدة الحوار ـ حوار العلماء الحكماء العقلاء ـ فسيظل الحديث عن التقريب بين الشيعة والسنة ضربًا من الوهم والزيف والتعمية على حقائق الأمور..

وستظل «ألغام التكفير» هذه جاهزة فى هذا المخزون الفكرى حتى يأتى الأعداء ـ أعداء الإسلام والمسلمين ـ بتفجيرها عند اللزوم!

* * *

إن «ألغام التكفير» هذه ـ تكفير الشيعة للصحابة ولأهل السنة والجماعة ـ أى لـ٩٠٪ من الأمة ـ على مر أجيالها ـ قد أسسته الشيعة على روايات تاريخية اخترعت ـ كما يقول الدكتور أحمد الكاتب ـ فى القرن الرابع الهجرى.. ذلك القرن الذى كان ـ بتعبيره ـ «قرنًا إخبار يا حشويًا موبوءًا بالخرافات والأساطير والغلو، بسبب انقطاع صلة الشيعة مع أئمة أهل البيت، الذين كانوا فى حياتهم يرشدون حركة التشيع، ولما توفى الإمام الحسن العسكرى سنة ٢٦٠هـ دون ولد ظاهر يستلم زمام القيادة والتوجيه، وخيم ما يسمى بعصر الحيرة والغيبة، وقع الشيعة وخاصة الإمامية، ضحية الرواة الكذبة الدجالين..».

وفى إطار ذلك نسجت الأساطير والروايات والأكاذيب عن اضطهاد الصحابة لآل البيت، نظرية الإمامة الإلهية.. وظلت هذه الروايات والأكاذيب سائدة ورائجة كمصادر للتربية والتكوين النفسى عند مراجع الشيعة وجماهيرهم.

ـ فضريح إيرانى اسمه أبو لؤلؤة تحول إلى مزار مقدس ـ بحسبانه هو قاتل عمر بن الخطاب!

ـ وعيد الزهراء يصنع فيه جمهور الشيعة وعامتهم دمية لعمر بن الخطاب..

ويرجمونها بالأحجار!

ـ وحتى هذه اللحظات يصر العلماء والفقهاء والمراجع الكبار على تأسيس المذهب على هذه الأساطير.

فيصرح مدير مركز الأبحاث العقائدية فى مكتب السيد على السيستانى وهو أكبر مراجع شيعة العصر ـ يصرح الشيخ فارس الحسون ـ كما يورد الدكتور أحمد الكاتب ـ فيقول:

«.. والحقيقة أن قضية الزهراء سلام الله عليها ـ [أى ضرب عمر بن الخطاب لها، وإسقاطه جنينها] ـ أساس مذهبنا، وجميع القضايا التى لحقت تلك القضية وتأخرت عنها كلها مترتبة على تلك القضية، ومذهب الطائفة الإمامية الإثنى عشرية بلا قضية الزهراء ـ سلام الله عليها ـ وبلا تلك الآثار المترتبة على تلك القضية ـ هذا المذهب ـ يذهب ولا يبقى، ولا يكون فرق بينه وبين المذهب المقابل»!!

على مثل هذه الأكاذيب التى نسبت زورًا وبهتانًا إلى الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ تأسس المذهب.. وفى القلب منه عقيدة الإمامة الإلهية.. ثم تحولت هذه الأكاذيب إلى مناهج فى التربية والتكوين الثقافى والشحن الوجدانى والتعبئة النفسية.. فغدونا أمام «مهمة صعبة».. ندعو الله، سبحانه وتعالى، أن لا تدخل فى عداد المستحيلات!

* * *

ملاحظات

بقيت لنا ملاحظات على ما أورده الدكتور أحمد الكاتب فى حديثه عن الموقف الشيعى وكذلك الموقف السنى من صحابة رسول الله ﷺ..

(١)

لقد قال:

«إن النقد والسب واللعن والتكفير والاتهام بالردة والنفاق ـ [للصحابة ـ من قبل الشيعة] ـ كان إفرازًا من إفرازات الفتنة الكبرى التى عصفت بالمسلمين».

ونحن نختلف مع الدكتور أحمد فى التعليل.. فلقد سبق وأوردنا نصوصه هو التى تؤكد على أن الموقف الشيعى من الصحابة إنما جاء إفرازًا لتبلور نظرية الإمامة الإلهية وتأليه الأئمة. وليس بسبب أحداث الفتنة الكبرى.

ويشهد على ذلك الموقف الشيعى من الشيخين ـ أبى بكر وعمر ـ والذى اختصمها بأفحش الاتهامات وأقذع الأوصاف.. وهما قد عاشا وماتا قبل نشوب أحداث الفتنة بين الصحابة ـ عليهم جميعًا رضوان الله..

(٢)

والملاحظة الثانية، حول قول الدكتور أحمد الكاتب أن علماء أهل السنة والجماعة قد أضفوا القداسة والعصمة على عموم الصحابة ـ فغلوا فى هذا الموقف ـ فى مقابل الغلو الشيعى المضاد..

وفى هذا المقام، قال الدكتور أحمد الكاتب:

«إن النظرية السنية حول الصحابة، جعلت منهم مادة دينية رغم أنهم بشر، فى حين

أنهم لم يكونوا يشكلون جزءًا من العقيدة الإسلامية.. لقد رفعتهم ـ [النظرية السنية] ـ إلى درجة (العصمة) وحتمية غفران الله لذنوبهم».

* ونحن نقول ـ فى حوارنا العلمى مع العالم الفاضل الدكتور أحمد الكاتب:

إن أهل السنة والجماعة لم يجعلوا الصحابة جزءًا من العقيدة الإسلامية.. ولم يرفعوهم إلى درجة العصمة.. لأن العصمة ـ فى الفكر السنى هى فقط لرسول الله ﷺ فيما يبلغ عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ..

ولم يقل أهل السنة «بحتمية» غفران الله لذنوب الصحابة.. فأهل السنة والجماعة لا يقولون بأية حتمية على الذات الإلهية، صاحب الطلاقة والقدرة والمشيئة، التى لا تعرف الحدود..

وما قاله أهل السنة والجماعة عن الصحابة: أنهم بشر مجتهدون، منهم المصيب، ومنهم المخطئ.. ومنهم البغاة، الذين بغوا على الخليفة الشرعى عثمان.. وعلى فى أحداث الفتنة الكبرى ـ لكن حتى هؤلاء البغاة مؤمنون ـ كما أخبر بذلك القرآن الكريم ـ لأن خلافهم وقتالهم وبغيهم إنما حدث فى الفروع والسياسات ـ وليس فى عقائد الدين وأركانه ـ ومن ثم فإن هذا الاختلاف والبغى والاقتتال لا يخرج أيًا من فرقائه من حظيرة الإيمان بالإسلام..

أما الذين صحبوا رسول الله ﷺ من المنافقين فإن صحبتهم هذه هى صحبة بالمعنى اللغوى.. وليست بالمعنى الاصطلاحى.. لقد «صحبوا» الرسول، لكنهم لم يكونوا «معه»، أى لم يكونوا من الذين تحدث عنهم القرآن فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩].. أى لا يستوى أهل الصحبة المادية، الذين كانوا «على الرسول»، بأهل الصحبة الشاملة، الذين كانوا «معه» ﷺ.

* وعندما ألف علماء أهل السنة والجماعة فى تراجم الصحابة، لم يوردوا أسماء المنافقين الذين صحبوا الرسول ـ بالمعنى اللغوى للصحبة..

لقد انطلق أهل السنة والجماعة ـ فى الموقف من الصحابة ـ ومن غفران الله لذنوبهم ـ من القرآن الكريم.. الذى قال:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧ ـ ٨].

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٢ ـ ٢٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ﴾ [الأنفال: ٧٤ ـ ٧٥].

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

من هذه الآيات القرآنية المحكمة ـ وعشرات مثلها ـ انطلق علماء السنة والجماعة فى موقفهم من صحابة رسول الله ﷺ.

فحكموا بما حكم به القرآن ـ لهؤلاء الصحابة ـ من الرضى والرضوان والتبشير بالجنة والنعيم المؤبد فيها.. والفوز العظيم فى الدنيا والآخرة.

وقالوا ـ [علماء أهل السنة والجماعة] ـ مع ذلك ـ بأن الصحابة: بشر.. مجتهدون.. يصيبون ويخطئون.. وإن عدالتهم فيما بلغوا عن رسول الله هى عدالة المجتهد.. وليست عدالة المعصوم.. وإن كانوا فى مجموعهم ـ كأمة ـ لا يجتمعون على ضلالة ـ كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ «لا تجتمع أمتى على ضلالة» ومن معانى الأمة «الجيل.. والقرن» من الناس.

وقال علماء أهل السنة والجماعة ـ كذلك ـ: إن اختلافات الصحابة السياسية هى اختلافات المجتهدين فى الفروع والفقهيات، التى لا تخرج فرقاءها من إطار الإيمان بدين الإسلام..

وما ينفيه أهل السنة والجماعة عن الصحابة ـ ليس الخطأ فى الاجتهاد ـ وإنما الحكم الشيعى على جمهورهم بالكفر والردة والضلال والنفاق والمروق من دين الإسلام.. وهو الذى ذكره أحمد الكاتب ـ عرضًا ـ عندما قال:

«باحتمال افتقاد بعض الصحابة لدرجة الإيمان العليا، والاتصاف بالنفاق والكفر»!

ذلك أن علماء أهل السنة والجماعة عندما يرفضون مثل هذه الأحكام والأقوال فى حق الصحابة، إنما ينطلقون من الصورة القرآنية ـ التى أشرنا إلى بعض معالمها ـ لهؤلاء الصحابة.. ومن منهاج الإمام على بن أبى طالب نفسه فى تقويم خصومه فى الصراع السياسى على الخلافة.. وهو المنهاج الذى سبقت إشارتنا إلى عباراته النفيسة والحكيمة والدقيقة المعبرة عنه.. والتى نضيف إليها ما ذكره الدكتور أحمد الكاتب من قول الإمام على فى أهل وقعة «الجمل»، الذين وقعت الحرب بينه وبينهم، عندما سئل عنهم:

ـ أمشركون هم؟

ـ فقال: من الشرك فروا.

ـ فسئل: أمنافقون هم؟

ـ فقال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلًا.

ـ فسئل: فما هم؟

ـ فقال: إخواننا بغوا علينا.

وعندما سمع ـ كرم الله وجهه ـ بعض أصحابه ـ فى «صفين» ـ يسب أهل الشام ـ معاوية وصحبه ـ قال:

ـ «إنى أكره أن تكونوا سبابين».

هذا هو الموقف الذى انطلق منه علماء أهل السنة والجماعة، والتزموا به فى حديثهم عن صحابة رسول الله ﷺ ورضى عنهم أجمعين..

فأهل السنة لم يجعلوا الموقف من الصحابة عقيدة دينية.. ولذلك لم يحكموا بالكفر على الخائضين فى أحوالهم.. وإنما قالوا ـ بلسان حجة الإسلام أبى حامد الغزالى:

«إن الخطأ المتعلق بأحوال الصحابة بدعة»[1].. وليس كفرًا.

(٣)

وأهل السنة والجماعة لم يسووا بين كل الذين رأوا رسول الله ﷺ وصحبوه ـ بالمعنى اللغوى للصحبة ـ وإنما اشترطوا للصحبة ـ بالمعنى الاصطلاحى ـ شروطًا لخصها الواقدى [١٣٠ـ ٢٠٧هـ/ ٧٤٧ـ ٨٢٣م] ـ فى النص الذى أورده الدكتور أحمد الكاتب ـ عندما قال:

«رأيت أهل العلم يقولون: كل من رأى رسول الله ﷺ وقد أدرك الحلم، وأسلم،

(١) [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] ص ١٥.

وعقل أمر الدين، ورضيه، فهو عندنا ممن صحب النبى ولو ساعة من نهار. ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدمهم فى الإسلام».

ففى هذا النص ـ المعبر عن رأى أهل العلم من علماء أهل السنة والجماعة ـ شروط خمسة لمن يطلق عليه مصطلح «الصحابى»:

١ ـ رؤية الرسول ﷺ أى الصحبة بالمعنى اللغوى.

٢ ـ وإدراك الحُلم، أى البلوغ والتكليف.

٣ ـ والإسلام.

٤ ـ وعقل الدين، أى الإيمان بالإسلام عن قناعة وتعقل.

٥ ـ والرضى بهذا الدين.. أى الاطمئنان والانتماء والولاء لهذا الدين.

ثم هم ـ بعد هذه الشروط الخمسة ـ لا يسوون بين الذين توفرت فيهم جميع هذه الشروط، وإنما ينبهون ـ وينصون ـ على أن الصحابة ـ الذين اجتمعت فيهم كل هذه الشروط ـ ليسوا سواء، وإنما هم «على طبقاتهم وتقدمهم فى الإسلام»..

* ويشهد لذلك أيضًا ما نقله الدكتور أحمد الكاتب عن حجة الإسلام أبى حامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١١١م] من:

«إنه لا يكفى للاسم ـ [الصحابى] ـ من حيث الوضع ـ الصحبة ولو ساعة: ولكن العرف يخصص الاسم بمن كثرت صحبته».

(٤)

ولم يحدث أن علماء أهل السنة والجماعة ساووا بين فرقاء الصراع فى الفتنة الكبرى.. ومن الشواهد على ذلك ما نقله الدكتور أحمد الكاتب عن الإمام النووى [٦٣١ ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٣٣ ـ ١٢٧٧م] ـ فى شرحه لصحيح مسلم، ج٧، ص ١٦٨ ـ عندما قال:

«إن عليًا رضى الله عنه كان هو المصيب المحق، والطائفة الأخرى ـ أصحاب

معاوية رضى الله عنهم ـ كانوا بغاة متأولين.. والجميع مؤمنون، لا يخرجون بالقتال عن الإيمان ولا يفسقون، وهذا مذهبنا..».

* وكذلك ما نقله الدكتور أحمد الكاتب عن شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ـ ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ـ١٣٢٨م] ـ فى الفتاوى ج٤، ص ٤٦٧ـ من قوله:

«إن كلا الطائفتين المقتتلتين ـ على وأصحابه ومعاوية وأصحابه ـ على حق، وإن عليًّا وأصحابه كانوا أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه»

* وكذلك ما نقله الدكتور أحمد الكاتب عن الإمام ابن كثير [٧٠٠ـ ٧٧٤هـ/ ١٣٠١ـ ١٣٧٣م] ـ فى [البداية والنهاية] ج١٠، ص ٥٦٣ ـ من:

«إسلام الطائفتين: أهل الشام وأهل العراق ـ لا كما تزعمه فرقة الرافضة أهل الجهل والجور من تكفيرهم أهل الشام ـ ولقد كان أصحاب على أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة: أن عليًّا هو المصيب، وإن كان معاوية مجتهدًا فى قتاله له، وقد أخطأ، وهو مأجور إن شاء الله، ولكن عليًّا هو الإمام المصيب إن شاء الله تعالى، فله أجران..».

* وكذلك ما أورده الدكتور أحمد الكاتب عن إمام الأشعرية أبى الحسن الأشعرى [٢٦٠ـ ٣٢٤هـ/ ٨٧٤ـ ٩٣٦م] ـ فى كتابه [الإبانة] ـ من قوله:

«.. فأما ما جرى بين على والزبير وعائشة، رضى الله عنهم، فإنما كان على تأويل واجتهاد، وعلىّ الإمام، وكلهم من أهل الاجتهاد، وقد شهد لهم النبى بالجنة والشهادة، فدل على أنهم كلهم كانوا على حق فى اجتهادهم. وكذلك ما جرى بين على ومعاوية، رضى الله عنهم، كان على تأويل واجتهاد».

* وكذلك ما نقله الدكتور أحمد الكاتب عن الإمام ابن حزم الأندلسى [٣٨٤ـ ٤٥٦هـ/ ٩٩٤ـ ١٠٦٤م] ـ فى [الفصل] ج٤، ص١٥٨ ـ من قوله فى أهل «الجمل»:

«.. فقد صح صحة ضرورية لا إشكال فيها أنهم لم يمضوا إلى البصرة لحرب على، ولا خلافًا عليه، ولا نقضًا لبيعته، ولو أرادوا ذلك لأحدثوا بيعة غير بيعته. هذا

ما لا يشك فيه أحد ولا ينكره أحد، فصح أنهم إنما نهضوا إلى البصرة لسد الفتق الحادث فى الإسلام من قتل أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ظلمًا. وبرهان ذلك أنهم اجتمعوا ولم يقتتلوا ولا تحاربوا، فلما كان الليل عرف قتلة عثمان أن الإراغة والتدبير عليهم، فبيتوا عسكر طلحة والزبير وبذلوا السيف فيهم، فدافع القوم عن أنفسهم فى دعوى حتى خالطوا عسكر على، فدفع أهله عن أنفسهم، وكل طائفة تظن ولا شك أن الأخرى بدئ بها بالقتال. واختلط الأمر اختلاطًا لم يقدر أحد على أكثر من الدفاع عن نفسه، والفسقة من قتلة عثمان لا يفترون من شن الحرب وإضرامه.

فكلتا الطائفتين مصيبة فى غرضها ومقصدها، مدافعة عن نفسها.

ورجع الزبير، وترك الحرب بحالها، وأتى طلحة سهم غاير وهو قائم لا يدرى حقيقة ذلك الاختلاط.. فانصرف ومات من وقته، رضى الله عنهم.. فهكذا كان هذا هو موقف أهل السنة والجماعة من صحابة رسول الله ﷺ:

* لا يجعلونهم «عقيدة دينية» ومن ثم لا يكفرون الخائضين فيهم.. اللهم إلا إذا كان تكفير جمهور الصحابة يلقى بظلاله على الثقة فى نقل الدين ـ وحيا وسنة وشريعة ـ لأن ذلك يعنى مناقضة القرآن، الذى قطع بالحفظ الإلهى لهذا الذكر الحكيم، ومن ثم تهيئة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهذا الجيل ـ الذى صنعه الرسول على عينه ـ كى يحمل هذا الدين إلى التابعين..كما أن فى التكفير لمن شهد لهم القرآن بالجنة والفوز والرضوان فيه تكذيب لله ورسوله، يفضى إلى الكفر المحقق والعياذ بالله.

* ولا يقول أهل السنة والجماعة بعصمة الصحابة.. وإنما يقولون باجتهادهم.. هذا الاجتهاد الذى للمخطئ فيه أجر، وللمصيب فيه أجران..

* وهم لم يسووا بين فرقاء الصراع فى الفتنة الكبرى، وإنما حكموا لعلى بن أبى طالب بأنه كان الإمام الحق، والخليفة الشرعى، والأقرب إلى الحق فى الاجتهاد بموضوع الاختلاف.. فهو صاحب الشرعية.. وله أجران على اجتهاده، بينما كان خصومه متأولين مخطئين فى الاجتهاد..

* * *

ونحن لو قارنا بين موقف أهل السنة والجماعة ـ هذا ـ من صحابة رسول الله ﷺ:

توقيرهم.. والثناء عليهم.. والقول بعدالتهم فيما بلّغوا عن رسول الله.. مع نفى العصمة عنهم..والحكم بخطأ ـ بل وبغى من أخطأ وبغى منهم، كثمرة للخطأ فى الاجتهاد والتأويل.

لو قارنا هذا الموقف السنى بموقف الشيعة الإمامية من أئمتهم.. وكيف بلغ الغلو فيهم حد التأليه أحيانًا.. والتفضيل على الأنبياء والمرسلين أحيانًا أخرى..والقول بعصمتهم فى كل الأحايين.. والادعاء بأن لهم ولاية تكوينية على كل ذرات هذا الكون.. وبأن الله قد فوض إليهم أمور الخلق والرزق فى هذا العالم.. وبأن إمام الزمان هو رب الزمان.. وبأن حساب الناس عليهم وإيابهم إليهم.. وأنه لولاهم لساخت الأرض بما ومن عليها..إلخ.. إلخ..

لو قارنا هذين الموقفين ـ موقف أهل السنة والجماعة من الصحابة.. وموقف الشيعة الإمامية من أئمتهم ـ لعلمنا أين الغلو؟.. وأين الاعتدال؟ وأين هى الخرافة؟ وأين هى النظرة العلمية العقلانية لهذا الجبل الفريد، الذى أقام الدين.. وأسس الدولة.. وأزال قوى الهيمنة والاستعمار والقهر والاستغلال.. وحرر الأرض والضمائر.. وغير وجه الدنيا واتجاه التاريخ.. وحمل إلى أقطار الأرض أعظم نعم الله علينا: نعمة الإسلام..

فلولا هؤلاء الصحابة الكرام لكان جمهور الشيعة مجوسًا يعبدون النار حتى الآن.. ولكان جمهور أهل السنة يعبدون الصليب ـ وربما العجل أبيس ـ حتى هذه اللحظات!

* * *

تلك صفحات كان الفضل فى تحريرها لمطالعة كتاب العالم الفاضل الدكتور أحمد الكاتب: [السنة والشيعة: وحدة الدين ـ خلاف السياسة والتاريخ].

والذى نسعد دائمًا وأبدًا عندما نقدمه إلى الباحثين والقراء.. سائلين المولى ـ

سبحانه وتعالى ـ أن يحقق مقاصدنا من وراء هذه الجهود الفكرية والعلمية، التى نبتغى بها رأب الصدع القائم فى صفوف الأمة الإسلامية ـ بين الشيعة والسنة..

إنه ـ سبحانه ـ أفضل مسئول وأكرم مجيب[1].

١٨ جماد الأول سنة ١٤٢٨هـ/ ٤ يونيه سنة ٢٠٠٧م

دكتور

محمد عمارة

(١) انظره بكتاب [السنة والشيعة: وحدة الدين وخلاف السياسة والتاريخ] للدكتور أحمد الكاتب. طبعة مكتبة النافذة. القاهرة سنة ٢٠٠٨م.

شيخ الإسلام موسى جار الله

[١٢٩٢ـ١٣٦٩هـ ـ ١٨٧٥ـ١٩٤٩م]

(١)

السيرة والمسيرة للعلَّامة الإمام موسى جار اللّه

العلامة الإمام موسى جار اللّه

أخذ العلم عن الشيوخ الذين تفردوا بعلوم كان يشتهى التعمق فيها، والتلقى عن أئمتها.

ولقد صار الإمام الذى انعقد الإجماع على جلالة علمه وشدة غيرته على النهوض بالمسلمين فى المشارق والمغارب.. فهو صورة من أجمل صور العلماء العاملين الذين خلقوا ليصرفوا حياتهم فى خدمة الدين والأخلاق، وهو من الأفراد الذين لا يحسن بهم الدهر على العالم إلا فى العصر بعد العصر، وحياتهم من أولها إلى آخرها حافلة بالخير والنفع.

محمد كرد على

١٢٩٣ـ١٣٧٢هـ/ ١٨٨٦ـ١٩٥٣م

* هو موسى بن ملا جار الله [١٢٩٢ـ١٣٦٨هـ/ ١٨٧٥ـ١٩٤٩م][1] من أعلام علماء روسيا، وآخر شيوخ الإسلام فى روسيا قبل الثورة البلشفية ١٩١٧م وإبانها.. وأحد كبار علماء الإسلام فى القرن الرابع عشر الهجرى.

---

(١) اختلف مؤرخوه فى سنة ميلاده، هل هى ١٨٧٨م؟.. أم ١٨٧٥م؟.. ولقد اعتمدنا ما جاء فى (الموسوعة الإسلامية لوزارة الأوقاف التركية) لأنها أوفى من ترجم له.. ولأنه تركى الجنسية، والأتراك هم الأعرف به، والأكثر اهتمامًا بسيرته وأعماله.

* تنتسب أسرته ـ الوالد ملا جار الله ـ والوالدة فاطمة بنت السيد داملا حبيب الله ـ إلى قرية كيكنوحى جمبار مدينة بترا، فى جنوبى روسيا.

* ولقد انتقلت عائلته إلى مدينة راستوف، على ضفاف نهر الدون.. وإبان الرحلة ولد موسى فى مدينة نوفتشر كاسك، بالقرب من مدينة راستوف ـ فى ٢٥ ديسمبر ١٨٧٥م ـ فكان مولده إبان الرحلة إرهاصًا بأن الرجل سيعيش حياته جواب آفاق!.

* ولقد بدأ يتلقى تعليمه فى مدرسة روسية بكييف.. ثم فى مدرسة دينية إسلامية فى مدينة راستوف ـ التى تعيش فيها أقلية مسلمة.

* وفى ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م سافر إلى مدينة كازان، والتحق فيها بمدرسة كولبيو الدينية.

* وفى ١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م انتقل إلى ما وراء النهر، والتحق بمدارس بخارى الدينية.. وبعد دراسته الفقه والفلسفة على يد داملا عواض أفندى، وداملا إكرام أفندى.. ودراسة الرياضيات على يد مير شريف أفندى عاد إلى مدينة راستوف لإكمال دراسته فى المدرسة الثانوية.

* ولما رفضت الجامعة قبوله، بدأ رحلاته لدراسة العلوم الإسلامية قرابة خمسة عشر عامًا.. رحل ـ أولًا ـ إلى إسطنبول، فسجل اسمه فى مدرسة الهندسة.. لكنه آثر العلوم الإسلامية على العلوم الهندسية.. ولما لم يجد مبتغاه من العلم الإسلامى فى إسطنبول، رحل إلى القاهرة، فمكث فيها ثلاث سنوات، درس خلالها علوم الفقه والحديث، بجانب أبحاثه فى تاريخ القرآن والمصاحف.. وفى القاهرة تعرف على الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ـ ١٩٠٥م] وعلى العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعى [١٢٧١ـ ١٣٥٤هـ/ ١٨٥٤ـ ١٩٣٥م] ودرس على يديهما.

ومن القاهرة سافر إلى الحجاز، فأدى فريضة الحج، وجاور بمكة والمدينة ثلاث سنوات، داوم فيها البحث فى الفقه والحديث ومن الحجاز سافر إلى مدينة ديوبند ـ فى الهند ـ.. ومن هناك سافر إلى الشام وبيروت.

* وإبان رحلاته هذه قويت لغته العربية والفارسية، وأصبح مالكًا لناصية اللغتين مع التترية والتركية والروسية.

* ولقد كان لقاؤه بالإمام محمد عبده ـ بمصر ـ وتتلمذه على يديه باعثًا له على التوجه نحو منهاج الإصلاح والتجديد، والنفور من المناهج التربوية القائمة على الحفظ والتقليد ـ والتى كانت سائدة فى بلاده وكثير من بلاد الشرق الإسلامى.

* وفى ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م عاد إلى روسيا، والتحق بكلية الحقوق بجامعة بتروسبورج، وداوم الدراسة فيها كطالب مستمع.. وبدأ يكتب مقالات تحت عنوان (الإصلاح) فى جريدتى (ألفت) و (التلميذ) اللتين كان يصدرهما صديقه عبد الراشد إبراهيم ـ (ديسمبر ١٩٠٥م ـ يونيو ١٩٠٧م) وفيما بين ١٩٠٦م ويناير ١٩٠٧م نشر مقالات ذات اتجاه إصلاحى فى جريدة (العصر الجديد).. وكانت هذه الصحف ـ التى كتب فيها ـ تنشر المقالات التى تتابع أحوال مسلمى روسيا، وإصلاح مناهج التعليم بالمكاتب والمدارس، وقضايا حقوق الإنسان.

* ومنذ ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م أخذ عالمنا ينشط مع المثقفين المسلمين الروس، من ذوى الأصول التركية، للعمل على إصلاح أحوالهم فكونوا لهم اتحادًا، وأصبح هو الأمين العام للمكتب الذى يقود هذا النشاط فى يناير ١٩٠٦م وفى أغسطس من نفس العام انتخب ـ فى المؤتمر الثالث لهذا الاتحاد ـ اتحاد مسلمى روسيا ـ ضمن اللجنة المركزية المنظمة له والقائدة لنشاطه.

* وفى ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م سافر إلى أورنبرج، وبدأ يدرس فى المدرسة الحسينية ـ الدينية بها.. وبعد نشره لمقالته التى حملت عنوان (الرحمة الإلهية) ـ فى مجلة (الشورى) ـ تعرض لانتقادات شديدة من قبل العلماء المتمسكين بالنهج التقليدى القديم.. وفى ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م ترك التدريس بالمدرسة الحسينية وعاد إلى مدينة بتروسبورج.

* وفى ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م فرغ من ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة التاتارية، لكنه لم يتمكن من طباعتها.. فأنشأ فى العام التالى ـ ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م ـ مطبعة (الأمانة)، بمدينة بتروسبورج.. وبواسطة هذه المطبعة أخذ يصدر ـ مع صديقه محمد عياض الإسحاقى الإدلى ـ جريدة (الولاية) ـ أو بتروسبورج.

* وفى هذه المرحلة من نشاطه الفكرى بدأ يتصدى للتوجهات الحداثية، التى تريد فصل الدين عن الدنيا والدولة.. فألف لذلك ـ ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م ـ كتابه (الملاحظة)، الذى انتقد فيه هذه التوجهات الحداثية العلمانية، وأكد أن ما ذهب إليه الغرب من فصل الكنيسة عن الدولة لا يوافق أصول الإسلام.

* وفى ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م قدم إلى المؤتمر الخامس لعموم مسلمى روسيا تقريرًا دافع فيه عن إنصاف المرأة والمساواة بين الرجل والمرأة.. كما قدم اقتراحًا للحفاظ على الحريات الدينية والقومية لمسلمى روسيا، وذلك فى مواجهة مقترحات المسلمين الروس المقربين من السلطات البلشفية الشيوعية، التى أرادت استبدال الوحدات الثقافية والأدبية للمسلمين الروس بالحريات الدينية والقومية، وإقامة جمهوريات سوفيتية للمسلمين الروس ذات صلاحيات محدودة.. فبدأت ـ منذ ذلك التاريخ ـ مناوأته للسلطات البلشفية ـ التى استولت على مساجد المسلمين وأوقافهم ومؤسساتهم التعليمية، ومنعت الناس من أداء الشعائر الدينية، وحولت المساجد إلى حظائر للحيوانات، وحكمت على كل من لا يسجل اسمه فى ديوان الاشتراكية البلشفية بالحرمان من حقوقه المدنية والاقتصادية ـ الحرمان من تملك العقارات والمنقولات، ورفض قبول شهادته وشكاواه وتظلماته أمام المحاكم!.

* وفيما بين ١٣٣٧هـ و١٣٣٨هـ/ ١٩١٩م ١٩٢٠م ـ أسهم فى مساعدة المسلمين الهنود النازحين من بلادهم إلى موسكو.

* وبعد احتلال البلاشفة لمدينة (بخارى) ـ ذات التراث الإسلامى العريق ـ سافر إليها فى نهاية ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م وشهد هناك التخريب البلشفى للمكونات الدينية والثقافية الإسلامية الذى أحدثه البلاشفة فيها.

* وفى ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م ألقى البلاشفة القبض عليه فى (طاشقند) بتهمة العمل ضد السوفييت، فقضى فى السجن أحد عشر شهرًا، عاد بعدها إلى سانكت ـ بتروسبورج، فعمل فيها إمامًا للجامع الكبير.

* وعندما نشر ـ فى برلين ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م ـ كتابه عن (الشعوب الإسلامية)

ألقى البلاشفة القبض عليه ـ مرة ثانية وسجنوه ثلاثة أشهر، ثم نفوه بعدها إلى موسكو مدة ثلاث سنوات.

* وبعد إلغاء مصطفى كمال أتاتورك [١٢٩٨ ـ ١٣٥٧هـ/ ١٨٨١ ـ ١٩٣٨م] الخلافة الإسلامية ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٤م شارك موسى جار الله فى الأنشطة والمؤتمرات الإسلامية التى حاولت إعادة إحياء الخلافة ـ كرمز ورابطة جامعة للمسلمين ـ فشارك فى مؤتمر مسلمى العالم بمكة المكرمة، وفى مؤتمر الخلافة بالقاهرة.. ثم سافر إلى مكة حاجًا ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م ـ وبعد الحج سافر إلى القدس للمشاركة فى المؤتمر الثانى للخلافة.

وكان رأيه فى حكومة أتاتورك أنها لا دينية، استبدلت القوانين الأوروبية بالإسلامية.. لكنه كان رافضًا لإعلان تكفيرها.. وبعبارته ـ أثناء محاورته لبعض علماء الهند ـ: (إننا إذا رأينا رجلًا مسلمًا ارتكب أمرًا عظيمًا، ينبغى أن نلاطفه حتى يرجع إلى الهدى).. ولقد كتب رسالة ـ بالعربية ـ سلمها إلى أتاتورك ـ فى الرد على العلماء العرب الذين أعلنوا كفر الحكومة التركية ـ ومنهم الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م] الذى اختلف معه موسى جار الله حول هذا الموضوع.

* وعندما تزايدت الضغوط الشيوعية على العلماء المسلمين الروس، غادر موسى جار الله روسيا فى نهاية ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م، تاركًا أسرته هناك.. فسافر إلى أفغانستان.. ثم الهند.. ثم مصر بادئًا سياحته التى ستستمر حتى وفاته بعد تسعة عشر عامًا!.

* وفى ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م شارك فى المؤتمر الأول لتاريخ الأتراك.. وفى العام التالى ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م ـ سافر إلى برلين، وأنشأ فيها مطبعة عربية نشر بواسطتها بعض مؤلفاته.

* وفى ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م سافر إلى العراق، وعايش الشيعة الإمامية الإثنى عشرية ـ هناك، والتقى بعدد من علمائهم ومراجعهم ومجتهديهم ـ ومنهم المجتهد السيد محسن الأمين [١٢٨١ ـ ١٣٧١هـ/ ١٨٦٥ ـ ١٩٥٢م] وهناك أنجز أبحاثه عن

الشيعة.. ثم سافر إلى مصر، وفيها طبع كتابه (الوشيعة[1] فى نقض عقائد الشيعة) ١٩٣٥م.. ومن مصر سافر إلى الهند.. ثم إلى اليابان، فأقام فى طوكيو حتى نهاية ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.. وعلى إثر بداية الحرب العالمية الثانية غادر اليابان إلى الهند، فألقى الإنجليز القبض عليه، وسجنوه سنة ونصف السنة ـ بدعوى علاقته باليابان ـ ثم أطلقوا سراحه، مع منعه من مغادرة مدينة بهوبال.. فانتهز الفرصة لمواصلة نشاطاته العلمية.

* وفيما بين ١٣٦٣هـ ـ ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٤م ـ ١٩٤٧م نشر عشرة من مؤلفاته.

* ولما مرض، سافر إلى القاهرة.. ومنها سافر إلى إسطنبول للعلاج ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، لكن جو إسطنبول لم يناسبه فعاد مرة أخرى إلى القاهرة، فدخل ملجأ العجزة لأم المحسنين، فى رعاية الأميرة خديجة عباس حلمى.. وفى هذا الملجأ توفى، وصعدت روحه إلى بارئها فى يوم الثلاثاء، محرم ١٣٦٩هـ/ ٢٥ أكتوبر ١٩٤٩م.. ونعته صحيفة (الأهرام) ـ فى اليوم التالى فقالت: (توفى أمس العلَّامة موسى جار الله، المولود فى راستوف دون بروسيا، عن ٧١ عامًا[2]، فى ملجأ العجزة لأم المحسنين، بمصر القديمة، حيث كان فى رعاية النبيلة خديجة عباس حلمى. وقد صلى عليه فى المسجد الزينبى، ودفن بمقابر الأسرة الخديوية فى العفيفى.

ومما يذكر أن الفقيد كان من كبار علماء مسلمى الشمال فى روسيا، وقد نزح عن وطنه فرارًا من وجه البلاشفة الذين اتخذوا أسرته المؤلفة من حرمه وستة أولاد رهينة، وجردوهم من حقوقهم؛ لأن عائلهم رفض القيام بالدعاية لصالح البلشفية. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته).

(١) الوشيعة: اللفافة. وتجمع على وشائع. وقد تعنى: الضميمة.

(٢) هذا على اعتبار أن مولده قد كان ١٨٧٨م. والأدق أنه قد ولد ١٨٧٥م، فتكون وفاته عن عمر بلغ ٧٤ عامًا ميلاديًا.. ٧٦ عامًا هجريًا.

(٢)

مذهبه فى الإصلاح

كان العلَّامة موسى جار الله يرى ضرورة الإصلاح لمناهج الفكر الإسلامى، والتجديد للعلوم الإسلامية، ولمؤسسات العلم الإسلامى ـ المكاتب والمدارس ومؤسسات السياسة والاقتصاد ـ.. أما الإسلام ـ بعقيدته وشريعته ومنظومة قيمه وأخلاقه ـ فليس فى حاجة إلى إصلاح.. وإنما الحاجة هى حاجتنا نحن كى نصلح مناهج النظر فى هذا الإسلام، ومناهج التعليم لهذا الإسلام.

ولأن الإسلام كتاب وسنة ـ أى نقل ـ ولأن النظر فيه يحتاج إلى (عقل) و (قلب)، فلقد جمع جار الله فى تكوينه ومنهاجه بين النقل السلفى من المنابع الجوهرية النقية ـ والعقل الفلسفى المؤمن، والقلب الصوفى، الذى هو أداة تزكية النفس، فكان هذا المزيج المتوازن المعبر عن الوسطية الإسلامية الجامعة.. ثم أضاف إلى ذلك (التجارب) التى ملأت حياته، والتى أفرزتها رحلاته فى الواقع الحياتى، فكانت له الهدايات الأربع التى جعلها أستاذه محمد عبده نظرية للمعرفة الإسلامية ـ هدايات: العقل.. والنقل.. والتجربة.. والوجدان.

* وفى إصلاح مناهج التعليم الإسلامى كان يرى ضرورة الجمع بين العلوم التراثية والعلوم الحديثة، وضرورة أن ندرس العلوم الاجتماعية انطلاقًا من المرجعية القرآنية.

كذلك انتقد شيوع الجمود والتقليد، وضمور الاجتهاد والتجديد.. وكان يحمل الفقهاء مسئولية التقليد، ويحمل المتكلمين مسئولية دخول الفلسفة الوضعية والنظريات الأجنبية إلى ميدان العقيدة الإسلامية.. ومن هنا كان داعية للحرية الفكرية، وعدوًا للتعصب المذهبى.. وكان نصيرًا لمنهاج السلف الصالح البعيد عن التعقيد الذى طرأ على الحياة الفكرية فى عصور التراجع الحضارى. كما كان يرى أن (للكشف الصوفى) دورًا فى فتح النوافذ أمام العقل ـ إذ لا تناقض بينهما ـ .. وفى نقده لما طرأ على الحياة الصوفية نبه على أن الكثير من مصطلحات الصوفية ـ مثل

(الغوث) و(القطب) و(الأوتاد) و(النجباء)[1] و(الأبطال) و(الإمام المنتظر) ـ هى دخيلة على الإسلام، وعلى منهاجه فى تزكية النفوس.. كما كان ناقدًا شديدًا لتحول التصوف إلى رهبانية نصرانية.

كذلك كان نصيرًا لتعليم المرأة، وإعطائها حقوقها، وإشراكها فى الحياة العلمية والاجتماعية، على النحو الذى كان لها فى صدر الإسلام.

* وكان واسع الأفق والصدر فى النظر إلى الأديان الأخرى.. ولقد رأى ـ فى كتابه (براهين الرحمة الإلهية) ـ أن العذاب الدائم لن يكون موافقًا للرحمة الإلهية، وأن مغفرة الله ستشمل كل شخص.. الأمر الذى جلب عليه انتقادات شارك فيها الشيخ الكبير مصطفى صبرى [١٢٨٦ـ ١٣٧٣هـ/ ١٨٦٩ـ ١٩٥٤م].

* ولقد كان مذهبه فى التجديد كمذهب أستاذه محمد عبده: وسطًا.. يرفض الجمود والتقليد لماضينا رفضه التغريب الذى يقلد الغرب فى نزع القداسة عن المقدسات والعصمة عن المعصومين.

* ولقد تجاوزت دعواته التجديدية والإصلاحية النطاق الروسى، وميادين الصدام بين السلطات السوفيتية إلى مختلف بقاع العالم الإسلامى الذى ساح فيه.. وأسهمت فى ذلك رحلاته التى استغرقت السنوات الطوال.

ومع سقوط الشيوعية ـ أوائل تسعينيات القرن العشرين ـ وتحرر المسلمين الروس من سجن وقهر المادية والإلحاد، أخذت الدراسات تتكاثر حول أفكار شيخ الإسلام العلَّامة موسى جار الله، فنشطت حركة الترجمة لكتبه، وانعقدت الندوات العلمية حول مذهبه فى الإصلاح، ونشرت الترجمات لسيرته الذاتية، وعطائه الفكرى.. ولقد عقدت وزارة الأوقاف التركية وجامعة أحمد يسوى ندوة عالمية ـ بكييف ـ عن موسى جار الله، فى ذكرى مرور خمسين عامًا على وفاته ـ يومى ٦، ٧ نوفمبر ١٩٩٩م ـ رجب ١٤٢٠هـ.. كما كانت أفكاره الإصلاحية موضوعًا لعدد من

(١) عند الصوفية: الغوث: هو القطب حال الالتجاء إليه. والقطب: هو الواحد الذى هو موضوع نظر الله فى كل زمان أعطاه الطلسم. والأوتاد: أربعة رجال منازلهم على منازل أركان العالم الأربعة. والنجباء: هم الأربعون المشغولون بحمل أثقال الخلق.

الأبحاث التى قدمت فى العديد من الندوات التى عقدت عن الثقافة الإسلامية فى الفولجا والأورال ـ ومنها الندوة التى عقدت فى يونيو ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .. والندوة التى عقدت فى يونيو ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٣)

عطاؤه الفكرى

وإذا كانت حياة هذا العالم الجليل ـ شيخ الإسلام موسى جار الله ـ قد مثلت تجسيدًا حيًا لجهاده العلمى، ولفكره ومذهبه فى الإصلاح، فإن الرجل ـ رغم المعاناة التى واجهها، ورغم النفى والتشريد والمطاردات، ورغم الحرمان من وطنه وشعبه وأسرته ـ المؤلفة من زوجه وأولاده الستة ـ لعدة عقود، حتى لقد مات غريبًا فى ملجأ للعجزة بعيدًا عن وطنه وأهله ـ ورغم السجن الذى اتفق عليه وفيه الشرق والغرب، والبلشفية والرأسمالية ـ السوفييت والإنجليز!.. رغم كل ذلك، فإن هذا العالم الجليل قد خلف آثارًا فكرية بالغة الأهمية ـ إن فى العدد أو فى القيمة العلمية.. خلّف أربعة وأربعين مؤلفًا، وذلك بالإضافة إلى ترجماته وشروحه التى بلغ عددها خمسة عشر كتابًا.

* لقد كتب أهم مؤلفاته فيما بين عامى ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م/ ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م.. بلغة تتارى تركى.. وبعد ١٩٣٥م كانت كتاباته باللغة العربية.

* وفى الكتب التى طبعها بالقاهرة ١٩٣٥م ـ مثل (أيام حياة النبى) و(نظام التقويم فى الإسلام) و(نظام النسيئة عند العرب) ـ وكذلك كتابه (خاتون)، لم يضع اسمه الصريح على هذه الكتب ـ كى لا يحرج البلد الذى يعيش فيه مع الدولة السوفيتية ـ وإنما مهر هذه الكتب بـ(ابن فاطمة) ـ نسبة إلى أمه!.

* ومن أهم هذه المؤلفات الذى خلفها هذا العالم المجاهد:

١ـ «تاريخ القرآن والمصاحف»، ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م.

٢ـ «الندوة الثالثة لعامة مسلمى روسيا»، ١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٦م.

٣ـ «برنامج اتحاد روسيا»، ١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٦م.

٤ـ «الأدبيات العربية مع العلوم الإسلامية».

٥ـ «تصحيح رسم خط القرآن»، ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م.

٦ـ «لماذا اعتبرت الشريعة الرؤية» ـ رؤية الهلال ـ؟ ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م.

٧ـ «القواعد الفقهية»، ١٣٢٨هـ ـ ١٩١٠م.

٨ـ «براهين الرحمة الإلهية»، ١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م.

٩ـ «نظرة إلى العقيدة الإلهية عند الناس»، ١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م.

١٠ـ «الصوم فى الأيام الطويلة» ـ فى المناطق القطبية ـ ١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م.

١١ـ «بضع المسائل فى نظرة الشعب»، ١٣٣٠هـ ـ ١٩١٢م.

١٢ـ «أفكار صغيرة فى مواضيع كبيرة»، ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م.

١٣ـ «الملاحظة»، ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م.

١٤ـ «أساس الإصلاحات»، ١٣٣٣هـ ـ ١٩١٥م.

١٥ـ «الزكاة».

١٦ـ «أساس الشريعة»، ١٣٣٥هـ ـ ١٩١٧م.

١٧ـ «إلى الأمة الإسلامية» ـ فى نقض الإسلام للشيوعية ١٣٤١هـ ـ ١٩٢٣م.

١٨ـ «مسائل المسكرات» ١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٣م.

١٩ـ «يعجوج فى التعبيرات المعجزة فى آيات القرآن الكريم»، ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣م.

٢٠ـ «خاتون». ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣م.

٢١ـ «الوشيعة فى نقض عقائد الشيعة». ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م.

٢٢ـ «صحيفة الفرائض» ـ فى المواريث ـ ١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٤م.

٢٣ـ «صرف القرآن»، ١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٤م.

٢٤ـ «حروف أوائل السور»، ١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٤م.

٢٥ـ «ترتيب السور الكريمة وتناسبها فى النزول وفى المصاحف»، ١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٤م.

٢٦ـ «كتاب السنة» ـ فى الرد على منكرى السنة بجنوبى الهند ـ ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م.

٢٧ـ «الآيات فى خلقة الإنسان» ـ تاريخ التشريع الإسلامى.

٢٨ـ «النقوض على تفاصيل عقود كتاب إحياء النحو».

٢٩ـ «رسائل تأمين الحياة والأموال والأملاك».

٣٠ـ «الأصول الجلالية».

* أما ترجماته.. فأهمها:

١ـ «القوة فى العلم»، ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م.

٢ـ «اللزوميات لأبى العلاء المعرى»، ١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٧م.

٣ـ «ديوان الحافظ» ـ للشاعر الفارسى حافظ شيرازى ١٣٢٨هـ ـ ١٩١٠م.

* أما شروحه ومنشوراته.. فأهمها:

١ـ «الشاطبية»، ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م.

٢ـ «العقيلة»، ١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٨م.

٣ـ «ناظمة الزهر»، ١٣٢٨هـ ـ ١٩١٠م.

٤ـ «الموافقات» ـ للشاطبى ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م.

٥ـ «إفاضة الكرام» ـ لابن حجر العسقلانى ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م.

٦ـ «نزهة النظر فى توضيح نخبة الفكر»، ١٣٢٨هـ ـ ١٩١٠م.

٧ـ «شرح طيبة النشر فى القراءات العشر» ـ لابن الجزرى ١٣٣٠هـ ـ ١٩١٢م.

٨ـ «الرحلة إلى ما وراء النهر»، ١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٨م.

٩ـ «شرح الموطأ» ـ للإمام مالك ـ ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م.

١٠ـ «الدليل الصريح فى نزول المسيح» ـ لأحمد بن أمين الشنقيطى ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م.

١١ـ «الصفحات المنسية للتاريخ» ـ لعبد الرشيد إبراهيم ـ ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣م.

١٢ـ «إلهام الرحمن فى تفسير القرآن» ـ لعبيد الله السندى ـ ١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٤م[١].

(١) المصادر والمراجع:

أـ كتاب (الوشيعة فى نقض عقائد الشيعة) طبعة القاهرة ١٩٣٥م.

بـ (الموسوعة الإسلامية لوزارة الأوقاف التركية) ـ المجلد ٣١ ص ١ـ ٨ طبعة إسطنبول ٢٠٠٦م.

جـ محمد كرد على (المذكرات) ج٤ ص ١٢٣٣ـ طبعة دمشق.

دـ خير الدين الزركلى (الأعلام) طبعة بيروت.

هـ/ ـ إليان سركيس (معجم المطبوعات العربية والمعربة) طبعة القاهرة.

وـ مجلة (الفتح) عدد ٢٦٧ الصادر فى ٢٧ ربيع الثانى ١٣٥٠هـ.

زـ (الأهرام) عدد ٢٦ـ ١٠ـ ١٩٤٩م.

حـ (موسوعة المعرفة).

طـ الشريف الجرجانى (التعريفات) طبعة القاهرة ١٩٣٨م.

الوشيعة فى نقض عقائد الشيعة

للعلامة موسى جار الله

[١٢٩٢ـ١٣٦٩هـ ـ ١٨٧٥ـ١٩٤٩م]

لقد كنت أعجب بالقليل الذى طالعته من تآليف العلامة موسى جار الله ورسائله ومقالاته، فلما أخرج كتابه (الوشيعة فى نقض عقائد الشيعة) رأيت فيه الإمام الذى انعقد الإجماع على جلالة علمه وشدة غيرته على النهوض بالمسلمين فى المشارق والمغارب).

محمد كرد على

* فى هذا الكتاب لم يهتم العلامة موسى جار الله بالعقائد (الضالة) للشيعة ـ من مثل تأليه الإمامة وتأليه الأئمة..لأن مرد هذا الضلال عليهم بالدرجة الأولى.. وإنما اهتم بنقض عقائدهم (الضارة) بالأمة.. وفى ذلك قال: (إنى أزن العقائد بضررها وضرارها، لا بأخطائها وضلالها، وإنى فى ضلال العقائد مرجئ صافح، أما فى ضرار العقائد فإنى معترض صادع، ومعرض ناصح).

* ولقد رد قول الشيعة بعصمة الأئمة بالقول بعصمة الأمة، بدلًا من الأئمة.. وقال: (إنى أعتقد فى الأمة عقيدة الشيعة فى الأئمة. الشيعة تقول بعصمة الأئمة، أما أنا فأقول بعصمة الأمة، فإن الأمة فى عقيدتى معصومة بعصمة نبيها.

وعقيدة عصمة الأئمة قد بناها الشيعة على حرمان كل الأمة من عقل عاصم، ومن إيمان هادئ هاد فإن الأمة إن كان لها عقل يعصمها، وإيمان يهديها، فهى بالغة رشيدة، راشدة، خرجت عن الوضعية، وكبرت عن طوق الشيعة).

* وحكومة الإسلام ـ فى مذهب هذا العلامة ـ هى كما رآها علماء أهل السنة

والجماعة: (حكومة مدنية.. وشرع الإسلام مدنى اجتماعى، يجعل صلاح الدنيا وسيلة إلى نعيم أبدى مقيم).

* ولم يأت نقضه لعقائد الشيعة ـ فى هذا الكتاب ـ ثمرة لقراءته المصادر الشيعية الحاوية لهذه العقائد فقط، وإنما أضاف إلى قراءته أمهات المصادر الشيعية الأصلية، مخالطة الشيعة، والإطلاع على واقعهم الفكرى والعملى، ومحاورة العديد من مراجعهم الكبار..فتميز نقضه لعقائدهم عن كثيرين من الذين لم يخبروا الواقع الشيعى.

* ومع نقضه لعقائد الشيعة الضارة بالأمة، والتى تحكم على الأمة وحضارتها وتاريخها بالإعدام، وذلك عندما تلعن العصر الأول ـ عصر التأسيس ـ وتكفر الصحابة الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ـ وكل من والاهم ـ أى ٩٠٪ من الأمة على مر أجيالها ـ.. ومع نقض موسى جار الله لهذه العقائد الشيعية، عرض لفروعهم الفقهية بموضوعية علمية، فاستحسن ما هو حسن منها، وانتقد الكثير الضار منها.

وكان نقده لمذهب الشيعة فى نكاح المتعة أعظم وأعمق ما كتب فى هذا الباب.. إذ فضح هذا المذهب الذى يحلل الفسق والزنا والخنا والفجور ـ الذى أسموه نكاح المتعة ـ والذى هو فى حقيقته تجارة المرأة بفرجها، وامتهان الرجل للمرأة فى شرفها وعفافها ـ وهو المذهب الذى لا يزال يمثل (مصيدة) الشيعة لغواية المنحرفين عن العفة الإسلامية للسقوط فى مستنقع التشيع حتى الآن!..

كذلك فند الكثير من دعاوى الشيعة فى المواريث، انطلاقًا من فقه القرآن الكريم.. فلقد كان الرجل فقيهًا فى اللغة العربية لغة القرآن ـ تجلى فقهه هذا فى فهم مفردات القرآن وسياقاته، وفى فقه مصطلحاته، وفى تحديد الفروق الدقيقة بين مفاهيم هذه المصطلحات.. ولذلك تجلت رؤيته الثاقبة فى الإدراك لكثير من أسرار آيات القرآن الكريم، كما تجلت عبقريته فى فقه السنة النبوية.. وفى هذا الباب كان أفقه من عرض لتفسير الحديث الذى تحتج به الشيعة ـ حديث قول الرسول ﷺ لعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ: (أنت منى بمنزلة هارون من موسى) ـ ولقد استعان فى هذا التفسير أيضًا بثقافته الواسعة فى التراث اليهودى وأسفار العهد القديم.

* نعم.. لقد تجلى هذا العالم الجليل ـ فى هذا الكتاب ـ:

فيلسوفًا.. وصوفيًا..وفقيهًا.. ومفسرًا متدبرًا لآيات القرآن الكريم.. كما تجلى صاحب مذهب إنسانى، يرى الإنسان غاية للكون وللتشريع، ومقصدًا أصليًا من كل نظام اجتماعى، فلم يخلق الكون إلا لأجل الإنسان، ولم ينزل شرع، ولم يوضع قانون إلا لأجل حقوقه وتحقيق مصالحه).

* كما تجلى مجتهدًا مجددًا، يرى أن الأزمة الفكرية التى تورط فيها المسلمون هى الأشد من كل أزمة ـ اجتماعية أو اقتصادية ـ وأن أصعب بلية فى الشرق هى: أن فكر فقيه الإسلام عقيم عاقر، بسببه هجرت دول الإسلام شرع القرآن، ورغبت الأمة عن مدارس الإسلام.

ولقد صاغ هذه الأزمة الفكرية شعرًا قال فيه:

ما مشكل أن القيود تكون غل الأرجل
إن القيود على العقول فذاك كل المشكل

تلك لمحات أردنا بها إضاءة سيرة هذا الإمام العلامة.. والمجاهد الذى أعطى كل حياته وجميع طاقاته لدينه وأمته.. كما أردنا بها التقديم بين يدى هذا الكتاب[1]

رحمه الله شيخ إسلام روسيا قبل الثورة البلشفية وإبانها.. ذلك الذى جسدت حياته معاناة الأمة الإسلامية.. وجهادها ضد ما فرض عليها من تحديات.. ونفعنا بعلمه، وبسيرة جهاده.. إنه سبحانه خير مسئول وأكرم مجيب.

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب ـ هدية مجلة [الأزهر] عدد صفر سنة ١٤٣٦هـ ديسمبر ٢٠١٤م وطبعة مفكرون سنة ٢٠١٨م.

الشيخ محب الدين الخطيب

[١٣٠٣ـ ١٣٨٩هـ ـ ١٨٨٦ـ ١٩٦٩م]

بطاقة حيـاة

* هو العلامة محب الدين الخطيب ـ محب الدين بن أبى الفتح محمد بن عبد القادر بن صالح الخطيب [١٣٠٣ـ ١٣٨٩هـ/ ١٨٨٦ـ ١٩٦٩م] ـ من أسرة عريقة يتصل نسبها بالعارف بالله سيدى عبد القادر الجيلانى الحسنى [٤٧١ـ ٥٦١هـ/ ١٠٧٨ـ ١١٦٦م] القطب الصوفى الشهير.

* ولد بدمشق، لأسرة عريقة فى العلم والخطابة والتدريس بمساجد دمشق.. وكان والده أمين دار الكتب الظاهرية منذ تأسيسها سنة ١٨٧٩م وحتى وفاته سنة ١٨٩٧م.

* وفى مدرسة الترقى النموذجية ـ بدمشق ـ تلقى محب الدين الخطيب تعليمه الابتدائى.. ثم تحول إلى بيروت فتلقى بمكاتبها ومدارسها ـ مكتب عنبر ومدرسة بيروت ـ تعليمه الثانوى.

* واتصل بالحلقة الفكرية الضيقة التى اجتمعت حول المصلح المجدد الشيخ طاهر الجزائرى [١٢٦٨ـ ١٣٣٨هـ/ ١٨٥٢ـ ١٩٢٠م] ـ والتى كانت تضم نخبة من زعماء الفكر والإصلاح.. وفيها تفتحت آفاقه على العمل الإصلاحى الإسلامى.

* سافر إلى إستنبول ـ عاصمة الخلافة العثمانية ـ لدراسة الحقوق ـ فى مدرسة الحقوق ـ وهناك كون مع صديقه عارف الشهابى [١٨٨٩ـ ١٩١٦] ـ «جمعية النهضة العربية» ـ السرية ـ فى ٢٤ـ ١٢ـ ١٩٠٦م فلاحقته السلطات العثمانية.. وكانت هذه الملاحقات السبب فى عدم إكماله دراسته الجامعية.

* سافر إلى اليمن ـ فى أكتوبر سنة ١٩٠٧م للعمل بها.. فعمل معلمًا وموظفًا

فى بعض مدارس صنعاء.. كما شغل إحدى الوظائف بالقنصلية البريطانية بمدينة الحديدة.. ثم عاد إلى مسقط رأسه دمشق عندما أعلن الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨م.. ومن دمشق زار الآستانة.

* وضمن حركات النزوح ـ نزوح المفكرين والساسة الأحرار ـ من المناخ العثمانى الضاغط ـ هاجر محب الدين الخطيب من الشام إلى القاهرة سنة ١٩١١م.. وفيها اشتغل بالصحافة، وأصبح واحدًا من محررى صحيفة «المؤيد» لصاحبها الشيخ على يوسف [١٢٨٠ـ ١٣٣١هـ/ ١٨٦٣ـ ١٩١٣م].

* وفى القاهرة، أنشأ عدد من الوطنيين السوريين، الداعين لإصلاح الخلافة العثمانية (حزب اللامركزية الإدارية العثمانى) سنة ١٩١٣م.. ولقد شارك محب الدين الخطيب فى تأسيس هذا الحزب، واختير أمينًا ثانيًا للسر فى لجنته العليا.

* وفى ذات العام سنة ١٩١٣م انضم إلى إحدى الجمعيات العربية السرية «جمعية العربية الفتاة» التى كانت تسعى لإبراز الكيان القومى العربى فى إطار الجامعة العثمانية فى مقابل هيمنة النزعة الطورانية على السياسة العثمانية.. وكان الخطيب العضو الثامن والعشرين فى هذه الجمعية العربية السرية.. ولقد انتدبته هذه الجمعية أوائل الحرب العالمية الأولى كى يسافر للاتصال بالأمراء العرب، فسافر بالباخرة فى أكتوبر سنة ١٩١٤م لكن الإنجليز ألقوا القبض عليه بالبصرة ووضعوه قيد الاعتقال لمدة سبعة أشهر..ثم أعيد إلى مصر.

* وكان محب الدين الخطيب الجامع لأبحاث ومداولات «المؤتمر العربى الأول» ـ الذى عقد بباريس سنة ١٩١٣م والكاتب للمقدمة التى صدّرت طبعة أعمال هذا المؤتمر الذى ضم الجمعيات والقيادات القومية العربية فى الدولة العثمانية.

* وعندما أعلن الشريف حسين بن على [١٢٧٠ـ ١٣٥٠هـ/ ١٨٥٤ـ ١٩٣١م] ثورته الكبرى على الدولة العثمانية فى ١٠ مارس سنة ١٩١٦م، غادر محب الدين الخطيب القاهرة إلى الحجاز ومن مكة المكرمة أصدر صحيفة (القبلة)، التى تدعو لاستقلال العرب عن الدولة العثمانية.. فما كان من الأتراك إلا أن أصدروا ضده حكمًا غيابيًا بالإعدام.

* وفى يونيو سنة ١٩١٩م غادر محب الدين الخطيب الحجاز إلى دمشق عندما قامت الدولة العربية المستقلة التى قادها الأمير فيصل بن الحسين [١٣٠٠ـ١٣٥٢هـ/ ١٨٨٣ـ١٩٣٣م] سنة ١٩١٨م.. وفى دمشق تولى الخطيب تحرير صحيفة «العاصمة» الناطقة باسم الحكومة العربية، فكانت أول صحيفة عربية حكومية بدمشق..وظل فى دمشق حتى اجتاحها الجيش الفرنسى بقيادة الجنرال «جورو» [١٨٦٧ـ ١٩٤٦م] فلما سقطت الدولة العربية بعد معركة «ميسلون» غادر محب الدين الخطيب دمشق إلى القاهرة، حيث استقر بها، متخذًا منها دار إقامته الدائمة.

* وفى القاهرة عمل الخطيب محررًا فى صحيفة «الأهرام».. وأصدر مجلتيه: «الزهراء» الشهرية و«الفتح» الأسبوعية.. وتولى رئاسة تحرير مجلة «الأزهر» مدة ست سنوات.. وأنشأ المطبعة السلفية ومكتبتها، التى أصبحت مركزًا يجتمع فيه كثير من العلماء والمجاهدين وزعماء الإصلاح العرب والمسلمين.. كما أصبحت منارة لنشر كثير من الكتب الإسلامية التى تتصدى لكثير من التحديات التى واجهت الشرق الإسلامى فى ذلك التاريخ.

* وكان محب الدين الخطيب من أوائل العلماء والزعماء الذين تداعوا لتكوين «جمعية الشبان المسلمين» بالقاهرة سنة ١٩٢٧م استجابة لمواجهة التحديات الاستعمارية والتغريبية التى تداعت على الشرق الإسلامى بعد إسقاط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م، وعموم بلوى الاستعمار لعالم الإسلام.

* وإلى جانب «المطبعة السلفية ومكتبتها».. ومجلتى «الزهراء» و«الفتح» أشرف محب الدين الخطيب على التحقيق والنشر للعديد من كتب التراث الإسلامى.. من بينها «العواصم من القواصم» لابن العربى و«الغارة على العالم الإسلامى» الذى تصدى به لموجات التنصير.

* ولقد ضمت خزانة كتبه نحو عشرين ألف مجلد مطبوع، فيها كثير من الكتب النادرة.

* كما ترك آثارًا فكرية أبدعها قلمه.. منها:

١ـ « اتجاه الموجات البشرية فى جزيرة العرب».

٢ـ « تاريخ مدينة الزهراء بالأندلس».

٣ـ « ذكرى موقعة حطين».

٤ـ «الأزهر: ماضيه وحاضره والحاجه إلى إصلاحه».

٥ـ «الرعيل الأول فى الإسلام».

٦ـ «دفاع عن الحديث النبوى» بالاشتراك مع آخرين.

٧ـ «الحديقة» فى أجزاء صغيرة.. صدر منها ثلاثة عشر جزءًا ـ اشتملت على روائع اللغة والأدب العربى.

٨ـ «سرائر القرآن» الذى ترجمه من التركية إلى العربية.

أما الديوان الأكبر لإبداعاته الفكرية فكان صفحات المجلات التى أصدرها أو رأس تحريرها أو أسهم فى تحريرها.. والتى تنتظر من يجمعها، لتكون «الأعمال الكاملة» لهذا الإمام الذى مثل منارة من منارات العلم الإسلامى والجهاد الإسلامى فى القرن الرابع عشر الهجرى ـ العشرين الميلادى ـ عليه رحمة الله[1].

* وكنموذج من نماذج الدراسات والرسائل التى أبدعها محب الدين الخطيب هذه الدراسة التى نقدم بين يديها.. عن: «الخطوط العريضة للأسس التى قام عليها دين الشيعة الإمامية الإثنى عشرية».

(١) عمر رضا كحالة (معجم مصنفى الكتب العربية) طبعة بيروت ـ مؤسسة الرسالة ـ سنة ١٤٠٦هـ سنة ١٩٨٦م.. و«الموسوعة العربية» طبعة دمشق سنة ٢٠٠٧م.

الخطوط العريضة لدين الشيعة

للشيخ محب الدين الخطيب

[١٣٠٣ـ ١٣٨٩هـ ـ ١٨٨٦ـ ١٩٦٩م]

قد يستغرب البعض استخدام محب الدين الخطيب مصطلح «دين الشيعة» بدلًا من «مذهب الشيعة» أو «فرقة الشيعة».. لكن الذين خبروا حقيقة عقائد الشيعة الإمامية يدركون دقة هذا الاصطلاح.. بل ويعرفون أن علماء الشيعة أنفسهم لا ينكرون ذلك، وإن منهم لمن جاهر باستخدامه..

فشيخ الطائفة نعمة الله الجزائرى [١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م] يعلن فى كتابه «الأنوار النعمانية» مفارقة الشيعة لأهل السنة والجماعة حتى فى الألوهية والنبوة!! فيقول:

«إننا لم نجتمع معهم «أى مع أهل السنة والجماعة الذين يمثلون أكثر من ٩٠٪ من المسلمين» على إله ولا نبى، ولا على إمام، وذلك أنهم يقولون: «إن ربهم هو الذى كان محمد نبيه، وخليفته أبو بكر».. ونحن لا نقول بهذا الرب ولا بذلك النبى، بل نقول: إن الرب الذى خليفته أبو بكر ليس ربنا ولا ذلك النبى نبينا»[١].

*وهو ـ نعمة الله الجزائرى شيخ الشيعة ـ يصف الأشاعرة الذين يمثلون ٩٩٪ من أهل السنة «بأنهم لم يعرفوا ربهم بوجه صحيح، فلا فرق بين معرفتهم هذه وبين معرفة باقى الكفار.. فهم ومتابعوهم أسوأ حالًا فى باب معرفة الصانع من المشركين والنصارى.. ولقد تباينا وانفصلنا عنهم فى باب الربوبية»[٢].

* وهذه المباينة فى الدين ـ التى يعلنها شيخ الطائفة نعمة الله الجزائرى

(١) نعمة الله الجزائرى «الأنوار النعمانية» جـ٢ ص ٢٧٩.. طبعة مؤسسة الأعلى.. بيروت.
(٢) المصدر السابق.. جـ٢ ص ٢٧٨.

ليست مجرد اجتهاد عالم من كبار علماء الشيعة بلغ مرتبة شيخ الطائفة وإنما هى عند الشيعة أحاديث معصومة ودائمة نسبوها إلى الأئمة المعصومين.. فالكلينى [٣٢٩هـ/ ٩٤١م] الملقب عندهم بـ«ثقة الإسلام» يروى فى كتاب «الكافى» الذى هو بمثابة البخارى عند أهل السنة يروى عن الإمام الرضا أبو الحسن علىّ بن موسى «١٥٣ـ ٢٠٣هـ/ ٧٧٠ـ ٨١٨م» حديثًا يقصر فيه دين الإسلام على الشيعة وأئمتهم الإثنى عشر.. ويقول فى هذا الحديث:

«إن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، أخذ الله علينا وعليهم الميثاق، يردون موردنا، ويدخلون مدخلنا، ليس على ملة الإسلام غيرنا وغيرهم إلى يوم القيامة»(١)

فالشيعة هم الذين مارسوا التكفير والإقصاء من الدين لجمهور الصحابة وجمهور المسلمين.. أى أنهم هم الذين أعلنوا المفاصلة فى الدين!

* وقد يستغرب البعض ما سيجده فى رسالة محب الدين الخطيب هذه، من قوله: إن الشيعة قد جعلوا من أئمتهم آلهة مثل آلهة اليونان!

ولكن هذا الاستغراب سيزول عندما يطالع ما أورده العلامة محب الدين الخطيب من نصوص شيعية تؤله الأئمة الإثنى عشر.. بل إن هذه العقائد الشيعية فى تأليه الأئمة عامة ومستمرة فى المصادر الشيعية التى لم يرد ذكرها فى دراسة الشيخ محب الدين الخطيب.. وهى شائعة فى المصادر الشيعية المعاصرة التى كتبت بعد وفاة الخطيب.

فالشيخ محمد الوحيد الخراسانى [١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م] يدْرس علم الأصول لطلاب الحوزة العلمية ـ بمدينة قم ـ فيقول:

«إن الأئمة هم فاعلون ما به الوجود، وإن الله منه الوجود. وإن إمام العصر صار عبدًا، وعندما صار عبدًا صار ربًا»(٢).

(١) «الكافى»، جـ١ ص ٢٢٣.

(٢) «مقتطفات ولائية»، ص٣٩ ـ من محاضرة فى قم بتاريخ ١٣ شعبان سنة ١٣١١هـ.

أما السيد محمد الشيرازى [١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م] فإنه يقول:

«بتفويض الله للنبى وللأئمة من أهل البيت الولاية التشريعية والولاية التكوينية، وذلك بمعنى أن زمام العالم بأيديهم، فلهم التصرف فيه إيجادًا وإعدامًا، كما أن زمام الإماتة بيد عزرائيل، وأنهم «الأئمة» الوسائط فى خلق العالم والعلة الغائية له، كما أنهم سبب لطف الله تعالى وإفاضته على العالم، واستمرار قيام العالم بهم»[١].

أما الخمينى [١٣٢٠ـ ١٤٠٩هـ/ ١٩٠٢ـ ١٩٨٩م] فإنه يقول: «إن من ضروريات مذهبنا: أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبى مرسل.. وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم«صلى الله عليه وآله ـ والأئمة ـ عليهم السلام ـ كانوا قبل هذا العالم أنوارًا، فجعلهم الله بعرشه محدقين.. وقد ورد عنهم ـ عليهم السلام ـ: إن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبى مرسل»[٢].

كما يذكر ـ الخمينى ـ ما يقوله الشيعة عند زيارة مراقد الأئمة فى «الزيارة الجامعة الشريفة»، إذ يخاطبون الأئمة فيقولون لهم:

«إن حساب الخلق عليكم، وإيابهم إليكم».

ثم يحكى عقيدة الشيعة فى «أن الإمام قائم على كل نفس بما كسبت»[٣].

ويقول: «إن للإمام درجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون[٤].. وأن هيولى «مادة» عالم الإمكان مسخرة تحت يدى الولى «الإمام» يقلبها كما يشاء[٥].

كذلك يقول آية الله مرتضى مطهرى «١٣٣٨ـ ١٤٠٠هـ/ ١٩٢٠ـ ١٩٨٠م»:

(١) الشيرازى «من فقه الزهراء»، جـ١ ص ١٠، ١١، ١٧ ـ نقلاً عن كتاب «عوالم العلوم ومستدركاتها» مجلد فاطمة. جـ١.

(٢) الخمينى «الحكومة الإسلامية»، ص٥٢، ٥٣.. طبعة القاهرة.

(٣) الخمينى «مصباح الهداية إلى الولاية والخلافة»، ص ٨٤.

(٤) «الحكومة الإسلامية»، ص ٢٥.

(٥) «مصباح الهداية إلى الولاية والخلافة»، ص ٢٥.

«إن الإمامة عند الشيعة أرفع من بعض درجات النبوة.. وإن من بين المقامات التى تذكر للإمام: تسلطه على الضمائر، أى القلوب»[١].

أما السيد محمد تقى المدرسى، فإنه يثبت لأئمة الشيعة وحيًا لا ينقطع، فيقول:

«إن الإنسان الذى يعتقد بالوحى لا بد أن يؤمن أيضًا بامتداد هذا الوحى المتمثل فى الأئمة ـ عليهم السلام ـ وأن هذا الامتداد يتجسد، بل يرتفع وينمو حتى يصل إلى قمته، وإلى ذروة امتداده المتمثلة فى الإمام الحجة المنتظر ـ عجل الله تعالى فرجه»[٢].

بل لقد زعم الشيعة لأئمتهم قدرات تفوق القدرة الإلهية.. فنسبوا إلى الإمام زين العابدين ـ أبو محمد على ابن الحسين (٣٨ـ ٩٤هـ/ ٦٥٨ـ ٧١٢م) قوله:

«إن اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفًا.. وإنما كان عند آصف منها حرف واحد، فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس، حتى تناول السرير بيده، ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين.. ونحن «أى أئمة الشيعة» عندنا من الاسم الأعظم اثنان وسبعون حرفًا، وحرف واحد عند الله استأثر به فى علم الغيب عنده»[٣].

فما عند أئمة الشيعة من ولاية تكوينية على كل ذرات هذا الوجود تفوق ـ بزعمهم ـ قدرات الله بنسبة ٧٢ إلى ١٠٠٠٠٠!!

ولقد وصل الخمينى إلى حد اللامعقول (إن كان فيما تقدم أثر للمعقول!) عندما اعترف:

«بأن الشيعة يعتقدون فى أئمتهم بما هو أعظم مما لا يخطر على بال أحد.. وبما يبعث على تحير العقول.. فلم يقف أحد على حقائقهم وأسرارهم ـ عليهم السلام ـ إلا أنفسهم»[٤].

(١) مطهرى «الإمامة»، ص ١٨٧، ٥٢.
(٢) المدرسى «الإمام المهدى قدوة الصديقين»، ص٩.
(٣) «الكافى»، جـ١ ص٢٣٠.
(٤) الخمينى «الأربعون حديثًا»، ص ٤٨٩.. طبعة مؤسسة الكتاب الإسلامى ـ تعريب محمد الغروى.. والنقل عن د.أحمد الكاتب «السنة والشيعة» ص ٣٥، ٣٦.. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

تلك هى عقائد الشيعة الإمامية الإثنى عشرية فى تأليه أئمتهم.. سقنا عليها طرفًا من النصوص التى تدعم ما جاء بهذا الكتاب الذى كتبه العلامة محب الدين الخطيب.

* * *

* ولما لم تجد الشيعة أثرًا لهذه العقائد التى تفوقت فى الغلو على الكهانة الكنسية، لما لم يجدوا لها أثرًا فى القرآن الكريم أو السنة النبوية.. ذهبوا فزعموا تحريف الصحابة للقرآن الكريم.. ورووا عن أئمتهم الأحاديث التى جعلت هذا التحريف عقيدة من عقائدهم.. فنسبوا إلى الإمام الباقر ـ أبو جعفر محمد بن علىّ ـ [٥٧ـ ١١٤هـ/ ٦٧٦ـ ٧٣٢] أنه قال:

«ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أُنزل إلا كذاب.. وما جمعه وحفظه كما نزله الله تعالى إلا علىّ ابن أبى طالب ـ عليه السلام ـ والأئمة من بعده ـ عليهم السلام ـ وما يستطيع أحد أن يدعى أن عنده جميع القرآن كله، ظاهره وباطنه، غير الأوصياء»[١].

كما نسبوا إلى الإمام جعفر الصادق [٨٠ـ ١٤٨هـ/ ٦٩٩ـ ٧٦٥م] حديثًا يقول فيه:

«إن القرآن الذى جاء به جبرائيل ـ عليه السلام ـ إلى محمد ﷺ وآله ـ سبعة عشر ألف آية»ـ أى أن ثلثى القرآن قد أسقطه الصحابة!!.. وهم يعتبرون أن الأحاديث التى ذكروها فى تحريف القرآن «متواترة معنى»[٢]. ويؤكدون أن الطعن فى هذه الأحاديث القائلة بتحريف القرآن «إنما يؤدى إلى الطعن فى أخبار الشيعة كلها، إذ الأصول واحدة، وكذلك الطرق والرواة والمشايخ والنقلة»[٣].

ويذكر النورى الطبرسى ميرزا حسين [١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م] ـ الذى ألف كتابًا جعل عنوانه: «فصل الخطاب فى إثبات تحريف كتاب رب الأرباب» ـ يذكر:

(١) الكلينى «الأصول من الكافى»، جـ١ ص٢٢٨.
(٢) المجلسى محمد باقر ـ «مرآة العقول»، جـ١٢، ص ٥٢٥، ٥٢٦.. طبعة دار الكتب الإسلامية ـ طهران.
(٣) يوسف البحرانى «الدرر النجفية» ص٢٩٨.. طبعة مؤسسة آل البيت.

«أن هناك أكثر من ألفى رواية عن أئمتنا المعصومين تؤكد التحريف فى القرآن من كل نوع»[1].

* وحتى يخرج الشيعة أنفسهم من التناقض بين هذه العقيدة فى تحريف القرآن، وبين تعاملهم مع المصحف الذى تم تدوينه فى عهد عثمان بن عفان، والذى اجتمع عليه المسلمون.. قالوا ـ بلسان الشيخ المفيد ـ محمد النعمان [٣٣٨ـ ٤١٣هـ/ ٩٥٠ـ ١٠٢٢م]:

«إن الخبر قد صح عن أئمتنا ـ عليهم السلام ـ أنهم قد أمروا بقراءة الدفتين» «أى المصحف الحالى» وأن لا نتعداه إلى زيادة فيه ولا إلى نقصان منه إلى أن يقوم القائم ـ عليه السلام ـ فيقرئ الناس على ما أنزل الله تعالى وجمعه أمير المؤمنين ـ عليه السلام»[2].

* * *

تلك إشارات مجرد إشارات ـ إلى بعض عقائد الشيعة الإمامية الإثنى عشرية، التى نأت بهم عن ما أجمعت عليه الأمة فى العقائد الأصول.

وانطلاقًا من هذه العقائد ـ التى اجتمع عليها الشيعة ـ ذهبوا فحكموا على جمهور الصحابة بالكفر والردة والنفاق والضلال.. الأمر الذى عزلهم عن الدين الذى أقامه هؤلاء الصحابة.. وعن الدولة التى أسسوها.. وعن الفتوحات التى فتحوها.. وعن الحضارة التى بناها جمهور الأمة.. وعن التاريخ الذى صنعته هذه الأمة.

وبسبب هذه العزلة عن كل هذا الذى صنعه الصحابة ومن والاهم، بل والحقد عليه، سقط قطاع كبير من الشيعة فى مستنقع الخيانة عندما تحالفوا مع الصليبيين ضد صلاح الدين الأيوبى [٥٣٢ـ ٥٨٩هـ/ ١١٣٧ـ ١١٩٣م] وعندما تحالفوا مع هولاكو [٦١٤ـ ٦٦٣هـ/ ١٢١٧ـ ١٢٦٥م] ضد الأمة وخلافتها العباسية.. وعندما تحالفوا ـ أخيرًا ـ مع الإمبريالية الأمريكية والمسيحية الصهيونية والصهيونية اليهودية على تدمير العراق وتفتيته سنة ٢٠٠٣م[3].

(١) النورى «فصل الخطاب فى إثبات تحريف كتاب رب الأرباب» ص٢٢٧.

(٢) الشيخ المفيد «المسائل السرورية» ص٨٨، ٨٩.

(٣) انظر كتابنا «حقائق وشبهات حول السنة والشيعة» ص٤٥ ـ ٧١.. طبعة القاهرة ـ دار السلام سنة ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

* وهنا.. وأمام هذه الحقائق.. سيتساءل القارئ عن قصة التقريب بين الشيعة والسنة؟!.. وعن شعار الوحدة الإسلامية التى يعقد الشيعة لها المؤتمرات السنوية؟! ـ وهى من القضايا التى عرض لها هذا الكتاب الذى نقدم بين يديه ـ باعتبارها وهمًا من الأوهام التى يروج لها الشيعة لخداع الجهلاء والبلهاء!

إن وحدة الأمة الإسلامية فريضة دينية وضرورة حياتية.. لكن الشيعة ـ الذين يدعون نفرًا من أهل السنة إلى مؤتمرات الوحدة ـ قد أخرجوا جميع أهل السنة ـ منذ عصر الخلافة الراشدة وإلى يوم القيامة ـ من أمة الإسلام ودين الإسلام!! فهل هناك ـ مع هذه العقيدة الشيعية المعلنة ـ مصداقية لدعوة الوحدة أو التقريب؟!

بل إن زعماء الشيعة يعلنون أن مقاصدهم من وراء الدعوة إلى الوحدة والتقريب إنما هى إخراج الشيعة من عزلتها كى تبشر بمذهبها ـ أو دينها ـ فى الأوساط السنية، لتحويل المجتمعات السنية الموحدة مذهبيًا إلى مجتمعات طائفية سهلة الاختراق!

وها هو آية الله مرتضى مطهرى [١٣٣٨ـ ١٤٠٠هـ/ ١٩٢٠ـ ١٩٨٠م] وهو تلميذ نجيب للخمينى ـ الذى رفع شعار الوحدة الإسلامية ـ وتلميذ لآية الله بروجردى [١٢٩٢ـ ١٣٨٠هـ/ ١٨٧٥ـ ١٩٦١م] الذى عمل على دعوة التقريب بين الشيعة والسنة بمصر فى أربعينيات القرن العشرين وتولى الإنفاق على أنشطة هذه الدعوة ـ ها هو آية الله مرتضى مطهرى يقول:

إننا لا نعتبر ـ نحن الشيعة ـ أن أصغر حكم ـ حتى المستحب والمكروه ـ يمكن أن يُضَحَّى به من أجل الوحدة.. وإن ما نتوقعه ونأمله: هو خلق أجواء التفاهم الإيجابية التى تسمح لنا كشيعة لنا أصولنا وفروعنا، ولنا الفقه والحديث والكلام والفلسفة والآداب الخاصة بنا ـ أن نعرض على الآخرين ما نملك، لكى لا تبقى الشيعة فى عزلة، وتبقى أسواق العالم مغلقة فى وجه المعارف لدينا»[1].

تلك هى حقيقة الدعوة الشيعية إلى الوحدة وإلى التقريب.. وعلى المخدوعين ـ من الجهلاء والبلهاء.. وأيضًا العملاء ـ أن يسألوا أنفسهم:

(١) آية الله مطهرى «نقد الفكر الدينى عند الشهيد مطهرى»، ص١٦٢، ١٦٣.. طبعة المعهد العالمى للفكر الإسلامى.. واشنطن.

هل هناك مصداقية لأية دعوة للوحدة أو التقريب بعد هذه الحقائق ـ التى قدمنا طرفًا منها ـ عن تكفير الشيعة لأهل السنة، وإقصائهم لهم، وإخراجهم من دين الإسلام؟!

* * *

إننا أمام حقائق صلبة وعنيدة سقنا طرفًا منها لإيقاظ الغافلين ولتحصين الجسد الإسلامى فى المجتمعات السنية ـ ضد تمدد هذا السرطان الذى يريد تفتيت هذه المجتمعات وتحويلها إلى مجتمعات طائفية ليكون بأسها بينها شديدًا.. الأمر الذى لو تم ـ لا قدر الله ـ سيقطع الطريق على قيام النهضة الإسلامية المنشودة، إذ بدون مجتمعات موحدة لا يمكن القيام بتكاليف النهوض.

إن تفتيت وحدة المجتمعات السنية ـ الذى تسعى إليه الشيعة ـ هو الذى يحقق كل مقاصد أعداء الإسلام والمسلمين.[1]

والآن..

لندع القارئ مع هذه الدراسة العلمية الموضوعية الموثقة التى تفيض بالغيرة والإخلاص.. والتى كتبها العلامة المجاهد الشيخ محب الدين الخطيب.

سائلين المولى ـ عز وجل ـ أن ينفع بها.. وأن يتغمد صاحبها برحمته الواسعة.. إنه سبحانه خير مسئول وأكرم مجيب.

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ سلسلة «فى ظلال الإسلام».

الشيخ أبو الحسن الندوى

[١٣٣٣ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩١٤ـ ١٩٩٩م]

بطاقة حيـاة

العلامة الشيخ أبو الحسن الندوى [١٣٣٣ـ ١٤٢٠هـ/ ١٩١٤ـ ١٩٩٩م] هو: أبو الحسن على الحسنى الندوى، أحد أكابر أئمة العلم الإسلامى والأدب العربى فى شبه القارة الهندية والعالم الإسلامى خلال القرن العشرين.

* ولد بالهند، فى قرية «تكيه كلان» بمديرية «رائى بريلى»، فى ولاية «أترابرديش»، لأسرة ذات أصول عربية، تنتسب لآل بيت رسول الله ﷺ.. فسلسلة نسبها الهاشمى تعود إلى الثائر العلوى محمد بن عبد الله بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب، الملقب «بالنفس الزكية» [٩٣ـ ١٤٥هـ/ ٧١٢ـ ٧٦٢م].

* أما والده، فهو الشيخ السيد عبد الحى الحسنى، أحد العلماء الذين عرفوا بالعلم والفضل والتقى والعفاف.. وأمه ـ «خير النساء» ـ كانت شاعرة، وحافظة للقرآن الكريم، ولها مؤلفات فى التوجيه الدينى للنساء ـ منها كتاب «حسن المعاشرة» ـ.. وكان والدها ـ جد عالمنا لأمه ـ السيد ضياء النبى الحسنى شيخًا جليلًا من كبار الصالحين.

* نشأ الندوى يتيمًا، إذ توفى والده قبل أن يكمل العاشرة من عمره.. وانتقل من قريته إلى مدينة «لكهنؤ» التى كانت من حواضر العلم والثقافة والشعر والأدب فى شبه القارة الهندية، والتى كانت مركز حركة «ندوة العلماء» التى مثلت منارة من منارات العلم الإسلامى واللغة العربية فى المحيط الإسلامى بالهند.

* ولقد نشأ الندوى فى رعاية أخيه عبد العلى، وتربى على منهاج الالتزام

بأخلاقيات التربية الإسلامية، المتميزة بالاستقامة والورع وتحصيل النافع فى العلوم والآداب.

* ولقد تعلم العربية فى سن مبكرة، حتى إنه حضر مؤتمر «ندوة العلماء» ـ وهو فى الثانية عشرة من عمره ـ بمدينة «كانفور»، فتحدث مع بعض العلماء العرب باللغة العربية، فأعجبوا به إعجابًا شديدًا.. ولقد أشار عليه شيخه الشيخ خليل بن محمد اليمانى بالالتحاق بقسم اللغة العربية بجامعة «لكهنؤ».. ومنها نال شهادة «فاضل أدب» بتفوق، وفاز بوسام سنة ١٩٢٧م.. وفيما بين عامى ١٩٢٧م و ١٩٣٠م تعلم الندوى اللغة الأردية، ثم اللغة الإنجليزية.. وتلقى دروس الأدب الإنجليزى.. لكن تبحره فى اللغة العربية وعلومها وآدابها قد ظل من أولوياته، وذلك بتوجيه من والدته.

* وفى «دار العلوم ـ ندوة العلماء» تلقى الندوى دروس العلوم الإسلامية ـ الحديث.. والتفسير..والفقه..وعلوم القرآن ـ على أكابر علماء هذه العلوم فى الهند.. والتقى بشاعر الإسلام محمد إقبال [١٢٩٤ـ ١٣٥٧هـ/ ١٨٧٧ـ ١٩٣٨م].. كما التقى بالعلامة أبو الأعلى المودودى [١٣٢١ـ ١٣٩٩هـ/ ١٩٠٣ـ ١٩٧٩م].

* ولقد ألقى الندوى بثقله فى الدعوة الإصلاحية الإسلامية بشبه القارة الهندية، مؤلفًا فى قضاياها.. ثم انتخب وكيلًا للشئون التعليمية «بندوة العلماء» سنة ١٩٥٣م.. وفيها أصبح مدرسًا للتفسير والأدب العربى.. ثم اختير رئيسًا لندوة العلماء سنة ١٩٦١م.. كما انتخب رئيسًا «لرابطة الأدب الإسلامى العالمية» سنة ١٩٨١م.. ثم نال عضوية مجمع اللغة العربية بدمشق.

* ولقد تعدى العطاء العلمى للشيخ الندوى شبه القارة الهندية، فعرفته أقطار العالم الإسلامى محاضرًا وخطيبًا فى السعودية، والسودان، وفلسطين، ومصر، وسوريا، والأردن، وتركيا، وإيران.. وقامت بينه وبين كثير من علماء العالم الإسلامى الصداقات والعلاقات.. وفى مصر، ألف ـ خلال ستة أشهر ـ واحدًا من أهم كتبه وأشهرها: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»؟ ـ وطُبع بالقاهرة.. وذاعت شهرته فى كل أقطار الشرق.. وترجم إلى العديد من اللغات.

* وإلى جانب التأليف والمحاضرات كان الشيخ الندوى خطيبًا مفوهًا.. كما كان

رائدًا فى الإصلاح بين تيارات الحركة الإسلامية وفصائلها.. كما كان رحالة، طاف الكثير من أرجاء العالم العربى والإسلامى فى رحلة استغرقت أربعة عشر شهرًا، ألقى خلالها ثمانى محاضرات بجامعة دمشق سنة ١٩٥٦م.. أضيفت إليها محاضرتان عن الشيخ عبد القادر الجيلانى [٤٧١ـ ٥٦١هـ/ ١٠٧٨ـ ١١٦٦م] ومولانا جلال الدين الرومى [٦٠٤ـ ٦٧٢هـ/ ١٢٠٧ـ ١٢٧٣م] ثم جمعت وطبعت بكتاب عنوانه «رجال الفكر والدعوة فى الإسلام»..

* ولقد زار الشيخ الندوى تركيا سنة ١٩٥٦م.. وأوروبا سنة ١٩٦٢م.. وكانت خطبه ومحاضراته ـ إبان رحلاته ـ السبب فى تأسيس حركة «رسالة الإنسانية».. كما شارك فى العديد من المؤتمرات العلمية بالهند وخارجها.

* ولقد اهتم الندوى بثقافة الأطفال وتربيتهم، ووضع فى ذلك سلسلة «قصص النبيين للأطفال»ـ فى عدة أجزاء ـ ختمها بكتاب «سيرة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام» سنة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.. كما ألف سلسلة «القراءة الراشدة».. وحكايات الصحابة، فى سلسلة «قصص من التاريخ الإسلامى للأطفال».. وشارك فى وضع مناهج التدريس لجامعة عليكرة ـ بالهند ـ والجامعة الإسلامية ـ بالمدينة المنورة ـ..

* ومن مؤلفاته الشهيرة ـ غير ما أشرنا إليه ـ:

١ـ «الأدب العربى بين عرض ونقد».

٢ـ «الاجتهاد ونشأة المذاهب الفقهية».

٣ـ «وامعتصماه».

٤ـ «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية».

٥ـ «الأركان الأربعة».

٦ـ «السيرة النبوية».

٧ـ «النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن الكريم».

٨ـ «الطريق إلى المدينة».

٩ـ «العقيدة والعبادة والسلوك».

١٠ـ «نحو التربية الإسلامية الحرة».

١١ـ «ربانية لا رهبانية».

١٢ـ «العرب والإسلام».

١٣ـ «إلى الإسلام من جديد».

١٤ـ «المدخل إلى الدراسات القرآنية».

١٥ـ «الصراع بين الإيمان والمادية».

١٦ـ «المرتضى».

١٧ـ «الإسلام وأثره فى الحضارة وفضله على الإنسانية».

١٨ـ «المسلمون وقضية فلسطين».

١٩ـ «المسلمون فى الهند».

٢٠ـ «إذا هبت ريح الإيمان».

٢١ـ «مختارات من الأدب العربى».

٢٢ـ «روائع إقبال».

٢٣ـ «صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية»، الذى كتبه سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م..

* وهكذا عاش العلامة الشيخ أبو الحسن الندوى منارة للاجتهاد والتجديد والتربية والإصلاح والورع، داعيًا الإنسانية إلى الانخراط فى الموكب الإسلامى من جديد.. عليه رحمة الله.

* * *

صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية

للشيخ أبو الحسن الندوى

[١٣٣٣ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩١٤ـ ١٩٩٩م]

فى هذا الكتاب ـ «صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية» ـ تتجلى عظمة العلامة الإمام الشيخ أبو الحسن الندوى، إلى الحد الذى نتذكر فيه كلمات شيخنا محمد الغزالى [١٣٣٥ـ ١٤١٦هـ/ ١٩١٧ـ ١٩٩٦م] التى قال فيها: «إن الإسلام قلب تقى وعقل ذكى».. فالشيخ الندوى عالم ومحقق من الطراز الأول، يستخدم المنطق الصارم والحجة القوية والفطرة السوية فى تقرير الحقائق ومحاورة العقول.. وفى ذات الوقت يذوب حبًا وعشقًا فى الإسلام وكتابه ورسوله ﷺ وحوارييه وصحابته الكرام ـ عليهم رضوان الله ـ.. حتى ليعرض من خلال المصادر الموثوقة ـ شرقية وغربية ـ ومن خلال واقع التاريخ وحقائقه، لعصر النَبوة والخلافة الراشدة وصدر الإسلام، فيقدم للعقل المسلم المعاصر زادًا للقلوب، ودروسًا للمربين، وعبرًا لولاة الأمور، ومادةً للدعاة تحتاج إلى وعى وإخلاص وحسن أداء.

* وهو يقدم الصورة الحقيقية لإنجازات الهدى النبوى، الذى أقام مؤسسات الصناعة الثقيلة لإعادة صياغة الإنسان.. ففى مدرسة النبوة ـ بدار الأرقم بن أبى الأرقم.. والروضة الشريفة.. ومختلف ميادين الحياة تربى وتكون الجيل القرآنى الفريد، الذى أقام الدين، وأسس الدولة، وربط القوانين والمصالح بالقيم والأخلاق، وغير معنى الحضارة، وأعاد توجيه حركة التاريخ.. هذا الجيل، الذى فتح أبطاله ـ بعد إزالة الشرك والوثنية من شبه الجزيرة العربية ـ فتحوا فى ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون.. وشتان بين فتح حرر الأوطان والضمائر من قهر رومانى

وفارسى دام عشرة قرون ـ ثم ترك الناس وما يدينون ـ وبين فتح تعامل مع الشعوب المستعمرة باعتبارهم أقنانًا وبرابرة وعبيدًا.

*فعندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، كان مجموع الذين دخلوا فى الإسلام ١٢٤,٠٠٠ وكان تعداد شبه الجزيرة العربية يومئذ أقل من مليون ـ.. وعندما ترجم العلماء للنخبة والصفوة من الصحابة الذين تربوا فى مدرسة النبوة أحصوا نحوًا بين ثمانية آلاف، منهم أكثر من ألف من النساء.. وهى أعلى نسبة من الرجال والنساء الذين صنعهم على عينه رسول من الرسل أو نبى من الأنبياء ـ فى أقل من ربع قرن من الزمان ـ ناهيك عن الذين رباهم القادة والفاتحون والعظماء ـ على امتداد التاريخ.. وناهيك عن معنى التربية ونوعيتها..

ولهذه الحقيقة ـ التى مثلتها هذه الصورة ـ شهد الغربيون ـ من غير المسلمين ـ بأن المقدمين من عظماء الإنسانية مائة، أولهم رسول الإسلام ﷺ.

* وفى مقابل هذه الصورة ـ وعلى الضد منها ـ قدم الشيعة للهدى النبوى، ولصحابة رسول الله ﷺ وحوارييه، صورة بائسة شوهاء، صنعتها الأحقاد والأكاذيب.. فلقد صوروا رسول الإسلام، فى صورة المربى الفاشل، الذى عجز عن تربية صحابته وحوارييه.. بل وأزواجه.. حتى أنه ـ بزعمهم ـ عندما انتقل إلى رحاب ربه لم يبق على دينه سوى ثلاثة ـ أو أربعة ـ فقط لا غير.. بينما ارتد وكفر وضل وفسق عشرات الألوف الذين بايعوه على الإسلام!.. الأمر الذى يعنى أن الدولة التى قامت إنما هى دولة الردة ـ لا الإسلام ـ!.. وأن الفتوحات التى تمت إنما كانت لحساب الردة!.. وأن الذى انتشر وآمنت به شعوب الشرق هو الكفر ـ لا الإيمان!ـ وأن الحضارة التى بنيت وازدهرت لم تكن حضارة الإسلام!!..

نعم.. لقد صنعت الشيعة الإمامية الإثنى عشرية هذه الصورة البائسة الشائهة للهدى النبوى، وللصحابة ـ الذين قطع القرآن الكريم بعلو مكانتهم، فقال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وبأنهم كانوا: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وبأنهم: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

لقد حكم الشيعة بالردة والكفر والضلال والفسوق والفجور والعصيان على جمهور الأمة.. وعلى الدولة والحضارة والثقافة والتاريخ!!.. ونسبوا إلى أئمتهم ـ الذين أدعوا عصمتهم.. بل وتأليههم ـ «أحاديث» تؤكد هذه الصورة الشاذة الشوهاء.. نسبوا إلى إمامهم الخامس أبو جعفر محمد الباقر [٥٧ـ ١١٤هـ/ ٦٧٦ـ ٧٣٢م] كلامًا شاذًا يقول: «كان الناس على ردة النبى ﷺ إلا ثلاثة: المقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفارى، وسلمان الفارسى».

* كذلك صوروا رسول الإسلام ﷺ طالب ملك وراثى فى نسله ـ من أبناء علىّ بن أبى طالب من فاطمة ـ رضى الله عنهم ـ ثم قاموا بإضفاء العصمة على هؤلاء الأئمة الاثنى عشر، حتى لقد جعلوا الإمامة فوق النبوة، إذ النبوة ـ بزعمهم ـ «لطف خاص»، بينما الإمامة «لطف عام».. بل لقد ذهبوا فى الغلو إلى حد تأليه هؤلاء الأئمة، وإشراكهم مع الله فى الولاية التكوينية على كل ذرة من ذرات هذا الكون!.. ولما لم يشهد القرآن الكريم على شىء من هذا الغلو، ذهبوا إلى إدعاء تحريفه، وإلى أنه قد كان ـ فى زعمهم ـ سبعة عشر ألف آية، لم يبق منه سوى ٦٢٣٦ آية!..

وعلى هذه الدعاوى الشاذة اجتمع مراجع الشيعة الإمامية عبر تاريخهم.. ومن ورائهم المقلدون.. وكتبوا ذلك فى أوثق المصادر المعتمدة عندهم.. واستمرت هذه العقائد حتى عصرنا الراهن، فكتب الخمينى [١٣٢٠ـ ١٤٠٩هـ/ ١٩٠٢ـ ١٩٨٩م] يقول: «إن للأئمة مقامًا محمودًا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون.. وإن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبى مرسل.. لقد كانوا قبل هذا العالم أنوارًا فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله»..

أما صحابة رسول الله ﷺ وحواريوه، فهم ـ برأى الخمينى : «لم يكن لهم إلا الدنيا، والحصول على الحكم، دون الإسلام والقرآن. لقد اتخذوا القرآن مجرد ذريعة لتحقيق نواياهم الفاسدة، وقد سهل عليهم إخراج آيات القرآن التى كانت تدل

على خلافة عليّ ـ رضى الله عنه ـ بلا فصل، وعلى إمامة الأئمة، وكذلك تحريف الكتاب السماوى، وإقصاء القرآن عن أنظار أهل الدنيا على وجه دائم بحيث يبقى هذا العار فى حق القرآن والمسلمين إلى يوم الدين.. إن تهمة التحريف التى يوجهونها إلى اليهود والنصارى إنما هى ثابتة عليهم»!!

هكذا صور الشيعة الإسلام ورسوله وقرآنه.. وصوروا الصحابة الذين صنعهم الرسول ﷺ على عينه.. وهم الذين أقاموا الدين والدولة والأمة والحضارة التى أنارت الدنيا وعلمت الأمم والشعوب.. ولا تزال.. صوروا كل ذلك الهدى والمجد والتاريخ فى صورة «العار» ـ حسب تعبير الخمينى !!..

* * *

* فى هذا الكتاب ـ «الذى نقدم بين يديه» ـ سيجد القارئ ملامح هاتين الصورتين المتناقضتين لرسول الإسلام ﷺ وصحابته.. الصورة الحقيقية المشرقة التى اعتقدها أهل السنة والجماعة ـ وهم ٩٠٪ من الأمة الإسلامية ـ والصورة البائسة الشوهاء التى اخترعها الخيال الحاقد والمريض للشيعة الإمامية الإثنى عشرية.

* وسيجد القارئ ـ فى هذا الكتاب ـ التفنيد الموضوعى لمزاعم الشيعة من خلال أقوال الإمام عليّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ المنشورة فى الكتب التى حققها الشيعة أنفسهم ـ مثل «نهج البلاغة» ـ.. ومن خلال شهادات العلماء والمستشرقين الغربيين، الذين كتبوا عن الهدى النبوى وتاريخ صدر الإسلام ـ وهم على دياناتهم المغايرة للإسلام، ومع انتمائهم الحضارى غير الإسلامى.. بل وسيجد القارئ ـ فى هذا الكتاب ـ شهادات شيعية تنصف صحابة رسول الله ﷺ، وترد عنهم هذا الكذب والافتراء..

* وسيجد القارئ ـ فى هذا الكتاب ـ كذلك ـ الأدلة على تراجع مكانة الرسول ﷺ فى التراث الشيعى، ومؤلفات السِّيَر، لحساب الإمام على، بل وتراجع مكانة الإمام على لحساب الإمام الحسين ـ حتى لقد جعلوا المساجد «حسينيات»، بدلًا من أن تكون بيوت الله!..

كما سيجد أن شعر المراثى ومناقب آل البيت وأحداث كربلاء قد غطت على المدائح النبوية عند الشعراء الشيعة!.. بل لقد قادتهم دعاوى تحريف القرآن الكريم،

والزعم بأنه لم يبق منه إلا القدر الضئيل، إلى هجر هذا القرآن الكريم.. حتى لقد قرأنا ـ أخيرًا ـ لآية الله الشهيد مرتضى مطهرى [١٣٣٨ـ ١٤٠٠هـ/ ١٩٢٠ـ ١٩٨٠م] وهو تلميذ الخمينى فى كتابه «نقد الفكر الدينى» ـ: «أن الجيل القديم من الشيعة ـ الذى أسس المذهب ـ قد ترك القرآن وجعله مهجورًا.. فلقد استبعدوا حجية القرآن، بدعوى أنه قد نزل ليفهمه الأئمة فقط.. واستبعدوا حجية العقل، بدعوى أنه لا دخل للعقل فى الدين.. واستبعدوا حجية الإجماع، لأن خلافة أبى بكر قد ثبتت بالإجماع!!».. واتخذوا من الأخبار الموضوعة سبيلًا لبناء المذهب، الذى صنع هذه الصورة الشوهاء للهدى النبوى وللجيل القرآنى الفريد الذى تربى وتخرج فى مدرسة النبوة..

* بل وسيجد القارئ ـ فى هذا الكتاب ـ الإنصاف لآل بيت رسول الله ﷺ مع الإنصاف للأصحاب، إنصافهم جميعًا من الغلو الشيعى الذى تجاوز حدود المعقول والمنقول.

* وسيجد القارئ ـ كذلك ـ فى هذا الكتاب ـ كيف تحولت عقيدة «التقية» ـ أى النفاق الذى يستحل إظهار الإنسان غير ما يبطن وعكس ما يبطن ـ والتى جعلوها دينًا يتدينون به، ونسبوا إلى أئمتهم كلامًا يقول «التقية دينى ودين آبائى.. ولا دين لمن لا تقية له»!.. بل وكتبوا فى مصادرهم الحديثية والأصولية: «أن تسعة من عشرة من الدين «تقية» ومن لا يعمل بالتقية فليس عنده من الدين شىء»!!.. فتحول التشيع ـ بذلك ـ إلى «ماسونية» و«باطنية» تجعل الكذب والنفاق دينًا!..

* * *

تلك إشارات ـ مجرد إشارات ـ تشهد على الأهمية البالغة لهذا الكتاب، الذى كتبه العلامة الإمام الشيخ أبو الحسن على الحسنى الندوى، دفاعًا عن الإسلام، ورسوله ﷺ وعن الجيل القرآنى الفريد الذى تربى فى مدرسة النبوة، والذى حمل إلى الأمة الإسلامية ـ بأجيالها المتعاقبة ـ أعظم نعم الله على هذه الأمة وعلى الإنسانية جمعاء.. نعمة الإسلام..

إن الموقف الشيعى من الصحابة ـ وهم الجيل القرآنى الفريد، الذى أقام الدين، وأسس الدولة، وفتح الفتوح وصنع الحضارة ـ إنما يستهدف ـ فى الحقيقة ـ إلغاء تاريخ الأمة وتاريخ الإسلام.. وإذا كان ذلك مستحيلًا ومستعصيًا على التحقيق، فإن

النتيجة ستكون ـ بالحتم ـ إخراج الشيعة من هذا التاريخ، ومن هذه الحضارة التى ازدهرت عبر هذا التاريخ.. وهذا ما يجب أن يفكر فيه عقلاؤهم، إن كانوا يريدون ما يعلنون من وحدة المسلمين. بهذه الإشارات الكاشفة نقدم بين يدى هذا الكتاب المهم.. سائلين المولى ـ سبحانه وتعالى ـ أن ينفع[1] به وإن يجزى كاتبه خير الجزاء.. إنه ـ سبحانه ـ خير مسئول وأكرم مجيب.

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ سلسلة «فى ظلال الإسلام».

الأزهر والشيعة

فى عهد الدولة الفاطمية [٢٩٧ـ ٥٦٧هـ/ ٩٠٩ـ ١١٧١م] تحولت مصر إلى مركز خلافة وتمت على أرضها إنجازات مدنية وحضارية هائلة.

ولقد وضع الفاطميون ـ فور فتحهم لمصر ـ أساسات بناء «القاهرة» فى رمضان سنة ٣٥٨هـ/ يوليو ٩٦٩م لتكون عاصمة لهذه الخلافة التى أرادوها قاهرة لخلافة بنى العباس فى بغداد!.

وبعد أقل من عام بدأ تأسيس الجامع الأزهر ـ كمسجد جامع ـ فى جمادى الأولى ٣٥٩هـ/ ٣ إبريل ٩٧٠م ولقد اكتمل بناؤه وافتتح للصلاة فيه فى رمضان ٣٦١هـ/ ٢٤ يونيو ٩٧٢م. وبعد حضور الخليفة الفاطمى المعز لدين الله [٣٤١ـ ٣٦٥هـ/ ٩٥٢ـ ٩٧٥م] إلى مصر، بدأت بوادر استخدام الجامع الأزهر كمؤسسة فكرية للمذهب الشيعى الإسماعيلى الباطنى.. فجلس به قاضى القضاة علىّ بن النعمان ليملى على الدارسين والجمهور شرح المختصر الذى أعده والده فى فقه الشيعة «الاقتصار» ـ وذلك فى صفر سنة ٣٦٥هـ/ أكتوبر سنة ٩٧٥م وبعد وفاته (٣٧٤هـ/ ٩٨٤م) واصل التدريس ـ بالجامع الأزهر ـ أخوه القاضى الشيعى الإسماعيلى محمد بن النعمان (المتوفى سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م).

فلما آلت الخلافة الفاطمية إلى العزيز بالله [٣٤٤ ـ ٣٨٦هـ/ ٩٥٥ ـ ٩٩٦م] وتولى يعقوب بن كلس [٣١٨ـ ٣٨٠هـ/ ٩٣٠ـ ٩٩٠م] ـ الذى كان نصرانيًا ثم تشيع ـ منصب الوزارة، وأصبح مع العزيز بالله، وقائد الجند الفضل ـ الثالوث القابض على السلطة ـ أشار يعقوب بن كلس على العزيز بالله بأن يحول الجامع الأزهر إلى جامعة شيعية تنشر عقائد الشيعة الإسماعيلية، وترعى الفكر الباطنى، مع مؤسسة

«داعى الدعاة».. ولقد أشرف ابن كلس على ترتيب ذلك، فوظف العلماء والقراء، ورتب لهم الأموال والنفقات والأوقاف التى تمكن من هذا التحول فى رسالة الجامع الأزهر..الذى أصبح أكبر جامعة شيعية [٣٧٨ هـ/ ٩٨٨م].

ولأن الشعب المصرى الذى تعاطف تاريخيًا مع آل بيت رسول الله ـ ﷺ ـ فأقام لهم المزارات ـ بالمساجد ـ وأطلق أسماءهم على الميادين والأحياء ـ حتى لمن لم تطأ قدمه أرض مصر!ـ والذى تنتشر بين أبنائه أسماء آل البيت على نحو متميز وفريد ـ أسماء: محمد، وأحمد، ومصطفى، وعلى، وحسن، وحسين ـ بل وحسنين ـ وإبراهيم، وخديجة وفاطمة، وزينب، وعائشة، وصفية ـ التى هى الأكثر شيوعًا بين الأسماء المصرية، على نحو لا نظير له فى أى مجتمع من المجتمعات ـ بما فى ذلك المجتمعات الشيعية!

لأن هذا الشعب المصرى قد تميز ـ تاريخيًا ـ بالانحياز إلى الوسطية والاعتدال، والبعد عن الغلو والتطرف ـ فلقد ظل على انتمائه إلى مذهب أهل السنة والجماعة ـ فى الأصول والفروع ـ وعلى رفضه لمذاهب الشيعة ـ الرافضة الذين رفضوا خلافة أبى بكر وعمر وعثمان.. وكتبوا على منابر الفاطميين ومساجدهم ـ بمصر ـ لعن هؤلاء الخلفاء بحروف من ذهب!.. رفض الشعب المصرى مذهب الشيعة الرافضة.. بل وأصبح الانتساب إلى هذا المذهب ـ فى عرف الشعب المصرى سبة يسب بها المصرى من يكره، فيقول له: «يا ابن الرفضى ـ الرافضى»!

ولذلك قامت الفجوة الواسعة بين السلطة الفاطمية الحاكمة وبين القاعدة الشعبية المصرية، وبقى الأزهر ـ الجامعة الشيعية ـ مرفوضًا من عقول المصريين ووجداناتهم طوال حكم الدولة الفاطمية الذى امتد نحوا من ثلاثة قرون.

لقد ظل الأزهر ـ كجامعة ـ مركزًا للفكر الشيعى الباطنى المغالى.. وظلت الخلافة الفاطمية على دعواها: عصمة الأئمة الفاطميين، ومعرفتهم للغيب، وامتلاكهم الإتيان بالمعجزات ـ كما هو عموم الفكر الشيعى الإمامى .. وظل الشعب المصرى سنيًا، يرفض هذا الغلو، بل ويقاومه حتى بالشعارات التى يرفعها فى المظاهرات!..

فالشيعة يكرهون معاوية بن أبى سفيان [٢٠ق.هـ ـ ٦٠هـ/ ٦٠٣ـ ٦٨٠م]..

ولأن أخته أم حبيبة ـ رملة بنت أبى سفيان ـ [٢٥ق. هـ ـ ٤٤هـ/ ٥٩٦ ـ ٦٦٤م] كانت إحدى زوجات الرسول ﷺ وأمهات المؤمنين فإن المصريين أثناء تظاهراتهم ضد المظالم الفاطمية والغلو المذهبى الشيعى، كانوا يهتفون لمعاوية، ويقولون: «معاوية خال المؤمنين»، ولأن الفاطميين كانوا يتمذهبون بنظرية الإمامة الشيعية، التى ذهبت فى الغلو إلى حد تأليه الأئمة، وادعائهم علمهم للغيب، فلقد ظل المصريون يسخرون من هذا الاعتقاد الشيعى، حتى لقد كتبوا «منشورًا» نظموه شعرًا، ووضعوه على منبر الأزهر، حتى إذا صعد عليه الخليفة العزيز بالله ليخطب، وجد «المنشور» الذى يسخر فيه الشاعر المصرى من الخليفة ومذهبه، وفيه يقول:

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أعطيت علم غيب فقل لنا: كاتب البطاقة!

وأمام هذا الرفض السنى المصرى لغلو الفاطميين الإسماعيلية، فلقد ابتعد المصريون بعقولهم وقلوبهم عن المؤسسات الفكرية والدعوية الشيعية.. الأمر الذى ألجأ الدولة الفاطمية إلى الاعتماد على الأقليات اليهودية والنصرانية فى حكم الشعب السنى! فكانت إدارة جهاز الدولة بيد هذه الأقليات.. وكادت الوزارة أن تكون حكرًا على أبناء هذه الأقليات.

فالخليفة الفاطمى العزيز بالله ـ الذى كان متزوجًا من زوجة نصرانية ذات سلطان طاغ فى قصر الخلافة قد اتخذ لحكم مصر وزيرًا نصرانيًا هو «عيسى بن نسطورس».. كما اتخذ لحكم الشام وزيرًا يهوديًا هو «منشا إبراهيم القزاز».. فكتب المصريون «منشورًا» يعبر عن غضبهم من استبداد الأقليات بشئون البلاد، ووضعوه على منبر الجامع الأزهر، حتى إذا صعد الخليفة المنبر قرأ فيه:

«بالذى أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل المسلمين بك، ألا كشفت ظلامتى؟!.».

ولقد سجل التاريخ أسماء الكثيرين من الوزراء النصارى واليهود الذين حكموا مصر السنية إبان العهد الفاطمى.. ومن هؤلاء ـ النصارى ـ: أبو العلاء فهد بن إبراهيم [٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م] ـ الذى لقب «بالرئيس».. وزرعه بن عيسى بن نسطورس

[٤٠٣هـ/ ١٠١٢م] ـ الذى لقب «بالشافى»، وتولى شئون الدولة وسفاراتها وسياستها الخارجية.. وصاعد بن عيسى بن نسطورس [٤٠٩هـ/ ١٠١٨م] ـ الذى لقب «بقسيم الخلافة»!.. وأبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى [٤٣٦ـ ٤٣٩هـ/ ١٠٤٤ـ ١٠٤٧م] ـ وهو نصرانى من أصل يهودى. والحسن بن أبى سعد إبراهيم بن سهل التسترى ـ الذى تولى الوزارة سنة ٤٥٦هـ/ سنة ١٠٦٣م ـ وهو من أصل يهودى، وابن زنبوء أبو سعد منصور بن سعدون ـ الذى تولى الوزارة سنة ٤٥٨هـ/ سنة ١٠٦٦م ـ وهو نصرانى، وذلك فضلًا عن يعقوب بن كلس [٣١٨ـ ٣٨٠هـ/ ٩٣٠ـ ٩٩٠م] وهو من أصل يهودى والذى كان المعز لدين الله الفاطمى [٣١٩ـ ٣٩٥هـ/ ٩٣١م ـ ٩٧٥] يلقبه «بالوزير الأجل!».

ولقد ظل الرفض المصرى السنى قائمًا ضد فكرية هذه الدولة الفاطمية الشيعية الباطنية.. وظلت المقاومة الشعبية المصرية قائمة لاستبداد هذه الأقليات النصرانية واليهودية بحكم البلاد والعباد.. ودخل الشعر ساحة هذه المقاومة ساخرًا من هذا الوضع الشاذ، الذى جعل يعقوب بن كلس، والقائد «الفضل» [٤٠٠هـ/ ١٠١٠م]، والخليفة العزيز بالله «ثالوثا» يحكم مصر السنية..فقال الشاعر المصرى، ساخرًا من هذا الثالوث:

تنصر، فالتنصر دين حق ... عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا ... وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب، وهذا العز ... يز ابن، وروح القدس فضل!

وقال الشاعر الخلال ـ فى استبداد النصارى بالسلطة والثروة:

إذا حكم النصارى فى الفروج ... وغالوا فى البغال وفى السروج
وذلت دولة الإسلام طرا ... وصار الأمر فى أيدى العلوج
فقل للأعور الدجال هذا ... زمانك إن عزمت على الخروج

وقال الشاعر الحسن بن خاقان ـ معرضًا ومتهكمًا بسيطرة اليهود على المال والنفوذ:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهمو ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إنى نصحت لكم تهودوا، فقد تهود الفلك!

ولقد كان طبيعيًا لدولة بينها وبين الأمة هذا الحاجز الفكرى والعقدى والنفسى الكثيف.. وتستند فى حكم الأمة إلى الأقليات المستبدة بالثروة والسلطة.. أن تصاب بالضعف والاضمحلال ـ على الرغم من الإنجازات المادية الهائلة التى أحدثتها فى أرض الواقع إبان حكمها ـ ففتحت عوامل الضعف هذه الثغرات لكارثة الغزوة الصليبية التى بدأت [٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م].. والتى استولت على القدس الشريف [٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م] ـ بعد هزيمتها قوات الجيش الفاطمى فى المشرق.. هذه الغزوة التى أقامت الاستعمار الاستيطانى الصليبى فى الشرق على امتداد قرنين من الزمان [٤٨٩ـ ٦٩٠هـ/ ١٠٩٦ـ ١٢٩١م].

وبسبب من هذا الضعف الفاطمى، والفجوة العقدية والفكرية والنفسية بين السلطة الشيعية الباطنية وبين الشعب السنى، كادت مصر أن تسقط تحت سنابك خيول الصليبيين وحرابهم، وأن تصبح إقطاعًا لأمراء الحرب الصليبيين.. فإبان الصراعات على السلطة بين الوزراء الفاطميين ـ «شاور» [٥٦٤هـ/ ١١٦٩م] و«ضرغام» [٥٥٦هـ/ ١١٦٤م] و«يحيى بن خياط» و«ابن قرجلة»ـ دنست أقدام الصليبيين أرض مصر أكثر من مرة ـ فى [٥٥٨هـ/ ١١٦٣م] و[٥٦١هـ/ ١١٦٦م] ـ و[٥٦٣هـ ـ ١١٦٨م] وأصبحت للصليبيين حامية عسكرية تعسكر على أبواب القاهرة، وبيدها مفاتيح المدينة! وأطلق الوزير الفاطمى «شاور» لقب «الفرج» على «الفرنج» لمساعدتهم له ضد خصومه!

لكن الفرج الحقيقى قد جاء لمصر من دولة الفروسية الإسلامية السنية، التى تكونت بالمشرق ـ الدولة الزنكية [٥٢١ـ ٦٤٨هـ/ ١١٢٧ـ ١٢٥٠م] ـ التى أرسل سلطانها العادل نور الدينا الشهيد [٥١١ـ ٥٦٩هـ/ ١١١٨ـ ١١٧٤م] الجيوش السنية ـ التى قادها أسد الدين شيركوه [٥٦٤هـ/ ١١٦٩م] وصلاح الدين الأيوبى [٥٣٢

ـ ٥٨٩هـ/ ١١٣٧ـ ١١٩٣م] لإزاحة الصليبيين عن أرض مصر.. ولإزالة الدولة الفاطمية.. ولإعادة العقيدة السنية لتحكم الشعب السنى فى مصر من جديد.

ولقد أنجز صلاح الدين الأيوبى هذا التحول التاريخى الفكرى.. والسياسى.. والعسكرى فى مواجهة مقاومة شرسة من أركان الدولة الفاطمية، وصلت حد التآمر والتحالف مع الصليبيين، والقيام بتمردات عسكرية فى [٥٦٤هـ/ ١١٦٨م] وفى [٥٦٩هـ/ ١١٧٣م] ثم قمعها وإفشال مخططاتها بقيادة صلاح الدين الأيوبى.

وإبان هذه الملحمة، التى كان تحرير مصر فيها الشرط والمقدمة لتحرير القدس.. حتى لقد قال الشاعر العماد الكاتب [٥١٩ـ ٥٩٧هـ/ ١١٢٥ـ ١٢٠١م] مهنئًا أسد الدين شيركوه بتحرير مصر:

فتحت مصر، وأرجو أن تصير بها ميسرًا فتح بيت القدس عن كثب

وكتب إلى السلطان نور الدين الشهيد.. منبهًا على أن فتح مصر هو الميسر لتحرير بيت المقدس فقال:

أغز الفرنج فهذا وقت غزوهم واحطم جموعهم بالذابل الحطم

فملك مصر وملك الشام قد نظما فى عقد عز من الإسلام منتظم

إبان هذه الملحمة، التى أعادت مصر إلى دولة الخلافة السنية، كان صلاح الدين الأيوبى يقيم المدارس السنية، الجامعة لمذاهب أهل السنة والجماعة، ويدعم الفكر السنى الذى فجر فى الأمة طاقات المقاومة، عندما عاد الانسجام بينها وبين السلطة والدولة.. لقد أقام:

ـ المدرسة الناصرية سنة ٥٦٦هـ/ سنة ١١٧٠م.

ـ والمدرسة القحمية سنة ٥٦٦هـ/ سنة ١١٧٠م.

ـ والمدرسة القطبية سنة ٥٧٠هـ/ سنة ١١٧٤م.

ـ ومدرسة ابن الأرسوفى سنة ٥٧٠هـ/ سنة ١١٧٤م.

ـ والمدرسة السيوفية سنة ٥٧٢هـ/ سنة ١١٧٦م.

ـ والمدرسة الفضلية سنة ٥٨٠هـ/ سنة ١١٨٤م.

ثم استدار صلاح الدين إلى الأزهر ـ الذى كان جامعة للفكر الشيعى ـ فأغلقه ـ كجامعة ـ حتى تحولت مناهجه إلى المذهب السنى، فأخذ مكانته ـ منذ ذلك التاريخ ـ قبلة لعلوم الشريعة والعربية وآدابها، ومنبرًا للفكر الوسطى ـ ولا يزال كذلك.. وسيظل إلى ما شاء الله.. وبذلك الإنجاز تحالفت الجبهة الفكرية مع القوة العسكرية، فبدأ العد التنازلى لمشروع الاستعمار الاستيطانى الصليبى، الذى مثل أطول الحروب العالمية الأوروبية ضد ديار الإسلام.

لقد أصبح الأزهر ـ الجامع والجامعة ـ حارسًا لفكر أهل السنة والجماعة.. وسدًا منيعًا ضد الغلو الشيعى، الذى ظل أهله يحلمون بالعودة إلى مصر، وإلى إعادته منبرًا للفكر الشيعى من جديد.. لكن هيهات هيهات.. لقد قاومت مصر التشيع وهى فى قبضة الحكم الفاطمى الشيعى.. وستظل مركز الإشعاع للفكر السنى فكر جمهور الأمة الإسلامية ـ كما ستظل الرائدة والقائدة لمذاهب أهل السنة والجماعة.. وسيظل الأزهر ـ إن شاء الله ـ الجامع والجامعة والعلماء والدعاة ـ الحاملين لرسالة الوسطية الإسلامية ضد الغلو الشيعى.. وضد كل ألوان الغلو المذهبى والفكرى، الذى ترفضه وتلفظه الطبيعة السمحة للمصريين.

بهذه اللمحات التاريخية آثرنا أن نقدم لعدد من الفتاوى والآراء التى مثلت وتمثل نماذج لمواقف كبار علماء الأزهر الشريف الرافضة للفكر الرافضى فكر الشيعة الإمامية ـ على اختلاف تجلياته ومذاهبه[1].

سائلين المولى ـ عز وجل ـ أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يجعله لبنة فى جدار المنعة والمناعة ضد الغلو الشيعى الخارج عن سماحة الإسلام، والله من وراء القصد، نسأله ـ سبحانه ـ السداد والتوفيق.

(١) انظر طبعتنا لكتاب [الأزهر والشيعة] دار السلام ـ القاهرة.

نقد الفكر الدينى

لآية الله مرتضى مطهرى

ولد آية الله مرتضى مطهرى [١٣٣٨ ـ ١٤٠٠هـ/ ١٩٢٠- ١٩٨٠م] بمدينة [مشهد] الإيرانية.. وبدأ فيها تلقى التعليم والعلوم.. ثم انتقل إلى مدينة «قم» سنة ١٩٣٨م وتتلمذ فى حوزتها العلمية الشهرية على عدد كبير من أعلام علماء الشيعة.. منهم آية الله بروجردى [١٢٩٢- ١٣٨٠هـ/ ١٨٧٥- ١٩٦١م].

وآية الله الخمينى [١٣٢٠- ١٤٠٩هـ/ ١٩٠- ١٩٨٩م].

ولقد جمع مطهرى ـ فى دراسته ـ بين «الحوزة» و«الجامعة» ـ أى الأصولية والتجديد.. كما اهتم بدراسة الأدب والمنطق والأصول وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية والحكمة.. واللغة العربية، والأدب العربى، والفارسى..

والتحق مطهرى بركب الجهاد السياسى والدينى ضد النظام الشاهنشا هى الإيرانى.. فانضم إلى منظمة فدائيى إسلام، فى أوائل خمسينيات القرن العشرين.. وأسس فى طهران سنة ١٩٥٣م الجمعية الإسلامية للطلاب.

وفى ١٩٦٤م اعتقل مع آية الله الخمينى فى انتفاضة المدرسة الفيضية.. وعمل على تشكيل جمعية علماء الدين المناضلين.

واشتغل بالتدريس ـ بكلية العلوم الدينية ـ بجامعة طهران.. ومنها حصل على الدكتوراه فى الفلسفة.

وامتدت اهتماماته السياسية إلى القضية الفلسطينية منذ ١٩٧٠م.

كما أطل على الساحة الفكرية الدينية الإيرانية من خلال الخطابة فى الحسينيات.

وانخرط فى صفوف الثورة الإيرانية، التى قادها الخمينى فى سبعينيات القرن العشرين، فكان مستشارًا للخمينى ورئيسًا للجنة استقباله عند عودته إلى طهران سنة ١٩٧٩م.

وعندما استشهد مطهرى ـ غيلة فى ١/ ٥/ ١٩٨٠ ـ أى بعد أقل من عام على انتصار الثورة، بكاه الخمينى كما لم يبك ابنه وقال فى مأتمه:

[خذنى معك! فأنا مستعد للشهادة، لقد فقدت ابنى العزيز، الذى هو قطعة من جسدى، لقد كان لا نظير له فى طهارة الروح، وقوة الإيمان، والقدرة على البيان، وإن شخصيته الإسلامية والعلمية والفلسفية لن تذهب بموته].

ولقد أعلن الخمينى الحداد على مطهرى.. وجلس ـ فى المدرسة الفيضية ـ يتلقى العزاء فيه.

ولقد ترك مطهرى أكثر من خمسين كتابًا.. مثلت صرحًا من الإبداع الفكرى، جعلت منه واحدًا من أبرز أعمدة الفكر فى الفضاء الشيعي المعاصر.

* * *

وفى هذا الكتاب ـ [فقد الفكر الدينى عند الشهيد مرتضى مطهرى][1] ـ الذى يمثل خلاصة لمشروعه الفكرى تتجلى عبقرية هذا الفيلسوف المجدد، الذى جمع بين الأصولية وفقه الواقع ـ المحلى والعالمى ـ وبين النظرة المستقبلية للإسلام والمسلمين.

(١)

إن مفتاح الشخصية الفكرية للشهيد مطهرى هو الأفق الفلسفى، الذى يفتح منافذ العقل على الشكوك والتساؤلات.. وعن هذه الخصيصة الفكرية يقول:

«إذن، وخلافًا لكثير من الأفراد، لا أنزعج إطلاقًا من طرح التشكيكات وإلقاء

(١) طبعة المعهد العالى للفكر الإسلامى واشنطن ٢٠١٠م.

الشبهات فيما يتعلق بالقضايا الإسلامية، ورغم ما أتمتع به من الإيمان بهذا الدين والرغبة الجامحة فيه، بل يسرنى ذلك كثيرًا، لأننى أعتقد ـ وقد شاهدت ذلك بالتجربة العملية خلال أيام حياتى ـ بأن هذا الدين السماوى المقدس كلما تعرض فى جبهة من الجبهات للمواجهة والهجمات، خرج من المعركة قويًا عزيزًا ظاهرًا متلألئًا».

إن ميزة الحقيقة هى أن الشك والتشكيك يساعدان على إشراقها أكثر فأكثر، فالشك مقدمة اليقين والتشكيك سلم البحث والتنقيب.

وقد جاء فى رسالة [ميزان العمل] للغزالى [٤٥٠- ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨- ١١١١م] ما نصه:

«... ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات إلا ما يشكك فى اعتقاد الموروث لتنتدب للطلب، فناهيك به نفعًا، إذًا الشكوك هى الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال»[1].

ثم يمضى مطهرى فيتحدث عن تراجع الفضاء الثقافى الفكرى عن هذا المنهاج، فيقول:

«فيما سبق كان المستوى الفكرى للناس هابطًا، وقلما كان الناس يثيرون الشكوك والتساؤلات أما الآن فالأمر يختلف، ومن الطبيعى حيث يرتفع المستوى الفكرى درجة فإن تساؤلات جديدة تطرح، بينما لم تكن تثار فى السابق، ويجب علينا معالجة الشك والتردد، والإجابة عن التساؤلات والإشكاليات الفكرية.

فنحن الآن نعيش عصر العلم والشك والتردد، وإننا نعيش عصرًا مليئًا بالشبهات التى تثار حول الإسلام، ويزداد فيه المخالفون للإسلام.

«دعوهم يقولون ويكتبون ويعقدون الندوات، ويثيرون الإشكالات، حتى يكونوا ـ دون إرادة منهم ـ وسيلة انبلاجه حقائق الإسلام»، (ص ٢٠٧، ١١٣، ١١٨).

(١) طبعة المطبعة العربية ـ القاهرة ـ ص ١٦.

(٢)

وفى تشخيص مطهرى للتخلف الفكرى والانحطاط الثقافى اللذين أصابا الحياة الدينية للمجتمع الشيعى أبصر المسئولية الكبرى التى يتحملها «المنهج الإخبارى» الذى ساد الفكرية الشيعية، والذى جعل اعتماده الأول والأكبر على [الأخبار.. والروايات] بعد استبعاده القرآن.. والعقل والإجماع والاجتهاد! فعلى [الأخبار والمرويات] التى لم تعرض على القرآن ولا على العقل ـ قامت الفكرية الشيعية، التى مثلت انحطاط هذا الفكر لعدة قرون.. وعن هذه الحقيقة يقول الشهيد مطهرى:

«قبل نحو أربعة قرون شهدت الأوساط الشيعية حركة سميت بالحركة الإخبارية ـ هيمنت على عقول الناس ثلاثة قرون ـ كانوا يرفضون منهج الاجتهاد ـ بحجة أنه مأخوذ من أهل السنة ـ ويرجعون مباشرة إلى الأخبار المروية.. ويستلهمون أحكام الشريعة منها.. وكانوا يشكلون أبرز مظاهر الجمود.

لقد عارضوا حجية ثلاثة من الأدلة الأربعة ـ الكتاب.. والعقل.. والإجماع..

عارضوا القرآن، لأنه ـ بزعمهم ـ أرفع مرتبة من أن يفهمه البشر العاديون، بل لا يحق لأحد غير الأئمة أن يفهم القرآن، وهو إنما نزل كى يفهمه الأئمة فقط، ولذلك علينا أن نبحث عن الأحكام فى الإخبار المروية عن الأئمة.. فنحن لسنا مخاطبين بالقرآن.

وكانت النتيجة أن هناك فى الأخبار والأحاديث ما يؤدى إلى المساس باعتبار القرآن ـ [مثل الزعم بتحريف القرآن].. لقد اسقطوا اعتبار حجية القرآن.

وأسقطت هذه الحركة الإخبارية حجية العقل.. وقالوا: إن الدين ليس من مجالات تدخل العقل، فعلى الإنسان أن يخطئ عقله.. وإذا ما وجدنا تحالف العقل علينا أن نرفض العقل ولا نسمح له بالتدخل.. ولذلك دعوا إلى الأخذ بالروايات دون التمييز بين الصحيح والسقيم.

كما اسقطوا حجية الإجماع، لأنه ـ عندهم ـ من أدلة أهل السنة، وهو وسيلة

استخلاف أبى بكر وتنحية الإمام أمير المؤمنين عن الخلافة بعد الرسول، فكيف تستدلوا به؟!

وهكذا لم يبق عندهم من الأدلة الأربعة إلا السنة، التى دس فيها الوضاعون من الروايات ما شاؤوا من الأكاذيب..

وبذلك تم التركيز تمامًا على الأخبار فقط».. (ص ١٣٩- ١٤٤).

* * *

ولقد أفاض الشهيد مطهرى فى ضرب الأمثلة، التى مثلت تجليات التخلف الفكرى والانحطاط الثقافى، والشعوذات والخرافات التى سادت الفكر الدينى الشيعى.. والتى مثلت الثمرات المرة لهذا المنهاج الإخبارى.

فلقد سادت وشاعت المرويات التى تجعل الناس «يدفعون قسمًا من الأموال للمراقد المقدسة، لكى يدفنوا بالقرب من قبور أولياء الله، حيث لا يجرؤ الملائكة على تعذيبهم!!.. فالدفن فى هذه الأماكن يؤدى إلى تجاوز السيئات.. ويغنى عن كل شىء!.. حتى ولو قضينا عمرنا الطويل بدون تقوى وبدون عمل، ثم نوصى أن يحملوا جنائزنا إلى النجف لندفن هناك فستنصلح أمورنا!!

وسادت المرويات والأخبار التى تجعل اتخاذ التشيع وحب أهل البيت وسيلة للتهرب من تحمل المسئولية الإسلامية..فالانتماء إلى الإمام على كاف للنجاة.. وهناك رواية مشهورة تقول: «حب على سنة ولا تضر معها سيئة»..

ويكفى لضمان السعادة والحظوة عند الله أن يطلق على نفسه اسم شيعى!

وانتشرت الروايات التى تزكى الغرور، وتقول إن الأعمال الصالحة من غير الشيعة غير مقبولة.. وأن الذنوب والسيئات التى يرتكبها الشيعة كلها مغفورة..!

وكثرت الروايات التى نسجت الأساطير عن أمير المؤمنين علىّ.. وعن سيفه الذى شق أحد أبطال اليهود فى خيبر نصفين متساويين.. ثم تعداه إلى جبريل فجرحه جرحًا مرض بسببه أربعين يومًا الأمر الذى أخر صعوده إلى السماء تلك المدة حتى يعالج جرحه!!..

وانتشرت الروايات الأسطورية عن وقائع كربلاء: اختلاق أسماء لأصحاب الحسين لا وجود لهم فى التاريخ!!.. وأسماء لأعداء الحسين لا وجود لهم فى التاريخ! بل واختلاق أسماء لأبناء الحسين لا وجود لهم فى الواقع والتاريخ!

وانتشرت الروايات التى أدخلت عقائد المسيحية فى الفكر الشيعى.. من مثل «أن الحسين قد عرض نفسه إلى القتل ليحمل على عاتقه ذنوب الأمة!!».

ووضعت فى [كتاب الكافى] للكلينى [٣٢٨هـ/ ٩٤١م] الروايات التى لو أمعنا النظر فيه لوجدناها باطلة.

ويذكر التاريخ شخصًا يسمى أبو الخطاب ـ كان ملحدًا ومناوئًا للإسلام، ولكنه كان يروى الأحاديث للناس، وعندما افتضح أمره.. اعترف فقال:

«لقد وضعت فى إخباركم أربعة آلاف حديث».

لقد ساد بسبب هذا الانحطاط الفكرى: اتجاه مجتمع العلماء نحو عوام الناس.. واهتم العلماء بطبائع العوام، واستقطاب ولائهم، لأنهم الممولون للمؤسسة الدينية.. فكثرت المفاسد والسلبيات الموجودة فى أوساط علماء الدين بسبب هذه السلبية بالذات!

(ص ٢٦، ١٠٢، ١٠٣، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٣، ٥٠، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٩، ٤٣، ١٠٧، ١١٠، ١٤، ١، ١٢٥، ١٢٩، ١٤١، ٩٢).

تلك إشارات ـ مجرد إشارات ـ لما ساقه الشهيد مطهرى من نماذج للأخبار والروايات الخرافية والأسطورية ـ التى أفرزتها حقبة المدرسة الإخبارية، والتى مثلت عصور الانحطاط بالنسبة للفكر الشيعى بعد أن استبعد الإخباريون المصادر الأصلية الإسلامية: القرآن..والعقل.. والاجتهاد والإجماع».

(٣)

ولقد تحدث الشهيد مطهرى عن أن هجران الجيل القديم ـ جيل الإخباريين

للقرآن الكريم ـ لا يزال قائمًا فى الواقع الفكرى والعملى الشيعى المعاصر! وتعجب من بقاء هذا الميراث السيئ.. فقال:

«عجبًا! فإن الجيل القديم قد نزل القرآن وجعله مهجورًا. ولكن [هذا الجيل القديم] يعتب فى الوقت نفسه على الجيل الجديد لأنه غير منفتح على القرآن، فالقرآن مهجور فى أوساطنا، ولكننا نطالب الجيل الثانى أن يتمسك به!».

ثم شرع مطهرى فى إثبات هذه الحقيقة، فقال:

[.. والآن أثبت لكم كيف أن القرآن أصبح مهجورًا بيننا:

لو درس شخص علم القرآن، أى تدرب فى آية، وعرف تفسيرها بشكل كامل، فما حظ هذا الشخص من الاحترام فى أوساطنا؟.. الجواب: لا شىء.

أما لو درس شخص كتاب [كفاية الأصول] للشيخ كاظم الخرسانى فإن ذلك سيجعله شخصًا محترمًا وجيهًا. إن فالقرآن مهجور فيما بيننا، وبسبب هذا الإعراض عن القرآن فقد أصبنا بهذا التخلف والهوان، حتى لتشملنا شكوى رسول الله ﷺ «يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرن مهجورًا!».

«غرى حقًا، لو أن شخص قضى عمره فى العلوم القرآنية، فى أهم مراكزنا الدينية، فإنه يواجه ألف مشكلة ومشكلة، ويفقد كل شىء: الخبز والمعيشة والجاهة والاحترام، ولكنه لو أنفق عمره فى كتب علم الأصول فإنه يحظى بكل شىء، ولذلك فإنك تجدد الآلاف من الأشخاص ينفقون كتاب [الكفاية] ـ بكل شروحه وردوده ـ بينما لا تجد شخصين يعرفان القرآن معرفة صحيحة».

لقد واجه كلا الجيلين، الجديد والقديم، القرآن بالجفاء، فقد جفاه الجيل القديم أولًا ثم جفاه الجيل الجديد (ص ٧٧، ٧٨)..

كيف حدث ذلك الهجر والجفاء للقرآن وأهله فى بيئة إسلامية؟!

وهنا على القارئ أن يتذكر عنوان كتاب الشهيد مطهرى [نقد الفكر الدينى].. ويتذكر ما كتبه عن جناية المدرسة الإخبارية على القرآن الكريم.

ولقد استبعدوه من مكانته كمصدر أول للدين.. وزعموا أن الناس غير مخاطبين به، وأن الأئمة وحدهم هم القادرون على فهمه!.. فصرفوا عنه الناس..

وصعدوا بجريمتهم إزاء القرآن عندما وضعوا المرويات والأخبار التى ادعوا فيها أن التحريف والتغيير قد أصاب هذا القرآن الكريم.. بل ونسبوا بعض هذه المرويات والأخبار ـ كذبًا إلى بعض الأئمة.. نسبوا إلى الإمام الباقر [٥٧- ١١٤هـ/ ٦٧- ٧٣٢م] أنه قال:

«ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب، وما جمعه وحفظه كما نزله الله تعالى إلا على بن أبى طالب والأئمة من بعده»!

ونسبوا إليه أيضًا أنه قال:

«ما يستطيع أحد أن يدعى أن عنده جميع القرآن كله، ظاهره وباطنه غير الأوصياء»(١).

ولقد استفاض الإخباريون فى هذه المزاعم تجاه القرآن الكريم.. فقال الشيخ المفيد [٣٣٨- ٤١٣هـ/ ٩٥٠- ١٠٢٢م]:

«إن الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمة الهدى من آل محمد باختلاف القرآن، وما أحدثه بعض الظالمين فيه من الزيادة والنقصان»(٢).

وسار على هذا الطريق المظلم كثير من الإخباريين ـ مثل:

نعمة الله الجزائرى [١٠٥٠- ١١١٢هـ/ ١٦٤٠- ١٧٠١م].. والمجلسى ـ محمد الباقر ـ [٤١٨- ٥٠٤هـ/ ١٠٢٧- ١١١١م] ويبرز حسين النورى [١٣٢٠هـ] الذى ألف كتابًا جعل عنوانه [فصل الخطاب فى تحريف كتاب رب الأرباب]!!

بل وزعموا أن روايات وأخبار تحريف القرآن ـ الذى تعهد الله بحفظه ـ قد بلغت حد التواتر المعنوى.. فضلًا عن نسبتها المزورة إلى الأئمة المعصومين!!.. وتم

(١) الكلينى [الأصول من الكافى] ص٢٢٨، تحقيق على أكبر العفارى مطبعة طهران ١٣٨٨هـ.
(٢) الشيخ المفيد [أوائل المقالات] ص ٥ طبعة تبريز.

جمع كل هذا التراث الإخبارى فى أهم المصادر الإخبارية [كتاب الكافى] للكلينى [٣٢٨هـ/ ٩٤١م] ـ الذى لقبوه بـ«ثقة الإسلام».

هكذا.. وباستحضار جناية الإخباريين على القرآن الكريم، نفهم حديث الشهيد مطهرى عن الجفاء والهجر الذى أصاب القرآن الكريم فى ذلك الفضاء الفكرى الإخبارى، ولدى الذين ورثوا هذا الفكر..

ونفهم كذلك «الثورة الفكرية» التى أحدثتها «المدرسة الاجتهادية» مدرسة مطهرى والخوئى [١٣١٧- ١٤١٢هـ/ ١٨٩٩- ١٩٩٢م] والشيخ الطبرسى.. والفيض الكاشانى [١٠٩١هـ] وغيرهم من المجتهدين الذين ثاروا على روايات الإخباريين، وانتصروا لحفظ القرآن الكريم، عن التحريف والتغيير والتبديل[١].

وفى هذا السياق، نفهم مغزى كلمات الشهيد مطهرى:

«إن تحريف القرآن، عن طريق زيادة أو نقصان كلماته، وألفاظه لم يحدث أبدًا، ولا ولن يحدث فى المستقبل أيضًا، ولكن لا شىء يقف فى وجه عمليات التحريف المعنوى والتفسيرات والتأويلات الخاطئة.. إن هذا الكتاب المقدس يتكفل بصيانة المسلمين، شرط أن يتكفل المسلمون من جهتهم بصيانته من التحريف المعنوى، أى التفسيرات والتأويلات العبثية (ص ٨١)، مثل التفسيرات الماركسية والمادية ـ التى وجه إليها مطهرى النقد والتفنيد.

وهكذا، لم يكن مطهرى مجرد مجدد.. وجه سهامه الصائبة إلى المدرسة الإخبارية، وإلى جنايتها الكبرى وجريمتها العظمى فى حق القرآن الكريم.. وإنما كان أيضًا ـ عاشقًا لهذا القرآن العظيم.. فهو الذى قال:

«إننى أشعر بجمال وبلاغة القرآن حقًا، خاصة حينما يقرأ بلحن جميل ولطيف»، (ص١٠٩).

(١) انظر: رسول جعفريان [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] ص ٩١- ٩٧، وهو يورد اسماء قرابة ثلاثين من المجتهدين الشيعة ينفون دعاوى تحريف القرآن ولقد صدر هذا الكتاب فى طهران ١٩٨٥ق، وقمت بالتقديم له وإعادة طبعه بالقاهرة سنة ٢٠٠٦.

(٤)

وفى إطار النقد للتوجهات الفكرية فى الفضاء الشيعى الإيرانى، حاور مطهرى التيار القومى الفارسى، الذى اتخذ ويتخذ موقفًا سلبيًا من العربية ـ لغة القرآن الكريم ولسان الإسلام ـ لأنها لغة العرب والقومية العربية.

وفى هذا المقام، نفى مطهرى عن الإسلام أى توجه عنصرى يجعله دين شعب معين ويلزم أتباعه بلغة معينة.. لكنه دافع عن العربية كلغة للقرآن، ويلزم تعلمها وإتقانها ـ من قبل علماء الإسلام ـ على اختلاف قومياتهم، لفهم الإسلام فهمًا كاملًا ولجعلها مساحة لوحدة المسلمين.. وعن هذه الأفكار والمقاصد، قال:

«إن اهتمامنا باللغة العربية لا يأتى من كونها لغة قومية معينة، بل ينبع من كونها لغة القرآن الكريم»..

إن الإسلام من جهة ليست له لغة خاصة، أى أنه لم يفرض على معتنقيه التحدث باللغة العربية،.. فهو ليس دينًا عنصريًا.. لكنه من جهة أخرى ـ له لغة خاصة فيما يتعلق بالشعائر الدينية، ولو لم تكن لكل دين لغة خاصة به، لما استطاع الاستمرار.

فهذه اللغة هى عامل الوحدة بين المسلمين.. وهذا أمر إيجابى من حيث الوحدة البشرية، وهو خطوة نحو تحقيق وحدة البشرية.. (ص ١٣٦، ١٠٨).

وانتقد مطهرى القصور فى تعلم علماء الفرس والإيرانيين للغة العربية. وقال:

إن ما ندرسه من العربية لا ندرسه بشكل متقن، وهو لا ينفعنا فى فهم القرآن والتدبر فيه (ص ١٣٦).

ولعلاقة التعصب القومى الفارسى بالعداء للعربية.. وأحيانًا العداء للإسلام ـ وجه مطهرى نقده للنزعة القومية، التى تجاوزها الإسلام، منذ قرون طويلة.. والتى عادت لتطل برأسها من جديد.. فقال:

«إن الشعوب الإسلامية قد اجتازت مرحلة المشاعر القومية منذ قرون، ودخلت مرحلة أعلى منها، فالإسلام أوجد ـ منذ قرون ـ وحدة الشعوب الإسلامية على أساس فكر العقيدة والأيدولوجيا».

كما أثبت الإسلام فى القرن العشرين أنه قادر على أداء دور فعال وحاسم فى النضال ضد الاستعمار، ولكن هناك عددًا لا يحصى من الأفراد قد نشط فى الفترة الأخيرة فى شن حرب واسعة النطاق ضد الإسلام، وذلك تحت يافطة الدفاع عن الوطنية والقومية، وفى توجيه الإهانات للمقدسات الإسلامية تحت شعار النضال ضد العرب والقومية العربية، وإن ما نشاهده من ذلك فى إيران ـ على صفحات الكتب والصحف والمجلات ـ يدل على أن الأمر ليس صدفة، بل هو خطوة محسوبة ولها أهداف معينة:

إن توجيه الشعوب نحو عامل القومية هو خطوة رجعية حقًا (ص ٩٨- ٩٩).

وفى إطار نقد المقولات والنظريات الفكرية السائدة فى الفضاء الشيعى..انتقد الشهيد مطهرى احترام الشيعة لأحداث الخلافات التى حدثت فى صدر الإسلام.

وانتقد التركيز على سلبيات التاريخ الإسلامى.. وإهمال الإيجابيات التى جعلته وتجعله تاريخًا عظيمًا مليئًا بالملاحم التى تصبغه بالجمال، وفى هذا السياق قال:

إن الحديث عن مسالة الخلافة والإمامة والتجربة السلبية فى القرن الإسلامى الأول وتكرار الوقائع السلبية فى أكثر من مرحلة، لا سيما فى العصر الحاضر، حيث يواجه الجيل الجديد أزمة روحية فى مجال الدين، يؤدى إلى ضعف الإيمان والابتعاد عن الإسلام.. وزلزلة الأفكار بالنسبة إلى الأصول والجذور.

لمَ يعمل الأخرون على إخفاء سلبيات تاريخهم، بينما نحن المسلمين نعمل ـ على العكس من ذلك ـ على اجترار السلبيات وتضخيمها أحيانًا أكثر من الواقع.

إن تاريخ الإسلام لا نظير له من حيث كثرة نقاط الجمال والتجليات الإنسانية والإيمانية فهذا التاريخ مفعم بالملاحم ومليئ بالجمال والإشعاع فوجود بعض البقع السوداء لا يقلل من جماله وعظمته وجلاله.. (ص ٢٢٦- ٢٢٧).

لكن الشهيد مطهرى الذى دعا إلى إبراز إيجابيات التاريخ الإسلامى، والذى انتقد تكرار اجترار ما فيه من سلبيات وهى قليلة بالنسبة لما فيه من إيجابيات وملاحم تشع بالجمال والإنسانية، ما كان له أن ينسى أنه أحد أركان التشيع، الذى يجد مبرر وجوده

فى التركيز على ما يراه سلبيات فى قضية القيادة والإمامة وحقوق آل البيت. وفى التنبيه على ذلك، قال:

«.. لكن لا يجوز غض الطرف عن سلبيات التجربة التاريخية فيما يتعلق بمسألة القيادة، لارتباطها بأساس الإسلام، وكذلك سلبيات سحق حقوق أفضل أبناء الأمة، وإلا كان ذلك تضامنًا مع سيف البغى! (ص ٢٨).

كذلك انتقد مطهرى مفهوم «العلم الدينى» فى الفضاء الإسلامى، وقصره على الفقه والأصول والعلوم التقليدية. داعيًا إلى اعتبار كل علم يحتاجه المسلمون علمًا دينيًا».. ذلك أن تقسيم العلوم إلى علوم دينية وعلوم غير دينية ليس تقسيمًا صحيحًا.. إن كل علم يفيد الإسلام والمسلمين ويكون ضروريًا لهم، ينبغى اعتباره علمًا دينيًا. (ص٩٠).

وانتقد ـ كذلك ـ تخلف الشيعة فى الاهتمام بفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ فقال:

«للإنصاف نقول: إن أهل السنة قد بحثوا فى هذا الموضوع علميًا.. أكثر منا نحن الشيعة، والمعتزلة ـ وهم من أهل السنة ـ يعتبرونه من أصول الدين، وليس من فروعه.. أما الشيعة فإنهم يعتبرون أن أصول الدين خمسة [التوحيد، العدل، النبوة، الإمامة، المعاد] ـ وليس منها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. ويعدونه من الفروع العشرة للدين: الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، الخمس، الجهاد، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، التولى لأولياء الله والتبرى من أعداء الله.

ولا بد أن نعرف أن هذا الموضوع قد تضاءل وتصاغر فى أوسطانا نحن الشيعة، بحيث لم يعد الفقهاء منذ قرون يكتبون شيئًا حوله فى كتب الأحكام الفقهية [الرسائل العلمية].. (ص ١٨١، ١٨٢).

وانتقد مطهرى ـ كذلك ـ الموقف الفكرى من [الثروة].. منبهًا [أن الإسلام لا يحتقر المال والثروة.. ولكنه يعارض تأليهها] (ص ٢٢٩، ٢٣٠).

كما انتقد الأوضاع الاجتماعية القاسية التى أدت إلى الفوارق الطبقية الفاحشة والظالمة بين الأثرياء والفقراء.. قال: إن انقسام المجتمع طبقيًا لا ينسجم مع هدف

الإسلام.. لقد انقسم المجتمع إلى طبقتين، أحداهما فقيرة وتعيسة.. والأخرى مسرفة ومبذرة ومغرورة لا تعرف كيف تنفق ثرواتها الهائلة».. (ص ٨٨).

كما نبه على أن المعنى الإسلامى [للتوكل] هو معنى مغاير لما هو شائع عن هذا المصطلح فى الفضاء الإسلامى.. فالتوكل حافز على العمل وعلى الشجاعة والإقدام.. وبعبارته:

فإن للتوكل فى القرآن مفهومًا حيًا وحماسيًا، فكلما أراد القرآن أن يدفع بالإنسان إلى العمل وأن ينزع عنه الخوف والرهبة، يقول له: لا تخف وتوكل على الله، وتقدم واثقًا بالله عز وجل، قل الحقيقة معتمدًا على الله، وثق بالله، ولا تخش كثرة الناس.. (ص ٢٢٠).

ولأن الشهيد مطهرى هو أحد أركان المدرسة التجديدية فى الفكر الشيعى المعاصر وأحد أركان الثورة التى انتصرت فى إيران سنة ١٩٧٩م.. كان له موقف متقدم من قضية المرأة.. فهو يدعو إلى مراعاة التمايز الفطرى بين الذكورة والأنوثة.. ويعد ذلك من العدل فى النظر إلى الجنسين، ويدعو ـ كذلك ـ إلى إبراز الموقف الإسلامى الذى أنصف المرأة، ورفع عنها الإهانات التى ألحقتها بها مواريث دينية سبقت الإسلام.. وفى ذلك يقول:

إن مراعاة الفوارق الفطرية بين المرأة والرجل هو أكثر تطابقًا مع العدالة. كما أنه يوفر السعادة للأسرة والتقدم للمجتمع.

والإسلام لم يقرر للمرأة والرجل حقوقًا متشابهة فى كل الحالات، كما أنه لم يفرض عليهما واجبات وعقوبات متشابهة أيضًا..

ولكن ما أقره الإسلام للمرأة من حقوق ليس أقل قيمة مما أقره للرجل، لقد خلقا من نفس واحدة.. ولم تخلق المرأة من أحد أضلاع آدم اليسرى.. فليس فى الإسلام هذه الأفكار التى تحقر المرأة، وتجعلها كائنًا طفيليًا.

وإن أية موهبة طبيعية ـ للرجل أو المرأة ـ تدل على وجود حق طبيعى (ص١٨٩، ١٩٠، ١٩١).

وفى إطار الفكر الشيعى دافع مطهرى عن [التقية] عندما تكون نوعًا من الدرع الواقعى فى النضال.. وعندما تعنى إنزال أقوى الضربات، وتوقى كل الضربات، فهى تكتيك عقلى فى المسيرة النضالية.

لكنه انتقد هذه [التقية] التى نجدها قد فرغت ـ اليوم ـ من مفهومها المناصر للنضال، وغدت تعنى عند المرفهين وطالبى الراحة: التهرب من ساحة المواجهة، وترك المعركة لصالح العدو، والاهتمام ـ فى المقابل ـ بالمناقشات والجدليات الجوفاء (ص١١٥).

وهناك قضية أخرى من قضايا العلاقة بين الشيعة والسنة تطرح أحيانًا تحت لافتة «التقريب بين المذاهب الإسلامية».. وأحيانًا تحت لافتة «وحدة الأمة الإسلامية».

وهى قضية حظيت باهتمام الطرفين ـ السنة والشيعة ـ منذ أربعينيات القرن العشرين وعاد الاهتمام الشيعى بها بعد نجاح الثورة الإيرانية ١٩٧٩.. ولها تعقد الكثير من المؤتمرات وتصدر العديد من البيانات والكتب والتصريحات..

وحول هذه القضية فجر الشهيد مطهرى مجموعة من الآراء التى ستجعل الكثيرين من أهل السنة يعيدون النظر فى حماسهم لهذه القضية، وفى جدوى الجهود المبذولة فى سبيلها، وفى واقعية الآمال المعلقة عليها..!

لقد كشف مطهرى بتناوله لهذه القضية عن:

١- أن الشيعة يعانون من العزلة!

٢- أن أسواق العالم الإسلامى مغلقة فى وجه المعارف القيمة الموجودة لديهم!!

٣- وأن المطلوب هو خلق أجواء التفاهم التى تسمح للشيعة بعرض ما لديهم على الآخرين!!

٤- وذلك دون التنازل عن حتى «مستحب» أو «مكروه» يمكن أن تضحى به الشيعة فى سبيل الوحدة الإسلامية ـ التى هى فكرة غير عملية من الأساس!

٥- لقد كشف الشهيد مطهرى حقيقة مقاصد الشيعة من وراء الشعارات والجهود

والمبذولة تحت لافتات «التقريب بين المذاهب» والوحدة الإسلامية.. وبدد الأوهام والآمال التى يعقدها الكثيرون ويعلقونها على هذه الجهود.. وصارح الجميع برأيه.. الذى قال فيه «إننا نحن شيعة أهل البيت، نفخر بأن نتبع مذهب أهل بيت رسول الله ﷺ ولا نعتبر أصغر حكم من أحكام الشريعة، حتى المستحب والمكروه، يمكن أن يضحى به من أجل الوحدة، فإننا لا نستجيب لتوقعات الآخرين فى هذا المجال، كما لا نتوقع من الآخرين أن يتخلوا عن أصل من أصولهم باسم المصلحة من أجل الاتحاد الإسلامى.

إن الاتحاد الإسلامى الذى رفع لواءه خلال القرن الأخير عدد من العلماء.. لا يعنى أن تتنازل المذاهب الإسلامية ـ من أجل تحقيق الوحدة ـ عن أصولها العقائدية أو غير العقائدية، أو بعبارة أخرى: لا يعنى أن يأخذ المسلمون بمشتركات كل المذاهب ويدعو جانبًا مختصات كل المذاهب، ذلك لأن هذا العمل لا هو منطقى ولا هو عملى.

إن ما نتوقعه ونأمله: هو خلق أجواء التفاهم الإيجابية التى تسمح لنا، كشيعة لنا أصولنا وفروعنا، ولنا الفقه والحديث، والكلام والفلسفة والآداب الخاصة بنا، أن نعرض على الآخرين ما نملك، لكى لا تبقى الشيعة فى عزلة، وتبقى أسواق العالم الإسلامى مغلقة فى وجه المعارف الإسلامية القيمة الموجودة لدينا!! (ص ١٦٢- ١٦٣).

فليس المراد التفاعل بين المذاهب.. أو الالتقاء حول [المشتركات] ولا حتى التنازل عن الهوامش ـ من مثل «المستحبات» و«المكروهات» فى الفقه ـ الذى هو كله علم الفروع.

ليس المراد أى شىء من ذلك.. وإنما المراد: خلق أجواء التفاهم، التى تسمح للشيعة بالخروج من عزتهم ـ كأقلية ـ لتدخل أسواق العوالم السنية ـ التى تمثل ٩٠٪ من الفضاء الإسلامى ـ لتسويق البضاعة الشيعية فى الأسواق السنية!!

هذا هو المراد والمقصود من وراء التقريب بين المذاهب.. فقط لا غير!!

والأمر الذى نعتقده هو أن الشهيد مطهرى لم يكن [مخترعًا] لهذه المقاصد.. وإنما كان له ولشجاعته وصراحته فضيلة «الكشف» عن هذه المقاصد والغايات!!

وإذا كانت هذه هى أبرز القضايا التى تناولها الشهيد مطهرى فى نقده للأمراض الفكرية الداخلية ـ فى الفضاء الشيعى فلقد تناول الرجل بالنقد والتفنيد تلك الأمراض الفكرية التى جاءت إلى بلادنا فى ركاب الغزو الغربى لعالم الإسلام.. والتى غدت جزءًا من [داخلنا]!!

انتقد التغريب، الذى أدى ويؤدى إلى الانهزامية العقائدية أمام كل ما يأتى من الغرب وقال:

«هناك ـ فى مجتمعنا ـ انهزامية عقائدية، يعشق أصحابها المنطق الديكالتيكى، ويزعمون أن منطق الإسلام، هو المنطق الديكالتيكى.. دون التفات إلى أن هذا المنطق الديكالتيكى يحارب دينه وإسلامه، ويسعى لاقتلاع جذوره من الأساس»، (ص ٨١).

«وهناك من يتصور إمكانية تحقق العدالة دون المعنويات.. ويتصور أن الجوانب المعنوية فى القرآن قابلة للتأويل.. وهم يحسبون أنهم ـ بذلك ـ إنما يؤسسون ثقافة ثورية للإسلام»! (ص١٧٧).

«وهناك مضار استلاب الشخصية.. الزعم بأن ما يقوله الإفرنج لا بد أن يكون صحيحًا» (ص١٥٥).

ولقد انتقد الشهيد مطهرى استبدال القوانين الوضعية الغربية بالشريعة الإسلامية.. معتبرًا القرن العشرين ـ الذى تم فيه هذا الغزو القانونى قرن [الكارثة العظيمة]! فقال:

«يعد القرن الرابع عشر الهجرى العشرين الميلادى قرن كارثة عظيمة بالنسبة إلى الفقه والأحكام الإسلامية، فقد شهدنا فيه التضحية بالقوانين والأحكام الإسلامية لمصلحة القوانين الأوربية»! (ص١٣٨).

ولقد أبصر مطهرى دور الاستشراق اليهودى فى هذا الصراع الغربى للهيمنة على الإسلام والمسلمين.. وأشار إلى «أن أكثر من ٩٠٪ من مقاعد الدراسات الاستشراقية فى جامعات العالم، يشغلها اليهود»!

وتساءل.. فكم لهؤلاء من القدرة على ضرب الإسلام (ص١١٦).

* * *

وبقدر ما تجلت عبقرية الشهيد مطهرى فى رصد وتشخيص أمراض التغريب والغزو الفكرى واستلاب الشخصية الحضارية الإسلامية ـ بقدر ما تجلت عبقريته فى وصف العلاج، الذى يتمثل فى [الاستقلال الفكرى والعقائدى].. وعدم الاكتفاء [بالاستقلال الشكلى] ـ الاستقلال السياسى والاقتصادى.. والاكتفاء باستقلال [العَلَم] و [النشيد].. ففى الاستقلال الفكرى والحضارى العلاج لأمراض التغريب.. لأنه هو «حقيقة الاستقلال»! .. أبصر مطهرى هذا العلاج.. فقال:

«إننى أؤكد كثيرًا على مسألة الاستقلال، ولاسيما الاستقلال العقدى، فلو لم نقدم رسالتنا المستقلة للمجتمع، فإنه لا ينفعنا إسقاط النظام الملكى، حتى ولو نلنا الاستقلال السياسى والاستقلال الاقتصادى، فبدون الاستقلال فإننا سنواجه الهزيمة ولا نستطيع تمييز ثورتنا الإسلامية.

علينا أن نثبت أن رؤيتنا الإسلامية، لا تتطابق مع الرؤية الغربية، ولا مع الرؤية الشرقية، وهى لا ترتبط بأى منهما، كما لا تحتاج إلى أى منهما.

فما هذا المرض الذى يدفع بعضنا لتكييف الرؤية الإسلامية، مع الرؤى الأجنبية؟!

إن من يحاول تكييف الإسلام مع المدارس الفكرية الأخرى، أو إقحام عناصر من تلك المدارس فى الإسلام، فهو يخدم الاستعمار شاء أم أبى، وإن خدمة هؤلاء للاستعمار هى أكبر من خدمة عملاء الاستعمار سياسيًا أو اقتصاديًا، وبالدرجة نفسها تكون خيانتهم للأمة أعظم.

إن من أهم مسئولياتنا لصيانة الثورة الإسلامية، هو الحفاظ على استقلالنا الرسالى والأيدولوجى» (ص٨٢، ٨٣).

هكذا تجلى الشهيد مطهرى فى هذا الكتاب الفذ ـ الذى أحاط بمشروعه الفكرى:

مجددًا ومجتهدًا ـ تصدى بعمق وصراحة ووعى لمخاطر [المدرسة الإخبارية]..

التى مثلت الجنابة الكبرى على مصادر الإسلام.. والتى صبغت الفكر الشيعى بالخرافات والشعوذات والأكاذيب..

وهو موقف شجاع حبذا لو احتذاه علماء السنة فى نقد الفكر الدينى بالفضاء السنى! وحبذا لو واصل السير على طريقة علماء شيعة آخرون!

وتجلى مطهرى حكيمًا وفيلسوفًا يشخص الأدواء الفكرية.. ويصف لها العلاجات.

وتجلى ابنًا بارًا لأصالة الفكر الإسلامى، التى لا تقبل «الغزو» ولا «الهجين»، وإن قبلت التفاعل الصحى والرشيد بين الحضارات، من موقع الاستقلال الفكرى والثقافى والحضارى الذى يميز ـ فى الفكر العالمى ـ بين الخصوصيات الثقافية، وبين ما هو مشترك إنسانى عام[1].

* * *

(١) هناك فى ثنايا هذا الكتاب بعض الأفكار التى ربما كانت ثمرة لقلة المعلومات.. من مثل نقد مطهرى لمحمد إقبال.. ولابن تيمية وللأشاعرة.. ومثل قوله [ص٦٦]: إن مكة عند ظهور الإسلام لم يكن بها أكثر من سبعة أشخاص يجيدون الكتابة، والواقع يشهد أن كتاب الوحى الثمانية والعشرون كان منهم واحد وعشرون مكيًا. فكم من الكتاب المكيين الذين أسلموا ولم يكونوا من «ديوان كتاب الوحى».. وكم من المكيين الذين كانوا كتابًا ولم يدخلوا فى الإسلام؟! انظر كتابنًا [حقائق وشبهات حول القرآن الكريم] ص ٣٠- ٤٢. طبعة دار السلام القاهرة ١٣٤١هـ/ ٢٠١٠م.

القــرآن يتحــدى

عندما نزل الروح الأمين ـ جبريل عليه السلام بالقرآن الكريم على قلب الصادق الأمين محمد بن عبد الله ﷺ.. مثل هذا القرآن .. لأول مرة فى تاريخ معجزات الأنبياء والمرسلين: «المعجزة.. والرسالة» معًا.. ففى الرسالات السابقة على رسالة الرسول الخاتم كانت المعجزات منفصلة عن كتب الرسالات.. وكانت معجزات مادية، تدهش العقل الذى كان فى طور الطفولة، يحتاج إلى الانبهار بالمدهشات.. وعندما بلغت الإنسانية سن الرشد، جاءت معجزة الرسالة الخاتمة والخالدة معجزة عقلية ـ هى القرآن ـ الذى يحتكم إلى العقل، ويدعو للتفكر والتدبر والنظر، ويستحث العقل للتعقل، بدلًا من إدهاشه وشله عن التفكير..

وبعد أن كانت المعجزات المادية ـ فى الرسالات السابقة ـ حجة على من شاهدها واندهش بها فقط ـ ومن ثم فإنها موقوتة ـ جاءت معجزة الرسالة الخالدة فى ذات الكتاب الخالد، الذى تعهد الله بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].. ولم يتركه لحفظ الناس ـ الذين يجوز عليهم الخطأ، والنسيان والضلال..

وإذا كانت سنة التدافع بين الحق والباطل، هى سنة إلهية عامة ودائمة ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢].. فلقد جاء الإعجاز القرآنى متحديًا لكل أصحاب العقائد والفلسفات الخارجة عن العبودية لله الواحد ـ فى عصر نزوله.. وعلى امتداد الزمان والمكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. الأمر الذى أثار ـ ولا بد أن يثير ـ الافتراءات على هذا القرآن ـ منذ لحظة نزوله وعلى مر العصور.. إنه الإعجاز الخاتم والخالد لسلسلة النبوات والرسالات..والتحدى الدائم

للخارجين عن حظيرة الإسلام.. ومن ثم فإنَّ معارضته والافتراء عليه، ومحاولات تشويهه، هى الأخرى دائمة على امتداد العصور.. ولذلك، فإن آيات التحدى قد انتشرت فى سور القرآن الكريم:

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١، ٢].

﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠].

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ٨٢].

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣٨ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ٣٨، ٣٩].

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [السجدة: ١ - ٣].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣ - ١٤].

﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

هكذا تناثرت عشرات آيات التحدى فى سور القرآن الكريم، معلنة استحالة محاكاة هذا الإعجاز؛ لأنه تنزيلٌ من حكيم حميد.

عندما تحدى القرآن جميع المكذبين بأنه الوحى المجسد لنبأ السماء العظيم.. ودعاهم ـ إن كانوا صادقين ـ أن يستجمعوا طاقاتهم وملكاتهم، ويجمعوا شركاءهم ومعبوداتهم، ليأتوا بعشر سور من مثل القرآن.. أو بسورة من مثله..استخدم مصطلح «المثل».. وذلك لحكمة بالغة لا يدركها إلا البلغاء، الذين يعرفون أسرار البلاغة التى بلغت الذروة فى هذا القرآن الكريم.. ففى التشبيهات والمقارنات هناك عدة مصطلحات، لكل منها معنى محدد فى هذه التشبيهات والمقارنات..

هناك مصطلح «الندِّ».. وهو يعنى المشاركة فى الجوهر فقط..

وهناك مصطلح «الشِّبه».. وهو يعنى المشاركة فى الكيفية فقط..

وهناك مصطلح«الشَّكل».. وهو يعنى المشاركة فى القدر والمساحة فقط..

لكن مصطلح «المثل» ـ كما يقول الراغب الأصفهانى [٥٠٢هـ/ ١١٠٨م] ـ فى كتابه [المفردات فى غريب القرآن] ـ عام فى جميع ذلك.. أى معناه المشاركة فى الجوهر.. والكيفية.. والكمية.. والقدر والمساحة ـ جميعًا..

إن فى القرآن سجعًا.. لكن وجود السجع فى الكلام لا يجعل هذا الكلام «مثل» القرآن.. وإن فى القرآن آيات جاءت منظومة مثل نظم الشعر:﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢]، لكن الشعر لا «يماثل» القرآن.. إذ لا بد «للمثل» من المشاركة فى جميع الوجوه.. وليس فى وجه واحد من الوجوه..

كذلك تميز القرآن وامتاز وفارق كل ألوان الإبداع البشرى فى الصنعة والإبداع.. إنه قرآن عربيّ، لا تخرج كلماته وآياته وسوره عن حروف العربية ومفرداتها.. ومع ذلك، فإن أرباب البلاغة قد اكتشفوا ـ ولا يزالون يكتشفون ـ أن الإبداع والتركيب والصنعة فى هذا القرآن الكريم قد تميزت وفارقت كل ما اعتاده البشر الذين استخدموا ذات المفردات، بما فى ذلك صناعة الحديث النبوى، الذى صاغه الرسول ﷺ وهو الذى أوتى جوامع الكلم ـ .. ولذلك، فلقد أصاب الدكتور طه حسين [١٣٠٦- ١٣٩٣هـ/ ١٨٨٩- ١٩٧٣م] لأنه أحد بلغاء العصر ـ كبد الحقيقة، عندما قال: «إن الكلام العربى: شعر.. ونثر.. وقرآن».

وعلى سبيل المثال، فإن أسلوب القرآن وصنعته يتفردان ـ دون كل صناعات الأساليب البشرية ـ باستخدام كلمة «المطر» فى العذاب والأذى والانتقام.. أما فى السراء فيستخدم كلمة «الغيث»!..

ويستخدم مصطلح «التغيير» للسلبى.. وفى الإيجابى يستخدم مصطلح «الإصلاح»!..

و«المرضع» ـ فى القرآن ـ هى المرأة فى فترة الرضاعة.. أما «المرضعة» فهى المرأة فى حال الإرضاع!..

و«الجسم» ـ فى القرآن ـ يأتى للحى.. أما الميت فهو «جسد»!..

و«السَّنة» تأتى للشمسية.. بينما «العام» يأتى للقمرية!..

«والقَسَم» يأتى لمطلق اليمين. بينما «الحلف» هو للحنث فى اليمين!..

وهناك فارق بين «المجىء» وبين «الإتيان» ـ فى القرآن الكريم ـ فالمجىء يكون من مكان أو زمان قريب.. بينما الإتيان يستخدم فى حالة المكان أو الزمان البعيد!..

وكلمة «العباد» تغلب فى المؤمنين المطيعين، بينما كلمة «العبيد» تغلب فى الكفار العصاة!..

ولقد جاءت كلمة «السماء» ـ فى القرآن الكريم ـ مفردًا وجمعًا.. بينما جاءت الأرض مفردة فقط ودائمًا!.. وجاء «البصر» مفردًا وجمعًا، بينما جاء «السمع» مفردًا فقط..

وجاء «النَّهار» مفردًا، وإذا جمع استخدم لفظ «أيام» ـ لا نُهر!..

وجاء «الصراط» مفردًا، وإذا أريد الجمع استخدم لفظ «سُبُل»!..

وجاء «النور» مفردًا، لا جمعًا!..

وجاءت «الظلمات» جمعًا لا مفردًا!..

وكان التزام الجمع فى «الألباب» و«الأكواب» و«الأصفاد» و«الأباريق»، و«السرابيل»

و«الأساطير» و«الأرائك» و«العالمين»، ولم يرد أى منها مفردًا، ففارقت الصنعة فى القرآن الكريم كل صناعات الأساليب البشرية بما فى ذلك الحديث النبوى الشريف!

* فى القرآن الكريم من أوجه التناسب ما يعلو به على أى «هندسة» بشرية فى أى أسلوب من الإبداعات الإنسانية.. وعلى سبيل المثال، فالحروف المعروفة التى بدأت بها بعض السور القرآنية ـ مثل «ألم».. «وحم»..«وألر»... إلخ ـ قد اشتملت على نصف حروف الأبجدية العربية ـ أربعة عشر حرفًا ـ وفى هذه الحروف الأربعة عشر حرفان منقوطان هما (ق، ن) ـ واثنا عشر حرفًا غير منقوطة!.. وفى أحرف الأبجدية الأخرى الأربعة عشر حرفان غير منقوطين ـ هما (و، د) ـ والاثنا عشر الأخرى الباقية منقوطة!..

وفى هذه الحروف ـ التى بدأت بها بعض السور ـ نصف الحروف المهموسة فى الأبجدية العربية!.. ونصف الحروف المقلقلة!.. ونصف الحروف المهموزة!..

وفيها من مخارج الحروف النصف من حروف كل مخرج!!..

وإذا كان القرآن الكريم قد بدأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ـ فى سورة الفاتحة.. فإن كل أرباع القرآن الكريم الأربعة ـ قد بدأت ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾!.. فالربع الثانى يبدأ بالأنعام ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ـ والربع الثالث يبدأ بالكهف ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ـ والربع الرابع يبدأ بفاطر ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾..!!.

وفى هذه القطرة ـ من البحر ـ البرهان على أن هذه الهندسة المفارقة لكل ألوان هندسات الأساليب البشرية، هى إشارة إلى كنوز الإعجاز المودعة فى هذا القرآن الكريم ـ الذى لا تنتهى عجائبه ـ..

ولأن الصنعة لا يدرك قدرها ومستواها إلا «الصُّناع».. ولأن العلم لا يدرك أسراره إلا العلماء..رأينا شهادات أهل صناعة البلاغة لإعجاز هذا القرآن.. ولتفرده ولمفارقته طاقات البشر والمعتاد والميسور للناس.

* فأبو عبد شمس الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم [٩٥هـ

١هـ/ ٥٣٠- ٦٢٢م]- وهو من زعماء قريش وزنادقتها.. ومن قضاة العرب فى الجاهلية ـ والملقب «بالعدل» ـ لأنه كان عدل قريش كلها عندما سمع رسول الله ﷺ يتلو ـ وهو فى المسجد ـ سورة «غافر» ـ أدرك ـ رغم شركه ـ أنه أمام صنعة إعجاز مفارقة لقدرات البشر وعاداتهم وإمكاناتهم.. فقال: «والله لقد سمعت من محمد كلامًا آنفًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله ما هو بكاهن، فقد رأينا الكُهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، والله ما هو بمجنون، فقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخَنقه ولا تخالجه ولا وسوسته..والله ما هو بشاعر، فقد عرفنا الشعر كله، رَجَزَه وهَزَجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بشاعر. ووالله ما هو بساحر، فقد رأينا السُّحَّار وسحرهم، فما هو بنَفثه ولا عقده.. والله إن لقوله حلاوة، وإن عليه طلاوة، وأن أصله لمغدق، وإن فرعه لمثمر. وإنه يعلو لا يُعلَى عليه.. وما أنتم ـ يا معشر قريش ـ بقائلين ـ فيه من هذا شيئًا إلا وأنا أعرف أنه باطل»!![1].

لقد شهد الصانع الماهر ـ لأنه «عدل» ـ رغم شركه ـ بأن ما سمعه «ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن» أبدًا.. ومن ثم فلا بد أن يكون كلام رب الإنس والجن ـ سبحانه وتعالى رب العالمين..

* أما عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ـ أبو الوليد [٢هـ/ ٦٢٤م] وهو من سادة الشرك فى مكة، فلقد شهد هو الآخر ـ رغم شركه ـ بمفارقة القرآن الكريم لطاقات البشر وقدراتهم.. فقال: «لقد سمعت قولًا، والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة.. والله ليكونن لهذا الذى سمعت نبأ عظيم»!

هكذا وقف الخبراء وأساطين البلاغة والفصاحة، أمام هذا الإعجاز القرآنى، شاهدين بألوهيته.. حتى وإن منعتهم العصبية الجاهلية وتقليد الآباء من إعلان الإيمان برسالة هذا القرآن الكريم.

* * *

(١) الإمام محمد بن يوسف الصالحى (سبل الهدى والرشاد) جـ٢ ص ٤٧٢، ٤٧٣، تحقيق د. مصطفى عبد الواحد. طبعة القاهرة ١٩٩٧م.

فى سنة ١٩٢٦م كتب الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٧٣م] كتابه [فى الشعر الجاهلى] وكان الرجل فى ذلك التاريخ يمرُّ بمرحلة انبهاره بالنموذج الغربى.. فسطر فى هذا الكتاب ثمانية وعشرين سطرًا شكك فيها ببعض ما ورد فى القرآن الكريم ـ من رحلة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ إلى الحجاز، وإقامتهما قواعد البيت الحرام.. ثم حذف الرجل هذه السطور، وطور كتابه، وغير عنوانه ـ إلى [فى الأدب الجاهلى] ـ وتجاوز هذه المرحلة التى كان فيها منبهرًا بمناهج الشك الغربية ـ الشك العبثى لا المنهجى .. ووصل إلى الدعوة إلى وجوب أن ينص فى الدستور على ألا يصدر قانون يخالف القرآن الكريم!..

لكن طه حسين ـ حتى فى مرحلة جنوحه الفكرى وبسبب من أنه كان واحدًا من أبرز بلغاء العصر، الذين لم يلحنوا قط فى العربية.. ولأنه كان أحد أساطين الإدراك لأسرار التركيب القرآنى والبيان العربى.. تحدث عن القرآن الكريم باعتباره إعجازًا للبشر.. ومتميزًا عن صناعات البشر فى عالم الأساليب.. فكتب عن تفرد القرآن وعلوه على كل مستويات الإبداع البشرى، يقول: «لقد قلت فى بعض أحاديثى عن نشأة النثر عند العرب: إن القرآن ليس شعرًا ولا نثرًا، وإنما هو قرآن، له مذاهبه وأساليبه فى التعبير والتصوير والأداء.

فيه من قيود الموسيقى ما يخيل إلى أصحاب السذاجة أنه شعر، وفيه من قيود القافية ما يخيل إليهم أنه سجع، وفيه من الحرية والانطلاق والترسل ما يخيل إلى بعض أصحاب السذاجة الآخرين أنه نثر.

ومن أجل هذا خدع المشركون من قريش، فقالوا إنه شعر، وكذبوا فى ذلك كذبًا شديدًا، ومن أجل هذا خدع كذلك بعض المتتبعين لتاريخ النثر، فظنوا أنه أول النثر العربى، وتكذبهم الحقائق الواقعة تكذيبًا شديدًا فلو قد حاول بعض الكتاب الثائرين ـ وقد حاول بعضهم ذلك ـ أن يأتوا بمثله لما استطاعوا إلا أن يأتوا بما يضحك ويثير السخرية»[1]!..

نعم..كتب طه حسين ذلك.. وشهد بهذا منذ أربعينيات القرن العشرين.

(١) طه حسين (الفتنة الكبرى ـ عثمان) ص٣٢ طبعة القاهرة ١٩٨٤م.

وإذا كان نفر من أساطين الشرك فى الجاهلية، قد شهدوا للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون من كلام الإنس ولا من كلام الجن.. ومع ذلك منعتهم العصبية لما وجدوا عليه آباءهم من الإيمان بما جاء به القرآن، ومن التحول عن الجاهلية إلى الإسلام.. فإن الجاهلية التى نزل القرآن على أهلها قد شهدت ردود فعل أخرى.. لكنهم جميعًا قد وقفوا أمامه عاجزين عن الإتيان بشيء من مثله..

فالذين قالوا إنه سحر.. وإن الذى جاء به ساحر.. قد سلموا بأنه فوق ما يستطيعون!!.. وكذلك الذين قالوا إنه أساطير الأولين.. سلموا بأنهم لا يستطيعون محاكاته. لأنهم ليسوا هؤلاء الأولين!!.. ومثلهم الذين قالوا إنما يعلمه بشر أجنبى لا يستطيعون محاكاته والإتيان بمثله!!. جميعًا سلموا بعجزهم عن مجاراة القرآن الكريم، معلقين سبب العجز هذا على مختلف الأسباب!.. اللهمَّ إلا واحدًا من هؤلاء. دفعته العصبية القبلية ـ «ضيقة» ـ ضد مضر وقريش، إلى أن يحاول تقليد القرآن، فجاءت محاولته نموذجًا خالدًا من نماذج السخرية والهزل والإضحاك، وذلكم هو مسيلمة الكذاب [١٢هـ/ ٦٣٣م] الذى قال لأتباعه إن «رحمانا» ينزل عليه.. وإن له ـ هو الآخر ـ كتابًا، جاء فيه: «إنا أعطيناك الجواهر، فصل لربك وجاهر.. والفيل وما أدراك ما الفيل له خرطوم طويل.. ضفدع بين ضفدعين، نقى ما تنقين أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، والليل الأطخم، والذئب الأدلم، والجزع الأزلم، ما انتهكت أُسيد من محرم.. ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشى»!!..

ولقد ظلت عبارات مسيلمة الكذاب هذه تثير السخرية، على امتداد أربعة عشر قرنًا، حتى جاء أحفاده ليصنعوا شيئًا من ذلك ويضعوه على شبكة «الإنترنت» قائلين إنه قرآن جديد!!

* * *

* فى الموقف الغربى من القرآن تنوعت الاتجاهات التى تصدت للقرآن الكريم..

* فوجدنا تيار العداء الفج والصريح للقرآن الكريم.. ومن نماذج هذا التيار

«مارتن لوثر» [١٤٨٣- ١٥٤٦م] الذى قال عن القرآن الكريم: «أى كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن.. مليء بالأكاذيب والخرافات والفظائع.. وإن إزعاج محمَّد، والإضرار بالمسلمين، يجب أن تكون هى المقاصد من وراء ترجمة القرآن وتعرف المسيحيين عليه»!!..

فهو يخاف القرآن..ويسبه.. ويترجمه على النحو الذى يحقق هذا السباب!!. وفى هذا الاتجاه سار الشاعر الألمانى «جوته» [١٧٤٩- ١٨٣٢م].. الذى وصف القرآن الكريم بأنه «الكتاب الذى يكرر نفسه تكرارات لا تنتهى فتثير اشمئزازنا دائمًا كلما شرعنا فى قراءته»!!

ولعل فى جهل هذا الشاعر بالعربية ما جعله جاهلًا بأسرار الجمال والجلال المودعة فى القرآن.. والتى رآها أهل البلاغة العربية ـ حتى مع كفرهم ـ سحرًا يستحيل على المجاراة والمحاكاة والتقليد!..

وحتى الرجل، الذى جعل من رسول الله ﷺ إمام العظماء ـ «توماس كارليل» [١٧٩٥- ١٨٨١م] ـ نراه ـ لجهله بلغة القرآن وأسرار بلاغته والإبداع الإلهى فيه ـ يقول: «إن محمدًا شيء.. والقرآن شيء آخر.. فالقرآن هو خليط طويل وممل ومشوش.. جاف.. وغليظ.. باختصار، هو غباء لا يُحتمل»!!..

* وهناك «الحداثيون» ـ من الغربيين والمتغربيين ـ الذين أدركوا عبثية الهجوم الفج والصريح على القرآن الكريم.. وكيف أن هذا يزيد المسلمين استمساكًا به واعتصامًا بحبله.. فذهبوا مذهب التأويل العبثى، الذى يفرغ القرآن من حقائق محتواه، ويحوله إلى رموز لا حقيقة فيها.. وإلى تاريخ لا صلاحية له فى الحاضر والمستقبل..

ومن أحدث مخططات هذا المنهج فى التعامل مع النص القرآنى، التقرير الذى أعدته «مؤسسة راند» الأمريكية، التى تشير على صانع القرار الأمريكى سنة ٢٠٠٤م ـ والذى نشر تحت عنوان [خطة أمريكية لإعادة بناء الدين الإسلامى].

وفيه تقسيم لتيارات الفكر فى العالم الإسلامى إلى أربعة تيارات:

١- الأصوليون: الذى يرفضون قيم الثقافة الغربية المعاصرة.

٢- والتقليديون: الذين يريدون مجتمعًا محافظًا، وهم فى ريبة من الحداثة والتغيير.

٣- والعلمانيون: الذين يريدون أن يقبل العالم الإسلامى الفصل بين الدين والدولة.

٤- والحداثيون: الذين يريدون العالم الإسلامى جزءًا من الحداثة الغربية.. ويريدون تحديث الإسلام ليواكب العصر..

ثم تنصح هذه الخطة صاحب القرار الأمريكى بدعم الحداثيين، لأنهم الأكثر إخلاصًا فى تبنى قيم وروح المجتمع الغربى الحديث.. وهم ـ مع العلمانيين ـ الأقرب إلى الغرب فى ضوء القيم والسياسات.. ومن بين ميادين الدعم الأمريكى المقترح لهؤلاء الحداثيين ـ فيما يتعلق بالقرآن الكريم ـ «تشجيع تأويلهم للنص القرآنى الحرفى الذى نعتبره تاريخًا وأسطورة»!![1].

لقد سبق لرئيس الوزراء الإنجليزى «غلاد ستون» [١٨٠٩- ١٨٩٨م] أن قال: «إننا لا نستطيع هزيمة المسلمين طالما ظلوا متمسكين بهذا القرآن»!.

ولذلك، تعددت مظاهر العداء الغربى والمتغرب ـ للقرآن الكريم.. وتتراوح بين الهجوم الفج.. وبين ألوان التأويل التى تفرغ القرآن من حقائقه الخالدة.. وبين محاولاتهم التشكيك فى الحفظ الإلهى لهذا القرآن الكريم..

* * *

لأن مقاصد الهيمنة الاستعمارية الغربية هى نهب الشرق، والسيطرة على مقدراته.. ولأن الإسلام كان ولا يزال هو الدرع والطاقة المحركة للأمة الإسلامية للجهاد ضد هذه الهيمنة الغربية، كان عداء مؤسسات الهيمنة الغربية ـ السياسية والدينية والإعلامية ـ للإسلام ثابتًا من الثوابت على امتداد تاريخ هذه الهيمنة وهذا الاستعمار.. ولأن القرآن هو ديوان الإسلام وجماع رسالته، والضابط المحفوظ

(١) خطة أمريكية لتحديث الدين الإسلامى. ص (١٣، ١٤، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢٤، ٧١، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٩٣، ٢٤ ترجمة: د. محمد يحيى، طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٤م.

والحافظ للفكر الإسلامى والمجدد لحيويته وحياته، كان نصيب القرآن كبيرًا من هذا العداء!..

وفى العقود الأولى من القرن العشرين، عمت بلوى احتلال الغرب للأغلبية الساحقة من ديار الإسلام، وزاد تركيز الآلة الفكرية الغربية ضد رابطة الجامعة الإسلامية، كى لا تتوحد الأمة الإسلامية، فتنهض لتحرير ديارها.. ومن ثم تجددت وتصاعدت حملات الاستشراق الغربى ضد القرآن، لأنه مصدر الجامعة الإسلامية وإمام المسلمين فى المقاومة والجهاد..

ومن بين الحملات الاستشراقية التى شنت على القرآن الكريم ـ فى تلك الحقبة ـ تلك التى تولى قيادتها عدد من المستشرقين اليهود، الذين أرادوا التشكيك فى وحدة النص القرآنى، والزعم بأن المصحف الذى بين يدى المسلمين ـ مصحف عثمان ـ قد خالف فى بعض الحروف والآيات والسور المصاحف التى كانت بأيدى بعض الصحابة، قبل جمع عثمان الأمة على هذا المصحف الواحد.. لكن هذه المحاولة، التى استنفدت جهود وأعمار عدد من المستشرقين، قد انهارت على رؤوسهم، حتى لقد اعترفت دائرة المعارف الإسلامية ـ التى كتبها هؤلاء المستشرقون ـ بهذا الفشل والانهيار.. فتقول عن المصير الذى انتهت إليه جهود المستشرق اليهودى «برجشتراسر» ـ الذى تخصص وتبحر فى «القراءات الشاذة»!!.. ومن بعده المستشرق الأسترالى «جفرى آرثر».. انتهت ـ بعبارة دائرة المعارف ـ «إلى أنه فى الثلاثينيات من القرن العشرين كان المستشرقون قد جمعوا بالفعل هذه الاختلافات وحللوها، وانتهوا إلى أنه لا قيمة لها فانهارت الثقة فيها.. وهوت محاولة المستشرقين إصدار نسخة أخرى من القرآن غير نسخة عثمان، لقد ظهر أن هذه المحاولة عرجاء.. بل إن المستشرق «فيشر» [١٨٦٥- ١٩٤٩م] انتهى إلى أن معظم الاختلافات المنسوبة إلى مصاحف الصحابة وغيرها موضوعة مكذوبة.. ووصل إلى هذه الحقيقة ـ أيضًا ـ الباحث «بيرتون» ـ فى كتابه عن جمع القرآن ـ والباحث «ونسبرو» ـ فى كتابه دراسات قرآنية فقالوا: إن كل ـ وليس بعض ـ الاختلافات المنسوبة إلى مصاحف الصحابة وغيرها موضوعة.. والحقيقة هى

أن محمدًا كان قد جمع القرآن بالفعل أثناء حياته، وأن القرآن على عهده كان مصاغًا بشكله النهائى»[1].

وهكذا سقطت الجهود الهائلة التى استغرقت عقودًا متطاولة من أعمار المستشرقين اليهود، للطعن فى وحدة النص القرآنى، والادعاء بأن ما حدث للنصوص الدينية الأخرى لم يسلم منه القرآن.. انهارت هذه الجهود.. واعترف بانهيارها المستشرقون أنفسهم الذين كتبوا دائرة المعارف الإسلامية ـ فى المادة التى كتبوها عن «القرآن»..

وغير هذه الجهود الفاشلة التى أضاعت أعمار أصحابها، ثم انهارت مع هلاك هذه الأعمار.. كانت هناك حملة غربية أخرى حاول أصحابها ـ المستشرقون ـ إثبات أن القرآن ليس سوى هرطقات واستعارات من اليهودية والنصرانية.. لكن المستشرق الإنجليزى الحجة «منتجمرى وات» الذى بذل من عمره ثلث قرن فى دراسة الإسلام، وتوج هذه السنوات بكتابه [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] وقال فيه عن هذه الحملة: «لقد شهدت بدايات القرن العشرين صرعة (مودة) تقديم القرآن للقارئ الأوربى باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسيحية، بالإضافة لقليل من الزيادات المحددة، ومعنى هذا انتفاء الجدة والأصالة، والواقع أن هذه النظرة تعد بقية من بقايا الدعاية المسيحية التى سادت فترة الحروب الصليبية، عندما كان على أوربا الغربية.. التى كانت ترتعد فرائصها من جيوش الإسلام ـ أن تقوى دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام.. إن القرآن لم يكن مجرد ترديد لأفكار يهودية ومسيحية.. فلقد أكد الإسلام نفسه بالفعل كدين مستقل عن اليهودية والمسيحية.. وثمة ما يؤكد أن الإسلام كان بمثابة مستودع لدين إبراهيم فى حالة نقائه الأولى»..

وهكذا انتهت جهود هذه الحملة الاستشراقية ـ هى الأخرى ـ إلى السقوط والزوال!.

* * *

(١) [دائرة المعارف الإسلامية] جـ(٢٦) ص (٨١٧٩- ٨١٨٦)، طبعة القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب. سنة ١٩٩٨م.

فى مواجهة الهجمة الغربية على الإسلام، وبالذات على القرآن الكريم، تصدى المستشرق الحجة «منتجمرى وات» ـ الذى درس الإسلام على امتداد ثلث قرن، وأنجز دراساته العليا ـ الماجستير والدكتوراه ـ فى الفكر والفلسفة الإسلامية ـ تصدى لهذه الهجمات الظالمة ـ وخاصة فى كتاب [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ـ الذى كتبه سنة ١٩٦٩م.. فكتب عن القرآن الكريم،يقول:

«إن الوحى الإسلامى لا بد من تناوله بجدية.. إن القرآن صادر عن الله، وبالتالى فهو وحى، وليس كلام محمد بأى حال من الأحوال، ولا هو نتاج تفكيره، وإنما هو كلام الله وحده، قصد به مخاطبه محمد ومعاصريه، ومن هنا فإن محمدًا ليس أكثر من رسول اختاره الله لحمل هذه الرسالة إلى أهل مكة أولًا، ثم لكل العرب، ومن هنا فهو قرآن عربى مبين.

وهناك إشارات فى القرآن إلى أنه موجه للجنس البشرى قاطبة، وقد تأكد ذلك عمليًا بانتشار الإسلام فى العالم كله، وقَبلهُ بشر من كل الأجناس تقريبًا.. إن القرآن يحظى بقبول واسع بصرف النظر عن لغته، لأنه يتناول القضايا الإنسانية..

إننا نؤمن بصدق محمد وإخلاصه عندما يقول إن كلمات القرآن ليست نتيجة أى تفكير واع منه.. إن القرآن لا ينبغى النظر إليه باعتباره نتاج عبقرية بشرية. وإن التجربة النبوية مع الوحى يمكن إيجاز ملامحها الرئيسية فيما يلى:

١- محمد يشعر، وهو فى حالة وعى، أن هناك كلمات تُلقَى فى روعه، أو تحضر فى قلبه أو عقله الواعى.

٢- وأن هذه الكلمات والأفكار لم تكن أبدًا نتيجة أى تفكير واع من جانبه.

٣- أنه يعتقد أن هذه الكلمات التى أُلقيت فى روعه من قبل «مندوب» أو «مبعوث» خارجى يتحدث إليه كَمَلَك.

٤- أنه يعتقد أن هذه الرسالة قادمة من الله تعالى.

وعندما تحدى محمد أعداءه بأن يأتوا بسورة من مثل السور التى أُوحيت إليه، كان المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدى لأن السور التى تلاها محمد هى من

عند الله، وليس من شك فى أنه ليس من قبيل الصدفة أيضًا أن كلمة (آية) تعنى علامة على القدرة الإلهية وتعنى أيضًا فقرة من الوحى.

وعندما تمت كتابة هذا الوحى شكَّل النص القرآنى الذى بين أيدينا.. وفى الحديث عن جمع القرآن، نجد أن كلمة (جمع) قد استخدمت فى آيات قرآنية مهمة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦- ١٩]..

ومن الممكن أن يكون التفسير الطبيعى لهذه الآيات: أن محمدًا ما دام يتبع تلاوة من يتلو عليه (جبريل)، فإن الله تكفل بجمع الآيات المتفرقة، أو التى أُوحى بها فى أوقات مختلفة، ليجعلها فى سياق واحد.

وإذا لم يكن محمد هو الذى رتب القرآن بناء على وحى نزل عليه، فمن الصعب أن نتصور أن زيد بن ثابت [١١ق هـ - ٤٥هـ/ ٦١١- ٦٦٥م] أو أى مسلم آخر يقوم بهذا العمل. ومن هنا فإن كثيرًا من السور قد اتخذت شكلها الذى هى عليه منذ أيام محمد نفسه.

إن القرآن كان يُسَجَّل فور نزوله.. ولقد تبوأ القرآن دائمًا ـ فى حياة المجتمع الإسلامى مكان المركز، أو القطب، أو المحور، وصنع نسيج الحياة الإسلامية، والنظرة العقلية للعالم والكون»[1]..

تلك شهادة المستشرق الإنجليزى الحجة «مونتجمرى وات» للقرآن، باعتباره وحيًا إلهيًا مباشرًا.. وصادقًا إلى رسول الله ﷺ ولصدق هذا الوحى الإلهى.. وصدق الرسول الذى نزل عليه الوحى.. ولمكانة القرآن الكريم ـ دائمًا وأبدًا ـ فى المجتمعات الإسلامية.. فهو المركز.. والقطب.. والمحور.. وصانع نسيج الحياة الإسلامية وفلسفة النظرة الإسلامية للعالم والكون.. ولأنه كذلك،فلقد تعرض لتهجم الجهلاء.. ولكنه حظى بإنصاف العلماء!

(١) مونتجمرى وات [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ص (٨٣). ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ. طبعة القاهرة ـ مكتبة الأسرة ـ الهيئة العامة للكتاب سنة ٢٠٠١م.

للمرحوم الشيخ أمين الخولى [١٣١٣ - ١٣٨٥هـ/ ١٨٩٥ - ١٩٦٦م] ـ وهو شيخ الأمناء. الذى تتلمذ على يديه أجيال من كبار الأساتذة.. والذى يحظى بالاحترام والتقدير لدى كثير من العلمانيين ـ لأمين الخولى كتيب صغير [عن القرآن الكريم] ـ كتبه فى الأصل تعليقًا على مادة «القرآن» فى دائرة المعارف الإسلامية ـ التى كتبها المستشرقون ـ ولقد أعدت نشر هذا الكتيب،وقدمت له فى سلسلة «فى التنوير الإسلامى»..

ولأن بعضًا من أحفاد «مسيلمة الكذاب» ـ بل وبعضًا من الذين يتمسحون فى أمين الخولى يهرفون بما لا يعرفون حول القرآن الكريم، فإن من المفيد أن نضع أمام أعينهم ـ إن كانوا يبصرون ـ ما كتبه هذا الشيخ الجليل عن القرآن..

* لقد تحدث أمين الخولى عن مقاصد الترتيب للقرآن، وفلسفة هذا الترتيب، فقال: «إنه ترتيب متفرد، ينبغى أن يقدر ما فيه من القصد إلى أن يكون ـ أولًا، وقبل كل شىء ومع كل شىء ـ كتاب هداية نفسية خلقية اجتماعية، تتناسب مع عموم الدعوة الإسلامية، وتوجيهها إلى الإنسانية جمعاء، فى كل زمان ومكان. وتتناسب مع دوام الدعوة الإسلامية، واستمرارها إلى آخر الدهر،وعلى مدى الزمن، ما دامت على هذه الأرض حياة. كما تتناسب كذلك مع ختم هذه الدعوة لرسالات السماء إلى الأرض، واستطاعة الدنيا أن تكتفى بها، وتلتقى عندها.

فالقرآن يمس دائمًا الأصول الكبرى، والأسس العامة، والقواعد الكلية، فى إطار من الشعور الدينى المؤمن، والفضيلة الخلقية المصلحة لنفوس البشر، المهيئة لهم أن يكونوا ـ فى نشاطهم العملى وجهادهم الحيوى ـ أناسًا أخيارًا، أطهارًا، أبرارًا، غير متكالبين، ولا متناحرين، ولا متباغضين.

وإذا ما مس القرآن شيئًا من التفصيلات تطلّبها واقع الحياة فلتكون كذلك مُثلًا عامة، يرجع إليها الناس فيما أمرهم به من التبصر والاعتبار، بمثل قوله: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].. وبذلك يمضون ـ على تغيّر أحوالهم، وتطور شئونهم، واختلاف بيئاتهم، وتنوع مشكلاتهم ـ وهم دائمًا أولئك المراقبون لربهم، المحكّمون لضمائرهم، المقدرون لمسئولياتهم.. يدبرون من أمورهم المتجددة ما

تصلح به حياتهم.. فى ظل تلك الخشية من قلوب وجلة، ونفوس مطمئنة، لا تنسى نصيبها من الدنيا، وتذكر مع ذلك اليوم الآخر، والحساب المرتقب.

ومن هذا الترتيب الذى توزعت فى جميع أجزائه وآياته مواضع العبرة المهمة، نجد الهداية المرجوة، فى كل قطعة منه، وكل بيان، وكل قصة، وكل موعظة»[1].

* كذلك كتب الشيخ الجليل العلامة، عن تدوين القرآن ـ لحظة نزوله ـ وعن جمعه، فقال: «لقد كانت للرسول ﷺ عناية بنشر الكتابة فى مجتمعه.. وكان له كتبة وحى يكتبون بين يديه القرآن، ويكتبون رسائله، وقد بلغ عددهم بضعة وعشرين شخصًا. ورأى عليه السلام لبعضهم أن يتعلموا من اللغات غير لغتهم العربية.. وكذلك كُتب القرآن أولًا بأول، مع حفظ ما ينزل منه كذلك أولًا بأول.

إن القرآن، حينما تم نزوله مفرقًا، كان من يحفظه نفر من أصحاب الرسول، منهم من حفظه كله بأجمعه، ومنهم من حفظ ما تيسر منه. وكان قد كُتب الكتابة التى مكّنت منها الظروف.. وهذا ما يمكن أن نسميه الجمع الأول للقرآن، إذ اجتمع به فى صدور حفاظ أقوياء الحافظة.. واجتمع فى مكتوبات، وإن لم تأخذ صورة المصحف أو الكتاب كما نفهمها اليوم، لتفرق المواد التى كانت عليها الكتابة، واختلاف أنواعها»..

هكذا تحدث الشيخ أمين الخولى شيخ الأمناء.. وخريج الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى.. وأستاذ الجامعة.. وعضو مجمع اللغة العربية.. وأحد شيوخ التحقيق للتراث.. والمؤلف المتميز.. وأحد عقول العصر وبلغائه..

هكذا تحدث عن المقاصد الإلهية لترتيب آيات القرآن الكريم.. وعند التدوين والحفظ لهذا القرآن،على يدى رسول الله ﷺ وكيف أنجز الرسول وصحابته وعد الله سبحانه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾.

* * *

لقد نص المرحوم الشيخ أمين الخولى [١٣١٣- ١٣٨٥هـ/ ١٨٩٥- ١٩٦٦م]

(١) أمين الخولى [عن القرآن الكريم] ص (٦٩، ٧٠). تقديم: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة ـ نهضة مصر سنة ٢٠٠٠م.

فى حديثه عن القرآن الكريم، فعرض لعدد من القضايا.. ولعدد من الشبهات التى يثيرها خصوم هذا القرآن..

* عرض للحديث عن الجمع الذى قام به الصحابة ـ على عهد أبى بكر الصديق ـ والذى كان ـ فى الحقيقة ـ جمعًا للصحائف التى كتب فيها القرآن على عهد الرسولﷺ فقال شيخنا: «إن هذا الجمع الذى تم فى عهد أبى بكر كان الجمع الذى يحقق المعنى المادى للجمع والضم ـ [فكأنه جمع الملازم فى كتاب] ـ.. والحال التى تم فيها وبها هذا الجمع تهيئ من الاطمئنان إلى المجموع ما لا يكاد يتوافر مثله على مر التاريخ لما حفظت البشرية من نصوص وأصول..».

* وبعد هذا القطع ـ من هذا العالم المحقق ـ بأن القرآن قد حظى فى التدوين والجمع ـ بما لم يحظ به نص من النصوص على امتداد تاريخ البشرية قاطبة.. عرض لما يثار حول هذا التدوين والجمع للقرآن من شبهات.. فقال:

«أما الأخبار التى تلقى ظلالًا على هذه الحقائق، فإننا لا نشعر بحاجة إلى الوقوف عند شىء منها، لغير سبب واحد يقضى بالانصراف عن ذلك:

فهى أخبار آحاد لا يسهل فحص أسانيدها، وهى، مع ذلك، عرضة للتأثر بأهواء ذوى الهوى من أصحاب العصبية الدينية، والخصومة الاعتقادية فى كل حين روجها فى القديم من روجها من هؤلاء، ويثير الغبار بها أشباه لهم فى هذا العصر، من ذوى الأغراض السياسية والعقائدية المحترفين ذلك. وهى، مع كل، لا تمس القرآن من بعيد أو قريب لو تمثَّل الواقفون عندها الظروف والملابسات التى جُمع فيها القرآن هذا الجمع الثانى زمن أبى بكر، فحال الناس إذ ذاك، ومدى معرفتهم للقرآن، وحال من قام بهذا الجمع، وقدرته عليه، وقدر الرقابة العامة على ما يتم من عمل فى ذلك والطاقة الإنسانية الممكنة فى مثل هذا الجمع وما تهيأ منها للبشرية كل حين فى حفظ مثل تلك النصوص الدينية أو الدنيوية، وما يتصل بكل ذلك من معان واعتبارات كبرى- تعطى ضمانات لمثل هذا العمل يكون الوقوف بعدها عند مثل الأخبار المتناقلة عن طريقة الجمع، وأحواله، مما يبدو عبثًا لا طائل تحته..

وما أرى إلا أنّ تمثُّل حال المسلمين عند هذا الجمع سنة ١١هـ، وحال القرآن

فيهم، أولى للمعتقد والباحث جميعًا من الوقوف عند منثورات أخبار آحاد أكثرها معلقة لا سند لها، وهى خليقة باضطرابها أن تخفى الصورة الصحيحة المشرقة للحياة والناس، والظروف التى جُمع فيها القرآن جمع أبى بكر الثانى، بعد جمع الرسول الأول قبله..».

* وبعد تبديد هذه الشبهات ـ التى هى «عبث لا طائل تحته» ـ حقق الشيخ الخولى قضية جمع عثمان بن عفان الأمة على مصحف واحد، وقضية الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن، فقال: «إن الأحرف السبعة ليست هى القراءات السبع، وإنما هى لهجات مختلفة فى اللغة العربية، وُجدت فى القرآن جملة لا لأنها كانت سبع لهجات فى كل آية وكل موضع من القرآن، ولقد كانت ضرورة حيوية اقتضاها الواقع اللغوى للعربية. وهذه الضرورة قد ارتفعت الحاجة إليها حين تغير حال المجتمع الإسلامى، عندما انضبط الأمر، وتدربت الألسن، وكثر الناس والكُتَّاب. وعندما ارتفعت هذه الحاجة إلى الأحرف المختلفة جمع عثمان «المصحف الإمام».. فكان مصحفه حرفًا واحدًا. لقد غدا الناس ـ بعد جيل تغيرت فيه الحياة تغيرًا جوهريًا كبيرًا ـ لا ضرورة تقضى عليهم باستعمال حروفهم، لئلا يختلفون، فقد صاروا بحيث يستطيعون الاتفاق.. وهذا الذى صنعه عثمان، إذا ما سميناه جمعًا، فإنه لجدير بأن يسمى جمع المسلمين، لا جمع القرآن «فإن جمع القرآن قد كان فى عهد الرسول ﷺ بمعنى ضم أجزائه.. وفى عهد أبى بكر بما حفظ أصلًا رسميًا يكون مرجعًا، وعمل عثمان هو تهيئة هذا الأصل الرسمى للتداول العملى،على حال تلائم الدعوة الإسلامية التى امتدت وتمتد.. »[1].

هكذا تكلم أمين الخولى شيخ الأمناء ـ فهل يتأمل ما قال هؤلاء «المحترفون من ذوى الأغراض السياسية والاعتقادية الذين يتعلقون بالعبث الذى لا طائل تحته»؟! أم أن أمراض القلوب قد أعيت حكماء الأطباء؟!

* * *

لم يترك الزنادقة بابًا من أبواب الطعن فى القرآن الكريم والافتراء عليه إلا

(١) المرجع السابق ص ٣٦، ٦٠، ٦١.

واقتحموه!.. ومن هذه الأبواب ما جاء فى بعض كتب الإخباريين ـ أى الذين يلملمون الروايات ويثبتونها، دونما نقد أو مقارنة أو تصحيح ـ ما ورد فى بعض كتب هؤلاء الإخباريين من الشيعة، من روايات تقول إن لعلى بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ مصحفًا أكبر من هذا المصحف الذى بين يدى المسلمين اليوم.. وأن لفاطمة ـ بنت النبى ﷺ ـ هى الأخرى مصحفًا مخالفًا!!..

نعم.. لقد اقتحم الزنادقة هذه الأبواب.. وركزوا على أن أحد هؤلاء المؤلفين من الشيعة ـ الإخباريين ـ وهو «الميرزا حسين النورى» قد ألف كتابًا عنوانه [فصل الخطاب فى تحريف كتاب رب الأرباب]!!..

لكن الزنادقة لا يذكرون أن إخوتنا ـ من علماء الشيعة الإمامية ـ قد نقضوا وانتقدوا وفندوا كل الكتابات والروايات التى جاءت فى تراث هؤلاء الإخباريين من علمائهم.. وذلك عندما أصدروا كتابًا عنوانه [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] طبعته الدولة فى الجمهورية الإسلامية الإيرانية بطهران سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.. وقد قدم له الناشر ـ وهو الدولة ـ معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية فى منظمة الإعلام الإسلامى بمقدمة جاء فيها: «إنه ليس هناك مسلم واع موضوعى يؤمن بهذه الأكذوبة [أكذوبة التحريف] أو يرتب أثرًا عليها، وهذا ما يبدو لنا من استقراء أقوال العلماء واستدلالاتهم القوية على رد هذه الشبهة. وهذا الكتاب يعد محاولة جيدة لتأكيد هذه الحقيقة، بالإضافة إلى أنه يدفع الكثير من الشبهات التى حاولت إلصاق القول بالتحريف للقرآن بمذهب أهل البيت، وهو بريء من هذه التهمة تمامًا، نعم يوجد فى التاريخ أناس غرتهم الظواهر وابتلوا ببعض الاستدلالات غير المنطقية فراحوا يشككون فى المسألة، إلا أن ضعف استدلالهم ومخالفتهم للضرورة الإسلامية القائمة طوت أفكارهم فلم يعد لها أى ذكر، وبقى النص القرآن ناصعًا قويًا قطعى السند، خالدًا معبرًا عن خلود الإسلام العظيم».

وبعد هذا التقديم لهذا الكتاب.. عرضت فصول الكتاب ـ الذى ألفه «الشيخ جعفريان» ـ لما ذكره «الميرزا حسين النورى» فى كتابه [فصل الخطاب فى تحريف كتاب رب الأرباب].. فرأينا شهادة تلميذ النورى «الشيخ آقابزرك الطهرانى» على تراجع أستاذه «النورى» عن هذه الدعوى.. وقوله «حسبما شاهدنا وسمعنا من لسانه،

فإنه كان يقول: أخطأت فى تسمية الكتاب، وكان الأجدر أن يسمى بـ[فصل فى عدم تحريف الكتاب] لأنى أثبت فيه أن كتاب الإسلام ـ القرآن الشريف ـ الموجود بين الدفتين، المنتشر فى أقطار العالم، وحى إلهى، بجميع سوره وآياته وجمله، لم يطرأ عليه تغيير أو تبديل ولا زيادة ولا نقصان من لدن جمعه حتى اليوم، ولقد وصل إلينا المجموع الأول بالتواتر القطعى».

وأضاف الطهرانى ـ فى شهادته على أستاذه: «هذا ما سمعناه من قول شيخنا نفسه. أما عمله، فقد رأيناه وهو لا يقيم لما ورد فى مضامين الأخبار وزنًا، بل يراها آحادًا لا تثبت بها القرآنية، بل يضرب بخصوصيتها عرض الجدار»

هكذا انهارت أهم حجة من حجج الزنادقة على حدوث التحريف فى نص القرآن الكريم.

ولقد عرض هذا الكتاب ـ أيضًا ـ فى معرض النقد والنقض للروايات التى جاءت فى كتب الإخبار بين الشيعة عن تحريف القرآن ـ لما جاء فى كتاب [الكافى] للكلينى ـ وهو من أهم مراجع الشيعة فى الأحاديث ـ فقال: «إن الشيعة لا يعتقدون بصحة جميع مروياتهم، ولذا ذكروا أسانيد الأحاديث لكى ينظر المدقق ويتحقق من صحة الحديث أو ضعفه، وهذا ينسحب على كتاب الكافى وغيره من كتب الشيعة.. ونحن لا نقول بصحة كل الروايات التى نقلها الكلينى.. ففيه الضعيف والمرسل وما لا يوافق القرآن.. فليس الكافى كالبخارى ومسلم عند أهل السنة.. وإن أحاديث الكافى التى بلغت ١٦١٩٩ حديثًا ـ الصحيح منها ٥٠٧٢ حديثًا ـ أى أقل من الثلث.. والحسن ١٤٤ حديثًا، والموثق ١١٢٨ حديثًا، والقوى ٣٠٢ حديث، والضعيف ٩٤٨٠ حديثًا» أى ثلثا أحاديث هذا الكتاب ـ الذى وردت فيه روايات عن تحريف القرآن الكريم..

وهكذا انهار العمود الثانى من الأعمدة التى اعتمد عليها الزنادقة فى التشكيك بحفظ القرآن الكريم عن التحريف.

* * *

فى كتاب [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنُّة] الذى ألفه الشيخ رسول جعفريان ـ وطبعته الحكومة الإيرانية ـ بطهران سنة ١٤٠٦هـ/ سنة ١٩٨٥م..

والذى جاء فيه النقض والتفنيد للروايات التى جاءت بكتب التراث الشيعى، والتى زعم أصحابها ورود تحريف بالنص القرآنى.. فى الكتاب.. الذى نقدم بين يديه:

١- تفنيد لوجود ما سمى بمصحف على كرم الله وجهه ـ وأنه قد جمع هذا المصحف فى ثلاثة أيام.. «فالقرآن كان قد كتب فى عهد النبى ﷺ» وما جمعه على فى ثلاثة أيام هو جمع صحفه المكتوبة «وإلا فلا يمكن أن نقول إنه قد كتب القرآن فى ثلاثة أيام».

٢- وفى هذا الكتاب نص على أن الإمام على كرم الله وجهه ـ قد أيد جمع عثمان ابن عفان الأمة على هذا المصحف الموحد وقال: «لو وليت لفعلت مثل الذى فعل».. وأنه قد أحرق مصحفه، معلنًا اجتماع الأمة على المصحف الإمام ـ مصحف عثمان.

٣- أما ما يسمى بـ [مصحف فاطمة] فإن هذا الكتاب ينفى أن يكون مصحفًا أو قرآنًا.. وربما كان كتابًا فيه بعض ما تعلمته فاطمة من أبيها ﷺ.. ونص ما جاء عن هذا «المصحف» ـ الذى لا وجود له!! ـ هو: «لقد ورد فى روايات كثيرة ذكر مصحف فاطمة، وصرح فى بعضها أن فى هذا المصحف، علم ما يكون، وليس فيه ذكر حلال ولا حرام. كما صرحت روايات أخرى بأن فيه وصية فاطمة الزهراء عليها السلام وعلى هذا يمكن أن تكون فيه بعض المعارف التى تعلمتها من أبيها طيلة حياتها. وتصرح بعض الروايات أيضًا بأن مصحف فاطمة ليس فيه قرآن، ولم يكن مصحفًا قرآنيًا»!!.. فهو ـ إذن ـ كتاب، لا علاقة له بالقرآن من قريب أو بعيد.. بل ولا علاقة له بالحلال والحرام!..

٤- وفى هذا الكتاب شهادات علماء الشيعة، التى تنفى وقوع أى تحريف فى القرآن الكريم، والتى تؤكد على الحفظ الإلهى لهذا القرآن..

* فالعلامة الطباطبائى يقول «إنه ذكر حى خالد مصون من أن يموت وينسى من أصله، مصون من الزيادة عليه بما يبطل كونه ذكرًا، مصون من النقص كذلك، مصون من التغيير فى صورته وسياقه بحيث تتغير به صفة كونه ذكرًا لله مبينًا لحقائق معارفه،

فالآية ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ تدل على كون كتاب الله محفوظًا من التحريف بجميع أقسامه.. فالقرآن محفوظ بعد إنزاله إلى الأبد»..

* والسيد الخوئى، يقول فى تفسير نفس الآية: «إنها تدل على حفظ القرآن من التحريف، وأن الأيدى الجائرة لن تتمكن من التلاعب فيه»..

* والفيض الكاشانى يقول﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من التحريف والتغيير والزيادة والنقصان».

* والشيخ أبو على الطبرسى، يقول فى تفسير نفس هذه الآية:﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ عن الزيادة والنقصان والتحريف والتغيير.

وعن الحسن: معناه: نتكفل بحفظه إلى آخر الدهر على ما هو عليه فتنقله الأمة وتحفظه عصرًا بعد عصر إلى يوم القيامة، لقيام الحجة به على الجماعة من كل من لزمته دعوة النبى ﷺ».

* والسيد المرتضى على بن الحسين الموسوى العلوى المتوفى سنة ٤٣٦هـ يقول: «إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار، والوقائع العظام، والكتب المشهورة، وأشعار العرب المسطورة، فإن العناية اشتدت، والدواعى توفرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حد لم يبلغه فيما ذكرناه. لقد كان القرآن على عهد رسول الله ﷺ مجموعًا مؤلفًا على ما هو عليه فى ذلك الزمان، حتى عين النبى على جماعة من الصحابة حفظهم له، وكان يعرض على النبى عدة ختمات، وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموعًا مرتبًا غير مبتور ولا مبثوث.. ومن خالف فى ذلك لا يعتد بخلافه، لأن المخالفين نقلوا أخبارًا ضعيفة ظنوا صحتها، ولا يرجع بمثلها على المعلوم المقطوع على صحته».

وهكذا توالت ـ فى هذا الكتاب ـ شهادات أعلام الشيعة ومجتهديهم، التى تغلق الأبواب فى وجه الزنادقة الذين يشككون فى القرآن الكريم.

* * *

هكذا رأينا كيف كان القرآن الكريم الإعجاز الإلهى، الذى تحدى البشر ـ ولا يزال يتحداهم ـ أن يأتوا بشيء من مثله.

وكيف وقف كل أساطين البلاغة والبيان والإبداع أمام هذا النص القرآنى المعجز، فخشعت ملكات الإبداع لديهم أمام هذا الوحى الإلهى، الذى لا طاقة لبشر أن يأتى له بمثال..

لقد استوى فى ذلك جميع الخبراء.. والبلغاء..والمبدعين.. حتى الذين منعتهم العصبيات الدنيوية من الإيمان برسالة القرآن الكريم ـ فى التوحيد.. والنبوة.. والشريعة.. ومنظومة القيم والأخلاق.. واليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء.. قد أقسموا: «والله ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن.. وأنه يعلو ولا يُعَلَى عليه»..

لقد استعلى القرآن الكريم ـ ولا يزال ـ على تمرد المتمردين.. وعلى مقاصد المعادين من المستشرقين.. وعلى الذين أعماهم التعصب من أهل الفرق الذين ذهبوا يلفقون الروايات الكاذبة لتأييد التعصب والغلو والانحراف..

وكذلك استعلى القرآن الكريم على الزنادقة، الذين أرادوا ستر عجزهم الفاضح أمام الإعجاز القرآنى بلملمة حتى الروايات التى عدل عنها رواتها، والآراء التى انتقدها أصحابها.. ولقد تكشفت عورات هؤلاء الزنادقة عندما رأيناهم يذهبون فيتبنون روايات الآحاد الواهية والساقطة والمجروحة ـ بل والموضوعة ـ ليعارضوا بها النص المعجز..والمتواتر.. وقطعى الثبوت!..

ثم يتحدثون ـ مع ذلك كله ـ عن العلم.. والمنهج العلمى الذى يزعمون!!..

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣- ٢٤].

إنه الإعجاز الخاتم.. والتحدى الخالد.. وحجة الله البالغة على الناس إلى يوم الدين.. إنه القرآن الكريم ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

* * *

والآن.. وبعد هذا التقديم.. ندع القارئ مع صفحات هذا الكتاب الذى ألفه

العالم الشيعى الإيرانى: الشيخ رسول جعفريان.. والذى نشرت طبعته الأولى دولة الجمهورية الإسلامية الإيرانية ـ معاونيه العلاقات الدولية فى منظمة الإعلام الإسلامى طهران سنة ١٤٠٦هـ/ سنة ١٩٨٥م[١].

* * *

(١) انظره بكتاب [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] لرسول جعفريان. طبعة مكتبة النافذة القاهرة سنة ٢٠٠٦م.